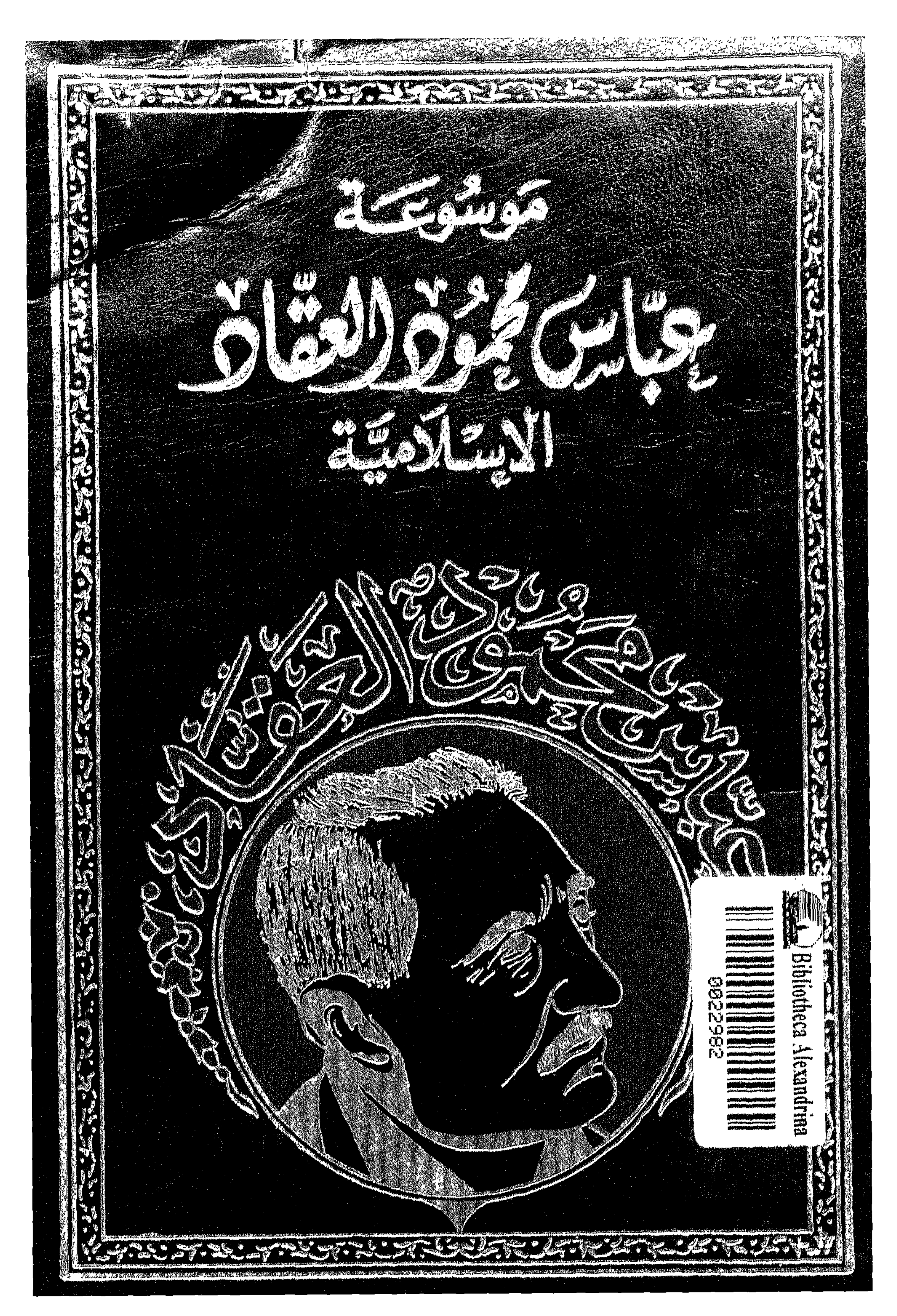


موسوعة
عباس محمود العقاد
الإسلامية











الشيوعية والإنسانية
في شريعة الإسلام



الشيوعية والإنسانية

في شريعة الإسلام

تأليف
عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



مقدمة

تصدر الطبعة الثانية من هذا الكتاب بعد صدور طبعته الاولى بنحو ست سنوات

وليست السنوات الست بالمدة القصيرة بحساب الحوادث العالمية والتجارب الكبرى فى تاريخنا الحديث ، وان تكن قصيرة بحساب السنين ، أو بحساب الزمن الذى انقضى بعد اعلان الفلسفة المادية التاريخية فى منتصف القرن التاسع عشر

بل ربما كانت السنوات الست فى تاريخ الانسانية الحديث أحفل بنتائج التجربة العملية من السنين التى نيفت على المائة منذ اعلان الفلسفة المادية ، لأن تجربة السنوات الست الاخيرة أتت بعد نضج العهد الصناعى الاكبر الذى جعله أئمة المذهب الماركسى أساسا لمبادىء مذهبهم ودعامة للنبوءات المحتومة التى تترتب عليه ، ولأن الحوادث التى ارتبطت بتجربة المذهب المادى التاريخى فى الزمن الاخير كانت على نطاقها العالمى الواسع أوفر عددا وأكثر تنويعا وأصح دلالة من جميع التجارب الصغيرة التى مرت بالمذهب من منتصف القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين

وعندنا اليوم من دلائل الاتجاه الى مصير المذهب فى المستقبل تجارب القرن الماضى وتجارب السنوات الاخيرة ،

وكلتاهما قاطعة فى الدلالة على ابتعاد العالم فى اتجاهه المستمر عن مبادىء المذهب المادى للتاريخ ، ولكن المرحلة الاخيرة ــ مرحلة السنوات القلائل منذ منتصف القرن العشرين ــ تشير الى مسافة أوسع كثيرا فى الاتجاه البعيد عن المذهب ، سواء نظرنا الى تطبيقاته المتعددة أو نظرنا الى نبوءاته التى هى أهم من التطبيقات فى امتحان الاسس والدعائم التى قام عليها ..

فالثابت اليوم أن المذهب الماركسى يحتاج الى تعديل كبير فى مبادئه الاساسية قبل وضعه فى مواضع التنفيذ ، وانه ــ مع التعديل الكثير قبل الشروع فيه ــ لا يزال محتاجا الى التعديل بعد التعديل أثناء تطبيقه ، ولا يزال كل تعديل من هذه التعديلات الكثيرة يبتعد به مسافة بعد مسافة فى الطريق المخالف لطريقه ، فلم يبق من الماركسية بعد هذه التعديلات غير أنواع من الاشتراكية الديموقراطية تناقض الماركسية فى جوهرها ، لأن الاشتراكية الديموقراطية بأنواعها جميعا تقوم على تضامن الأمة بحذافيرها ، ولا تقوم على انفراد الطبقة التى يسميها الماركسيون « بالبرولتارية » ولا يشركون معها طبقة أخرى

أما النبوءات المحتومة فقد كذبت جميعا ، وظهر على الدوام أن نتائج السنين بعد السنين تذهب فيها من النقيض الى النقيض

فمن نبوءات الماركسية المحتومة أن البلاد التى تسودها الصناعة الكبرى هى أصلح البلاد لسيادة الماركسية فيها ، فاذا بالنتيجة الواقعة فى كل مكان أن الماركسية أفشل ما تكون فى تلك البلاد ، وأن هذه الماركسية تسود بمقدار خلو البلاد من الصناعة الكبرى ، لا بمقدار غلبة الصناعة الكبرى عليها ، ثم تتغير بها التجربة العملية لا محالة بعد

بضع سنوات ، فتتقدم الى الاشتراكية الديمقراطية وتبتعد عن الشيوعية الماركسية بانتظام واطراد

ومن نبوءات الماركسية المحتومة أن الثروة تنحصر شيئا فشيئا حتى تجتمع كلها فى أيدى قليل من أصحاب رءوس الاموال ، وتتجرد الامم فيما عدا هذه الطائفة القليلة من كل شيء غير القيود والاغلال

فاذا بالواقع المطرد أن رءوس الاموال تتوزع بين حملة الاسهم من أصحاب الموارد الصغيرة أوالمتوسطة أوالكبيرة بالمئات والالوف ، وأن السلطان فى تدبير الاموال يتوزع كذلك بين أصحاب رءوس الاموال وبين خبراء الصناعة وخبراء الادارة وخبراء التسويق والترويج والاعلان ، فلا انحصار على أطراد ، بل توزيع وتنويع فى الكفاية والصنعة على اطراد

ومن نبوءات الماركسية المحتومة أن العامل المنفرد ينعدم بعد استقرار الصناعة الكبرى فلا يتسع له مجال الرزق ولا مجال الحياة ، فاذا بالعمال المنفردين يزدادون الى جوار كل أداة صناعية من الادوات الضخام ، واذا بالعمال المنفردين يصبحون طوائف وانواعا فى كل حرفة من الحرف ، بحسب الاختلاف والتنويع فى المكنات والادوات ، واختلافهم وهم مجتمعون فى داخل المصنع كاختلافهم وهم منفردون متفرقون للاشتغال بصناعاتهم فى البيوت والاسواق

***

وقد صار بطلان هذه النبوءات أقوى الدلائل على بطلان الاسس التى قامت عليها ، وهى تلك الاسس التى أفرط دعاة المذهب فى وصفها بصفات التحقيق العلمى ، وهى أبعد ما تكون من التحقيق

ولو كانت النبوءات مما يبدو قبل مضى الزمن المقدور لها لسقطت الصفة العلمية عن هذا المذهب ولم ير فيه احد من المحققين محلا للدراسة الجدية والمناقشة المنطقية ولكن العلماء اعطوا هذا المذهب المتداعى فوق حقه من العناية لأنهم قد اضطروا الى انتظار النتيجة من تحقيقاته العملية بعد حين ، ولأنهم من جهة أخرى قد تناولوه بالبحث العلمي عند ظهوره مجاراة لنزعة العصر فى القرن التاسع عشر ، وقدكان كل شيء فيه أهلا للدراسةالعلمية، بعد أن حل العلماء محل الكهان فى « تطويب » الآراء والدعوات

على انهم قد اسرفوا فى العناية الجدية بهذا المذهبوهو يحمل أدلة البطلان على وجهه بغير حاجة الى التعمقالكثير وراء العناوين

فان الدعوى المجردة من السند هى صبغة هذاالمذهب التى لا تخفى على ناظر اليه من النظرة الاولى : لانهيطالب التسليم بالدعوى من التعريف ، ثم يجعل التعريف حلا للقضية قبل ثبوته ، وقبل ثبوت القضية من باب أولى

فهو يقرر ــ مثلا ــ أن الانسان حيوان منتج ويعتبر هذا التعريف حقيقة مفروغا منها ، ثم يثبت باستناده اليه أن الانتاج هو قوام كل شيء فى المجتمعات الانسانية

ولكن المسألة كلها لا تبتدىء بالانتاج ، بل لابد قبلها من صفات أخرى فى الانسان قبل الوصول الى هذه الصفة ، وتلك هى (أولا) امتيازه بمطالب أخرى غير مطالب الحيوان ، وهى (ثانيا) قدرته على تدبير هذه المطالب بالانتاج ، وهى (ثالثا) انتاجه لما ارادة حسب مطالبه وكفاياته ، ثم يأتى الانتاج بعد ذلك كله محكوما بمقدماته وليس هو الحاكم لها على الجملة أو على التفصيل

والماركسيون يقررون أن المادة مبنية على التنـاقض ، ويعتبرون تعريفها بذلك حلا لقضية التناقض وهو المشكلة التى تحتاج الى الحل ، وليس هو التعريف والحل فى آن

ويقررون أن الطبقة هى الجماعة من الناس التى تخالف مصالحها مصالح سائر الطبقات ، ثم يجعلون تنازع الطبقات سببا لأطوار التاريخ ويطلبون التسليم بهذا التطور بعد اشتراط النزاع من الكلمة الاولى فى التعريف

ولقد ضلوا السبيل عن أقرب الطبقات الى الطبقـــة البرجوازية وهى طبقة الاقطاعيين واسمها باللغات الاجنبية معناه طبقة المتنازعين Feudal .. فكيف يصبح الاقطاعى الذى يحارب الاقطاعى مثله حرب المستميت عضـــوا فى طبقة واحدة ؟ وكيف يصبح التابعون للاقطاعى أعداء له وهم يحاربون فى صفه من كان تابعا للاقطاعيين الآخرين ؟

وهكذا يقوم المذهب كله على تعريفات سابقة لكل بحث وكل تحقيق ، وما كان لأمثال هـذه الدعاوى من حق فى المناقشـــة الجدية ــ باســم العلم لولا نزعة العصر كله أيام المناداة بها ، ولولا أن النبوءات البـاطلة التى قامت على تلك الدعاوى كانت لا تزال فى انتظار التجربة الواقعية، التى لا ننتظرها نحن ابناء العصر الحـاضر ، لاننا نلمس أنقاضها باليدين

وكل ما بقى اليوم من الماركسية فهو هــذه المذاهب الاشتراكية « للديموقراطية » التى قامت فى ارجاء العـالم على غير أساس من دعاوى الماركسيين ، وقد تعاد طبعة هذا الكتاب مرة أخرى وهو من قبيل الـكلام التاريخى المحفوظ بغير حاجة من وقائع الزمن الى برهان عليـه ، لان الواقع الملموس باليدين سوف يغنى عن ذلك البرهان

عباس محمود العقاد

تمهيد

قبل منتصف القرن الماضي نشر « كارل ماركس » مذهبه الفلسفي الذي سماه بالتفسير المادي للتاريخ ، وبنى عليه مذهبه الاقتصادي الذي سماه « الاشتراكية العلمية » تمييزاً له من المذاهب الاشتراكية السابقة .. وهي عنده اشتراكيات أحلام أو اشتراكيات « طوبى » لا تقوم على غير الأمل والخيال .

ولم تكن هذه « الاشتراكية العلمية » أقل نبوءات من المذاهب التي كان ينعى عليها أنها تجافي العلم وتتنكب طريق الواقع ، لأن الاشتراكية العلمية التي آمن بها « كارل ماركس » قد تطوحت في نبوءات لا تنتهي الى آخر الزمان ، وادعت لنفسها أنها تفسر أسرار الكون وأسرار المادة في جميع ظواهرها ، وأنها ترسم للتاريخ المقبل خطاه التي لا يحيد عنها ولا يزال مطرداً عليها الى غير نهاية ، وهي نهاية أبعد في مجاهل الغيب من النهايات التي قدرتها الأديان الغابرة ببضعة آلاف من السنين ، لأنها توغل في الآباد المقبلة الى ملايين السنين ، وتدعي باسم العلم — لا باسم الخرافة — أن الغيب المجهول لن يأتي بشيء في حياة الانسان غير الذي رسمه « كارل ماركس » وفرغ منه قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وقبل أن يتقدم العلم نفسه وراء خطواته الأولى في العصر الحديث

ولم تكن المسألة عند « كارل ماركس » مسألة تقديرات نظرية لايترتب عليها شيء من العواقب غير تبديل نظرية بأخرى أو تنقيحها برأى يخالفها ، ولكنها كانت مسألة أرواح ودماء وشعوب وأنظمة واجتراء على الماضى كله بالهدم والانتقاض ايمـــانا بتلك النظرية التى لا تقبـــل الشك ولايستكثر على تحقيقها اهدار الدماء كالانهار ولا تقويض المعالم الباقية كأنها من جهود عدو للانسان وليست من جهود الانسان فى جميع الازمان

وكان ينبغى للايمـــان بتلك النظرية أن تقوم على أسس واضحة مقررة ثبتت فى عقل صاحبها وفى سائر العقــول ثبوتا لا شبهة عليه ولا مثنوية فيه . ولكنها فى الواقع لم تثبت فى ذهنه بتفصيلاتها ولم يفرغ من دراستها فى حينها، وأرجأ التوسع فى شرحها الى الجزء الاخير من كتابه ، ثم مات قبل أن يفرغ من ذلك الكتاب

وعد « كارل ماركس » باشباع القول فى مسألة الطبقات ومسألة القيمة « الفائضة » من كسب العمــل ومســألة التطور بين عصر الانتقال وعصر المجتمع ذى الطبقة الواحدة، وكل هذه المسائل من صميم القواعد التى يقوم عليهـــا مذهبه العلمى كما يسميه ، ولكنه مات ولما يبين للنـــاس حقيقة الطبقة الاجتماعية ، ولا معنى القيمة الفــائضة ، ولا نظام الحكم بعد انتقاله الى أيدى الطبقة العاملة ، ولا الوسيلة التى يتم بها هذا الانتقال

وعلى ضخامة الدعوى التى يدعيها « كارل مــاركس » فى نبوءاته الابدية ، تكشفت الحقائق فى حياته فاذا هى تنقض تلك النبوءات وتدل على نقيض البقية الباقية منها، فلم يلتفت « كارل ماركس » الى هذه النقائض البينة ، أو التفت اليها ليقذفها ببعض اللعنــات ــ غير العلمية ــ

التى تعود أن يقذف بها كل ما يخالف تقديره وكل من يخالفه ، ومنها الرجعية والعامية والعقلية السطحية وخدمة رأس المال وخداع السواد والتعلق بالاوهام ، واشباه هذه المثالب والوصمات

***

ولم تمض سنوات على وفاته حتى تعاظمت هذه النقائض على اتباعه ، ووجدوا أنفسهم أمام تلك الضرورة التى تركها « كارل ماركس » فى أوائلها واستطاع أن يتجاهلها ويروغ من طريقها لأنها لم تتعاظم فى زمنه حتى تأخذ عليه جميع المنافذ والفجاج ، فتذرع اتباعه بكل ذريعة غير الذرائع العلمية فى تمحيص نبوءاته وتقديراته .. وضعوا فى أذهانهم ان «كارل ماركس» ينبغى ان يكون على صواب بأى حال ، وانه اذا تعذر اثبات صوابه بالمعنى الظاهر وجب التماس المعنى الذى يجعله مصيبا على وجه من الوجوه ، وأنه اذا تعذر الفهم الصريح والتأويل الخفى معا وجب ان يبقى «منقحا» ولو زال كل اثر من آثار الفكرة ولم يبق منها الا التنقيح المزعوم ، وخيل الى الناس أنهم أمام طائفة من الدراويش يتبركون بخرقة من دثار ضريح مهجور ، ويعنيهم ان يحتفظوا بخيط من تلك الخرقة كيفما كان ، ولا يعنيهم أن يكون الدثار صالحا للكساء

وطال الترقيع والتلفيق على أولئك الاتباع فاضطروا الى مواجهة الحقيقة كما استطاعوا أن يواجهوها

ظهر لهم أخيرا أن « كارل ماركس » غير معصوم ، وقالوها كأنهم يستجمعون شجاعتهم للاجتراء على هذا التجديف المخيف ، بل قالوها وهم يشتمون المنقحين (١) لانهم حرفوا

(١) Revisionists

مبادىء « كارل ماركس » ولجأوا الى التحريف ليحيدوا عن طريقه الذى رسمه أمام التاريخ الى نهاية الزمان

كان ينبغى أن يصمدوا على ذلك الطريق ٠٠

كان ينبغى ان يبقى ذلك الطريق مفتوحا دون غيره الى نهايته القصــوى ، وأن يبقى « كارل ماركس » مقدســا متبوعا مرجوعا اليه فى مآزق الفتنة والضلالة ، وكل ما يجوز للاتباع أن يفهموا أنه غير معصوم فى الدلالة على ذلك الطريق الابدى الذى لا طريق سواه ٠٠ فمن الجائز عليه أن ينأى عن الجادة وينحرف الى التيه ، وليس من الجائز لاتباعه أن يتخذوا من انحرافه دليلا على انحراف الطريق

***

وقبل أربعين سنة أتيح لبعض أتباعه أن يقبضوا على زمام الثورة الروســية بعد انهيار دولة آل رومانوف ٠ فجاءتهم هذه الثورة والمذهب الماركسى يتداعى ويتناقض بنبوءاته وتقديراته وتخريجات منقحيه ومنقحى منقحيه ، وأمامهم فى مفترق الطرق مسلك من مسلكين: اما أن يهملوا المذهب فيهملوا الحق الذى يبنون عليه قيادة الثورة وتأسيس الحكومة الجديدة ، واما أن يتشبثوا به لتطبيقه أو تجربة تطبيقه ، ما استطاعوا التجربة والتطبيق ، مع الاسترسال عند كل خطوة فى التنقيح وتنقيح التنقيح ، والاعتراف تارة بالقداسة وتارة بالعصمة حول دثار الضريح

وتهيأ للتجربة الماركسية فى بلاد القياصرة ما لم يتهيأ قط لمذهب من المذاهب الاجتماعية ، واستباح المجربون والمطبقون والمنقحون جميعا ما لم يستبحه أشد المتهوسين تعصبا لدين من الاديان فى سبيل نشر الدين والخلاص من الكافرين به أو المارقين عليه ، ولم يحصر التاريخ من

ضحايا الاديان منذ أيام الجهالة الى العصر الحاضر عشر معشار الضحايا الذين ضاعوا بالملايين قتلا ونفيا وتعذيبا فى سبيل النبوءات الماركسية ، ولم تثبت بعد ذلك كله نبوءة من تلك النبوءات بل ثبت بما لا يقبل الشك أنها مستحيلة على التطبيق

ولا حاجة الى دقائق المذهب البعيدة للحكم على نبوءات « كارل ماركس » الابدية ، ولا حاجة بالبداهة الى الابد كله ولا الى بعضه ـ ان كان للابد بعض مقسوم ـ للعلم بفساد هذه النبوءات واستحالتها على التطبيق .. فان الخطوط العريضة من نبوءات المذهب البارزة تكفى لبيان مصيرها بعد البحث الامين والتجربة العملية ، فان قرنا واحدا كانت فيه الكفاية وفوق الكفاية لاثبات التناقض بين وجهة التاريخ ووجهة « كارل ماركس » فى نبوءاته الابدية ، لان بحوث القرن وتجاربه دلت على هذا التناقض الواضح والجأت الماركسيين انفسهم الى التحمل الشديد فى تخريج مقاصد امامهم ، أو الى الاعتراف الصريح بخطئه وحاجته الى التنقيح والتصحيح

ان حرب الطبقات من دعائم المذهب الماركسى الذى لا بقاء له بغير بقائها ، ومن ثم سمى المذهب بالمادية الثنائية او المادية الحوارية على بعض التراجم اللفظية ، لانه يقوم على تتابع النقيضين بين الطبقة الماضية والطبقة التى تخلفها ، الى أن يحين الاوان المقدور ويأتى المجتمع الموعود الذى لا طبقات فيه

وعلى هذا الاساس الذى لا قوام لنبوءات «كارل ماركس» بغيره ، يجزم « كارل ماركس » بزوال الطبقة الوسطى من المجتمع قبل زوال رأس المال .. ولابد عنده من فناء الطبقة الوسطى بين طبقة رأس المال وطبقة العمال قبل ظهور

المجتمع الذى يستولى العمال فيه على مواد الانتاج

على أن الاحصاءات التى سجلتها الارقام قد أثبتت أن الطبقه الوسطى تزداد مع الزمن ولا تنقص كما جاء فى النبوءات الابديه ، ولم تخرج هذه الاحصاءات من أيدي الخصوم المنكرين للمذهب من أساسه بل جاءت من الانصار المؤيدين الذين اضطرتهم الوقائع الى الاعتراف بما لايقبل الانكار ، وقد كان أول هؤلاء المؤيدين ادوارد برنشتين(١) الذى أراد باحصائه فى الحقيقة أن ينقذ المذهب من الضياع ، فأثبت أن أصحاب الموارد المتوسطة يزدادون مع تقدم الصناعة الكبرى ، واعتقد أن توزيع الثروة فى نطاق واسع هو السبيل الى اللامركزية التى خفيت على « كارل ماركس » وأن انقراض الطبقة الوسطى لا يحقق اللامركزية الموعودة ، بل يحققها انتشار الثروة بين جميع الطبقات

ولم يكن خطأ « كارل ماركس » فى هذه المسألة الاساسية خطأ النقص فى الاحصاءات التى يجهلها ، ولكنه كان خطأ الهوى والتعنت أمام الواقع الذى لا يريد أن يراه لانه لا يوافق هواه ، وكان كذلك خطأ القصور فى الادراك والتقدير الصحيح الميسور لمن يحسن التقدير ولو لم تكن لديه أرقام ولا سجلات احصاء

كان رأس مال الصناعة فى مبدأ أمره محصورا فى أيدى أصحاب المصانع المعدودين ، وكان صاحب المصنع الكبير واحدا أو اثنين من أسرة واحدة ، أو كانوا ينتمون الى أسرات قليلة مشتركة فى رءوس الاموال

ولكن هذه الحالة أخذت فى التغير على أيام « كارل ماركس » وقبل اتمام كتابه ، فظهرت الشركات المساهمة

---

(١) Edward Bernstein

وكثر المشتركون فيها بالاسهم الكثيرة أو القليلة ، وكان على « كارل ماركس » أن يفهم أن رءوس الاموال تتوسع على هذا النحو ولا تنحصر فى أيد معدودة كما اعتقد أو أراد ، وأن أنقراض الطبقة الوسطى ليس بالامر المحتوم على هذا التقدير ، وأن اليوم الذى يشترك فيه العمال أنفسهم فى رءوس الاموال غير بعيد ، وأن النبوءة عن هذه النتيجة كانت على متناول يديه لو أنها توافق هواه ، ولكنه اهملها ليبحث عن النبوءات التى توافق ذلك الهوى الدفين ، وكله من هوى التخريب والعدوان

ولقد كانت الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الاولى أكبر معول ولا ريب فى أساس الاشتراكية العلمية كما شرحها صاحبها ومريدوه

كانت نبوءات « كارل ماركس » تقضى بقيام الشيوعية فى البلاد التي بلغت بالصناعة الكبرى غاية أشواطها ، فاذا بالشيوعية تقوم فى البلاد التى لم تعرف من الصناعة الكبرى غير خطواتها الاولى ، واذا بهذه القاعدة تسرى على البلاد المتأخرة فلا تقوم للشيوعية قائمة فى غيرها ، ولو الى حين

وكان من لوازم الاشتراكية المادية أو الاشتراكية العلمية أن تكون الصناعة الكبرى هى التى تخلق النظام السياسى وتمهد له بانتهاء الصناعة الكبرى الى نهايتها ، فاذا بالنظام السياسي هو الذى يخلق الصناعة الكبرى فى البلاد الروسية وغيرها من البلاد التى تقتدي بثورتها

وكان « كارل ماركس » يحكم على الصناعة كما رآها فى زمانه ، وكانت هذه الصناعة من البساطة بحيث تستولى عليها الايدى العاملة وتحسن ادارتها .. فاذا بالصناعة تتعقد وتتصعب وتتشعب حتى تتعذر ادارتها على

غير الخبراء فى علوم المكنات وعلوم الـكيمياء ، وعلوم الاقتصاد ، وما يقترن بهذه العلوم جميعا من المعـارف النفسية والمعارف السياسية أو التاريخية ، واذا بطبقة أخرى غير طبقة الايدى العاملة تستولى على وسائل الانتاج وتبالغ من التحكم فيها ما لم يبلغ أصحاب رءوس الاموال

وانتهت التجارب العملية ، بعد أربعين سنة، الى وجهة مختلفة تبتعد شيئا فشيئا من الوجهة التى تحراها «كارل ماركس » ومريدوه ، ومن النبوءات المحتومة التى بلغ القوم من التشبث بحروفها فى دعواهم ما لم يبلغه عباد النبوءات الاقدمون

انتهت التجارب العملية الى اباحة الملكية الفردية على صورة من الصور ، والى السماح بالتفاوت الـكبير بين الاجور ، والى حكومة مطلقة تدوم أربعين سنة وتستبد بالعمال بدلا من استبداد العمال بها دون طبقة المنتجين والمديرين

والناس اليوم ينظرون الى الطبقة الحاكمة فى بـلاد القياصرة الاقدمين ، فيرون أنهم أفخر وآنق فى ملابسهم وشاراتهم وركـائبهم من زملائهم الذين ينوبون عن بلاد رأس المال فى المؤتمرات العـالمية ٠٠ وما من أحـد يلج بالمكابرة فيزعم أن جميع الطبقات فى بلاد الشيوعية تتزيى بهذه الازياء وتتحلى بهـذه الشـارات ، وما من أحد يلج بالمكابرة فيزعم أن سلطان أصـحاب الاموال قد كان على أقواه وأعتاه يزيد على سلطان ملوك الانتاج اليوم فى البلاد الشيوعية ، بل ما من أحد يلح بالمـكابرة حتى يزعم انه داناه زمنا أو يدانيه

وانطوت مائة سنة على ظهور النبوءات الابدية ، وانطوت أربعون سنة على تجربتها وتطبيقها والاصرار على اثباتها

او على تخريجها وتأويلها ، فلم يثبت لها حظ من التحقيق العلمي الا أن يكون حظ المنافضه والمفارقه ، ولم نستفهم خطوطها العريضة كما رسمها صاحبها وحتم على المستقبل كله غاية التحتيم أن يلتزمها ولا ينحرف عنها قيد شعرة ذات الشمال ولا ذات اليمين ، وهذه نتيجة المذهب فى خطوطه العريضة التى كان ينبغى أن تثبت قبل غيرها لانها هى النـاحية البارزة لجميع الانظـار من المؤمنين والمطلوبين للايمان ، فأما الخطوط الدقيقة والمعلومـات البعيدة ، فهى من التخاذل والتشعث وقبول الرأى ونقيضه فى وقت واحد بحيث لا تصلح للاستشهاد بها على مذهب واحد كائنا ما كان ..

***

ولو كان « كارل ماركس » ممن يزعون أمانة العلم لتهيب الهجوم على تلك المجازفات باسـم الحقيقة العلمية ، لان العلم بعد ازدهاره فى العصر الحاضر لم يصل الى الحد الذى يخوله دعوى الاحاطة الشاملة بأسرار الكون ، ودعوى القدرة على تطبيق تلك الاسرار الشاملة على تاريخ الانسان فى مجاهل المستقبل البعيد الى آخر الزمان

فأما فى عصر « كارل ماركس » فالعلم الذى كان يحبو فى خطواته الاولى احرى ان يقف دون هذا الشوط البعيد وقفة الحذر والاحجام ، وتلك الاحصاءات التى يجمعهـا « كارل ماركس » من هنا وهناك لم يكن منها احصاء واحد متسلسل المصادر محقق المراجع على النحو الذى يسمح بالمقارنة الصادقة ويدعو الى الثقة بالنتيجة القريبة فضلا عن النتائج القصوى

بل لو كان « كارل ماركس » مخلصا لمذهبـه لتردد فى دعواه العلمية أشد من تردد المخالفين له من أبناء عصره ..

اذ كان العلم على مذهبه مصطبغا بالصبغة البرجوازية ، مسخرا لخدمة الطبقة الاجتماعية القابضة على زمام الانتاج .. فهو علم ناقص مدخول لا تستقيم النتائج منه فى جميع الاحوال ، ولا يستطيع « كارل ماركس » أن يزعم أن عبقريته الفردية تناولت ذلك العلم البرجوازى فصححته وخلصته من شوائبه ونفت عنه الزيف قبل زوال سلطان البرجوازية ورأس المال ، فان العبقرية الفردية عنده لا تنشىء علما مستقلا عن الظروف الاجتماعية ، ومن قال بجواز ذلك فانما يهدم التفسير الاقتصادى للتاريخ كما شرحه « كارل ماركس » هدما ذريعا لا يبقيه على قرار

الا أن « كارل ماركس » لا تعنيه أمانة العلم فى مذهبه ولا فى مذهب غيره ، ومن ضياع الوقت على غير طائل أن يناقشه المناقشون على القواعد العلمية ، وهم يقذفون بالعلم والعقل الى عرض البحر ساعة يسلمون دعواه ويأخذون مأخذ الجد فى انكار زعمه أنه قبض على زمام القوانين المادية ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، واتجه بها الى الوجهة التى لا تحيد عنها يوما فى مجتمعات بنى الانسان ما بقى للانسان وجود ..

ان الذى يسلم هذه الدعوى يهزل ولا يجد ، ويكلف العلم شططا لا يحسب من العلم فى شىء ..

وما بقى اليوم من أحد يسلم لهذه الدعوى صفة العلم الا أن يكون واحدا من فريقين :

الفريق الاول أتباع « كارل ماركس » الذين أسسوا برامجهم على مذهبه ، وارتبطت دعايتهم فى أقطار العالم بنبوءاته وأوغلوا فى الطريق التى لا رجوع عنها فى أمان الا بعد نسيان هذه الدعاية ، واستعداد الاتباع والاشياع لمواجهة الواقع غير مصطدمين منه بصدمة المفاجأة

فهؤلاء يعلمون من التجربة العملية أن مذهب « كارل ماركس » مناقض للعلم والعمل متعذر التطبيق والتنفيذ بحروفه أو بعد التصرف الكثير فيه ، ومعاذيرهم التى يعتذرون بها لمخالفته أنهم لا يزالون فى أول التجربة بين عقابيل الماضى ومقاومة الخصوم ، وأن الامر يدعو الى قليل من المساومه والهوادة ومجاراة الظروف الى حين ، ثم الى حين آخر بعد ذلك الحين

أما الفريق الآخر ممن يناقشون النبوءات الماركسية أو النبوءات الابدية مناقشة العلم المعقول ، فهم أولئك الذين يضيعون العلم فى سبيل السمعة العلمية ، وهم أشباه الذين قيل فيهم انهم يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل ، وانهم ينصفون فى تمحيص جميع الآراء ولا يتعسفون

فاذا نظر الباحث فى أقوال هؤلاء وهؤلاء علم أن الفريقين من العلم براء ، وأن مذهب « كارل ماركس » انما يبحث على انه ظاهرة نفسية ولا يبحث على أنه مبادىء علمية مع انصاف العلم والعقل وانصاف الواقع والعيان ، بعد مائة سنة من ظهور المذهب وبعد أربعين سنة من محاولة تطبيقه بكل ما يستطاع من المحاولات

ان فهم جميع المذاهب يستلزم على الدوام فهم صاحب المذهب بلوازمه العقلية وبواعثه النفسية وخلائقه التى توحى اليه بالفكر والشعور أو يستعان بها على أفكاره ودوافع شعوره ..

وفهم « كارل ماركس » بصفة خاصة ألزم ما يكون لفهم مذهبه الذى سول له — فى هذه السهولة — أن يهجم على دعوة لا تقنع بما دون هدم العالم الانسانى القائم ، ولا تصغى الى هوادة فى الامر تتقبل الابقاء عليه بحال

من الاحوال

ان شهوة الهدم والتخريب هي التي توحي الى صاحبها الثقة التامة العامة بتلك النبوءات الابدية في غير هوادة ولا توسط ولا اعتدال ، ولو كان الامر على عكس ذلك وكانت الثقة العلمية هي التي توحي الى صاحب المذهب ان يدعو الى هدم كيان العالم لوجب أن تكون تلك الثقة قائمة على أركان من الحقائق لم يعهد لها نظير في تقريرات بني الانسان ، اذ لم يسبق لانسان أن يدعو الى مثل ذلك الهدم بكل ما في وسعه من لدد واصرار

ولو ان انسانا أراد ان يهجم على هدم بلدة واحدة فوق اصحابها ، لكان لزاما عليه أن يلتمس لهدمها اسبابا اقوى من جميع الاسباب التي سولت لـ « كارل ماركس » هدم المجتمعات الانسانية بكل ما فيها على كل من فيها من معارضيه ومخالفيه .. وسولت له أن يستبيح من اجل هذه الدعوة سفك الدماء كالبحار ؛ومتابعة القتل والتخريب في قطر بعد قطر الى جميع الاقطار

وماذا لو كان في النبوءة خطأ يسير ، وقد ظهر فيها الخطأ الكبير بل ظهرت فيها الاخطاء الكبار ؟ الا يدعو ذلك الى قليل من التردد وقليل من الهوادة في اللدد والاصرار ؟ .. بلى .. انه ليدعو الى التردد الكثير والى التحرج الكبير من عواقب ذلك التهجم على المجهول ، لو لم تكن شهوة الهدم والعدوان هي مصدر الوحي الاثيم وعلة العلل في ذلك التفكير العقيم ..

وهذا في الواقع هو معنى الثبوت العلمي في مذهب « كارل ماركس » اذا درسناه من وجهة الظواهر النفسية ، ولم نضيع الوقت عبثا في مناقشة النبوءات التي لايقبلها العلم على وجه من الوجوه ..

وكلمة « الثابت العلمى » مرادفة فى مــذهب « كــارل ماركس » لكل ما هو لازم لاشــباع شــهوة التخريب والعدوان ..

وكل شيء يعوق الدعوة الى التخريب والعدوان ، فهو عنده باطل ينكره العلم ، وضلال تمليه الاحلام والاوهام..

وليس ثبــوت القيمة الفائضــة أو حرب الطبقات أو النقائض المــادية لانها واقع قائم فى حوادث التــاريخ أو حوادث العيــان . كلا .. بل هى ثابتة جميــعا ببرهان واحــد دخيــل فى طبيعة « كارل ماركس » وهو لزومها لاشباع شهوة التخريب والعدوان ..

كانت ثورته على برامج النقــــابات فى عصره أعنف الثورات ، وكانت الخيانة وانتهاز الفرص ايسر التهم التى صبها على رءوس القائمين بدعوة النقابات ، لانهم آمنــوا بامكان الاصلاح بغير هدم العالم الانسانى كله على رءوس من فيه

ومع هذا مضت حركة النقابات على سوائها فحققت للعمال والصــناع قبل خمسين ســنة ــ بغير حاجة الى سفك الدماء وتخريب العمار ــ اصــلاحا لم تحققه الثورة الماركسية مع سلب الحرية واهدار دمـــــاء الملايين من الابرياء

ولكن لا برىء فى رأى « كارل ماركس » اذا حـــالت حياته وحياة الملايين من أمثــاله دون اشباع شــهوة التخريب ، ولا حقيقة فى العلم الماركسى لاصــلاح ملموس باليدين ان لم يسفك الدماء وينشر الخراب فى المشرقين والمغربين

وهكذا يثبت الشيء فى العلم الماركسى بمقــدار لزومه لاشباع تلك الشــهوة لا بمقــدار ما يعززه من الحقــائق

والبراهين

ودراسة « كارل ماركس » على ضوء الظواهر النفسية أقرب الدراسات الى فهم مذهبه وفهم البواعث التى تمليه وتوسوس به فى ضميره وضمائر المتقبلين لدعوته والمجبولين على غراره ، فمامن صورة « علمية » لـ «كارل ماركس » تترك بعدها مجالا للشك فى طبيعة المذهب الذى يدعو اليه ، وما من خير يخطر على البال أنه يصدر من نفس كتلك النفس ، يملؤها الحقد والسوء وينبعث منها على عمد وعلى غير عمد فيما تعلنه وتخفيه

ومن ثم نرى لزاما علينا أن نبدأ دراسة الماركسية بدراسة « ماركس » نفسه ، كما صورته لابناء عصره سيرة حياته المحفوظة فى سجلات أتباعه ومتاحف وثائقه وذكرياته .. وحسب القارىء أن يلم بهذه الصورة الواضحة ليريح ذهنه من متاعب البحث فى « النبوءات الابدية » التى بشر بها نبى السوء فى زمانه ، ثم يريح ذهنه من الخلط والخبط فى رطانة المذهب بين المادية والحوارية والنقائض الاجتماعية ، وبين العمل وكسب العمل وفيض العمل وحق العمل ، وسائر هذى الاغاليط التى جاء بها شىء واحد هو لزومها لتحقيق تلك النبوءات .. فسيعلم القارىء بغير جهد جهيد أى لزوم لمبدأ من تلك المبادىء كلما علم لزومه لفتح الطريق الى الغاية التى لا محيد عنها ، وهى هدم العالم الانسانى على من فيه بغير اصغاء قط لشفاعة من شفاعات السلم أو التوسط فى الاصلاح

ان صورة « كارل ماركس » هى مفتاح مذهبه ومذهب الحقد والسوء فى نفوس أمثاله .. وها هى صورته الصادقة بملامحها الناطقة ، لا ينكرها أنصاره ولا يقدرون على انكارها ، وان كانت أحق شىء منهم بالانكار



مذهب الشيوعية

صاحب المذهب

سلك الماركسيون فى ترجمة زعيمهم بعد وفاته مسلكين متناقضين : عدلوا عن أحدهما الى الآخر بعد شيوع ذكره واستفاضة أخباره ونشر الكثير من الوثائق المطوية عن حياته وعلاقاته بأسرته وصحبه وزملائه ، مما يحتاج الى تفسير أو توفيق بينه وبين المنزلة الرفيعة — بل المقدسة — التى أرادوا أن يرفعوه اليها على انكارهم لكل قداسة انسانية أو الهية

سلكوا فى بداءة الامر مسلك التقديس والتطويب ، ثم عدلوا عنه الى الاعتراف بالنقائص والاخطاء مع الاحتراس والمراوغة .. ولم يلبثوا أن توسعوا فى الاعتراف بما لابد منه مع تطاول الزمن وتداول الاخبار عن الخفايا والاسرار وكان اعتذارهم الذى يدورون حوله كلما صدم الناس بخفية جديدة من خفاياه ان شخص الرجل شيء ومذهبه شيء آخر ، وأن أعمال الرجل الاجتماعية بمعزل عن حياته الفردية ، تطبيقا لرأى « كارل ماركس » نفسه حيث يقول أن « الشخصية الفردية » ناقلة لا أثر لها فى المجتمع ما لم يكن لها تمهيد أو مساندة من الظروف الاجتماعية

ولم يلبثوا مرة اخرى أن توسعوا فى الاعتراف بالنقائص والاخطاء عن قصد يدارونه تارة ويعلنونه تارة أخرى ، اذ كانوا يشعرون بالحاجة الى التحلل من قيود المذهب

كما وضعه « كارل ماركس » كلما تعثروا فى تطبيقه وتتابعت العقبات أمامهم فى كل خطوة من خطوات التنفيذ والاختيار ؛ ولايزالون يترخصون فى تطبيق المبادىء الماركسية ويلتمسون لذلك المعاذير من مصاعب الابتداء واستحالة الطفرة وضرورة الاناة والاعتدال فى أطوار الانتقال ، وينسون أنهم على طول الزمن يبتعدون من النتيجة التى يريدونها وتتسع الشقة بينهم وبينها فى كل عام وفى كل مشروع من المشروعات التى يقيمونها على قواعد المذهب كما يقولون

ولقد كان غاية ما ينتظر من اتباع الماركسية المؤمنين بقواعدها أن ينتقلوا من التقديس والعصمة الى نفى التقديس والعصمة وكفى ..

كان حسبهم أن يصبح « النبى المرسل » غير مقدس وغير معصوم لو وجدوا فى ذلك مقنعا للعقول التى تفاجأ فى كل يوم بعيب من عيوب « النبى المرسل » لا يكفى لقبوله نفى القداسة والعصمة والنزول به درجة أو درجتين دون مرتبة الكمال ..

كان حسبهم هذا لولا أن عيوب الرجل تنزل به دون ذلك كثيرا فى كل تقدير ؛ فليس قصاراه أنه كامل يأتيه النقص عرضا فى بعض الحالات والفلتات ، بل حقيقة أنه ناقص يتحول فيه النقص الى قوة بحكم الظروف

من مترجميه الذين واجهتهم هذه الضرورة « أوتو روهل » صاحب كتاب « كارل ماركس : حياته وعمله » الذى ترجمه الى اللغة الإنجليزية « ايدن » و « سيدار بول » (١)

فهذا الكاتب يدين بالمذهب الماركسى ويؤمن بالتفسير

(١) Karl Marx. His life and work by Otto Ruhle Translated by Eden and Cedar Paul.

الاقتصادى للتاريخ ، ولكنه لا يرى مناصا من تفسير نقائص استاذه باختلال جسده ، فيقول بنص عبارته كما نقلها من الترجمة الانجليزية : « انه كان نموذجيا فيما كان يعانيه من اعتلال نشاطه الروحى (١) وكان على الدوام متقلبا مبتئسا حقودا لا يزال فى تصرفه عرضة لتأثير سوء الهضم والانتفاخ وهياج الصفراء ، وكان موسوسا (٢) يغلو كجميع الموسوسين فى الشعور بمتاعبه الجسدية ، وكما كان يعتمد فى الطعام الذى لا ينتظم فيه على الاستعانة بالتوابل والابازير والمخللات وبيض السمك المملح وما اليها .. كان يستعين بأمثال ذلك فى عمله وعلاقاته بغيره ، ولا يخفى أن الاكل السىء عامل سىء وزميل سىء فى الوقت نفسه ، فاما ان يحجم عن الاكل أو يفرط فيه ، واما أن يكسل عن العمل أو يرهق نفسه فيه بما لا يطيقه ، واما أن ينقبض عن معاشرة الناس أو يتخذ له صديقا من فلان وعلان وبدران وزيدان .. هؤلاء على الدوام متطرفون لا تحتمل معداتهم ولا رءوسهم ولا ارواحهم (٣) مفاجأة الاختلاف . وكذلك كان « ماركس » فى صباه عاجزا عن المثابرة على دراسة ترشحه للعمل يعينه على مطالب العيش ، وأصبح فى كهولته عاجزا عن المثابرة على جهد من الجهود العقلية يتكفل بغذاء الشخصية كلها .. فلم تكن له صناعة ولا مكتب ولا شاغل منتظم ولا وسيلة من وسائل المعيشة ، وما من شىء لديه الا وهو موكول الى المصادفة والارتجال والاضطراب .. وبدلا من الانتظام فى سماع المحاضرات أثناء دراسته ليستعد بذلك للعمل المنتظم راح يحشو معدته بأخلاط التوابل الفلسفية والادبية ، وتعاورته على

---

(١) Spiritual Metabolism

(٢) Hypochondriac

(٣) Spirits

الدوام قلة الصبر على رياضة النفس وضعف الاحساس بالنظام ونقص القدرة على الموازنة بين المورد والمصروف ، وكانت تنقضي الشهور ولا ينشط لكتابة سطر واحد ، ثم يقذف بكل قواه على عمل جسيم كأعمال المردة والجبابرة ، فيسلخ الليالى والايام ملتهما بالمطالعة مكتبات كاملة ، راصا من حوله أكداسا من القصاصات ، مالئا بالتعليق والتدوين كراسات فوق كراسات ، تاركا خلفه آكاما من الكتابة المخطوطة يبدؤها ويهملها ولا ينتهى منها الى نتيجة ولا محصول ».

***

على هذه الصورة يتمثل « كارل ماركس » كاتب يدين بالمادية الثنائية وبالتفسير الاقتصادي للتاريخ ، ثم يمضي فى سرد هذه العيوب فى امام مذهبه ليقول : « انه قد استمد من الضعف قوة واستخرج من النقص تعويضا يغطى عليه ».

ونعتقد أن الكاتب لم يكن ليسترسل فى تصوير امامه على هذه الصورة ، لو أمكنه أن يسكت عن الجانب المهم منها وهو عجزه عن العمل المنتج ونزوعه الى هدم مايبنيه بيديه .. ولكن الكاتب لا يستطيع أن يدعى ل « كارل ماركس » حبا أشد من حب أبيه ، وليس فى وسعه أن يمحو الوثائق التى تحتوى فيما احتوته أقوال أبيه عنه وكتاباته اليه ، ومنها رسالة يقول فيها « ماركس » الاب : « ان بعض الناس ينامون ملء عيونهم الا أن يستدعيهم السرور الى سهر الليل كله أو بعضه ، على حين يقضى ولدى الموهوب الذكى « كارل » جملة لياليه مرهقا جسده وعقله فى دراسة لا لذة فيها ، معرضا عن جميع الملهيات فى طلب المشكلات الغامضة ليهدم غدا ما بناه اليوم ويرى بعد ذلك كله أنه أضاع ما لديه ، ولم

يستفد شيئا مما لدى الناس » (١)

أما هذا الخلل الملازم لـ « كارل » من مطلع حياته فله عند « أوتو روهل » تعليلات كثيرة ، منها مرض الكبد المتأصل واعتلال بنيته اعتلالا ينبيء عن وهن أصيل فى التركيب ، ومنها انتسابه الى الملة اليهودية فى بلاد تنظر الى هذه النسبة كأنها وصمة اجتماعية ، ومنها آفة الولادة الاولى أو ما ينتاب تربية الولد الاول من عوارض التدليل والانفراد

ويفتتح « روهل » فصله عن « ماركس » الرجل بتزكية المذهب المادى فى تفسير حالة الفرد وتفسير أحوال الجماعات على السواء ، فيقول مبتدئا بتقرير هذه العقيدة : « واذا كان التفسير المادى للتاريخ كما هو فى الحق أصدق تفسير لمجرى الحوادث التاريخية ، فمن الواجب الا يصدق على الجماعات التى تتولى تنفيذ تلك الحوادث وحسب .. بل ينبغى أن يصدق كذلك على الافراد الذين تتجسم فيهم ظواهرها .. الا أن تطبيق التفسير المادى للتاريخ بالنسبة للجماعات مهمة من مهام الدراسات الاجتماعية ، بخلاف تطبيقه على الافراد فانه مهمة من مهام الدراسات النفسية »

وخلاصة المقارنة بين حالة « كارل ماركس » وحالة البيئة التى نشأ فيها أن « كارل ماركس » الفرد لا يعنينا بمعزل عن آرائه الاجتماعية وعن الظواهر التى عملت على اخراج تلك الاراء

وهذه هى الحيلة التى أراد الكاتب المؤمن بالمادية التاريخية أن يحتال بها على اغفال عيوب امامه فى معرض الكلام على مذهبه ، ولعلها حيلة تنفع كل قائل غير القائلين

---

(١) كتاب « بير » عن « ماركس وتعاليمه »
« Life and Teaching of Karl Marx » by B. ‹

بتفسير عقائد الناس وآرائهم بأحوالهم المادية ومطالبهم الجسدية فان الذى يعتقد أن الديانات والاخلاق والاراء انما هى صدى المطالب الجسدية التى يحسها الناس ، لن يستطيع التخلص بهذه السهولة من اثر البنية فى تكوين اراء صاحبها ، ولن يستطيع ان يزعم ان هذه الآراء تأتى سليمة مطهرة من نفس مريضة مختلة مطبوعة على الحقد والضغينة .. واذا استحال على الامة فى مجتمعها ان تتخلص من دواعيها الجسدية حين تدين بالدين ، وحين تتعود العادات ، وحين تشرع الشرائع ، وحين تتذوق الجمال وتبتدع فنونه وتماثيله ، فليس فى مقدور الفرد أن يتخلص من نوازعه وشهواته ولا من أهوائه المتأصلة فى تركيبه ، وليس من المعقول أن يتساوى الرجل المطبوع على الضغينة والرجل المطبوع على سلامة الطوية فى بواعث التفكير ومواجهة المسائل التى يصبغها بصبغة عقله وهواه ، ومن قال بذلك فهو من القائلين بالعزل بين الروح والجسد وليس من القائلين بتغليب الجسد على كل فكرة وكل عاطفة وكل شعور

***

ومهما يكن من جدوى هذه المعاذير ، فهناك سؤال حتم يبقى على الشيوعيين ان يجيبوه ، وهو : هل يعتبر « كارل ماركس » بهذه الاخلاق فردا صالحا فى مجتمع من المجتمعات الانسانية كائنا ما كان ؟ وهل يكون فردا غير صالح ويجوز مع ذلك أن يكون اماما صالحا لتأسيس المجتمعات المثالية من يومه الى أقصى الآماد المجهولة ؟

وأيا كان جوابهم على هذا السؤال الحتم ، فلا شك أن هوان الاخلاق عليهم هو مرجع الفضل فى تهوين الاعتراف بتلك العيوب على زعيمهم وأمامهم ، وان يكن فضلا غير مشكور

ويشبه هذه الصورة التى رسمها « روهل » صورة اخرى رسمها زعيم من اكبر زعماء المذاهب الهدامة فى عصره وهو « باكونين » زعيم « الفوضوية » الذى تلقى عنه « ماركس » أوائل دروسه فى المذاهب الاجتماعية : وهو رجل له عيوبه وهناته ولكنه من طراز فى الاخلاق غير طراز « كارل ماركس » .. ولم يكن من خلاله المشهورة خلة الحقد وافتراء الاكاذيب على عمد لخدمة الدعاية أو شفاء الضغينة ، بل كان على نقيض ذلك سريعا الى الاعتراف بصواب غيره اذا تبين له صوابه ، قريبا الى الصفح عن خصومه الذين لا يتورعون عن اختلاق التهم عليه لتشويه سمعته والتشكيك فى نياته ، وقد اتهمه « ماركس » بالجاسوسية وأحيلت هذه التهمة على لجنة من أقطاب الثوار لتحقيقها فثبت لهم تزوير الوثيقة التى تستند اليها ، وكان «باكونين» حاضرا فى جلسة التحقيق والمناقشة للدفاع عن نفسه فأخذ الورقة المزورة ولم يتشبث بادانة مزوريها بل أحرقها بيديه ، وبسط كفه للداعية الالمانى « ليبكنخت » الذى كان يتولى اتهامه بالنيابة عن « ماركس » ، فصافحه وختم هذه المهزلة باستئناف العمل معه والنزول عن حقه فى الصاق شبهة التزوير به وبأستاذه الموعز اليه

يقول « باكونين » هذا عن « ماركس » وهو يعقد المقارنة بينه وبين « ماتسينى » زعيم الوطنية الايطالية : « يحب « كارل » نفسه اضعاف حبه لاصدقائه ومريديه .. وما من صداقة تصمد لحظة اذا مسته لحظة فى غروره وكبريائه ، وأيسر من ذلك جدا أن يغفر الاساءة أو الخيانة لدعوته الفلسفية ورسالته الاجتماعية .. فانه ينظر الى هذه الخيانة نظرته الى علامة من علامات القصور العقلى أو علامات امتيازه على صديقه فيرى فيها

نوعا من التسلية المرضية ، وقد يكون هذا الصديق أحب اليه وادنى الى قلبه لانه يأمن ان يكون مزاحمـا له فى رسالته أو منافسا على القمة العليا فى شهرته .. غير أنه لا يغتفر أبدا أصغر الاساءات الى شخصه ، ولابد لك من أن تعبده وتتخذه وثنا تصلى بين يديه ان أردت أن تظفر بمودته ، أو لابد لك من أن تخافه وتهابه ان أردت أن يحتملك ويصبر عليك .. وهواه دائما أن يحيط نفسه بالاقزام والحجاب والمتزلفين ، ولايمنع ذلك أن يحيط به بعض ذوى الاقدار ..

أما على الجملة فلك أن تقول ان أصحاب « ماركس » تندر بينهم صراحة الصداقة وتكثر بينهـم الدسائس والمناورات ، وهم متفاهمون ضمنا على المكايدة والصراع والمساومة على مرضاة الغرور المتبادل بين زمرتهم ، ولاموضع لشعور الصداقة حيث يعمل الغرور وتسود الاثرة ، فكلهم على حذر وكلهم متوقع للتضحية به والقضاء عليه ، وليست جماعة « ماركس » الا جماعة التزلف المشترك ، وهو بينهم الموزع الاكبر للاقدار والدرجات ، والمحور الاكبر كذلك للغدر والكيد والدسيسة . لا يتفتح أبدا ولا يستريح للصراحة يوما . بل يحرص أبدا على اضطهاد من يستريب فيه أو من يقوده سوء حظه الى التقصير عن اكباره كما ينبغى له من الاكبـار فى نظره . ومتى بدا منه الاذن فى الاضطهاد ، فلا حدود للخسة واللؤم فى الذريعـة التى احاط نفسه فى لندن وباريس — وفى المانيا قبل كل شىء — يتذرعون بها لقضاء اربه .. ولما كان هو نفسه يهوديا فقد أحاط نفسه فى لندن وباريس ، وفى المانيا قبـل كل شىء بنفر من اليهود الصغار على حظ متفاوت من المقدرة على الدس والنشاط والمغامرة ، كسائر امثالهم حيث كانوا بين الموظفين التجاريين وعمـال المصارف والمشتغلين بالادب

والسياسة ، أو هم بعبارة اخرى سماسرة فى الادب والسياسة كزملائهم السماسرة فى الصفقات التجارية ، قدم فى المصرف والقدم الاخرى فى مراكز الحركة الاجتماعية، ولهم عشيرة كبرى فى ألمانيا بين ادباء الصحف الدورية .. وان هؤلاء المتأدبين من اليهود لذوو براعة فى صناعة الجبن والواقعية والايغار والمكيدة تسمعهم يقولون كأنهم يترددون : يشاع ، يزعمون ، لعله غير صحيح .. ثم يقذفون بأخبث التهم فى الوجوه »

ومما كتبه «باكونين» عن «ماركس» الى «هرزين» (١) « أن « ماركس » قد خدم قضية الاشتراكية خمسا وعشرين سنة بمقدرة ونشاط واخلاص ، وان أغفر لنفسى ـ لو انها سولت لى من جراء البواعث الشخصية ـ أن أهدم عمله أو اغض من شأنه »

وقد أعلن « باكونين » صواب « ماركس » فى بعض المسائل الفلسفية والسياسية التى اختلفا عليها ، وأن « ماركس » لايتورع عن الانتقام من مخالفيه باختلاق التهم عليهم ، وأنه لايتورع عن الانتقام من أحد يرتفع الى المكانة العليا فى الدعوة الاجتماعية وان لم يكن بينهما نقاش على الخطأ والصواب ، وقال وهو يذكر حملة « ماركس » على « برودون » (٢) : « ان ماركس » ينطوى على خليقتين ذميمتين : الغرور والغيرة .. وما كان بغضه ل « برودون » الا لانه مشهور جدير بالشهرة ، وما من مسبة يحجم عن صبها على رأسه ، لانه أنانى يفرط فى انانيته لحد الجنون ، وتسمعه يتحدث قائلا : أفكارى .. آرائى .. وينسى أن الافكار والآراء ليست ملكا لاحد على التخصيص ، وأن اصلح الآراء لهى تلك التى تتمخض

---

(١) Herzen (٢) Proudhon

عنها البديهة العامة .. »

***

وتكاد هذه الصورة ان تبرز بجميع ملامحهـــا للناظر العابر بعد جلسة أو جلستين مع « كارل ماركس » كما تبرز للغرباء الذين تجمعهم به المصادفة حينا بعد حين ، فليس يختص بها أولئك الاخصاء الذين طالت عشرتهـم له وخبرتهم بأطواره واعماله ، لانها صورة بينة تنعكس عن صفات متغلغلة متمكنة لا تخفيها المواربة ، ولا تحتاج الى انعام النظر طويلا لابراز طواياها

وصفه « كارل شورز » (١) بعـــد التقـــائه به في كولون سنة ١٨٤٨ فقال : « انه قد استفاضت عنه شهرة واسعة بالاطلاع الغزير ، ولم أكن على علم بكشوفه ونظرياته .. فزادنى ذلك شوقا الى التقاط كلمات الحـكمة من فم الرجل الشهير ، فخاب أملى على نحو غريب .. اذ كانت كلمات « ماركس » ولا شك مشبعة بالمعاني ، ولكنى لم أرقط فى حياتى رجلا بلغ سلوكه من البغضة التى لاتطاق ما بلغ سلوك هذا الرجل .. كان لا يعير التفاتة واحـدة لفكرة تخالف فكرته أقل مخالفة ، وكان يعـــامل كل من يخالفه معاملة ملؤهـا التحقير والازدراء ، ويجيب على كل قول لا يعجبه اجابة قارصة تسخر من الغباء المطبق الذى يرمى به قائله أو تلوح له بالاتهام وسوء النية ، ولا تزال لهجته فى النطق بكلمة برجوازية عالقة بذهنى الى هـــذه الساعة ، وهو سريع الى الصاق مسبة البرجوازية بكل من يخالفه على أسوأ ماتدل عليه من ضعة العقل والخلق .. » (٢)

وقال « تيشو » (٣) عنه مع اعجابه به وتسليمه بقدرته

---

(١) Schurz   (٢) « ذكريات شورز »
Reminisenceo by Carl Schurz

(٣) Teechow

« لو كان قلبه فى عظمة فكره ، وكان حبه فى قوة حقده ، لاقتحمت النار معـــه على الرغم من تصريحـه غير مرة بهبوط منزلتى فى نظره » (١)

لاجرم كان بهذا المسلك خليقا أن يغرى بالمناقضـــة والمشاكسة ، وكان يكفى ـ كما قال « شورز » ـ ان ينم على وجهة يختارها ليدفع بسامعيه الى وجهه غيرها ..

وعلى كثرة الذين كتبوا عنه وعن ذكرياتهم معـــه ، لم يكن بينهم احد يمر بهذه الخليقة دون أن يلحظها .. ولو كانت من الخلائق العارضة أو الخلائق التى تظهر وتختفى بين ادوار العمر وطوارىء الاحوال ، لما انكرها منه أبوه فى مقتبل عمره ، كما انكرها صديقه وصفيه وزميل حياته وشريك دعوته « فردريك انجلز » ٢) وهو أحرص الناس على سد خلته ومداراة عيوبه . ولكنها خليقة لازمته من مطلع حياته الى خـــاتمة ايامه ، فأبوه يكتب اليه أيام تلمذتـه ليقول له مكرها : « انك ـ لسوء الحظ ـ تؤيد بسلوكك رأيى الذى كونته عنك ، وأرى انك ـ عـلى ما فيـك من خصال حسنة ـ انانى تغلب الانانية على جميع صفاتك »

و «انجلز» ـ فى سنة ١٨٦٣ ـ أى بعد أن جاوز الخامسة والاربعين يكتب اليه قائلا : « من البديه انك سترى مما أنا فيه من الحزن ، وما انت عليه من جمود الطبع اننى لم أكن استطيع ان اجيبك قبل هـــذا التـــاريخ . ان اصحابى جميعـا ـ ومنهم المخـــالفون ـ قد أبدوا لى من العطف والعزاء فوق ماكنت أنتظر .. اما انت فقد لاح لك انها فرصة لاظهار سـمـوك بالتعـالى عن الحزن وجمود العاطفة .. ليكن ما اردت ، سلمنا لك ما تريد .. فانعم بانتصارك »

---

(١) Karl Marx by Frank Mehring

(٢) Engelz

وانما ثار « انجلز » هذه الثورة النادرة لانه كتب الى « ماركس » ينعى اليه خليلته فلم يتحرك لمصابه ، ولم يزد على كلمـــات أسف وجيزة ، تبـــلاها على الاثر طلب المعونة وشرح الازمات التى يعانيها .. وقد كان «انجلز» ينسى شواغله وهمومه كلما سمع عن وعكة خفيفة يشكوها طفل من أطفال « ماركس » او تشكوها قرينته السقيمة ، فلا يهدأ ولا يتوانى حتى يسعفه بما فى وسعه من المعونة والمواساة

وفى هذه المرة فقط عرف « ماركس » كيف يعتذر من خطأ يلومه عليه لائم من صحبه أو زملائه أو ذويه ، فكتب الى « انجلز » ينحى على نفسه لانه أرسل ذلك الخطاب، ويقول : « انه أدرك خطأه بعد القائه فى البريد ، وأنه كان من رثاثة الحال فى داره بلا طعـــام ، ولا دفء ولا راحة بحيث لا يملك متنفسا غير التهكم وقلة الاكتراث »

وهكذا كان الاعتذار الوحيد الذى ارتضاه «ماركس» أعرق فى اللؤم من الخطأ الذى ساقه اليه ، لأنه اعتذار الشعور بالحاجة الى الرجل الذى كان يلتمس المعونة منه، ولم يكن اعتذار شعور بالواجب أو الوفاء

***

والامر الذى يستوقف النظر طويلا بعد هذه الصـــور المتفرقة انها تصدر عن اجماع عام ممن لا يتفقون يوما فى وصف انسان واحد كبير أو صغير ، فقد اتفق عليها من يعتقـــدون مذهب « كارل ماركس » ومن لا يعتقـــدونه ولا يعرفونه ، واتفق عليها من عاشروه ســـنوات ومن لم يجتمعوا به غير مرة أو مرات ، واتفق عليها الغرباء وأقرب الاقرباء من أصدقائه وذويه ، ومن كان منهم مظنة الاجحاف لخصومة أو خلاف ـ كأستاذه « باكونين » ـ فالشبهة

عليه أضعف ما تكون فى هذه الاحوال ، لانه على رذائلة الكثيرة لم يشتهر برذيلة الحقد والافتراء على عمد وروية، بل اشتهر على نقيض ذلك بالمسامحة وحب الانصاف لاصحابه وخصومه ، ولا يضيره بعد ذلك أن يكون مظنة الاشتباهبالاجحاف .. لان ماقاله عن «ماركس» يطابق فى جملته رأى أبيه ورأى الخاصة الاقربين من اصدقائه ومريديه ..

الا أن الاقوال التى تتفق على الوصف لا تتفق على التعليل والتحليل ، فـ « ماركس » هكذا باتفاق عارفيه .. ولكن لم كان هكذا ولم يكن على صورة أخرى ؟

هنا تختلف الآراء والظنون ، لأن المجال هنا مجال بحث وتقدير وليس مجال رؤية وتقرير .. ونحن نعرض هذه التعليلات فلا نجد بينها تعليلا اقرب من تعليل « روهل » الى الاجماع أو الفهم والقبول ، وقد تقدم أنه يرجع بعيوبه الى أسباب شتى يلخصها فى اعتلال البنية والشعور بوصمة المجتمع وانفراده برعاية أبويه لانه كان اول الابناء

وهذه تعليلات تنظر الى الوقائع الصحيحة ولاتستوعبها، لأنها لم تلتفت الى الجانب المهم من الوراثة وعلاماتها الواضحة فى أبويه .. وليست الوراثة مما يهمل فى شأن انسان من الناس حيث كان وكيف كان ، ولكنها فى شأن « كارل ماركس » أحق بالالتفات اليها والبحث عن الصلة بينها وبين قواعد مذهبه وغاياته ، لانها وثيقة الصلة بتلك القواعد والغايات

لقد كان « كارل ماركس » ينحدر من أبوين ينتميان — كلاهما — الى طائفة الربانيين والحاخامات اليهود ، وكان أبوه فقيها دينيا وأمه من سلالة اليهود الهولنديين الذين هاجروا الى بلاد المجر فى القرن التاسع عشر لكثرة

من فى هذه البلاد من اليهود أصحاب المزارع والاموال

جاء فى كتاب « الحركات الاجتماعية الاقتصــادية » لمؤلفه «هارى ليدلر» (١) : « ان أباه كان من رجال الشريعة الاسرائيليين ، وان جده كان من الربانيين ، وان أمه تنحدر من أسرة هولنــدية ربانية هاجرت من هولنده فى القرن السابع عشر الى البلاد المجرية »

وهذه الاسرة العريقة فى الديانة اليهودية قد تحولت ـ أبا واما ـ عن دينها الى الدين المسيحى بعد ولادة «كارل» بست سنوات ، ولم يتحول الابوان معا عن عقيدة وايمان صادق بالمســـيحية ، ولكنهما اتفقا على ترك الدين الذى انحدرا من سلالة فقهائه ورؤسائه تمهيدا لفرص العيش ، ثم تمهيدا لفرص المستقبل أمام الابن الذى بلغ السادسة ، وأرادا فى هذه السن الباكرة أن يحولاه معهمــا عن ديانة الآباء والاجداد الى ديانة الدولة والمجتمع الذى يعيشان فيه ، وليس انسب من سن الســــادسة ، لتحويل طفل صغير من دين الى دين ، لأنه قد يتأخر عن السن المناسبة لتبديل معتقداته وشعائره اذا بلغ سن المراهقة على دين الاباء والاجداد

أيمكن أن تنفصل هذه الحادثة عن مذهب «كارل ماركس» فى جوهره ولبابه ؟ .. أيمكن ان تنفصل عن شعوره بالدين وشعوره بالعقيدة الروحية على اختلاف مناحيها ؟

لقد اقام « كارل ماركس » مذهبه على المادية الاقتصادية .. وكان قوام هذا المذهب ان الديانات والعقــائد جميعا انما هى انعكاس الضرورات الاقتصادية فى المجتمــع كما تتمثل فى عباداته وعاداته

---

(١) Laidler

وليس فى هذا المذهب شىء يناقض الواقع المحسوس الذى شب عليه فى طفولته بين أبويه ..

ولا تكون « المادية الاقتصادية » هنا فكرة من افكار البحث والمنطق والدراسة العقلية وكفى ، بل تكون فى ضميره لاعجة من اقوى اللواعج النفسية التى تتطلب التنفيس والتهدئة ، وتهمة كامنة فى الاعماق تحاول جهدها ان تنتفض من اعماقها وتتخذ لها نزعة من نوازع التسويغ او نوازع التحدى والمفاخرة حينما تفتحت لها دخائل الفكر والوجدان

وكأنه يقول من وراء المادية الاقتصادية متسائلا متحديا : ماذا صنع ابواى ؟ اتراهما صنعا شيئا يعاب عليهما او يعاب على احد ؟ اتراهما على نقص فى الاخلاق والضمير لانهما تحولا عن الدين التماسا للمنفعة الاقتصادية أو المنفعة المادية ؟

كلا .. ان الديانات كلها تتحرى المنفعة الاقتصادية وتنبت فى منابتها ، وان المنفعة الاقتصادية فى كل مجتمع هى ينبوع العقائد فيه ، وينبوع كل ظاهرة روحية فيه مما يسمونه بالآداب والاخلاق والفنون ، ويحسبونه من ثمرات الذوق أو الخيال أو من وحى السماوات والارباب ، وما صنعه أبواى لا يعاب عليهما ولا ينم عن نقيصة خلقية أو خيانة لعهد الروح والضمير .. بل هو مفخرة لهما وآية من آيات صدق النظر والبصيرة لديهما ، لانهما قد نفذا الى اصل الدين فى أعمق اعماقه فلم ينخدعا فيه كما ينخدع المؤمنون الغافلون عن اصل الدين وعن جميع الاصول .

فهاهنا دلالة اقوى من دلالة الفكرة التى تتولد من البحث العلمى والاقيسة المنطقية .. هاهنا « أولا » خليقة موروثة

مع الطباع التى تورث من كلا الابوين ، وها هنا بعد ذلك حاجة نفسية تلح على الوعى الباطن والوعى الظاهر معا وتلتمس منهما قوة العزاء او قوة التحدى والمكابرة ، فلا معابة فى ترك الدين طلبا للمنفعة المادية أو الاقتصادية ، بل هو الظاهرة العامة التى ينبغى أن ترجع اليها جميع الديانات ، وهو الى ذلك مفخرة الابوين بالنظر الثاقب والحدث القويم

وليس موقف الاسرة من الدين هو كل ما تلمحه من الخلائق الموروثة واثرها فى تكوين افكاره او بواعث تفكيره ، فان اعتلاله كان مسبوقا بعلة مثلها فى ابيه الذى مات بها قبل بلوغ الشيخوخة ، وقال الاطباء عنها فى محضر الوفاة انها داء الكباد ، ولم تكن امه اصح من ابيه كما يؤخذ من اخبارها القليلة ، وكان له اخ يسمى « ادوارد » اصابه داء الهزال فمات فى صباه

***

هذه نشأة جسدية تضاف الى نشأته النفسية او الاخلاقية ، فلا تنم على فطرة سوية ولا تهىء الناشىء للخير والفلاح فى حياته الخاصة او العامة .. ويجوز لمن يترجم سيرته أن يقدر جرائرها اذا اعوزته الشواهد والروايات بأسانيدها ، غير ان الحوادث المفصلة فى هذه السيرة تغنى عن التقدير وتزودنا على سعة بالمعلومات الوافية عن أمام الشيوعية من طفولته الباكرة ، لان الدعوة الى المذاهب الثورية ومذاهب الاشتراكية المتطرفة والمعتدلة قدانتشرت بعد عصره بسنوات معدودةوادركها اتباعهوتلاميذه فاحتفظوا بآثاره وبالغوا فى الاحتفاظ بها حتى جمعوا من خاصة اخباره ماقل ان يجتمع فىسيرة مشهورة من رجال الدول ، فضلا عن دعاة المذاهب والبرامج الاجتماعية .. وكان من

حفظ التاريخ الصادق ان اتباعه كانوا ــ بحكم عقيدتهم ــ ممن تهون عليهم قيم الاخلاق والادب ، فلم يتحرجوا من المساوىء والعيوب كما يتحرج منها مترجمو العظماء حين يعرضون لاخبارهم الخاصة وسقطاتهم المريبة

ومن هذه المعلومات دون غيرها ، يتراءى أمام المادية التاريخية فى كل صفحة من صفحات سيرته مصدقا لتلك الخلائق التى اجمعت عليها أوصاف عارفيه ٠٠ فلم يكن فى عمل تولاه قط قدوة صالحة أو فردا صالحا لمجتمع من المجتمعات كائنا ما كان فى حساب الماديين أو غير الماديين فلا الناشىء الطالب فى سلك الدراسة ، ولا الرجل رب الاسرة ، ولا الصديق أو الزميل فى الدعوة الاجتماعية ، ولا الداعية العامل على نشر مذهبه ، ولا الانسان الذى ينتمى الى ملة أو وطن أو طبقة ٠٠ كان فى « كارل ماركس » قدوة يحمدها الماديون التاريخيون ويتمنون الاكثار منها فى مجتمعهم الموعود ، أو فى بيئة من البيئات على اختلاف المعايير والآداب

كان على أحسنه عندهم موضع اعتذار وتعليل ، ولم يكن فى اخلاقه قط موضع اكبار واقتداء ..

كان الطالب « كارل ماركس » يهمل دروسه ، وينقطع عن معهد الدراسة أسابيع متواصلة ، ويبدل منهجا من مناهج التعليم بمنهج غيره ثم لا ينشط للمنهج الجديد الا ريثما يبدله ويتعلق بآخر يهدم به ما بناه بالامس كما قال أبوه

وقد كان أبوه ــ على سنة الآباء أجمعين ــ يميل الى حسن الظن ، أو يلقى فى روعه أنه يحسن الظن به ليستبقى عنده بعض الثقة برأيه ، فلا يركب رأسه على هواه اذا

داخله اليأس من جانب أبيه .. فكان يوحى اليه بالنصيحة من خلال النقد والثناء ، ويقول له انه يسهر الليالى الطوال فى بناء الآراء وهدمها ، وينقطع عن الجامعة لمتابعة هذه الآراء التى لاتطرد على وتيرة ولا تنتهى الى طائل ، وحقيقة الامر أنه ينقطع عن الجامعة لغير ذلك السبب فى كثير من الاحيان ، وانه كان يسترسل فى سهراته مع غواة اللهو والعربدة ، ويهجر البلدة كلها ـ بلدة « بون » مقر الجامعة ـ ليذهب الى « كولون » فى جوارها ويبتغى فيها من ملاهى السهر مالم يكن ميسورا له تحت الرقابة الجامعية . وحدث فى بعض هذه السهرات أنه سيق الى دار الشرطة مع جماعة من السكارى لافراطه فى السكر والعربدة ، وأنه سيق الى المبارزة مرة أخرى ، وتبين من تقريرات الشرطة أنه استخدم الاسلحة النارية فيها (١)

وقد جرت عادة « ماركس » فى كتابته الاقتصادية أن يطلق اسم « الرعاع » على علماء الاقتصاد الذين يقنعون بالظواهر ولا ينفذون الى بواطن الحركات الاجتماعية ، كما تبدو له فى دراساته التى يميزها دون غيرها باسم الدراسات العلمية . فاذا استعيرت هذه التسمية للباحثين فى أطوار «الشخصيات» فلعلها تنطبق على أولئك المترجمين الذين كتبوا سيرة « كارل ماركس » وأرادوا أن يفسروا تقلبه بين الدراسات فأقنعتهم كلمة «القلق» أو «الجموح» ولم يشعروا بالحاجة الى تفسير وراء هذا التفسير الذى يصح فيه أنه من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء .. لأن القلق هو التقلب ، والتقلب هو القلق ، بغير فارق كبير فى مصطلحات القاموس أو مصطلحات العلوم النفسية ،

---

(١) من كتاب البروسى الاحمر باسناده الى مصدره الالمانى
Red Prussian Max — Englez — Gesamt Ausgabe

وشبيه بهؤلاء المفسرين نظراؤهم الذين يفسرون هذا القلق باختلال البنية ولا يذهبون وراء هذا الاختلال الى دخائل النفس لفهم بواعثها وغاياتها .. وما كان اختلال البنية بصالح لتفسير عمل من الاعمال ، أو توضيح ترجمة من التراجم ، الا حين ينتقل من أسماء الامراض والاسقام الى أسماء الاخلاق والعادات

وظاهر اننا لا نفهم شيئا من كلمة القلق ، أو كلمة الاختلال ، اذا أردنا أن نفسر بها تقلبه من دراسة القانون الى دراسة الفلسفة الى دراسة المذاهب الاقتصادية ، ولكننا نفهم بواعث هذا التقلب اذا فهمنا أن شهوة الهدم والنقمة لا تجد لها منفسا تستريح اليه فى دراسة القانون أو الفلسفة .. وأن مبادىء القانون أو الفلسفة لا تخلق النبوءات الدامية ، ولا تتصل بهياج الثورات والفتن التى تنبعث من غرائز الملايين كما تتصل به مشكلات الاقتصاد، وصراع الطبقات على الارزاق ، وضرورات المعاش .. وقصارى ما ينتهى اليه الباحث فى دقائق الشريعة والقانون أن يكشف منها أخطاء يدركها الفقهاء والمشرعون ولا تتعداهم الى جمهرة المتقاضين وغير المتقاضين من سائر الطبقات ، وغاية ما ينتهى اليه الباحث فى دقائق الفلسفة أن يغوص الى الاعماق ويقنع الفلاسفة أو طلاب المذاهب الفلسفية برجحان فكرة على فكرة ، وصحة قياس من الاقيسة المنطقية وبطلان قياس سواه

أما مشكلات المعاش — ولا سيما فى عصر « ماركس » أو عصر الثورات — ففيها منفس واسع لشهوة النقمة والبغضاء ونعيب الهدم والخراب ، وفيها وسيلة قريبة بل وسائل شتى لخطاب الغرائز والضغائن وللانذار بالويل والثبور فى أمد قريب أو بعد أمد منظور

ان طبيعة «كارل ماركس» لم تجد ما يريحها فى مذاهب القانون ولا فى مذاهب الفلسفة ، ولكنها سرعان ما انتقلت الى مذاهب الاقتصاد حتى وجدت هنالك بغيتها .. ولم تفهم هذه المذاهب الا من الناحية التى تملى لها فى شهوتها وتنفس بها عن ضغائنها واحقادها ، وصح عندها كل فرض ينتهى الى العداء والبغضاء ، وبطل عندها كل فرض يبعد هذه النهاية أو يشكك فيها أو يشير الى طريق غير طريقها .. فلا مقياس من العلم ولا من التجربة ولا من النظر لتلك المقدمات التى تفترق ما تفترق ثم تلتقى عند الامنية المشتهاة باسم التقدم والاصلاح ، وانما المقياس الذى لا يخطىء أبدا لكل فرض من فروض المادية التاريخية أنه مقدمة محتومة للعاقبة المشئومة ، ومنفس واسع لشهوة النقمة والعدوان

***

من تلك التلمذة ــ ولا تلمذة غيرها فى نشأة « كارل ماركس » ــ سلمت له دعوى العلم الذى احتكره لمذهبه الاشتراكى بين جميع المذاهب الاشتراكية التى عرفت فى عصره وقبل عصره .. وما من مفكر اشتراكى من أولئك الواهمين أو الحالمين ــ أو الرعاع فى رأيه ــ الا كان له نصيب من العلم لا يقل عن هذا النصيب ان لم يزد عليه.

ولما حصل على لقبه العلمى الذى كان يعتز بصيغته اللاتينية ، لم يحصل عليه من جامعة تعلم فيها وانتظم بين طلابها ، ولم يحصل عليه بعد مناقشة فى موضوعه وامتحان لبراهينه وأسانيده ، ولكنه حصل عليه بالمراسلة فى جامعة « جينا » الالمانية ، وهى الجامعة التى كان لها نظام يسمح بقبول البحوث من المراسلين بعد سداد رسومها واجازتهم عليها بالالقاب فى غيبتهم بغير اشتراط الحضور فى أيام

التحصيل ولا فى يوم محدود للمناقشة والامتحان

جاء فى كتاب « البروسى الاحمر »(١) باسـناده الى المرجع الالمانى السابق : « ٠٠ كانت هناك جامعة جينا فى دوقية فيمار الكبرى ، وكانت تقاليدها أخيرا تسمح باجازة الامتحان بالمراسلة ، فلا تشترط حضور الطالب اليها ولا يتطلب الامر الا ان يرسل أطروحته مع الوثائق اللازمة عن طريق البريد فترسل اليه الشهادة ٠٠ وكذلك فرغ من الاطروحة وأرسلها الى الجامعة فى السادس من شهر أبريل سنة ١٨٤١ بعنوان عميد قسم الفلسفة ، فوقع العميد شهادة الدكتوراه بتاريخ الخامس عشر من الشهر للدكتور كارلوس انريكوس ماركس التريفينى ٠٠٠ »

***

وتوفى « هنريك ماركس » رب الاسرة ، وابنه الاكبر « كارل » يختتم مرحلة الدراسة الجامعية . فانتهى دور الطالب وابتدأ دور الولى المسئول عن أسرته فى وقت واحد .. لأنه كان كما تقدم أكبر الابناء الذكور ، فانتقل اليه عبء القيام على شئون الاسرة بعد أبيه .

ولايخفى ان عاطفة الاسرة عنوان صادق لعاطفة الانسان فى الاسرة الاجتماعية أو الاسرة الانسانية الكبرى ، فلايكون الانسان مسلوب العاطفة مع أسرته موفور العاطفة مع غيرها من أبناء نوعه أو أبناء جلدته على التعميم ٠ ومهما يكن من رأى الماديين فى نظام الاسرة ، فالاقربون على كل حال ناس كسائر الناس ، ان يكن بينهم وبين غيرهم فارق فى العلاقة فهم أدنى الى العطف المتبادل بينهم من جمهرة الغرباء

---

(١) The Red Prussian

وقد ارتبط « كارل » بعلاقات الاسرة جميعا مكفولا في رعاية أبيه وكافلا لاقربائه وذويه ، فكشـــف عن خلتين ملحوظتين في جميع علاقاته بأسرته : غلبة الانانيـــة ، والتقصير في الواجبات ...

أرهق أباه بطلب المال وهو طالب منقطع عن الدراسة يغيب أكثر الوقت عن جامعته بل عن البلدةالتي فيها الجامعة واسترسل في هذا السرف بعد علمه بحاجة أبيـه الى المال لانفاقه على علاجه وعلاج ابنه المريض بعد عجزه عن الكسب واعتماده على المدخر لديه من كسب شبابه ، ونبهه أبوه غير مرة الى القصد في مطالبه والاعتدال في نفقاته فلم ينتبه ولم يقصر عن تكرار الطلب على عادته من يوم اغترابه عن أهله ، فكتب اليه آخر الامر ضجرا من هذه اللجاجة أو هذه الاثرة التي كان يقول انها وصمته الباديه على صفحته ، وصارحه بالتأنيب الشديد قائلا : « ماذا تظن ؟ أتـراك تحســبنا مخلوقات من الذهب ! »

ثم مات أبوه ــ وهو في برلين ــ فلم يكلف نفسه مشقة الانتقال الى بلده ــ وهو رب الاسرة بعد ابيه ــ ليواسي أهله واخوته الصغار ويقوم على تدبير شئون الاسرة كلها بعد فقد عائلها ، ولم يشغله في هذه المحنة العائلية شاغل يباليه غير طلب الحصة التي يستحقها من ميراثه منجمة على حسب أقساطها الميسورة أولا فأولا بعد احصائها

واسترسل في الطلب حتى نفد نصيبه من الميراث ، فمال على نصيب أمه واخوته ، وكانت أمه ترجو أن يغنيهم بكسبه أو يكفيهم على الاقل مؤنة نفقاته ، فاذا هو عالة عليها يجور بمطالبه التي لا تنتهي على رزق اخوته المفتقرين الى السند والعائل بغير أمل في مورد جديد من موارد الكسب يعولون عليه

وضاقت أمه ذرعا بهذه الانانية العمياء ، وهذا الكنود الشديد في ولدها الاكبر الذى كانت ترجوه لها ولبنيها الصغار بعد أبيهم ، وغضبت معها أخته « صوفى » التى كانت تدلله وتعزه بين لداتها اعزاز البنات لاخوانهن الكبار، فكتبتا اليه تنذرانه بقطع المدد عنه ، وقالتا له بصريح العبارة : « انك الآن فى الرابعة والعشرين فاعتمد على سعيك فى كسب رزقك ، ولا تنتظر بعد اليوم مددا نقتطعه لك من قوت أهلك » (١) ..

وكف ـ آخر الامر مضطرا ـ عن الطلب ، ولكنه لم يكف عن الاستعارة من أقربائه وأصدقائه ومنهم زوج اخته وأقارب ذلك الزوج ، ومنهم قريبه انعم « فيلنيبس » وزميله فى الدعوة « انجلز » ، وزميله الاخر « أنينكوف »

وكانت الاستعارة ـ غير المردودة ـ وسيلته التى لا وسيلة غيرها فى معاشه ومعاش زوجته ، حيث كان وحيثما انتقل بين المانيا وفرنسا وهولندا وانجلترا التى كان يهجرها ليعود اليها دواليك كلما استغلقت عليه أبواب الاستعارة فيها

وتقبل من المعونة ـ بل من الاحسان ـ مالا يقبله رجل ذو كرامة ، فكان زملاؤه الذين يضيقون بطلباته المتلاحقة يحيلون عليه الاعمال التى تطلب منهم فيقبلها وهو لايحسن اداءها ليحيلها على من يحسن هذا الاداء ويستولى هو على أجورها ..

ففى سنة ١٨٤٨ زار « دانا » مدير صحيفة نيويورك تربيون مدينة كولون فقدمه اليه زميله « فريلجراث »

(١) تراجع اسانيد « البروسى الاحمر » الالمانية والرسائل المتبادلة بين « ماركس » و « انجلز »

.. ثم عاد « دانا » بعد ثلاث سنوات الى لندن ، فالتقى ب « فريلجراث » وسأله أن يكتب الى التربيون خـــلاصة التعليقات السياسية فى القارة مرتين كل أسبوع . فأحاله « فريلجراث » الى « ماركس » وقبل « ماركس » هذهالاحالة مع جهله بالانجليزية ، وعاد فأحال العمل كله الى صديقه « انجلز » على كثرة شواغله وتبرعه باعالته ـ او اعارته ـ بما كان يومئذ فى وسعه . ولم يمض غير قليل حتى تبين لهم جميعا انه مورد ضئيل لا يكفل ل « ماركس » وأسرته معيشة الكفاف ، لان مدير الصحيفة كان يسقط كثيرا من الرسائل ولا يحتسب الاجر الا على الرسائل المنشـــورة ، عشرين شلنا لكل رســــالة تأتى بعد مراجعة المهمـل والمنشور ! (١)

كان رب الاسرة عالة على اسرته فى كهولته ، كما كان عالة على اسرته فى طفولته وصباه .. وكان الرجل الذى يحارب التطفل الاجتماعى طفيليا فى كل مجتمع أصـــيل أو دخيل نزل فيه

ومما يذكر على الخصوص فى سيرة رب الاسرة الذى يحارب الملكية ، ويحسبها سرقة أخبث من سرقة اللصوص وقطاعالطريق ، انه رد خطيب بنته «لورا » ريثما يتحقق من صحة ميراثه ، ومن كفاية هذا الميراث للتعويل عليـــه فى طلباته .. وكان هذا الخلاسى « لافـارج » ابن مالك من ملاك الاقطاع فىامريكا الجنوبية ، تعلم فىجامعةباريس وأرسلته الجامعة الى لندن فى بعثة خاصة ، فتعرف الى « ماركس » وفتاته هناك (٢)

---

(١) كتاب « روهل » عن حياة «كارل ماركس» وعمله

(٢) من كتاب « روهل » عن « ماركس وحياته »

واذا كان الجو العاطفي فى الاسرة دليلا على حظ أبيها من العطف والحنان وشعور الاخلاص بينه وبين خاصته وذويه ، فقد كان « كارل ماركس » أعجز الناس عن الهام صغاره سجية من سجايا العطف والمودة تجعل للحيـــاة معنى غير معنى المنفعة العاجلة ، والاثرة المتحكمة ، وسوء الظن بكل نبيل جليل من العواطف الانسانية •• فماتت ابنته « لورا » هذه واختها « الينورا » منتحرتين بعد حياة مضللة على غيرى هدى . ولم تنتحرا من البؤس فى دار ابيهما ، بل اقدمتا على بخع نفسيهما بيديهما بعد مفارقة الدار ، هذه مع زوجهاالخلاسى وتلك مع عشيقها «افلنج» الذى ظهر لها بعد معاشرته انه هجر زوجته واخفى عنها زواجه قبل معاشرتها . وكانت « الينورا » هذه مخطوبة للكاتب العالمى المعروف « برناردشو » فرفضته ، وتعلقت بذلك الافاق قانعة معه بعــلاقة الخليلة والخليل ، مؤثرة لها على علاقة الزوجة والزوج مع رجــل مســـتقيم الخلق والسمعة

ولقد كان انتحار اختها « لورا » لســـبب أعجب من الخيبة فى هواها ، فاتفقت هى وزوجها على الانتحار معا فرارا من الشيخوخة التى تحرمهما متعة الشـــباب ، وقضت الفتاتان على حياتهما فى السن التى تلوذ فيهـــا النفس الانسانية بالعاطفة العامرة التى تجعل للحياة معنى فوق معنى اللذة ونزواتها ، وتتغلب به على متاع الانانية والاثرة العاجلة •• بحثتا عن هذا المعنى ابان الحاجة اليه فلم تجداه لانهما لم تفهماه ولم تحســـاه فى البيت الذى نشأتا فيه ووجدتا فى موضعه نظرة يائسة الى النـــاس والى الدنيـــا ضللتهما فى كل اختيـــار يرجع فيه المرء الى هداية العاطفة الصادقة والضمير السليم

لاجرم كان فى مصطلح الاسرة كلما فارقت بنت من بناتها دار ابيها انها نجت من محنة الجوع والضيق ..

ثم تحسنت حال « انجلز » شريك « ماركس » فى الدعوة الشيوعية لأنه استقل بعمله ، وتمكن من توظيف مبلغ من المال فى السنة لمعيشة زميله لا يقل عن ثلثمائة وخمسين جنيها بعد سداد ديونه وتنظيم داره وتسوية الخلاف بينه وبين المتعاقدين معه على الاعمال المهملة والمشروعات المعطلة ، وصدق فيه قول أبويه أنه سيعيش عالة على الناس ما عاش ! ..

***

وربما خطر على البال ان الرجل كان يهمل الاعمال التى يكسب منها ضرورات معيشته ، لانه كان يعكف على العمل فى نشر دعوته وتدوين فلسفته واداء رسالته ، .. ويشغله هذا العمل عما عداه من تكاليف السخرة المفروضة عليه فى غير ما يرتضيه !

ولكن الواقع ان العمل الذى كان يهمله انما هو عمل الدعوة فى صميمها ، وأوله كتاب « رأس المال » انجيل المادية التاريخية كما يسميه الشيوعيون ، وقد مات « ماركس » وهذا الانجيل ناقص فى أهم نظرياته والزمها لاثبات المذهب « العلمى » وترجيحه على مذاهب الاشتراكيين الرعاع والاشتراكيين المتعلقين بالاحلام .. مات « ماركس » ولما يستوف « انجيله » بحثه الموعود فى نظرية الثمن والعمل ونظرية صراع الطبقات

كان بعض معارفه قد أشفقوا عليه ، أو ملوا منه الطلب وراء الطلب بغير وفاء ولا انتهاء .. فأقنعوا الناشر « لسكى » بالاتفاق معه على تدوين نظرياته الاقتصادية التى تدور عليها نظم السيادة والحكم فى

المجتمعات البشرية ، وتسلم « ماركس » فى ثمن الكتاب ألفا وخمسمائة فرنك سنة ١٨٤٤ ، وانقضت أربع عشرة سنة ولم يظهر الكتاب واذا بـ « كارل ماركس » يعقد مع الناشر « دنكر » اتفاقا آخر على تأليف الكتاب نفسه ، ولم يكن «دنكر(١)» يعامله من قبل ، ولكنه عامله فى هذه الصفقة بوساطة «لاسال» لانه كان يطبع له الكتب والمنشورات

ومضت السنون ولم ينجز « ماركس » اتفاقه مع الناشرين (٢)

وكان من المنظور بعد ضمان «ماركس» لمورد رزقه من معونة «انجلز» أن يفرغ لاتمام بحوثه واستيفاء الفصول الناقصة من كتاب رأس المال .. ولكنه ما كاد يضمن المورد بلا عمل ، حتى أعفى نفسه من كل مجهود وترك العمل كله ليستسلم لمكائد البطالة والفراغ

***

وأعجب ما فى دعاوى هذا الرجل دعواه على زعيم الفوضوية «باكونين» بعد أن أحس من جانبه خطر المنافسة والسبق بين زمرتهم الى منزلة الثقة والكرامة .. أثار عليه حملات التشهير واجتهد اجتهاده فى التنقيب عن جريمة يعزوها اليه ، فماذا وجد ؟ .. وجد ان « باكونين » دنس سمعة الاشتراكيين ، لانه اتفق مع ناشر فى روسيا على ترجمة كتابه ، ولم ينجز ترجمة الكتاب !

ومطلع حياته كختام حياته سواء فى تسخير المذاهب للوقيعة أو للوصول ، ففى مطلعه كانت تصدر فى بلاد الرين صحيفة تسمى « رينش جازيت » تتطرف فى دعوتها الى الاشتراكية ، فأنذرتها الحكومة بالاغلاق اذا هى لم تعدل عن خطتها ولم تخرج منها الكاتب المسئول عن

(١) Dunker (٢) « البروسى الاحمر »

سياستها .. وكان شابا من اصحاب « كارل ماركس » اسمه « روتنبرج » فلما سئل عن رأيه في موقف الحكومة أشار باخراج زميله ، وقبل ان يتولى تحرير الصحيفة بعده .. وتولى التحرير فعلا على خطة جديدة تنحى على الاشتراكية والاشتراكيين ، واعداد الصحيفة محفوظة بحملاتها الى اليوم (١)

فالدعوة الى المذاهب لم تكن شغلا له يشغل به جميع أوقاته ، ويتحين الفرص لانجازه وتمكين حجته وسد خلله .. وانما كان كل همه منها ان يتزعمها ويحتكر شهرتها ويحيط نفسه بحاشية من اتباعها وأذنابها ، وينحي عنها كل من بزغ له نجم لامع فيها أو استطاع أن يتقدم صفوفها .. ولعل أعدى أعدائه وأبغض الناس اليه من كان يخدم تلك الدعوة أو يخدم دعوة من قبيلها ، فلا شكر لهؤلاء عنده ولا صداقة ولا رعاية .. وكل جزائهم عنده ذم وتشهير وانتقاص واتهام ، يعلم هو قبل سواه مبلغه من الصدق والثبوت ، فيتعلل لهذا بسوء الفهم ويتعلل لذاك بسوء النية ويتعلل لغيرهما بالرياء والنفاق اوبالوهم والاختلاق ، ولم يسلم من ضغينته قط أحد من هؤلاء بغير استثناء

ف « برودون » كان عنده سخيفا مسوغا للسرقة والملكية بأسلوبه ، عاجزا عن تفنيدهما بأسانيده وبراهينه .. و « كارل جرون » (٢) دخيل على الحركة مستغل لافكارها المبتكرة فى سبيل العيش والمجاملة .. و « ليبكنخت » خائن لزعامته ملفق لآرائه منتفع باسمه على الرغم منه .. و « لاسال » ـ صاحب الفضل عليه فى التعاقد مع « دنكر » ـ زنجى بدم الوراثة متهم الجدات والامهات

---

(١) « البروسى الاحمر »   (٢) Karl Grun

بالفسوق الذى تشهد به ملامح وجهه وسيماه

وصهراه « لونجويه » و « لافارج » خالفاه ولم يتبعا خطاه ، فكتب الى « انجلز » يلعنهما ويقول عن الاول انه خليفة « برودون » وعن الثانى انه خليفة « باكونين » ، والى الشيطان فليذهبا معا ملعونين مدحورين !

و « باكونين » ـ كما تقدم ـ جاسوس مختلس بغير بينة بل على نقيض البينة . ولا يكف عن الكيد له حتى يصدر الحكم عليه من لجنتهبالفصل من زمرة الاشتراكيين كلهم هكذا بغير استثناء ..

أنقول بغير استثناء ؟.. نعم بغير استثناء ، الا استثناء واحدا أدل على خسة هذه الطبيعة المدخولة من كل خسة تشهد بها ضغائنه ومفترياته .. لأن هذا الاستثناء الواحد فى جميع حياته ، وبين جميع ابناء عصره ، هو استثناء الحاجة على الرغم وقلة الحيلة

كان « انجلز » دون غيره من المخلوقات البشرية ، ومن العاملين على نشر الدعوة الاشتراكية قبل غيرهم ، هو الاستثناء الوحيد من حملات المذمة والضغينة ، لانه يعول « ماركس » وينفق عليه وعلى أسرته ، ويتكفل بسداد ديونه وتنظيم شئونه : فهو جرىء بالذم والاتهام على جميع خلق الله حين يأمن الضرر والخسارة ،ولكنه يحسن الادب ـعلى رغم ـ حين يلجئه الكسل والفضول الى قبول الاحسان اياما وشهورا وأعواما بغير انتهاء. فلا سخافة هنا ، ولا خيانة ، ولا عقلية برجوازية أو رعاعية .. ولكنها العصمة كلها من جميع النقائص والاخطاء ولا يسلم من هذهالضغينة ناجح فى نشر الدعوة، وان لم يكن من الزعماء المنافسين لصاحب المذهب وامام المادية التاريخية .. ولو كان فى صدر «ماركس» متسع

لقبول عمل العاملين لكان أحرى الناس أن يتقبل منهم العمل على نشر الدعوة طائفة الصناع أو « الصعاليك » المنذورين لقيادة المجتمع الحديث واقامة النظام الاجتماعى الخالد على الزمن الى غير انتهاء . ولكن واحدا من هؤلاء جاوز حده واغتر بثناء الزعماء عليه ، فراح حيث ذهب الى البلاد الالمانية يحرض عمالها على الاضراب ، واشتهر من ثمة بينهم باسم زعيم العمال الالمان .. فحاقت به اللعنة من جراء هذا الجهد الناجح وسيق الى مجلس المحاكمة لسؤاله عن جنايته على شرذمة العمال الذين حرمهم الشغل والخبز بتحريضه اياهم على مطالبة أصحاب المصانع بزيادة الاجور ، كأنما كان فى الوسع أن يقدم العمال على الاضراب بغير مجازفة تعرض اناسا منهم للبطالة أو ترك العمل الى حين .. وكأنما قامت الشيوعية على ذريعة لتحقيق مبادئها غير هذه الذريعة فى جميع دعايتها ، وهى التى انكرت الوسائل الدستورية فى المطالبة بحقوق الطبقة العاملة ، ووصفت من يعتمدون عليها بخيانة هذه الطبقة وتضليلها عن الهدف الوحيد الذى لا محيد عنه لكل اصلاح جدير بالعناء من طلاب الاصلاح المخلصين

***

ونعرض بشىء من التفصيل لقصته مع العامل المغضوب عليه لأنها أغرب من قصصه مع « برودون » و « جرون » و « باكونين » واشباههم من أعلام النابهين الذين يناظرونه ويناظرهم وينفس عليهم شهرتهم ورواج آرائهم .. فلو كانت فى هذه النفس طوية من المروءة تطيق نجاح أحد فى نشر الدعوة الاشتراكية لكانت خليقة ان تطيق ذلك العامل ، ولو من قبيل المثال لما يبشرون به من دولة

العمال ، ولكنه غشم فى الطبع لا يستريح لغير النقمة والحسد ولا يغتفر الوزر لمن يعترض لنقمته وحسده . وقد نجح العامل المغضوب عليه ، فمازال به زعيم المذهب حتى ساقه الى المحاكمة ، وعومل فى زمرته بغشم لا يحمدونه ولا يحمده أحد لاسوأ مجتمعات الاستغلال والاستبداد ،ومن أجل استبداد هذه المجتمعات واستغلالها كانوا يثيرون الثائرة ويقيمون القيامة كما يقولون

يسمى العامل المطرود من الزمرة الماركسية « ولهلم ويتلنج » ولا يعلم له اسم اب معروف لأنه تربى فى حجر غسالة المانية حملت به سفاحا من ضابط فى جيش نابليون ، لم يلبث ان هجرها وهجر الطفل. فكبر بين لداته وهو يعلم انه ابن سفاح ويمقت الجيش والجندية ، وحان موعد تجنيده فهرب من الحى وتعود فى مخابئه أن يطيل القراءة فيما اتفق له من الكتب والنشرات

وكان يأوى منذ صباه الى طرزى يتعلم منه صناعته ، فجعل يعاود هذه حتى أتقن منها ما يحصل به على بعض الاجر ولا يكاد يستقل به عن اصحاب الدكاكين ، وزين له الغرور فى السابعة والعشرين ان يجرب صناعة التأليف فكتب رسالة عن « الانسانية كما هى وما ينبغى أن تكون » وزج بنفسه بين اتباع «بابوف» الداعية الفرنسى الذى ثار على الثورة لانها لم تذهب الى المدى الذى كان ينبغى أن تذهب اليه ، ولم تبدأ بالمساواة الاقتصادية قناعة منها بالمساواة السياسية ، وصودرت صحفه ومنشوراته فألف جماعته السرية وانكشف أمره بوشاية واحد من هذه الجماعة فقضى عليه بالموت بعد محاكمة طويلة « ١٧٦٠ — ١٧٩٧ م» ولكنه ترك بعده شيعة أمينة لدعوته لم تزل بين تبديد وتجديد حتى انتمى اليها « ويتلنج »

مع طائفة من الالمان الذين هجروا بلادهم فرارا من الاضطهاد ، ولجأ « ويتلنج » نفسه الى الفرار بعد حين من فرنسا الى سويسرا ، فقضى عليه هناك بالسجن لانه كتب فيها رسالة يشبه فيها نفسه بالسيد المسيح ، لانه صانع فقير يبشر بالاشتراكية ولا ينتمى الى نسب من بنى الانسان

ثم امتزجت حركة « بابوف » بحركة الاشتراكيين والماركسيين ، فانتمى « ويتلنج » اليها والف كتابا سماه « ضمانات الوئام والحرية » قرظه « ماركس » وقال انه باكورة رائعة من بواكير الطبقة الالمانية العاملة ،وزكاه آمنا عواقب هذهالتزكية لان احدا من الناس لم يكن لياخذ هذه البواكير مأخذ الجد فى عالم التاليف !

الا ان « ويتلنج » لم يقصر جهوده على الكتابة التى لاخوف منها على مكانة الامام المقدم فى مذهب الاشتراكية العلمية ، بل طمح « ويتلنج » بعد التأليف الى العمل المباشر ، وجمع حوله شرذمة من العمال البابوفيين والفوضويين والماركسيين يدينون له بالزعامة لانه يحسن الكلام والكتابة ، وتمادى فى العمل المباشر حتى دعا الى الاضراب والمقاطعة الصناعية تطبيقا لمبادىء « الاعمال المباشرة » فى مذهب الشيوعيين ، وكان فى بروكسل من بلاد البلجيك يوم قرر « ماركس » دعوته الى مجلس من مجالس الحزب العليا « للمناقشة فيما يمكن الاتفاق عليه من تنظيم حركة العمال الشيوعيين »

وعقدت هذه الجلسة « يوم ٣٠ من شهر مارس سنة ١٨٤٦ » برئاسة « كارل ماركس » وحضور زميله « انجلز » وطائفة من الثوار الموثوق بهم فى المدينة من كل مهاجرى الامم الاوربية ، ومنهم الشاب الروسى «انينكوف»

الذى كان يتنقل بين البلاد الاوربية ويحمل الى « كارل ماركس » خطاب توصية من زعماء الثورة فى بلادهم ، وهو الذى دون محضر هذه الجلسة وأثبت فيه أحاديث « ويتلنج » و «ماركس» فيما دار بينهما من الحوار ..

قال : « كان الخياط المهيج «ويتلنج» شابا أشقر وسيما يلبس معطفا فضفاضا ويرسل لحية لم يحفل بتهذيبها : ويخيل للناظر اليه انه سمسار متجول وليس بالعامل الثائر المتنمر الذى يظنه السامع بسيرته ..

« وبعد ان تعارف بعضنا الى بعض عرضا ، وبدا « ويتلنج » خلال هذا التعارف فى مظهر متكلف من الادب والمجاملة ، جلسنا الى مائدة خضراء صغيرة وجلس «ماركس» على كرسي الرئاسة فيها بجمته التى تشبه لبد الاسد ، منحنيا على ورقة أمامه وبين اصابعه قلم من رصاص. وكان زميله الملازم فى الدعوة «انجلز» ــ الطويل المعتدل القامة بهيئته الانجليزية الوقور ــ هو الذى افتتح الجلسة بحديث عن ضرورة التفاهم بين طلاب الاصلاح من العمال على رأى واضح بين الاراء المتناقضة ، وعلى خطة مرسومة يتخذونها علما لهم يحومون حوله ، وينظر اليه أولئك الانصار الذين لا يتاح لهم الوقت ولا القدرة على بحث المسائل النظرية باجتهادهم ..

ولم ينتظر « ماركس » حتى يفرغ « انجلز » من خطابه ، بل رافع رأسه فجأة وقذف « ويتلنج » بهذا السؤال :

ــ أنبئنا يا « ويتلنج » .. انك أثرت الشغب بدعايتك بين العمال الالمان وجمعت منهم طائفة اتبعتك فخسرت من جراء ذلك أعمالها واقواتها ، فما هى حجتك التى تسوغ بها نشاطك الثورى وبأية قاعدة تدعم ذلك النشاط ؟

وتلت هذا السؤال مناقشة أليمة لم تطل على كل حال كما سنرى من هذا البيان ..

وبدا ان « ويتلنج » يؤثر ان يجرى المناقشة على اساس العرف الشائع من الخطابة الحرة ، واتسم بسمة الجد والقلق حين اخذ يقول ان مهمته لم تكن تفرض عليه ان يبتدع نظريات جديدة فى علم الاقتصاد ، وانما كانت مهمته ان يتبع الخطط التى كان يلوح من الاحوال الجارية فى فرنسا انها اوفق الخطط لفتح اعين العمال على شئونهم الجائرة وعلى المساوىء التى كانوا يبتلون بها ..

« واطال الكلام فأدهشنى على خلاف ما توقعت ، انه لم يتكلم كما تكلم « انجلز » فى وضوح وسلاسة ، بل اختلط عليه القول

وطفق يكرر عبـــاراته ويعود الى تصحيحها ويسبق النتائج التى تنبنى على حججه او يتعجلها »

قال « انينـكوف » : « انه كان يواجه فى هذا الاجتماع جمهـورا مغايرا كل المغايرة لذلك الجمهـور الذى الف مخاطبته فى دكانه وقبوله لكتاباته ، وكان ولاريب وشيكا ان يسهب فى القول فوق أسهابه لو لم يبادره « ماركس » بنظرة مغضبـة وهو يصيح به متهكما : « انه لمن الخداع السهل أن تثير الشعب بغير مبالاة بعمله ، وان ايقاظ الامـال الخيالية لن يفضى يوما الى خلاص المظلومين بل يفضى عـلى النقيض الى ضياعهم وخذلانهم ، وان ذهابك الى صناع المانيا على غير قاعـدة علمية ولا نظرية قائمة لا معنى له الا انه لعب فارغ بالدعاية : مجرد من محاسبة الضمير ، ولا نتيجة له الا خلق رسول داعيـة من جهة ، واجتماع قطيع من الحمير يسـتمع اليه فاغر الافواه من جهة اخرى »..

واضاف « ماركس » الى ذلك ـ وهو ينظر الى الكاتب « انينكوف » « ان دور «ويتلنج» كان قمينا ان يجدى جدواه فى بلاد كروسـيا ، ولكنه فى البلاد المتمدينة كالمانيـا لا جدوى منـه بغير الاسـتناد الى النظريات القائمة .. »

« واحمر وجه «ويتلنج » الاصفر واصبح كلامه حاميا مباشرا ، وقال بصوت يرتعش من الهيـاج : « ان الرجل الذى ينجح فى جمع مئات من الرجال الى نداء العـــدل والتضامن والمحبة الاخوية ، لا يمكن ان يوصف بأنه رجل خاو ذو دعاية فارغة ، وانه يستطيع أن يعـزى نفسه امام الحمـلة التى تنصب عليه تلك اللحظة بذكر المئات من الرســائل الشـاكرة والبيانات الراضية التى تقاطرت عليـه من بلاده ، وان جهوده المتواضـعة فى خدمة المصلحة المشـتركة لاهم من التخريجات النظرية الدقيقـة التى تبتعد كثيرا عن ناحيـة الشعب المهضوم والجماهير المظلومة

« وثارت ثائرة « ماركس » بعد سماع هذه الكلمات الاخيرة فضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفـة هزت المصباح عليها ، ووثب محنقا وهو يصيح : ان الغباء لم يسـعف احدا قط ..

« واقتدينا به فنهضـنا وقوفا وانتهت الجلسة بذلك » ..

وقال « انينكوف » : انه أسرع الى توديع « ماركس » وتركه حين انصرف من الحجرة وهو فى هياجه يذرعها جيئة وذهوبا ... »

وواضح من هذا المحضر ان العامل المغضوب عليه فوجىء بالمحاكمة وبالحكم فى وقت واحد ، وختمت حياته السياسية فى رأى زمرته لغير مخالفة تستطيع أن تحاسبه

عليها ، لانها لم تبسط أمامه خطة مقررة يحاسب على مخالفتها ، وانما انعقدت الجلسة للاتفاق على هذه الخطة ودعى « ويتلنج » اليها للتفاهم على هذا الاتفاق ، وقضى « ماركس » قضاءه المطلق فى مصير الرجل بين جماعته حاكما بأمره واثقا من تأييد قضائه ، وكل هذا فى دعوة لم يكن لها من موجب وليس لها من حجة غير انكار الاستبداد وضمان حق الضعيف الاعزل فى وجه الحاكم المستبد وصاحب المال الغشوم

***

ان « هنريك ماركس » لم يسمع بغير القليل من هذه الفعال وهذه الاخبار حين قال عن ابنه — وفى قلبه غصة — « ان الانانية غالبة عليه وانها وصمة أو لطخة على صفحة نفسه »

هذا اقرب الناس نسبا اليه ، واقربهم اليه فكرة ، زميله « انجلز » الذى سمع الكثير من تلك الفعال وتلك الاخبار ، وعرف من خلاله ما عرفه ابوه ولكنه كاد ان يخفيه عن ضميره حتى صدمه فى ابان حزنه تلك الصدمة فلم يكتمه انه جامد الشعور يخفى جمودشعوره بالتعالى على خلق الله

ويأتى بعد هذين كاتب من كتاب التفسير المادى للتاريخ يعلم ما علمه الاب والزميل ، وزيادة عليه مما أضافه الزمن الى سيرة استاذه ، فلا يرميه بأقل من خلة الحقد والتقلب واختلال الارادة

فماذا يقول التاريخ وهو ينظر الى الرجل بعين غير عين الاب أو عين الزميل أو عين التلميذ ..

انه لا يستطيع أن يزوى بصره عن تلك الخلال التى

تتمثل له حيثما نظر الى علاقة من علاقاته الاجتماعية ، لان تلك الخلال التى تجمعها « الانانية » الناقمة تملأ فراغ نفسه فلا تدع فيها متسعا لغيرها ، ويكفي ان يكون الرجل كذلك ليكون كما كان بغير حاجة الى سر آخر غير ذلك السر المتكشف للعيان .. أنه لم يكن صالحا فى علاقة من علاقاته الاجتماعية ، لم يكن الطالب الصالح ، ولا الابن الصالح ، ولا العامل الصالح لنفسه ولاسرته ، ولا الزميل الصالح فى مودته أو خدمة دعوته .. كان فاشلا فى كل علاقة من هذه العلاقات الاجتماعية ، ولم يكن منظورا منه شيء غير الفشل فيها ، مع تلك الانانية وتلك النقمة وذلك الجمود ..

« ولقد كان شخصا منفورا من حوله فيما يرجع الى مسلكه بينه وبين نفسه ، ولا يقصد فيه المرء صلة بينه وبين أحد من ابناء نوعه ..

« كان قذرا يهمل الاغتسال والنظافة ، وكان منظر القروح والثآليل التى تملأ وجهه وعينيه وما ظهر من جلده يزيده قذارة على قذارة ، وكانت هذه القروح والثآليل مما يجنيه على نفسه بتهافته على الاطعمة الممنوعة على الرغم من وصايا الاطباء والحاحهم عليه فى اجتناب الطعام الذى لا يوافق المصابين بالكبد : ولا سيما الذين أزمنت فيهم هذه الاصابة من جراء النهم وفعل الوراثة . وقد نقل « ليوبلد شوارزشيلد » صاحب كتاب البروسى الاحمر نبذة من الرسالة التى كتبها بعضهم الى صهره عن معيشته فى لندن جاء فيها : « انه شخص مشعث للغاية ، سيء التصرف فى اعماله ، يجرى فى معيشته على نهج المتشردين من المشتغلين بالمطالب الفكرية .. ويندر ان يستحم او يمشط شعره ويغير ملابسه الداخلية ، يشرب كثيرا ويحوم اياما على غير هدى وبغير عمل . فاذا حزبه امر لازب قضى الليل والنهار فى العمل : ولا يخطر له على بال ان ينظم ساعاته ومواعيده »

هذه الرسالة وما فى معناها من التقارير محفوظة فى دار المخفوظات بمدينة ليبزج نقلها المترجم عن المجلد العاشر من أخبار الاشتراكية الالمانية

واذا كانت هناك تتمة لهذه الصـــورة المنفرة ، فهي مسلكه الشـــاذ الذى لا نظير له فى البيئة اليهـــودية التى نبت فيها ، فانه جمع فيه طرفى النقمة من قـــومه وعلى قومه فى آونة واحدة، فلا هو بالمســـلك الذى يرضى عنه قومه ولاهو بالمسلك الذى يرضى عنه أعداء قومه ، كأنما آلى على نفسه ليكونن بغيضا منفرا حيث كان وكيف كان

وتقدم من كلام « روهل » ان شعوره بالنسبة لليهودية كان مركبا من مركبات النقص التى يفسر بها تناقضـــه واختلال أحواله

كان ولاشك يهوديا فى أعمق أعماقه ، وكانت زمرته التى يأوى اليها على الاكثر من شذاذ اليهود ، وأصحاب الفضول منهم ، كما جاء فى كلام « باكونين » عنه ، وكان هو يتشبه بالاسلاف والآباء اليهود كما وصـــفتهم كتب التلمود ، فيرسل لحيته ويطلق جمته ويحب أن يتراءى للنـــاس كأنه أب من آباء العبرانيين فى ايام اسرائيـــل الاولى ، ولكنه لا يكتب عن اليهود واليهودية الا ليحاول أن ينفى عنه ذلك النسب اليهودى ، ولا يجد أمامه سبيلا الى التنصل منه غير سب اليهودية والانحاء عليها ، ومن كلامه فى ذلك : « ما الاساس العالمى الذى تقوم عليـــه اليهودية ؟ انه الضرورة العملية وحب المنفعة الذاتية . وما النحلة العالمية التى تنتحلها اليهودية ؟ انهـــا نحلة الطواف والتجوال ، وما الاله العـــالمى لليهودية ؟ انه المال .. »

ويجتهد « روهل » فى اســـتنباط البواعث النفسية وراء هذه الحملة فيعـــزوها الى الرغبة فى التنصـــل

وتسويغ الخروج على الملة الموروثة .. الا انه باعث من بواعث شتى يفرضها المترجمون له من انصاره وخصومه، فمنهم من يرى أن الحملة على اليهودية حيلة يسوغ بها الحملة على الاديان جميعها .. ومنهم من يرى أن هذه الحملة دفع مقدم لتهمة النية المبيتة على هدم المجتمعات القائمة وتسليم زمامها لسماسرة المال بعد تقويض القيم المرعية فى تلك المجتمعات من روحية أو وطنية أو عقيدة خلقية ، منهم من يرى أن الحملة على اليهود من قبيل التحدى لقومه لانه يحس منهم ازراية به وبأهله وبالصابئين عن ملة الآباء والاجداد

وكل باعث من هذه البواعث شائن معوج متناقض مع دعواه ، ولاسيما الانحاء على اليهودية لانها تقدس الضرورة العملية ، وتنزع الى الطواف والتجول .. فان هذه المذمة أعجب المثالب من رجل يقيم النظام الاجتماعى كله على الضرورات العملية ، ويدمغ الوطنية ـ أو حب الوطن ـ بتهمة السخرية والتسخير من تدبير أصحاب الاموال والقابضين بأيديهم على أزمة الانتاج

وبأى هذه البواعث يأخذ الناظر فى ترجمته لا يكون « كارل ماركس » الا ـ كدأبه المعهود ـ مثلا سيئا لليهودى فى انتسابه وانتقاضه على بيئته وعلى أصله الذى لا فكاك منه بحال من الاحوال

***

هذه صورة تامة ، وان تكن موجزة ، لامام الاشتراكية المادية أو الاشتراكية العلمية ، لم نأت على لمحة من ملامحها البينة من غير مصادرها ، ولم نرجع فى تلك المصادر الى اعدائه ومخالفيه الا ان يكون كلامهم مطابقا

لكلام الأصحاب والأقربين

ولا ندرى بعدها ماذا يقول القائل فى أولئك الذين يتركون الناحية الوحيدة التى ينبغى أن يتجه اليها الباحث قبل كل وجهة تصلح لمناقشة مذهبه أومناقشة دعوة من الدعوات تنضح بها هذه الشخصية المعتلة ، ومايختلف رأيان مستقيمان فى طبيعة بواعثها وصبغة تفكيرها وشعورها بما ينكشف للنية ومايأتى على غير وعى أو نية مكشوفة لصاحبها

كل ما فى وسعنا ان نقوله : ان طغيان كلمة « العلم » فى القرن التاسع عشر هو الذى وضع هذا المذهب فى موضع الفروض العلمية ، وان طغيان كلمة « العلم » قد اقترن به شيوع الثورات التى يقودها أناس من القائلين بالتفسير المادى للتاريخ ، فنسى الناقدون « العلميون » أن عناوين الثورات غير أسرارها ومضامينها وأن كثيرا من الثورات كان شعاره خرافة يردها العقل لاول نظرة ولا تحتمل المناقشة العلمية ممن يجد فى احترام العلم والمناقشة

ولولا طغيان كلمة « العلم » فى القرن التاسع عشر وظهور الثورات المسماة بالماركسية فى القرن العشرين لما كان للماركسية كلها مكان فى البحث غير مكان الظواهر النفسية ، فان الظواهر النفسية كما تمثلت فى « كارل ماركس » كافية كل الكفاية لتفسير مذهبه بجميع تفصيلاته وفروعه ومراميه : كل شىء فيه مقرر مؤكد على قدر نصيبه من النقمة ومن اشباع شهوة الحقد والكراهية وكل شىء فيه مرفوض منقوض اذا أبطل تلك الشهوة أو رفع عنها نقابها ونفذ الى دخيلتها

وهكذا يفسر كل مبدا من مبادىء « كارل ماركس » وكل حجة من حججه ، لانها على أية حال لم تبلغ من الثبوت واليقين مبلغا يهون نقض الدعائم الانسانية القائمة على رءوس الملايين من الضحايا مالم يكن ذلك مبنيا على طبيعة مجبولة من الشر والنقمة ، وان أيسر شك فى ثبوت تلك المبادىء لحقيق أن يدعو صاحبه الى مراجعة النفس والاناة قبل الهجوم على كوارثه وجرائره بغير حيطة ولا تدارك مستطاع بعد فوات الاوان

تلك هى الحقيقة السافرة على وجه المادية الماركسية

تلك حقيقة كل ادعاء يخول رجلا واحدا أن يحيط بقوانين الكون من مبدئها الى منتهاها ، ويجزم بها الجزم الذى لا يداخله شىء من التردد الكثير أو القليل مع وخامة عقباه

حقيقة أنه « ظاهرة نفسية » تتلخص فى بضع كلمات: « شهوة النقمة ، والخراب »

وسترى أن شهوة النقمة والخراب هى التى تصغى بالاسماع الى هذا المذهب الاثيم ، كما كانت هى مصدر الصيحة بوحيه ودعوته ودعواه



أتبـاع المذهب

نسبت الى الفلسفة الشيوعية حركات ثورية كبيرة ليست منها ولم تكن نتيجة لها ، فاكتسبت من نسبتها اليها شأنا غريبا أضافه الباحثون الى شأنها فى عالم التفكير فبحثوها على هذا الاعتبار ، كأنها فلسفة خطيرة التفكير حقيقة أن تتولد منها الحركات الثورية التى اقترنت باسمها ، ولولا ذلك لإنزوت الشيوعية وكتابها « رأس المال » فى مدرجة الاهمال كما انزوى غيرها من المذاهب والكتب ، ولم تظفر من الباحثين والقراء بعناية غير التى هى أهل لها بنظرياتها الملفقة ودعائمها المزعزعة وبراهينها التى لا تثبت على البحث النظرى ولا على التجربة العملية

واهم الحركات الثورية التى نسبت اليها الثورة الروسية ، بعد الحرب العالمية الاولى . وليست هذه الثورة فى رأى الشيوعيين انفسهم نتيجة للاطوار الاقتصادية والاجتماعية التى يقول « كارل ماركس » انها مقدمات لازمة لقيام الشيوعية ، وخلاصة هذه المقدمات أن تنتشر الصناعة الكبرى وتنحصر شيئا فشيئا بين أيدى المحتكرين حتى تستأصل كل طبقة فى المجتمع غير طبقة أصحاب الاموال المعدودين وطبقة الاجراء أو « البرولتارية » الذين تقوم على أيديهم الثورة

الشيوعية بعد استيلائهم على زمام الصناعة ..

فالبلاد الروسية كانت آخر البلاد الاوربية التي يصدق عليها هذا التطور ، وانما الثورة التي وقعت فيها بعد الحرب العالمية الاولى ثورة من ثورات الهزائم الكبرى التي امتلأ بها التاريخ القديم والحديث ، وكانت سببا لاسقاط كثير من الدول عن عروشها التي نخرها الفساد وتلقت أمام رعاياها تبعات تلك الهـزيمة وجرائرها ، مقرونة في أكثر الاوقات بتبعات العجز عن تدبير مصالح أولئك الرعايا

ولم يذهب عرش « رومانوف » وحده بعد هزائم الحرب العالميـة الاولى ، بل ذهبت معـه عروش « هوهنزلرن » و « هابسـبرج » و « آل عثمـان » وذهبت الهزائم قبل الحرب العالمية بأسرة « المانشو » في الصين على أيدي « سن يات سن » واصحابه من طلاب الاصلاح

وكل ماقيل عن نسبة الثورة الروسية الى الشيوعية، فانما مرجعه الى الفئـة التي كانت تدين بآراء « كارل ماركس » وتسلمت قيادة الثورة بعد تمرد الجيش على أسرة « رومانوف » .. ولكن الحركات الثورية في الصين وتركيا وألمانيا وغيرها قد آلت الى أيدي فئات أخـرى لا تنتسب الى الشيوعية ، وقد كانت الهزيمة الـكبرى هي المشابهة الوحيدة بين هذه الحركات في جميع البلدان، ولم تتفق على برنامج غير ذلك بعد قيامها على رءوس الحكومات

فالثورة الروسية بعد الحرب العالمية الاولى لم تكن من فعل الشيوعية ، ولم يكن من الممتنع عقلا أن تحدث

هذه الهزيمة قبل ظهور كتاب الشيوعية بنحو خمسين سنة بدلا من حدوثها بعد ظهوره بنحو خمسين سنة ، فان التاريخ حافل بأنباء هذه الهزائم التى أطاحت بالعروش ومهدت للحركات الثورية وقيام الدعاة من أصحاب المبادىء أو أصحاب المطامع السياسية

ولقد ذهبت هزيمة نابليون الاول بدولته وعادت بأسرة « البربون » الى عرشها القديم فترة من الزمن ، ثم ذهبت هزيمة نابليون الثالث بدولته وقوضت عرش فرنسا العريق لتقوم على انقاضه دعائم الجمهورية ، ومعها مبادىء الثورة الفرنسية التي تحقق منها ماتحقق ولايزال الكثير منها حبرا على ورق واسما على غير مسمى ، وكان ذلك قبل عصر « كارل ماركس » بقرابة مائة عام

فمن الواجب الفصل بين شأن المذهب الماركسى فى قيمة التفكير وبين الحوادث الكبرى التى أضيفت الى فكرته بفعل المصادفة ، فجعلت لها شأنا غير شأنها وانقذتها من الاهمال الذى كان حتما مقدورا عليها لولا تلك المصادفة ، فلو لم يكن « لينين » وأصحابه يقولون انهم ماركسيون لكان كتاب « رأس المال » — كما كان — رزمة من الورق اللغو يعجب قراؤه لما فيه من الخلط والترقيع وغلبة أهواء الشر على قواعد التفكير ، ولما كان له من موضع فى غير الدراسات النفسية للرجوع بهذه الاحنة الخلقية الى مراجعها من أثر البيئة والنشأة والتكوين ، ولعله لم يكن ليظفر بهذه الدراسة النفسية لخفاء اسم صاحبه وزوال الباعث لتمييزه بالدرس والاستكشاف

أما الحركات الثورية ، أو الدعوات الثورية ، التى تولاها الشيوعيون بعد قيام سلطانهم فى روسيا ، فكل ماكان لها من الصلة بالصناعات الكبرى أن الصناعات الكبرى حشدت الاجراء بالمئات والالوف فى صعيد واحد ، فاستطاع الدعاة توجيه الدعوة اليهم جملة والتأثير فيهم بأساليب التأثير فى الجماعات ، سواء كانت هذه الاساليب من مبتكرات العصر الحديث أو من المخلفات التى تقدم بها الزمن فى العصور الاولى

وقد حاول « كارل ماركس » أن يفرق بين أجراء الصناعة وأجراء الزراعة فى قابلية الثورة بفروق كثيرة تمحلها على طريقته فى الألتواء والتسلل وراء الاسباب الاقتصادية الخفية ، فقال مثلا « ان الاجراء فى الصناعة قابلون للثورة الاجتماعية لانهم لا يملكون شيئا فى المصانع وأن الفلاح الاجير غير قابل للثورة الاجتماعية لانه يملك بعض الارض أحيانا أو يملك بعض النتاج منها » ولكن سوابق التاريخ تعصف بهذا الهراء كله ، وتبقى حقيقة واحدة من أسباب الثورات الاجتماعية وهى أمكان اجتماع الثائرين فى مكان واحد أيا كان عملهم فى الصناعة أو الزراعة ، وتتم أسباب الثورة حين تقترن بها الدعاية وضعف السلطان أو ضعف الهيبة ممن يقبضون على أعنة الامور

حدثت امثال هذه الحركات الاجتماعية فى القدم قبل الميلاد بعدة قرون ، ولم تكن هناك صناعة كبرى ولا صغرى تجمع بين الالوف من الاجراء وبين أقطاب رءوس الاموال وملاك الصناعات

حدثت حركة كبيرة من هذه الحركات الاجتماعية بعد

الاسرة الفرعونية الرابعة ، لان الفلاحين تعودوا الاجتماع بالمئات والالوف فى بناء الاهرامات والهياكل ، ووجدوا أمامهم نزاعا مستحكما بين طلاب السلطان

وحدثت حركة الارقاء فى اسبرطة قبل الميلاد بأربعة قرون ، وهم الارقاء المعروفون باسم:الهيلوت (١) أو باسم الضواحيين(٢) وكلهم من الفلاحين زراع الارض بالحصة والمقاسمة فى الثمرات ، وقد تجمعوا بالالوف على مقربة من المدينة وهزموا قادة اسبرطة وألجأوا هذه المدينة الحربية الصارمة الى طلب النجدة من جيرانها ، فلم تقدر على صد الارقاء الثائرين الا بعد حوالى عشر سنوات

وحدثت حركة الارقاء فى الدولة الرومانية بقيادة «سبرتاكوس» (٣) (٧٢ق م) الرقيق الذى تعلم المصارعة وتمكن من جمع زملائه فى الرق ، فحشد منهم قرابة سبعين الفا ، ودوخ الجيوش الرومانية بحملاته القوية حتى استنفد جهود الدولة وكلفها أن ترصد له أكبر قوادها من طراز « كراسوس » (٤) و « بومبى » فلم يخمدوا ثورته الا بعد عناء شديد

وحدثت حركة الارقاء فى العصر الاسلامي بعد منتصف القرن الثالث للهجرة (وبعد منتصف القرن التاسع للميلاد) حين ثار زنج البصرة بقيادة على بن محمد بن عبد الرحيم ، وما برحت ثورتهم تحتدم وتخبو من أيام الخليفة المهتدى بن الواثق الى أيام الخليفة المعتمد بن المتوكل ، وتمكن هؤلاء الزنج من التجمع لانهم كانوا

---

(١) Helots (٢) Perioeci

(٣) Spartacus (٤) Crassus

يعملون فى الموانىء وسفن الشواطىء كما كانوا يعملون فى الزراعة ونقل البضاعة ، ولم يكن هؤلاء الارقاء ولا أرقاء « سبرتاكوس » أو الارقاء الهيلوت والضواحيون عمالا مسخرين فى صناعة كبرى أو صغرى كالاجراء المفروضين فى مذهب « كارل ماركس » بل كانوا فلاحين او حفارين فى المناجم أو حمالين على الشواطىء ، جمعتهم أماكن عملهم ووحدة الشكاية أو وحدة المصلحة بينهم فخرجوا من تلك الحركات الاجتماعية قبل عصر الصناعة الكبرى بأكثر من عشرين قرنا فى الزمن القديم ونحو عشرة قرون فى زمن الاسلام

وعملت فى كل حركة من هذه الحركات الاجتماعية عواملها المشتركة التى لابد منها فى جميع العهود ، وهى عوامل الدعاية والقيادة والهزيمة أو سقوط الهيبة وظهور العجز عن تدبير الامور من قبل الطبقة الحاكمة

ولا نعلم على التحقيق كيف كانت دعاية الثورة المصرية بعد عهد الاهرامات ، ولكن تفرق الدعاة والاسر فى الوجه القبلى على الخصوص مع شيوع الشكوى بين الفلاحين قد يدل على دخيلة الدعوة التى جذبت كل فريق من الثائرين الى زعيم من زعماء الاسر وطلاب العروش .

أما ثورة الهيلوت فالمعروف عنها كثير ، ومن هذا الذى عرف عنها انها رزقت القيادة الحسنة على يدى « أرستومين » و « أرستدمس » وجاءتها دسائس الفتنة الخارجية من جانب الفرس مسخرين لها أناسا من الطامحين الى الملك على رأسهم القائد « بوزانيوس » وأناسا من رؤساء العصابات كانوا على خطر دائم من فتك الشرطة الخفية المختصة بتعقب

الارقاء البارزين بين صفوف أبناء جلدتهم ، وكانت لهم خفية خاصة تترصدهم يسمونها الكربتية ، وتشبه الخفية القيصرية قبل الثورة الشيوعية فى نظام التجسس وحبائل الايقاع والاستطلاع

***

والمعروف عن ثورة الارقاء على روما اكثر من المعروف عن ثورة الارقاء على اسبرطة ، قياسا على اشتهار الانظمة الرومانية واشتباكها بالامم المحيطة بها ، فلا ينظر المؤرخ فى تفصيلات الحوادث التى انتهت بنشوب ثورة « سبرتاكوس » الا وجد فيها جميع العوامل التى تخلق هذه الثورات من الازمات السياسية والاقتصادية الى هزائم الحروب وسقوط الهيبة الى تحريف الدعاية وامكان حشد الثائرين فى صعيد واحد

تعاقبت الغارات على روما من برابرة الشمال فى القرن الاول قبل الميلاد ، وانقسم ولاء الجيوش الرومانية بين المشرق والمغرب وتضعضعت الحكومات القنصلية أو الشبيهة بالجمهورية ، ومهدت الطريق لقيام سلطان الاستبداد وظهور الحاكمين بأمرهم من القادة وزعماء العشائر ، وخابت آمال المصلحين فى برامج الاصلاح ، ومنها تقييد الملكية الزراعية ورسم الخطط الواسعة لتوزيع الارض والثروة بين الملاك الكبار والصغار بالتدريج

وكان الاخوان « طيبريوس » و « جايوس جراشى » قد استنفدا الحيل فى اقناع العلية واعضاء مجلس الشيوخ باعادة توزيع الارض العامة لزيادة عدد الملاك الصغار ، واستصدر أولهما من مجلس الشيوخ قرارا

بالحد الاقصى للأرض الزراعية العامة فجعله ثلثمائة فدان (سنة ١٣٣ ق م) ثم جاء أخوه فأراد أن يتوسع فى تعميم الحقوق السياسية وانشأ طائفة من المشترعين دون طائفة الشيوخ وكل اليها الحق فى محاسبة الولاة السابقين ومن اليهم من رجال الدولة ، وكانت هذه المنازعات على الحقوق السياسية والحقوق المدنية بداءة الانقسام بين طوائف العلية من سادة المجتمع الرومانى القديم

واتفق هذا فى الوقت الذى تتابعت فيه غارات البرابرة الشماليين على تخوم الدولة ، فكان عجز الحاميات العسكرية عن صد المغيرين حجة مقنعة سوغت للقائد « جايوس ماريوس » ان ينظم الجيش بقيادته ويستغل سمعته فى الحروب الافريقية للاستئثار بالسلطة فى حروب الدفاع عن تخوم الشمال ، وجر هذا الاستئثار الى انقسام الدولة بين جيش الوطن بقيادته وجيش الولايات بقيادة « كرنيلوس سولا » ، ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة لم تنحسم قبل انقضاء سنوات فى القلاقل والفتن والازمات خرج منها « سولا » منتصرا على « ماريوس » حوالى سنة احدى وثمانين قبل الميلاد ، فدانت له الدولة بالطاعة حوالى سنتين

ولم تنقض شهور على موت « سولا » (سنة ٧٨ق م) حتى تجددت المساعى الحثيثة التى تتجه من كل جانب الى هدم النظم والجمهورية ، واقامة السلطان المطلق بزعامة هذا أو ذاك من القادة المتنافسين . وفى هذه الفترة نشبت ثورة « سبارتاكوس » ووجدت لها أشياعا من أشتات الاسرى الذين جاءت بهم حروب الرومان فى تراقية — وطن « سبارتاكوس » — وبلاد الغال وسائر أرجاء الدولة الواسعة ، وكان منهم اناس لحقوا بالجيش وتدربوا

فيــه على الاعمال الحربية ، وأناس آخرون من رعاة الجنوب فى ايطاليا ممن كانوا يحملون السلاح لحمــاية قطعانهم (١) ، ويشتبكون فى حروب كحروب العصابات كلما ضعف سلطان الحكومة القائمة . فانقاد لـ «سبارتاكوس» جيش كبير من المقاتلة والمصـــارعين ، بعضهم من الارقاء وبعضهم من الشذاذ النافرين ، وتمكن من الانتصار على جيش الدولة بقليل من العناء (سنة ٧٣ ق م) ثم هزم الجيوش التى جردت لقتاله بقيادة القناصل والولاة فى بلاد الغال ، واستشرى خطبه حتى كاد أن يحكم البلاد الايطالية فيما وراء العاصمة ، ولم تقدر عليه الحكومة بجيوشها التى تخلفت من أيام النزاع وانقسام الولاء بين القادة ، حتى تصدى للامر رجل من رجال « سولا » الكفاة ـ هو القائد « كراســـوس » (٢) ـ فجند لقتاله جيشا جديدا تولى تدريبه وتنظيمه على يديه ، ودارت الدائرة على « سبارتكوس » فى معركة أبوليــــا (٣) (سنة ٧١ ق م) وقد كاد أن يفلت بفلول جيشه على أسطول من السفن الصغيرة عند مسينى ، ثم تبين أن الثائرين لم يكونوا جميعا من الارقاء المملوكين لســادة معروفين ، وأحصى منهم نحو ستة آلاف لم يعرف لهم سادة يملكونهم ولم تكن لاكثرهم سابقة فى الرق ، وانما كانوا مع طائفة من القتلى والفلول الهاربين ، ثوارا على الظلم والخلل ، وطلابا للحرية والحقوق الانسانية

والمعروف عن ثورة صاحب الزنج فى الدولة العباسية أكثر مما عرف عن ثورة الارقاء فى الدولة الرومانية ، لانها حدثت فى عهد تاريخى وافر المراجع والمآخذ قريب بالنسبة

---

(١) Latifundia
(٢) Crassus
(٣) Apulia

الينا فى أحواله وأوفاته ومصادر دعوته ودعواه ، وقد كانت الدعوة والدعوى معا كأوهن ماتكون الدعوات والدعاوى من السخف والتضليل .. ولكنهما فعلتا فعلهما المعهود مع ضعف الدولة واحتشاد الثوار فى مكان واحد وسهولة انتحال الحجة التى يستند اليها الثائر على الدولة القائمة ، فى أعنف أوقات النزاع بين العباسيين أصحاب السلطان والعلويين أصحاب الحق فى عقيدة الاكثرين من أبناء الاقليم وماجاوره من الاقاليم

ورواية اخبار هذه الثورة من وجهة نظر غربية أدنى الى التناسق مع أخبار الثورات من قبيلها فى تاريخ اليونان والرومان ، ولهذا نرويها هنا كما لخصها سير « وليام موير » (ا) فى كتابه عن تاريخ اضمحلال الخلافة ، اذ يقول من أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة (٨٦٩ م) ما يلى :

« أشاعت فتنة الزنج الذعر والفتك من حولها خمس عشرة سنة ، وكان زعيمها فارسيا انتحل النسب الى على بن ابى طالب ، فكان يدعو أول الامر بهذه الصفة الى بعض الآداب الروحية ، ثم ما عتم ان كشف عن خبيئته فاذا هو متمرد منتقض يسرى عليه لقب الخبيث . وكان يحوم فى شبه الجزيرة العربية قبل ذلك على غير طائل ، ثم رفع راية العصيان ونادى بالحرية لجميع المستعبدين ووعدهم بما لاحد له من الاسلاب والغنائم اذا التفوا برايته ، واتخذ له شعارا آية من القران كتبها على الراية تبطل الرق وتلغيه : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن) وفسر الآية بأن الله اشترى الرءوس والاموال فلا يملكها احد . ولم يكن بالمستغرب من العبيد الذين علمهم ان يهينوا سادتهم ان يهرعوا اليه بالالوف ومعهم أهل البادية من طلاب الاسلاب والغنائم . أما اسم الزنج فمعناه «الاثيوبيون» من اوشاب القارة الافريقية ، ومن

---

(1) Muir

هنا نسب اليهم الفتنة فسميت بفتنة الزنج . وكانت سنة خمس وخمسين ومائتين بداءة عصيانهم ومجاهرتهم بالقتال ، وتلتها سنتان انتشروا فيهما بين جوانب وادى النهرين وشواطئ قارون الى الاهواز، فبسطوا أيديهم من ثم على هذه الانهر .. وشجعهم النجاح فأغاروا فى سنة سبع وخمسين ومائتين (٨٧١ م) على البصرة واقتحموها واعملوا فى الاهلين كل منكر وفظيعة. ثم نادوا بالامان غدرا فقتلوا كل من اغتر بأمانهم من جمهرة السكان المخدوعين ، وهدموا المسجد الكبير واشعلوا النيران فى المدينة كلها . وقد راع الخليفة مقتربهم من عاصمة الخلافة فأنفذ الموفق على رأس الجيش لقتالهم .. فنشط للقتال نشاطا قويا ، ولكنه لم يظفر بهم الا قليلا فى المعارك الاولى لاضطراره الى وقف القتال حينا بعد حين ، واشتغاله بدرء المخاطر فى مواقع أخرى من الدولة

ولقى موسى ، وغيره من القادة ، مثل هذا الفشل سنة بعد سنة ثابر الزنج خلالها على الغارة مع ما كانوا يمنون به من الهزيمة فى بعض المعارك ، وجعلوا يغيرون على العراق وخوزستان والبحرين عصابات متفرقة أو جموعا مصفوفة، فنهبوا الاهواز واتخذوا « واسط » معسكرا يشنون منه حروب التخريب والتقتيل ، وانقضت على البلاد التسعة عشر سنين من الشقاء والفزع ، ثم فرغ لهم الموفق بعد الخلاص من الاعداء الخارجين فوحد الجيوش تحت قيادته وقيادة ابنه المعتضد ، ودارت الدائرة من ذلك الحين على جموع الارقاء ، فطردوا اولا من خوزستان ودفعوا الى الجانب السفلى من النهر حيث استعصموا بالمواقع الحصينة واحتموا بالاقنية والجداول المحيطة بها ، ولا تزال اخبار المعارك التى تلت ذلك نحو خمس سنوات محفوظة تروى بتفصيلاتها المسهبة المملة ، وأجلى العدو من مواقع كثيرة ولكنه لبث بعد جلائه عن تلك المواقع ثلاث سنوات مستعصما ببعض الحصون لانقطاع الحصار فترات متوالية من جراء اصابة الموفق بجراح أقعدته عن العمل السريع ، واخذ الثوار يتسللون زرافات زرافات الى الموافق فيقبل منهم التوبة برفق وسماحة ، وبلغ من رفقه وسماحته أنه اعلن العفو عن المسىء الاكبر فأعرض عنه بصلف وقحة . ثم سقطت القلعة وعاد كثير من النساء السبايا الى ديارهن ، ووقع الخبيث فى الاسر وهو يمعن فى الهرب فقتل وحمل رأسه حيث رفع على مشهد من الجموع المتكوفة فخروا سجودا يشكرون الله على النجاة من شره .. »

***

وتلخيص « موير » هذا لفتنة الزنج ، يصدر عن نظرة تاريخية على الحيدة بين الداعية والدولة التى يثور

عليها ، فلا يمتزج بالغضب الديني الذى يشعر به المؤرخ المسلم وهو يتكلم عن فتنة من فتن المروق والاباحة والافتراء على العترة النبوية ، وهى فى رواية « موير » على نسق تام مع الثورات التى من قبيلها وان تفاوتت أبعد التفاوت فى الازمنة والأمكنة وأجناس الثوار ومطالبهم وعقائدهم التى يأخذون بها أو ينتقضون عليها، فكلها ثورات حصلت لانها أمكنت ، وكلها ثورات امكنت لانها ثورات اناس من أصحاب الشكايات الاجتماعية أو المنتفعين بالقلاقل والفوضى حيث كانت ، تجمعوا فى صعيد واحد واستضعفوا السلطان لما منى به من الهزيمة والعجز .. فاستخفوا بأمر الخروج عليه ؛ ولا يلزم من ثوراتهم هذه أن يكونوا من الفلاحين أو الصناع أو « العاطلين » ، ولا أن تتقدم ثوراتهم أو تتأخر حسب الاطوار التى يرتبها « كارل ماركس » على هواه

أما هوى « كارل ماركس » فهو أن تكون الثورة ــ تطبيقا لرأيه فى الصناعة الكبرى ــ محصورة فى « البرولتارية » التى تأتى بعد نبوءته آخر الزمان ، لأنها لو لم تكن محصورة على هذا النحو لما جاز أن يتطرق منها الى هدم المجتمعات كافة وانكار الماضى بحذافيره ، ولكان حكمها فى العصر الحاضر كحكم تلك الثورات التى انقضت بانقضاء أيامها وجرى التاريخ بعدها فى مجراه ، غير مقيد بالخطة التى رسمها له ولم يأذن له بالانحراف عنها يمنة أو يسرة الى غير نهاية !

ولقد اتجهت فى الزمن الحاضر ــ قبل منتصف القرن العشرين ــ دعوات ثورية الى جماعات من الاجراء غير دعوة الشيوعية ، فاستجاب لها أولئك الاجراء حينما

انخدعوا بوعودها وأمكنهم أن يستجنبوا لها ، واستثيرت حماستهم تارة باسم الغيرة الوطنية التي يحسبها «كارل ماركس » فى أكاذيب الطبقات ، وتارة باسم الدين أو باسم مذهب واحد من مذاهب الدين ، وكان أناس من هؤلاء الاجراء يعملون فى الصناعات وأناس منهم يعملون فى المجازر التى تتجر باللحوم ولا تتوقف أعمالها على صناعات العصر الحديث .. وعلى هذا المثال كانت دعوة « بيرون » وزملائه فى الارجنتين ، وكانت دعوات مثلها بين شعوب أمريكا الجنوبية من جميع الاجناس والنحل والاعمال

وليس من جديد الشيوعية الماركسية ، أو من أفانينها المستحدثة ، أن تستهوى اليها اناسا متفرقين فى المجتمعات غير الاجراء وأصحاب الشكايات الاجتماعية .. فهذا الاستهواء ميسور لكل دعوة تتجه الى الغرائز الخسيسة ، وتزين لاصحابها رذائلهم التي تسقطهم وتذلهم كلما قيسوا بمقاييس المجتمعات القائمة . وكل داعية يشفى حزازة الحسد والكراهية بين المحرومين أو غير المحرومين ، فهو على ثقة من استهواء الاسماع واستدراج الانصار الذين يتهوسون بمثل هذه الدعوات تهوس الجنون ، لانها تخاطبهم من كل ناحية مرذولة يتحرزون على التخلص منها ، وتقودهم بزمام الضغينة العمياء والعدوان المتحفز والهوان الجاثم على الصدور من رواسب آلاف السنين .. وما من شيء يجعل العقل البشرى بعيدا غاية البعد عن النظرة العلمية كتلك الحالة التي يتطلبها دعاة الماركسية من المدعوين اليها ، وهى حالة الضغينة المتحكمة والغرائز المتمردة والجموح الذى لا يخجل من عرف أو شريعة أو حياء .. وكل وهم من الاوهام الحمقاء

أو باعث من البواعث البهيمية فهو مصدق عند من تتحكم فيه تلك الحالة بغير سند أو برهان ، على النقيض من جميع الاسناد والبراهين .. ويا له من علم ذلك العلم الذي تتمخض عنه طبائع دعاة من طراز « كارل ماركس » وتتلقاه طبائع المدعوين اليه من صرعى الاحقاد والغرائز العمياء

وانك لتنظر الى كائن من كان من المستعدين لسماع تلك الدعوة ، فلا تخطىء الصفة الغالبة عليه أو الصفة المتحكمة فى أهوائه بين مايرضاه أو يأباه ، ولا تكون تلك الصفة فى أحد منهم بمعزل عن الانانية المطبقة والاتهام السريع ولو فيما بينهم من أقرب المقربين ..

فلولا الشغلان الشاغل بنوبة العلم فى القرن التاسع عشر ، لما جاز أن تحمل على المحمل العلمى سخيمة الماركسية التى لا محل لها فى غير الظواهر النفسية ، سواء اخذناها من مصدرها فى نفس داعيتها او أخذناها من مآلها فى نفوس المصغين اليها ، أو أخذناها من الشعور الذى تعول عليه آخر الامر وهو شعور اليأس المستميت الذى يقال لاصحابه: انكم تصدقون الشيوعية كما تصدقون غيرها لأن خراب العالم لا يعنيكم ولا تفقدون فيه غير قيودكم !

والعلم لايسمى علما ان لم نعرف ما يناقضه ، أو يناقض طبيعته على وجوه الدعاوى السافرة .. ولاسيما الدعاوى التى تجر وراءها هدما معجلا لكل ما بناه الناس من شتى الامم فى مختلف العصور ..

وأى شيء نعرف من العلم انه مناقض لطبيعته ان لم نعرف ذلك فى دعوى المدعين ان قوانين الكون الابدية تكشفت فى مدى التاريخ الاجتماعى ، وباحت بأسرارها

لعتل واحـــد يتحكم فى مجرى التاريخ المقبل الى غاية مداه ؟ ..

وأى أسرار ، هذه الاسرار التى لا نقض لها ولا معقب عليها ؟ ..

تلك الاسرار هى تعريف قيمة السلعة ، او تعريف الطبقة الاجتماعية ، او تعريف المادة ، أو تعريف التفسير المادى للتاريخ بعد تعريفها ..

ولا نقول ان العلم يرفض كل هذه التعريفات لأول نظرة أو يحكم بالبطلان على وجوهها السافرة .. ولكننا نقول مقال اليقين ان العلم الذى يزعم أن هذه التعريفات بلغت مبلغ الثقة الجازمة التى تتحكـم فى ماضى بنى الانسان ومصيرهم بغير نقض ولا تعقيب ، انما هو خرافة من أجهل الخرافات التى تحوم على العقول البشرية ، وان خرافة من خرافات العجائز فى عصور الظلمات لا تتطلب من غفلة التصديق ما يتطلبه قبول تلك الخرافة بعد بحث او بغير بحث على الاطلاق

على أن المطلوب من العقـل البشرى أمام هذا العـلم المضـحك ، أضـــخم جـــدا مما تتطلبه خرافات العجائز وخرافات الاســاطير وكل ضرب من ضروب التخـريف يطيف بعقل انسان ..

اذ يطلب من العقل أن يصدق ـ بناء على هذه التعريفات ـ ان طبيعة الانســان سوف تتبدل بعد مآل الصــناعة الكبرى الى أيدى الاجراء فلا منافسة ولا سباق الى النفوذ ولا اختلاف بين الظواهر والبواطن ولا أثر من آثار الشرائع والقوانين التى تدعو الى قيام الحكومات .. وهذا ثابت مقرر لا شك فيه عند هذا العلم البديع الذى ليس بخرافة

وليس بأفيون للشعوب ، وكيف كان ثابتـا يا ترى ؟ ..
كان ثابتا لأن مآل الصـناعة الكبرى الى ايدى الاجـراء ثابت إيضا ثبوتا لا شك فيه عند هذا العلم البديع الذى ليس بخرافة ولا بأفيون للشعوب !

وما من رأى بين هذه الآراء ثابت كل الثبوت ، ولو انه ثبت كذلك لما لزم منه ثبوت النتائج التى يرتبونها عليه ، ولكنها انما تثبت لسبب واحد عند هؤلاء العـلماء غير الواهمين وغير الحالمين ؟ تثبت لأنها لازمة لاشباع شهوة النقمة والخراب .. ولو بطلت شـهوة النقمة والخراب لحظة واحـدة لسقطت من قمتها الى أساسها ترابا على تراب وهباء على هباء

ومن العلم الصحيح الذى لا شـك فيه ـ بحق ـ أن الدعوة الماركسية ظاهرة نفسـية ، اذ كان كل رأى من آرائها ، وكل نتيجة من نتائجها تفسر بتفسيرات الظواهر النفسية ولا تلجئنا الى تفسيرات غيرها

والظواهر النفسـية تفسر تلك الدعوة من الالف الى الياء .. وتشرحها على اوضح ماتكون لمن اراد انيستكنه بواطنها من جانب العقل أو جانب الشعور

أما التفسير المادى للتاريخ ، فلا يفسره لنا ولو اخذنا بقواعده وقضاياه .. لان المادة ـ اذا صح أنها تفسر كل معلوم ومجهـول ـ لم يكن من حق « كارل ماركس » أن يحتكر تفسيرها على أصح الوجوه ..

وسنرى مكان الدعوة الماركسية من العلم ومكانها من الظواهر النفسـية ، ونرى بعد المقابلة بين مكانيها ماذا يبقى من أصولها وفروعها اذا أخرجنا منهـا طوية النقمة والخراب

بواعث الشكاية

من العبارات الجارية مجرى المثل فى مصطلحات الماركسيين أن « مذهب هيجل » قلب الحقيقة رأسا على عقب ، فأقامها على رأسها فى التراب بدلا من قدميها

ان صحت هذه العبارة فى مذهب من المذاهب ، فهى أصح ما تكون فى مذهب « كارل ماركس » عن دوافع الاصلاح ..

ان المشاهد فى الواقع ، والمعقول فى التفكير المستقيم ، أن الاسباب المادية لا تغير حالة من حالات البشر الا اذا تحولت الى أسباب نفسية يشعرون بها ، فان الفقير الذى لا يعلم أنه فقير لا يفكر فى تغيير حاله ولا ينساق الى عمل شعورى أو غير شعورى لتغيير تلك الحال ، وكذلك الفقير الذى يعلم أنه فقير ولكنه لا يكترث لما به ولا يبالى أن يغيره أو يتطلع الى تغييره ..

أما مذهب « كارل ماركس » فهو يقلب هذه الحقيقة رأسا على عقب ويقيمها على رأسها بدلا من قدميها ، فيقول: ان الاسباب النفسية لا تغير حالة من حالات البشر الا اذا تحولت الى أسباب مادية ، ثم يضطرب فى بيان هذه الاسباب المادية اضطرابا يترنح به بين النقيضين ، مع أن المذهب كله قائم على أساس هذه الاسباب

. وتاريخ القرن التاسع عشر الذى ولد فيه «كارل ماركس» أسبق التواريخ الى نقض مذهبه والابانة عن خلطه واضطرابه ، لانه أسبق التواريخ الى اثبات اثر الحالات النفسية فى حركات الاصلاح أو حركات الثورة والانقلاب

كانت فى القرن التاسع عشر — فى القارة الاوربية — شكايات كثيرة قاسية ، شرحها مؤرخوه ومصلحوه ولايزال المؤرخون والمصلحون يشرحونها الى اليوم .. ولم يحاول أحد قط أن يتجاهلها ويداريها او يخفف من سوئها ولا من استياء المستائين منها . بل الواقع أنها لقيت من أهل القرن عناية لم تلقها شكايات القرون الغابرة من ابنائها ، فنشط المصلحون للبحث فى عللها ووسائل علاجها .. وظهر من مذاهب الاصلاح فى مدى خمسين سنة اضعاف ماظهر من هذه المذاهب فى القرون الاولى ، وكانت كلها من المذاهب القائمة على القواعد الاشتراكية وقواعد المساواة بين الآحاد والطوائف والطبقات

والقرون الاولى — مع هذا — لم تكن خالية من شكاياتها الكثيرة القاسية ، بل كان كل قرن منها له كفايته وفوق كفايته من الشكايات الكثيرة القاسية . ولو رجعنا القهقرى من القرن التاسع عشر الى القرن الاول للميلاد ، لوجدنا فى كل فترة من فترات هذا الزمن حادثا بارزا من كبريات الحوادث التاريخية يترجم عن شكاياته ومساوىء أحواله .. فلا نرجع قليلا من القرن التاسع عشر حتى يصادفنا عصر الثورة الفرنسية وقبله عصر الهجرة الى أمريكا والبلاد الشرقية ، وقبله عصر الاصلاح والازمات الدينية العلمية ، وقبله عصر الحروب الصليبية ، وقبله عصر الظلمات فى القرون الوسطى وأوبئتها ومنازعاتها وأزماتها ، وقبله عصر انحلال الدولة الرومانية ، وقبله عصور أخرى لاتنقطع

فيها الشكايات الكثيرة القاسية ولا الحوادث الكبرى التي تترجم عنها

والشكاية الحاطمة ـ وهى شكاية الفقر ـ لم تكن من طوارىء القرن التاسع عشر على القارة الاوربية ، فان الاوربى فى القرن التاسع عشر كان أقل فقرا من أسلافه قبل قرن واحد وقبل عدة قرون ، وكان أقرب الى الكفاية فى المعيشة من أولئك الاسلاف ، ولكنه كان أقوى شكاية وانشط حركة فى طلب التبديل والارتقاء ممن كانوا قبله اسوأ حالا وأفقر يدا وأدنى الى الحرمان وابعد من الكفاية . .

وسبب ذلك أن الاوربى فى القرن التاسع عشر ، كان اعرف من اسلافه بحقوقه ، واشد شعورا بالحرمان من اولئك الذين سبقوه وزادوا عليه فى مضانك الحرمان . .

هذا هو الباعث المهم الى ثورات الاصلاح فى القرن التاسع عشر ، وهو الباعث الذى نلمحه من النظرة الاولى ثم نتبينه من النظرات الطويلة المتوالية ، بعد انعام التأمل والدراسة . . فلم تكن الثورة فى طلب الاصلاح على قدر التقدم فى أدوار الصناعة الكبرى كما يريد «كارل ماركس» أن يقرر فى مذهبه ، بل كان على قدر الحاجة الى الحرية والاعتراف بحقوق المساواة

« ماركس » نفسه شاهد من الشواهد المطبقة على صحة هذا السبب ، فانه هو وزملاؤه من الألمان دعاة المذاهب الاشتراكية قد نشأوا فى بلاد متوسطة بين عصر الاقطاع وعصر الصناعة الكبرى ، وقد نشأ دعاة الثورة الروسية المعاصرون له فى بلاد لم تخرج بعد من عصر الاقطاع ولم تكن لها صناعة كبرى تذكر بين أقطار الصناعة

أما البلاد التى تقدمت فى الصناعة الكبرى ، كالبلاد

الانجليزية ، فهى التى قلت فيها الدعــوة الى الثــورة ، وعظمت فيها الدعوة الى الاصلاح عن طــريق الوســائل الدستورية .. وهى البلاد التى أخرجت دعوة الفابيين(١) الذين يؤمنون بامكان التعاون بين مذاهب الاجتماع ، كما أخرجت النقابات التى تعول على الانتخاب وقوانين البرلمان، وتليها فى هذه الوجهة ، درجة او درجات ، بلاد اخرى من القارة على حسب نصيبها من الحرية ، وفى مقدمتها فرنسا وبلاد الغرب والشمال

كانت الدعوة الى الثورة تشتد على حسب الشــعور بالحاجة الى الحرية ، وكانت الدعوة الى الاصلاح السلمى تشتد على قدر التقدم فى الصناعة الكبرى .. خلافا لما قرره « كارل ماركس » وشيعته رأسا على عقب ، ووفاقا لما هو معقول ومشهود

وقد كانت الثورة فى طلب الحرية عامة فى أنحاء القارة على اختلاف درجاتها من الصناعة ، وعلى اختلاف أطوارها من وسائل الانتاج ، وكلما قلت الحرية زادت حدة الثورة وشدة الانقلاب

كان لزاما على « كارل ماركس » وشيعته ، اذا ناقضوا هذه الحقيقة ، أن يثبتوا حقيقتهم المزعومة اثباتا قاطعا يمتنع فيه كل اختلاف .. كان لزاما عليهم أن يزيلوا كل لبس يحيط بآرائهم فى وسائل الانتاج التى يحســبونها قضاء أبديا يناط به التغيير والتبديل من اوائل التاريخ الى نهايته القصوى ، او الى غير نهاية .. كان لزاما عليهم ان يحققوا السبب الذى يرونه كافيا للاصرار عــلى قلب الدنيا وهدم المجتمعات دون ان يلتفتوا أقل التفــاتة الى احتمال الخطأ فيه ..

---

(١) Fabians

ولكنهم على خلاف ذلك ، قد تركوا وسائل الانتاج لغزا مبهما يتيهون فيه ، ولا يفضي بهم التيه الى ملتقى متفق عليه ..

ما وسائل الانتاج ؟ .. أهي الآلات الصناعية ، أم هي الطبقة المشرفة عليها ؟ .. وهل الطبقة هي التي تنشيء وسائل الانتاج ، أو وسائل الانتاج هي التي تنشيء الطبقة ؟ ..

تلك مسألة ليست بالمسألة الهينة التي يجوز فيها اللبس ويستبيح الباحث ان يتركها عرضة للتأويل والتخريج أو للتمحل والتهريج، لأنه يستبيح بها ما لم يستبحه احد قط من قبله ، ويعلق عليها القرار الاخير في أمر لا غنى فيه عن اليقين كل اليقين .. ولكن هذه المسألة التي ليست بالهينة ، قد هانت على « كارل ماركس » وشيعته كأنهم لا يبالون نتائجها او يحبون تلك النتائج حبا يعميهم عن كل عاقبة وكل مصير ..

فوسائل الانتاج تارة هي الآلات الصناعية حيث يقول في رسالته الفكرية الالمانية (١) : « ان طاحون الريح تعطيك مجتمعا يتولاه سيد الاقطاع ، وطاحون البخار تعطيك مجتمعا يتولاه صاحب رأس المال في الصناعة » ..

ووسائل الانتاج تارة اخرى هي الطبقة المستولية على المجتمع ، حيث يقول في البيان المشترك الذي كتبه مع « فردريك انجلز » وقيل عنه : انه أهم في بيان الشيوعية من كتاب رأس المال : « ان الطبقة البرجوازية لا يمكنها ان توجد بغير تطور دائم في أدوات الانتاج يغير علاقات الانتاج ، ويغير من ثم علاقات المجتمع بأسره » ..

---

(١) Dutch Ideology

أما فى كتــاب « رأس المــال » فيكفى أن تعرف آلة من آلات الزمن القديم لتبنى عليها تركيب المجتمع كله ، وفى هذا المعنى يقول فى الجزء الاول : « ان آثار آلات العمل الغابرة تؤدى للباحث فى أحوال المجتمع الاقتصادية التى مضــت مهمة كالتى تؤديها عظام الحفريات للبــاحث عن أنواع الحيوان المنقرضــة .. وليســت آلات العمل هى المميزة بين الادوار الاقتصادية ، بل كيفية صنعها والادوات التى صــــنعتها هى التى تميز لنــا تلف الادوار .. وان أدوات العمل لا تبين لنا درجة التطور الذى بلغه العمل الانسانى وحسب ، بل هى دلائل على الاحوال الاجتماعية التى يجرى فيها العمل »

***

وهذه العبارات وما فى معنــاها تتفرق فى كتــابات « كارل ماركس » وزميله « فردريك انجلــز » وأقطــاب الشيوعية بمثل هذا التناقض أو أشد منه ، كما سنرى عند البحث فى مواضعها فى هذا الكتاب ، وكلها لا تنجلى عن موقف محدود فى هذه المشكلة الخطيرة التى تقف بنا بين ضفتين : هذه للهدى والفلاح ، وهذه للضلالة والخسارة بلا هوادة بينهما ولا شفاعة ولا سلام ..

فهل طاحون الهواء هى التى تعطينا أرباب الاقطاع ، وطاحون البخار هى التى تعطينا أرباب رأس المال ؟ أو ان الامر على نقيض ذلك ، والطبقة الاجتماعية هى التى تخلق آلاتها وتتطور بها على حسب أطوارها ؟ .. ان كانت الآلة هى الحكم فى وسائل الانتاج ومصائر الجماعات ، فالارادة الانسانية أحط من الآلة الصــماء لانها ــ بنتــائج عملها ــ آلات فى أيدى الآلات . وان كانت الطبقة الاجتماعية هى التى تخلق آلاتها وتتولى أطوارها ، فمن الواجب اذن أن

نتجه بالبحث الى نفس الانسان أو نفوس الناس .. ولا محل اذن لكل هذه الطنطنة بالانتاج والمباحث العلمية فى الانتاج والادوار التاريخية التى نحصرها فى وسائل الانتاج ..

ولابد من الفصل بين القولين ، لان القول بأحدهما نقيض القول بالآخر ، وترك الامر فيهما بغير فاصل محدود خليق أن يدور بنا حتما فى متاهة خفية بين الحد الذى تبتدىء منه الارادة الانسانية والحد الذى تنتهى اليه وتسلم المصير كله للآلات والمكنات ..

ولا ينفعنا أن نلفق هذه البداية وهذه النهاية فى أعماق الطبيعة البشرية أو فى معادن الآلات الصناعية ، لاننا اذا لفقنا الخليطين المشتركين فى الانتاج بقى أمامنا ان نعرف كيفية صنع الآلات وان نعرف الكيفية التى يدار بها كل نمط منها فى نظام بعد نظام ..

ومن حق كل قارىء أن يقول لدعاة الشيوعية : اننى أريد منكم حدودا واضحة فى هذا الامر الخطير لانكم تدعوننى الى هدم العالم بلا هوادة ولا اصغاء الى قول غير الذى تقولون أو رأى غير الذى ترون ، فلا أقل من اليقين قبل الهجوم على هذه الغاية التى لا رجعة فيها..

ولكن طبيعة الدعوة المبنية على الضغينة وشهوة الدمار انما تلوح لنا فى طبيعة المستجيبين لذلك الهذر الملقى اليهم باسم العلم والدراسة الواقعية.. فانهم لا يستجيبون له الا اذا كانوا قد وضعوا فى أذهانهم أن يهدموا أولا وأن يستمعوا لصوت الهدم قبل كل صوت ، ثم يأتى الاقناع أو لا يأتى بعد ذلك فهما لديهم مستويان ..!

والواقع انهم يقدمون على الهدم لاقل من ذلك الخلاف بين المعسكرين ، معسكر الشيوعية ومن ينكرونها كل الانكار ..

يقدمون على الهدم ، ويصرون عليه ، ولا يلتفتون لاحتمال الصواب كلما اختلفوا على التفصيلات الصغيرة التى يختلف عليها أتباع كل مذهب متفقين على جملة الاصول ، يقدمون على الهدم ويصرون عليه ولا يتركون متنفسا لاحتمال الصواب فى المخالفة كلما اختلفوا على التفصيلات الصغيرة التى يختلف عليها أتباع كل مذهب متفقين على الأصول .. ومن أقطابهم ـ نظراء « كارل ماركس » فى مقامه بينهم ـ داعية البلشفية « لينين » وحامل العلم فى قيادة الثورة الروسية ، فانه خولف قبل الثورة فى بعض تفصيلات الدعوة يوم انقسم البلشفيون والمنشفيون ، ثم اجتمع مؤتمر ستوكهلم للتوفيق بين الفريقين فأذعن « لينين » لقراره ثم ناقضه بالحملة على المنشفيين فى اللحظة الاولى ، وأعلن هذه الحملة قبل أن تنقضى على القرار بضعة اسابيع .. وانعقد مجلس الحزب لمحاكمته على سوء مسلكه مع أعضاء حزبه فتقبل المحاكمة وحضر للدفاع عن مسلكه ، فاعترف بخروجه فى لهجته عن آداب الخطاب بين أعضاء الحزب الواحد ، ولكنه قال كما جاء فى المجلد الثالث من مختاراته : « انه لا يعتبر مخالفيه أعضاء فى حزبه ، بل يعاملهم معاملة الاعداء ويتخذ فى مناقشتهم أسلوبا مقصودا لاثارة البغضاء والنفور والازدراء .. مقصودا لغير الاقناع بل لتحطيم الصفوف .. أو مقصودا لغير تصحيح الخطأ بل للاتلاف ومحو الخصم من ظهر الغبراء ..

« وهذا الاسلوب الذى استخدمته انما يراد به أن يثير أقبح الظنون وأقبح التهم والشبهات حول الخصم ، ويدعو حقا على خلاف أسلوب الاقناع والتصحيح الى بلبلة الآراء بين الطبقة العاملة .. واذا سئلت : أأنت معترف بأن هذا الاسلوب غير مقبول ؟ فجوابى : نعم ..

مع قيد صغير وهو انه غير مقبول بين اعضاء حـــزب متحدين ، وانما يعنى الاختلاف بينهم فصم كل عروة من عرى الالفة والوئام ونقل العراك من التأثير داخــل الحزب الى التأثير فى خارجه أو نقله من الصحيح واقناع الزملاء الى هدم نظامهم واهاجة العمـــال عليهم ومع العمال جمهرة الشعب على الاجمال »

ولا شك ان هذا سبب ــ كلا سبب ــ لاستباحة كل هذا الشطط فى الهدم والتشهير والتحقير واثارة الشحناء والعداء .. واذا كان هذا كله مستباحا لمجرد الاختلاف على الراى بين اعضاء الحزب الواحد ، فلا حاجة الى سبب لاستباحته واستباحة ماهو أنكر منه فى الخلاف بين الشيوعيين ومن ينكرون مذهبهم ويخـــرجون على حدوده ، وان لم تكن له حدود واضحة للمؤمنـــين أو المنكرين ..

وانه لمن الخزى لهؤلاء المفسدين أن الحقيقة تصدمهم ولا تدعهم فى غفلتهم عنها ، لانها اكبر من ان يحجبها التجاهل والاســـتخفاف .. وان وجوه الاعتراض على ارائهم تأتيهم من حولهم ومن داخل معسكرهم فلا تغيب عنهم طويلا بين المناقشات والمساجلات التى لا مناص منها، ولكنهم يعرضون عنها لانهم منصرفون عن كل خاطر يشككهم فى غايتهم من الهدم والشحناء .. مغضبون بكل ما فى طبائعهم المريضة من لدد واصرار على الجانب الذى يخالف وجوه الاعتراض ولا يقبل التريث فى مناقشتها ، فاذا اعترفوا بها فانما هو اعتراف المضطر الى حين ، ثم لا يترتب على ذلك الاعتراف تبديل أو تعديل فى الغاية التى لا ينصرفون عنها بحال ..

وربمـــا كان من ممهدات العذر لهم أن يجهلوا وجوه الاعتراض ولا يخرجوا من نطاقهم الضيق الى ما وراءه من

الفروض والآراء .. فاما الخزى المحيق بأولئك المفسدين، فهو استخفافهم بدفع كل اعتراض يشككهم فى شهوة الهدم والكراهية مهما يبلغ فى الحاحه عليها من جانب الاتباع أو الناقدين ..

انهم أمعنوا فى تهوين العوامل الانسانية فى مجرى التاريخ جيلا كاملا بغير تراجع ولا مبالاة .. وأملى لهم فى هذا الغلو أن دوافع الثورة فى القارة الاوربية كانت على اشدها حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، فلم يشعروا بالحاجة الى الاناة والاعتدال ولم يصادفهم ما يكبحهم عن الشطط الذى يتمادى فيه من شاء فى أيام الفتنة ، ولا يستطاع التمادى فيه مع استقرار الامور .. فلما يئسوا من تحقيق الانقلاب العاجل واحتاجوا الى مزيد من الاقناع وقليل من العنف والجماح ، تراجعوا واعترفوا بعض الشىء بأثر العوامل الانسانية أو أثر الفكرة فى حوادث التاريخ وحركات الاصلاح ، وكتب «انجلز» فى سنة ١٨٩٠ الى طالب يسأله جلاء الشك فى هذه المسألة فقال :

«انه على « ماركس » وعلى انا يقع بعض التبعة فى توكيد العوامل الاقتصادية واعطائها فوق ما تستحقه من التقرير ، وقد كنا أمام حملات خصومنا مضطرين الى توكيد المبدأ الاصيل فى دعوتنا لانكارهم اياه . ولم يتسع لنا الوقت كل حين لابراز العوامل الاخرى بين الفعل ورد الفعل من العوامل المتعددة »

وقال « انجلز » فى خطاب آخر : « انه على حسب الادراك المادى للتاريخ يكون العامل الفعال فى اللحظة الاخيرة عامل الانتاج والتثمير فى الحياة الواقعية . وما حدث قط من «ماركس» ولا منى اننا قررنا غير ذلك» ولكن الذى يحاول أن يجعل العامل المادى وحده فعالا فى التاريخ يخرج بالعبارة من معناها الى كلام مجرد بغير معنى .. فالعامل المادى هو المهم فى الاساس ولكن العوامل الاخرى السياسية وغير السياسية — من دساتير وشرائع ومؤثرات ذهنية ونظريات فلسفية وعقائد دينية — كلها يسيطر على منازعات التاريخ وتقرر أشكالها فى كثير من الاحيان (١) »

(١) رسائل «انجلز» التى نشرت فى الـ Socialistische Acadamiker شهر اكتوبر سنة ١٨٩٥

وليس لهذا الاعتراف من نتيجة معقولة الا ادحـــاض المذهب والعدول الى شيء من الاناة ، بل كثير من الاناة ، في الدعوة الى الهدم ، والاصرار على اللدد فى مكافحة كل مخالفة كبيرة أو صغيرة له فى تفســير التاريخ .. فان الفصل بين العوامل الانســانية وبين العوامل الآلية فى حوادث التاريخ المتشــابكة ليكونن من ضروب التنجيم والتخمين بعد هذا الاعتراف ، ولا يجوز لاحد ــ بنــاء على الزيادة هنا أو النقص هناك من هذه العوامل أو تلك ــ أن يعلنها فتنة عمياء بلا هوادة ولا اصــغاء الى مختلف الآراء

ولكن هل عدل الشيوعيون بعد هذاالاعتراف عن صيحتهم الاولى التى تحفز الضغائن فى نفوس اليائســين الى غاية مداها من الهدم والعدوان ؟

هذا هو الشيء الذى يستطيعونه ، وذلك هو الموقف الذى لا يستطيعون التراجع فيه ، لانه أســاس المذهب كله فى اعماق الطبائع دون الآراء والتخريجات التى يلفونهـــــا ويشذونها ويلقون بها حيث تنقاد لهم وحيث لا تنقـــاد ليتخذوا منها الحجة لدعوة الهدم والعدوان

وغني عن القول أن هذه الشهوة العمياء تضــــللهم عن الحقائق التى بين أيديهم ، كما تضللهم ــ من باب أولى ــ عن الوقائع التي يدعون النظر اليها بغير الثقة حين يتكلمون عن المستقبل القريب والمستقبل البعيد ، فقد كان « انجلز » يؤكد فى كلامه عن الاشــتراكية الطوبية والاشــتراكية العلمية ــ التى هى اشتراكية دون غيرها بطبيعة الحال ــ أن الثورة الشيوعية بادئة فى ألمانيا منتشرة منهــا الى الديار الاوربية من حولها ، وكان البيان المشترك ــ المانفســتو ــ يؤكد فى سنة ١٨٤٨ أن المانيا على أبواب ثورة برجوازية تتبعها ثورة الصعاليك أو البرولتارية ، وكانت نبوءات كهذه

كذبت جميعا ولم تصح لهم نبوءة واحدة ·· وما من احـد يطالب داعية المذاهب الاجتمـاعية بعلم الغيب الا أن يكون داعية للشيوعية الماركسـية ، فان المذهب الذى يقوم على نبوءة لازبة يتقرر بها أو لا يتقرر على الاطلاق يجب أن يقاس بمقياس نبوءته القريبة دليلا على ما وراءهـا من النبوءات التى تستباح فى سبيلها الفتن والحروب والثورات ·وماذا يبقى من مذهب المادية التاريخية اذا سقطت نبوءته التى يبنيها على قوانين الانتاج ، ويجعلها ضربة لازب مفضية الى قيام المجتمع الذى لا طبقات فيه بعد انتهاء صراع الطبقات ؟ الا أن الداعية الشيوعى قد نسى الجانب المهم فى هـذا الاعتراف الذى جـاء بعد الفراغ من شرح المذهب بثلاثين سنة ·· فليس المهم أن « انجلز » وزميله « كارل ماركس » أهملا العوامل النفسية او العوامل الانسانية تحديا لخصوم المذهب ومناقضيه ، لكن المهم أنهما قضيا العمر يفسران الازمات الحاضرة والغابرة تفسيرا ناقصا مخطئا لا يصـلح للاعتماد عليه فى العواقب العظمى التى يرتبانها عليه ·· ونتيجة ذلك ان الشيوعية تسـقط من عداد المذاهب التى يؤخذ بها فى تصوير الحالة فى زمانها وتصـوير الحالة أو الحالات التى ينبغى ان تعقبها ·· وهـذا هو محور البحث كله فى حقيقة الدعوة وعواقبها ، فليست هى صورة صادقة للشكايات الاجتماعية ولا هى صورة صادقة لعلاجها وتقدير العواقب التى تخلفها وتتوفر الجهود على تحقيقها والتعجيل بانجازها عن ثقة لا تقبل التسامح واختلاف وجهات النظر فى الاصول والتفصيلات ، كما هو دأب الشيوعية عامـة مع من يخالفهم فى أصغر الامور وأكبرها على السواء

وعلى هذا يجب أن نسقط الشـيوعية من عداد المذاهب التى تفسر شكايات القرن التاسع عشر وتتولى علاجها ،وهذا هو الحد الفاصل بين انكار الشيوعية وانكار تلك الشكايات

.. فلا نكران للشكايات الاجتماعية التى تجاوبت بها الامم خلال القرن التاسع عشر ، وانما ينكر المنكرون — بحق — ان الشيوعية تحسن وصفها وتحسن علاجها ، فضلا عن دعوى المدعين انها استأثرت بالوصف الوحيد الصادق والعلاج الوحيد الموافق للعلم والتفكير السليم

ان شكايات القرن التاسع عشر بعضها الاقتصادى من أثر الصناعة واختلاط المعاملات واتساع الاسواق وموارد الخامات، وبعضها أدبى «معنوى» من أثر التطور فى الافكار والعقائد ومقاييس الاخلاق ، والشيوعية لا تفسر هذا ولا ذاك تفسيرا يركن اليه أو يحمل على محمل العلم والدراسة

ونعود الى أولئك الذين يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل ، فنقول : انهم يفعلون مثل ذلك فى اظهار الانصاف لمبادئها ودعاواها .. فالانصاف الحق لهذه الدعوة المتسفة أنها «كلام فارغ» لا يصمد للنظر ولا يليق بالعلم أن يسلم له بالصفة العملية على حسب العنوان المعلق عليه . فمن الجهل المطبق ان يجيئنا أحد فيزعم انه ملك زمام الحقائق الابدية ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، ثم نتقبل منه هذا الزعم لانه سماه بالعلم واحتكر له الصفة العلمية ، ومن الجهل المطبق أن تقاس الشيوعية بمقياس الحوادث الجسام التى حملت عنوانها ، فان مبادىء الشيوعية لم تخلق الثورة الروسية . ولم يكن من العسير على جماعة من الناس — كائنا ما كان عنوانها — أن تقود تلك الثورة كما قاد النازيون ألمانيا ، والفاشيون ثورة ايطاليا ، وقاد اتباع « سن يات سن » ثورة الصين ، وقاد غيرهم حركات الامم فى أوروبا وآسيا وأفريقيا بعد الهزائم وقلاقل الحكم وأزمات المعيشة .. كلها ثورات وجدت من يقودها من الجماعات المنظمة بعد سقوط الدول لاسباب متفرقة أشد

التفرق متباعدة أشد التباعد فى المصادر والدعاوى والغايات ..

انما حق الشيوعية من العلم أن نفسرها بتفسير الظواهر النفسية فى الطبائع المريضة ، فأكبر مبادئها واضح البطلان اذا طبقته على قواعد البحث وبرامج الاصلاح ، وأصغر وساوسها ــ بل أخفى خفاياها ــ واضحة المعنى اذا رجعت بها الى دخائل النفوس المريضة التى تتحفز للنقمة وتلبى كل من يحفزها اليها

و «كارل ماركس» لم يبتدع الشيوعية لانه رجل عطوف حريص على تخفيف الآلام ورحمة الضعفاء . والذين صدقوه لم يصدقوه لانهم فكروا فى مبادئه ، أو يقدرون على التفكير فى مبدأ من المبادىء على اطلاقها ، فان تسعة اعشارهم لا يقدرون على التفكير لمحة عين ولا يبالون أن يقدروا عليه ، ولكنهم يصدقون الشيوعية لانها تشبع فيهم بواعث النقمة وترضيهم عن خطتهم التى يتبرمون بها ويمتلئون بصغارها ، وانهم لتصدمهم أكاذيب الشيوعية وأكاذيب دعاتها أكذوبة بعد أكذوبة ، ثم تبقى الشيوعية بحذافيرها حيث كانت من طبائعهم ان لم يزدها الغضب على من يكذبونها ..لان الشيوعية بحذافيرها قبل الاستماع الى دعوتها ، وبعد الاستماع لكل حجة تناقضها ، هى كلمة واحدة حيث رجعت اليها من طبائع دعاتها ومصدقيها ، وتلك هى كلمة «النقمة» على كل انسان وعلى كل شىء

وليس على بصيرة بطبائع هذه النفوس من يحاول أن يقنعها بالحجة والعيان ، وليس بسليم اللب من يحاول أن يصرف عن الشيوعية لئيما تسميه الانسانية مجرما وتسميه الشيوعية ضحية المجتمع ، أو ماجنا تسميه الإنسانية

حقيرا وتسميه الشيوعية متقدما يحتقر الرجعية وآدابهـــا أو امرأة هلوكا تسميها الانسانية بغيا وتسميها الشيوعية متحررة من رق الزوجية المفروضة عليها . فهذه محاولات مخفقة من البداءة ايا كان موقعها من الحجة المقنعة والعيان الملموس . وسنعرض حقيقة الشيوعية ـ بعد تلخيصها ـ من هذه الناحية التى تحتويها من طرفيها ، وسنرى انها واضحة جدا كلما رجعت بهـا الى مصادرها من النفوس المريضة ، وانها مبهمة جدا كلما صدقنا لجاجة المتحدثين عنها باسم العلم والاصلاح ..

المذهب

تقوم المادية الماركسية على أساس مستعار من مذهب هيجل (١) الفيلسوف الالمانى صاحب « المثالية » أو « الفكرية الحديثة » . ويقول « لينين » فى تعليقاته الفلسفية التى نشرت بعد موته : « ان كتاب « رأس المال » لا معنى له بغير مذهب « هيجل » القائم على تطور النقائض أو الثنائية »

ولباب مذهب « هيجل » أن الوجود الحق انما هو وجود الفكرة المطلقة ، وأن الفكرة ابدية أزلية قادرة على كل شيء ولكن بالقوة والقابلية .. فاذا أرادت ان تحقق كل شيء بالفعل فانما سبيل ذلك أن تحققه فى أطوار التاريخ ..

والفكرة تعرف كل شيء كذلك بالقوة والقابلية ، ولكنها تتطور لتعرف نفسها بالفعل وتصل الى أرفع أطوارها فى وعى الانسان ..

وغايتها القصوى أن تعرف كل شيء ، أى أن تعرف نفسها ، لانها هى كل شيء .. وبهذه المعرفة تتحقق الحرية المطلقة من جميع العوائق ، فتصل الفكرة الى طور من أطوار الحرية كلما وصلت الى طور من أطوار المعرفة الى أن تتم هذه الاطوار بتمام المعرفة وتمام الحرية ..

---

(١) Hegel

واذا كانت الفكرة مطلقة ابدية ازلية ، فهذه الاطوار محدودة .. وكل طور منهـا ناقص يتممه طور آخـر ، وهذا الذى يسميه « هيجل » قانون النقائض ، أو قانون الثنائية ، أو كما سـماه بعضهم قانون الحـوار من باب المجاز ، لان الحوار يقدم رأيين متقابلين .. فكل طور من أطوار التاريخ لا يشتمل على كل كامل ، بل يشتمل على جزء يقابله جزء آخر ، وتكمن فيه جرثومة التناقض لانه بعض وليس بكل محيط بجميع الخصـائص والمـزايا والاطوار ..

فنحن لا نفهم شيئا من الاشـياء بما هو عليه فقط ، بل نفهمه بمـا ليس عليه أيضـا ، أو كما قيل فى المثـل القديم : « وبضدها تتميز الاشياء .. » فالشىء الموجود ـ ونصطلح على تسميته ب « الفعل »(١) يقابله نقيض(٢) ويتألف منهما معا وجـود أكمـل منهما لانه يجمع مزايا الاثنين ، وهو فى اصطلاح « هيجل » مركب النقيضين (٣)

فهناك فعل وهناك ضد لذلك الفعل ، ثم يتركبـان فيصبحان شيئا واحدا .. ثم يبدأ التناقض مرة أخرى حتى ينتـهى الى تركيب أتم من التـركيب الاول ، وعلى هذا النمط المتتابع يتطور التاريخ وتتقدم المعرفة والحرية .. لانها معـرفة تأتى من وجـوه متعددة ، وتأتى بعـد الخلاص من قيود النقائض التى يحد بعضها بعضا ، فكل نقيضة منها تحد ما يقابلها

والتناقض ـ على هـذا ـ هو دافع الحـركة ودافع التقـدم والحـرية ، الى أن يبطل التناقض فى الاجـزاء

---

(١) Thesis　　(٢) Antithesis

(٣) Synthesis

احتوائها جميعا فى الكل لا يوجد شيء خارجه ولا يوجد
بن ثم شيء يناقضه ، فهو الحرية بغير حدود والمعرفة
غير مجهول ..

ومقتضى مذهب « هيجل » ان الحكومة البروسية هى
على ما ارتقى اليه الوعى الكونى من اطوار التاريخ ،
وبقيامها بين المحكومين تتحقق حرية الجميع ، لان حرية
كل منهم تصطدم بحرية الآخر اذا لم تجتمع هذه النقائض
جميعا فى قوام واحد ، وهو قوام تلك الحكومة ..

ولذلك كانت للفيلسوف « هيجل » حظوة كبرى فى
أعين السادة والامراء الالمان ، وكان هو الفيلسوف الوحيد
الذى يحضرون دروسه مع الطلاب ، وان اتفق معه فى
مواعيد الدرس فلاسفة آخرون ..

وعلى حسب مذهب « هيجل » هذا يمكن أن يقال :
ان الفوضى الاولى فى المجتمعات البدائية تبعتها السلطة
المطلقة ، ثم اجتمع من الفوضى والسلطة المطلقة نظام
الاستبداد المحدود ، ثم ظهر نقيض الاستبداد المحدود فى
نظم الحكومات الديموقراطية والامبراطورية والمتحدة .
كأنها حلقات الماء التى تحيط كل حلقة منها بالحلقات
التى تقدمتها .. ثم تتسع وتتسع ، ولا تزال فى كل مرة
قابلة للاحاطة بما قبلها والامتداد الى ما بعدها ..

وتتعدد مظاهر التاريخ عند « هيجل » فتدل عليها
الافكار والفنون ، كما تدل عليها الدول والنظم والقوانين
.. وتخلق فينا هذه المظاهر بواعث الرجاء ثم تأتى بعدها
بواعث اليأس مما كنا نرجوه ، فما يقوينا وينهض بعزائمنا
اليوم يعود فيملأ نفوسنا باليأس لكى نتخطاه ونتطلع الى
رجاء أعظم وأبقى ، ومن هنا تترقى الاديان والمعتقدات
وتترقى المعرفة وشعائر الايمان .. فكل ايمان فى حالة

من احوال المعرفة يتبعه ايمـان أعظم منه فى حالة أعلى وأوسع من تلك الاحوال

وجاء « كارل ماركس » فأبقى اطار هذا المذهبوأفرغه من محتوياته ، ونقله من مذهب فكرى لا يرى فىالكـون شيئا غير الفكرة الى مذهب مادى لا يرى فيه شيئا غير المادة ، وسمى مذهبه بالمادية الثنائية ، وسمى قوانينها التى تسيطر على تاريخ الانسـان بالتفسير المـادى للتاريخ .. فالمـادة هى كل شىء ، والفكرة مخلوقة من المـادة ، والوعى الانسانى هو أعلى ما ارتقت اليه المـادة من أطوار التاريخ ..

وعند « كارل ماركس » أن هـذه الاطوار تتنـاقض ، ويحمل كل طور منهـا جرثومة نقيضه ، ويطبقهـا على المجتمع الانسانى فيقول : ان الضرورات المادية فى المجتمع هى التى تحرك أدوار التـاريخ ، فيأتى كل دور منهـا بنقيض ما تقدمه ، ولا تزال تتعاقب نقيضا بعـد نقيض حتى يأتى الدور الاخير فى المجتمع الانسانى ، فيخلو من النقائض ويستولى على المجتمع نظام واحـد لا أضـداد فيه ..

ولمـا كانت الضرورات المـادية تحتاج الى انتـاج ـ بعد حالة المشاع التى كانت عامة فى المجتمعات البدائية . فالمشرفون على وسائل الانتاج هم الذينيحكمونهويخلقون لهالعرف الذى يلائمهوالعقائد التى تتمشى معمصالحهم، والاخلاق التى تكفل البقاء لسيادتهم ، ولا تنقضى دولتهم الا اذا انقضت وسائل الانتاج وخلفتها وسائل غيرهايملكها أناس آخرون .. وهذا ما يسميه حرب الطبقات ..

وهذه هى النقائض المـادية التى يعول عليها فى تفسير التاريخ ..

ففي البدء كانت المشاعية التى لاملكية فيها لاحد ،ثم استولي السادة على وسائل الانتاج باستخدام الارقاء والمسخرين الذين هم فى حكم العبيد .. ثم ذهب هؤلاء السادة وجاء بعدهم الفرسان ارباب الاقطاعات الذين يسخرون الزراع كما كان أسلافهم يسخرون الارقاء ، ثم جاء بعدهم تجار المدن وأصحاب الأموال البرجوازيون ، أو الطور الاول من أطوار رأس المال .. ثم جاء الطور الثانى من أطوار رأس المال مع تقدم الصناعة ونشوء الصناعة الكبرى فى عصر البخار والمخترعات الحديثة

ونقائض التاريخ الانسانى – على هذا – تنتقل من عصر المشاعية البدائية الى عصر الرق الى عصر الاقطاع الى عصر البرجوازية الى عصر رأس المال الاخير ، وهنا تنتهى النقائض لانتهاء عصر الاستغلال

ففى عصر الرق يستغل السادة عمل العبيد ، وفى عهد الاقطاع يستغل الفرسان عمل الفلاحين والصناع ، وفى عصر البرجوازية يستغل ارباب الاموال عمل الاجراء ، وفى عصر الصناعة الكبرى تنحصر الاموال شيئا فشيئا بين أيدى القلة الصغيرة من أصحاب المصانع والشركات حتى يستنزفوا ثروة المجتمع ، فلا يبقى فيه غيرهم وغير المسخرين لهم محرومين من كل شيء الا السلاسل والاغلال .. ويثور هؤلاء على سادتهم يأسا من كل خير يأتيهم من المجتمع « الرأسمالى » فيزيلونهم ويقبضون بعدهم على أزمة الانتاج بغير استغلال وبغير تسخير . وهذه هى غاية التاريخ الانسانى التى تبطل فيها النقائض ولا تبقى فيها غير طبقة واحدة ينتهى بعدها صراع الطبقات ، وينتهى عندها كل صراع فى الحياة الاجتماعية .. اذ كانت وسائل الانتاج هى مدار الصراع كله فى أوائل حركات التاريخ ..

فى هذا العهد يئول كل شيء الى كل انسان ، فلا يوجد من يملك أرضا أو مالا يستأثر به دون سائر أبناء المجتمع .. ويظل شعار المجتمعات الانسانية أبدا « من كل أحد حسب قدرته الى كل احد حسب حاجته » ولا سيطرة ولا دولة ، ولا نزاع ، ولا حروب ..

ولما كانت الحكومات انما تقوم لحماية المالكين لزمام الانتاج الاقتصادى ، فلا ضرورة للحكومات مع شيوع الثروة وتوزيع الاموال ، ولكنها قد تبقى زمنا محدودا خلال فترة الانتقال ، ثم تتضاءل وتذوى شيئا فشيئا حتى تذهب فى النهاية غير محسوس بها وبغير جهد من المحكومين ..

وعلى حسب المادية الثنائية ، يموت كل دور من أدوار التاريخ بجراثيم الفناء التى تتولد فى بنيته بطبيعة تكوينه ، ولكنه لا يموت حتى يبلغ قصاراه من التمام .. فاذا تمت مقوماته جميعا فآخر عهده بالتمام أول عهده بالزوال ..

وقد آلت أدوار الاستغلال الى دور الاستغلال الاكبر وهو دور الصناعة الكبرى .. وهو استغلال يعيش بالقيمة الفائضة ، وينمو بالقيمة الفائضة ، ثم يموت بالقيمة الفائضة ..

وما هى هذه القيمة الفائضة ؟..

هى فى مذهب « كارل ماركس » نظرية العمل والكسب ، لانه يقرر أن العمل يعطى كل شيء قيمته ، فلا قيمة لشيء من الاشياء بغير العمل الاجتماعى الذى يبذل فيه ..

واذا لم يكن هناك استغلال وجب أن يأخذ العامل ثمرة العمل كله ، لانه ـ بهذا العمل ـ يعطى الثمرة قيمتها التى لا قيمة لها بغيره ..

الا أن صاحب المال يستغل اضطرار العامل ، فـلا يعطيه من عمله الا الكفاية لقوته وما هو فى حكم القوت من ضرورات المعيشة ، ثم يأخذ الزيادة لنفسه ويتصرف بها فى توسيع ثروته ونفقاته .. وهذه الزيادة هى التى يسميها « كارل ماركس » بالقيمة الفاضلة ..

ومن لوازم رأس المال فى عهد الصناعة الكبرى ، أنه يزيد اضطرار العامل الى قبول الاجر القليل يوما بعد يوم ، لان أدوات الانتاج — من الآلات الضخمة — تغلو كلما تقدمت الصناعة فلا يستطيع اقتناءها وادارتها الا صاحب المال الكثير .. هذا من جهة ..

ومن الجهة الاخرى يتنافس أصحاب الاموال بنقص الاثمان فتنقص الاجور ، ثم يبلغ هذا النقص حدا لا يتجاوزه لانه يمس الضرورات المعيشية التى لا غنى عنها للاجسام الحية .. فيلجأ أصحاب الاموال الى زيادة الربح بزيادة قدرة المكنات على الانتاج ، ولا تزال هذه القدرة تزداد حتى تخرج للاسواق فوق حاجتها وحتى ترتفع أثمان المكنات الى أعلاها ، فيزداد العامل اضطرارا على اضطرار كلما كسدت البضائع وارتفعت أثمان المكنات وتمادى التنافس بين المنتجين الى نهاية لا مناص عندها من الوقوف والحيرة بين المتناقضات ، وهذه هى أزمة الازمات فى نظام رأس المال

ويحدث أثناء هذا التنافس أن يعصر أصحاب الاموال بينهم كل مشتغل بالصناعة من المتوسطين أو الفقراء فيلحق كل فريق منهم بأقرب الطبقتين اليه .. فريق يلحق بأصحاب رءوس الاموال ، وفريق آخر يلحق بالاجراء الذين لا يملكون غير القوت ، وهم البرولتارية أى الطبقة التى لا تنتج غير الاطفال ، والى هذه الطبقة

يوجه « كارل ماركس » نداءه الذى يقول فيه : « اتحدوا يا صعاليك العالم .. فأمامكم عالم تغنمونه وليس عندكم من شيء تفقدونه غير القيود والاغلال »

ويعلم « كارل ماركس » أن العالم الذى يدعو الصعاليك الى هدمه يقوم على الاوطان والعقائد وآداب السلوك والعرف المتبع بين الامم ، فيقرر أن هذه الاشياء كلها تابعة لنظام راس المال ولابد أن تزول ولا تبقى منها بقية ليزول ذلك النظام .. فانما الاوطان ، والعلاقات الاجتماعية ، والعقائد ، والاخلاق كافة ، وليدة النظم السياسية لحماية القائمين على مصادر الثروة .. و فكرة تنشأ فى مجتمع انسانى فلا محل لها فيه الا ان تكون عونا لذوى السلطان على دوام ذلك السلطان

والنظر فى حقيقة هذا المذهب يتطلب النظر فى أهم مبادئه التى وردت موجزة فيما تقدم ، وهى المادية ووسائل الانتاج وصراع الطبقات ، والقيمة الفاضلة ، ونشأة العقائد والآداب ..

وسيكون النظر فى هذه المبادىء موضوع الفصول التالية ، نبدأها ببيان علاقة المبدأ بالظواهر النفسية ، ونتبع ذلك بزيادة فى الشرح لتمحيص الدعوى العلمية التى يدعيها أصحابه لجميع مبادئه وقضاياه وتفسيراته وعواقبه التى تستلزمها تلك المبادىء والقضايا والتفسيرات ، ولا تقبل عاقبة غيرها فى كبيرة ولا صغيرة من حوادث التاريخ ..

وأول هذه المبادىء الهامة مبدأ المادية الثنائية ، لانه يحيط بها جميعا ويسميها باسمه بين المذاهب الفكريه والاجتماعية ، ويقيمها على اساسه فلا قوام لها بغير هذا الاساس ..

المــــادية

تفسير « المادية » بالظواهر النفسية واضح قريب التناول ، فهى أدنى المذاهب الى اليأس والعنف والخطط الآلية ، وأشد الماديات اغراقا فى اليأس والعنف تلك المادية التى اختارها « كارل ماركس » وسماها بالمادية الثنائية ..

فالمذاهب المادية متعددة ، أشهرها المادية المكنية والمادية الناموسية ..

والمادية المكنية هى التى تتخيل الكون فى صورة مكنة مدارة ، تتركب كل أداة منها فى موضعها وتدور كلها كما تدور الآلات .. وهى مذهب يفتح الباب لتصوير « المدير » الذى يركب تلك الآلة ويحرك دواليبها ويضع كل جزء منها فى موضعه ويديره بالتوافق مع الاجزاء الاخرى لانجاز عملها وتحقيق أغراضها .. ومثل هذا الباب قد تأتى منه الرحمة وقد يفضى الى افتراض القدرة المدبرة الحكيمة ، فلا ينبغى أن يفتح ولابد من اغلاقه وان لم تقم فى المذهب الماركسى حجة تسوغ ذلك الاغلاق

يقول « كارل ماركس » فى رسالته عن الفيلسوف فيورباخ Feuerbach : « ان العيب الاكبر فى مذاهب المادية الموجودة ـ ومنها مادية « فيورباخ » أن الموضوع والواقع والحس انما تفهم على انها موضوعات للتأمل ،

ولا تفهم على انها عمل انسانى يحس ويتصرف ، وانهـا هى صاحبة الفاعلية »!

فلا بد عند « كارل ماركس » من مكنة تدير نفسها من باطنهـا ولا يمكن أن تدار من خارجهـا على فـرض من الفروض ، ولهذا يجب أن تسـقط المـادية المكنية او « المكنازم » من الحساب على أى احتمال

وشـبيه بالمـادية المكنيـة من بعض الوجـوه مادية النواميس ، وهى التى يقول أصـحابها ان ظواهر الكون المحسوسة كلهـا مادية تديرها النواميس المركبـة فى طبائعها ، وتتحرك فى نطاقها بأمر خالق المـادة وخالق النواميس .. وقد تدخل فى هذه المادية فلسفة الهنـد القـديمة التى ترى أن المـادة وهم ظاهر وان الحقيـقة المطلقة وراء هذه المحسوسات وهذه النواميس

واذا كانت المـادية المكنيـة مرفوضة فى رأى « كارل ماركس » لانها قد تفتـح الابواب لافتراض المدير المدبر ، فالمـادية التى تؤمن بوجـود الحقيـقة من وراء الظواهر والنواميس مرفوضة من باب أولى ..

ولا يعنينا هنا أن رأى « كارل ماركس » صـحيح أو غير صحيح ، ولكن الذى يعنينا منه موقعه من الظواهـر النفسية ، وهو أقرب المذاهب موقعا من اليأس والعنف والخطط الآلية ..

أما البحث فى هـذه المـادية بمقاييس الفـكر والعلم فمحصوله أنها ترقيع ، وأنها تفكير ساذج ، وأنها بقية من بقايا الخرافات الاسرائيلية ، وأنها لا تنتهى الى نتـائجها التى انتهى اليها « كارل ماركس » ولو صحت مقدماتها المفروضة ، وليس منها فرض صحيح .. فمن الترقيع ان تستعار فلسـفة « هيجل » من المثـالية الى المادية

وتستعار معها مصطلحاتها وأطوارها ، ثم يقال انها باطلة كما وضعها صاحبها ، وصحيحة كما استعارها منه « كارل ماركس » !

ان الفلسفة النظرية تصويرات أو تصورات فى الذهن تحتمل التجوز الكثير ، لانها تبحث فى شئون يقدرها الذهن ويرى انه بلغ فيها قصاراه اذا خلص منها الى تقريب الحقيقة الى الادراك الانسانى بعض التقريب .. فاما أن يقال : انها باطلة فى النظر صادقة فى الواقع من قبيل المصادفة بجميع مصطلحاتها .. فذلك هو الترقيع السخيف الذى لا مثيل له فيما نعهده من ترقيعات الرثاثة والسخافة ، لانه يرقع الشىء بغير مدده ، اى يرقع النظريات بالواقعيات ويزعم انها تلفق لها بالمصادفة، ولا تلفق حيث وضعها فيلسوف الحكمة المثالية

والسذاجة فى المادية الماركسية أظهر من سخافة الترقيع والتلفيق ، لانها تقوم على النظرة العامة السهلة التى كانت شائعة بين جمهرة المتعالمين فى القرن التاسع عشر ، ممن يستسهلون التحقيق والتفسير ويظنونهما شيئا ملموسا قريبا من دق المائدة بالايدى وخبط الارض بالاقدام ، وهذه هى الحقيقة فى رأيهم لا مايتوهمه الواهمون فى أحاديث الغيب والخيال ..

كان أحدهم ينكر تفسير الكون بالفكرة أو بالحقائق الغيبية ، ويقول — وهو يدق بيده على المائدة ويخبط بقدمه على الارض — : هذه هى الحقيقة التى تفسر لنا كل شىء وليست تلك الفروض المغيبة وراء الواقع الملموس باليدين ..

وعند هؤلاء ان المادة مفسرة بالبداهة ، ناطقة بالبداهة ، غنيه بالبداهة ، عن كل تفسير وكل تعبير ..

هذه هى المـــادة تحت يديك وقدميك وامام عينيك ، فما حاجتها الى التفسير والتعبير ؟..

هذه النظرة الساذجة هى نظرة « التفسير المـادى » للوجود ظاهره وخافيه ، وهى نظرة « كارل ماركس » فى تفسير الكون وتفسير التـــاريخ وتفسير كل محتـــاج الى تفسير .. الا المـادة نفسها فانه لم يحاول قط أن يفسرها ويفسر حقيقتها فى الحس أو فى العقل أو فى الخيال ، لان تفسيرها فى وهمه — أو فى عمله — ان تضرب بيــدك على المـــائدة فاذا هى هنـــاك ، وأن تخبط بقــدمك الارض فتسمع « وجودها » ناطقا صادقا غنيا عن البيان

وسذاجة هذه النظرة لم تكن خفية فى عصر « كارل ماركس » لو شاء ان يتأنى ولم يشأ أن يتعجل بحافز من الرغبة فى تقرير ما يوافق هواه .. ولكنها فى عصره ربما كانت خفية على المتعجلين بادية لمن يؤثرون الاناة والروية أمام المجهول ..

أما اليوم فكل سامع من الملمين بأطراف الحديث عن المادة ، يعلم أن مشكلة الروح فى أعمق أعماقهـــا لم تواجه الذهن بعقدة فى تفسيرها كالعقدة التى تواجهه عند تفسير المادة .. نقول « كل سامع » من الملمين ولا نقول « كل دارس أو كل عليم » لان حديث المادة فى أصولهـــا وراء الذرة والشعاع قد أصبح من الاحاديث المتواترة على كل لسان..

ما هى المادة ؟ ..

ليست هى هذا اللون المنظور ، لانك لا تنظره الا بشبكة العين الانسانية فاذا ضاقت أمواجه أو اتسعت فلا لون أمام عينيك ، وليس هذا اللون بعينه منظورا لكل ذى عين من الاحياء ..

وليست المادة هذه الدقة التى تسمعها اذا ضربت المائدة بيدك ، لان يدك لاتدق شيئا اذا تضاعفت قوتها مئات الاضعاف او الوف الاضعاف ، بل تجرى دون المائدة كما تجري فى هذا الفضاء ..

وليست المادة هذا الوزن الثقيل اوالخفيف ، لانهاتقوم بغير هذا الوزن وراء حدود الجاذبية الارضية .. المادة ذرات ، والذرة لايدري أحد أهي موجة أو جوهر فرد صغير بالغ فى الصغر ولكنه يقبل الانقســام فيطير شعاعا فى الاثير ..

وما هو الاثير ؟ .. كل ما قيل عن الروح أيسر فهمــا واقرب الى الادراك من هذا الاثير ..

شيء لا لون له ، ولا كثافة ، ولا حركة ، ولا تصدق عليه خاصة من خواص المادة فى علم العارفين بها والعاملين فى ذراتها ..

وقبل أن نصل الى هذا اللغز المركب نقف عند الذرة وما فيها من البروتون والنيوترون والالكترون ، وما يقال عن البروتون السالب فى الفضاء المستعصى على الفهم فى حيز هذا الجو وعلى مقربة من عناصر المادة وأجزائها الى أدق دقائقها المدركة بالفرض والتخمين ..

و « كارل ماركس » مع هذا ــ يظن فى علمانيتـــه التي لا حد لها ــ انه يفسر بهذه المادة كل شيء ، وان هذه المادة غنية كل الغنى عن تفسير المفسرين وتقدير المقدرين .. يقول فى البيان المشترك : « ان الشبهــات التى تلقى على الشيوعية من جانب الدين ، أو جانب الفلسفة ، أو جانب الافكار النظرية على العموم ــ غير جــديرة بالجـــد فى تمحيصها واختيارها ، فهل يحتاج الامر الى بداهة عميقة

لنعلم أن خواطر الانســـان وآراءه ومداركه ــ أو بكلمة واحدة وعيه ــ يتغير مع كل تغير يطرأ على كيـــانه المادى وعلاقاته الاجتماعية وحياته العامة »

لا .. ان هذه الحقائق المادية عائمة على السطح لاتحتاج الى بداهة ، ولا اختبار ، ولا امتحان ، ولا تردد ، ولا تقبل كلمة أخرى غير الكلمة التى يرسلها « كارل ماركس » من طرف اللسان فلا يضطرب فيها قولان

وندع أسرار المادة جميعا ، ونسلم مع « كارل ماركس » أنها مجردة من كل سر ننتظر به المستقبل لكشف خباياه ، وأنها مفسرة صالحة لتفسير جميع نواميس الكون ووقائع التاريخ ، فلماذا يلزم من ذلك أن وسائل الأنتاج هى التى تتحكم فى تاريخ الانسان ؟ ... ولماذا يكون النـاس احق بهذه القوة من الادوات الصماء ؟

ان مطالب المعيشة ضرورة لا غنى عنها لجميع الاحياء ، ولكن ضرورتها هذه لم تمنع الاحياء أن يتعـــددوا أنواعا وأفرادا لم تحصرها العلوم بعد ، ولم تحصرها الحـواس والعقول ، واضطرارها جميعا الى مطالب المعيشة لم يمنع هذا التنوع الهائل فى أجناسها وطبائعها وآحادها . . . فلماذا نسقط هذه القوى الحية من حسابنا ولانلتفت فى تفسير أطوار التاريخ الا لوسائل الأنتاج الصماء ؟ .. لماذا تكون هذه القوى الحية رهينة بالآلات الصمـــاء ؟ ولماذا تكون كذلك بعد ظهور نوع الانسان وهو الذى يصنع تلك الآلات الصماء ؟

يقول « ماركس » و « انجلز » فيما جاء من مجموعة الرسائل المختاره : « اننا نعتبر أن الاحوال الاقتصـادية هى العامل الذى يقرر أخيرا أطوار التاريخ ، ولكن النوع الحيوانى هو نفسه عامل من العوامل الاقتصادية »

وكثـــيرا ما جاء فى كلام « ماركس » و « انجلز » أن الانسان فاعل منفعل ، وانه بين القوى المادية هو القــوة الوحيدة التى لها عقل وارادة .. فلماذا تكون هذه القوى العاقلة المريدة رهينة بالآلات الصـــماء ولا تكون الالات الصماء تابعة لها فى جميع الاحوال ؟

واذا هبطنا بالانسان عن عليائه وسوينا بين تأثيره وتأثير المكنات ، فلا أقل من أن تسوى بين القوتين فى التأثير، تارة للجماعات العــاقلة الرشيـــدة وتارة لادوات الخشب والحديد .. فهذه اذن حلقة مفرغة لا يتبين احد منها على سبيل الحتم موضع الابتداء وموضـــع الانتهاء . ولا يستطيع احد أن يقول على سبيل الحتم أين ابتدأت ارادة الانسان ، أو أين ابتدأ احساسه بالمطالب الجـــديدة فى شئون المعيشة ، وأين ابتدأ عمـــل الآلات والمكنات . لا يستطيع أحد أن يقول ان الناس احسوا هنا فأرادوا فغيروا واخترعوا ، وأن الآلات وجدت بعد ذلك فتسلمت بين يديها أطوار التغيير والتبديل ، وهما اذن على الاقل عاملان متساويان متعادلان مجهولان على حد ســواء أو معلومان على حد سواء ، فلماذا اختار « كارل ماركس » على سبيل الحتم أن يكون الحكم الاخير للآلة واصر على ذلك اصراره الذى نلمحه متشنجا من أجله لكل مخالفة له فى تقديره ، ولم يقع اختياره على العامل الآخر عامل الارادة والعقل والحياة ؟ ..

أما سبب ذلك فى الظواهر التاريخية ، أو فى أسانيد البحث والنظر ، فغير مفهوم وغير ثابت وغير قاطع فى ثبوته ان كان له نصيب من الثبوت . وأما سببـــه فى الظواهر النفسية فلا عناء فى البحث عنه لانه يفسر لنـــا كل شىء ولا يختلف عليه تفسيران ..

سببه فى الظواهر النفسية أنه هو الطريق الوحيد لاشباع شهوة النقمة والشر فى طبيعة « كارل ماركس » وانه الاساس الوحيد الذى يقوم عليه افتراض المجتمع الذى لا طبقات فيه ، وتسويغ الهدم والعدوان على كل ما عداه

ينبغى أن تكون الآلات هى الحكم الاخير فى انشاء الطبقة التى تستولى عليها ولا تأتى بعدها طبقة تناقضها ..

اما اذا كانت العوامل الانسانية هى الحكم الاخير فالباب مفتوح لانشاء نقيض جديد للمجتمع الاخير ، وطبيعة الانسان بنقائضها الكثيرة كفيلة بالانتقال مرحلة اخرى من نظام الى نظام ، لانها هى مصدر النقائض ومصدر البواعث الى اختراع الآلات

يجب اذن ان تكون الطبقة الاخيرة طبقة بغير نقيض لانها تستولى على وسائل الانتاج

اما اذا كانت وسائل الانتاج لا تمنع النظم الانسانية أن تتناقض ولا تمنع البواعث النفسية أن تعمل فى طلب السيادة والسلطان ، فمن أين يأتى الشر والخراب،وكيف ترتفع الصيحة بهدم كل ماكان وكل من كان من تراث الامم والازمان ؟ ..

يثبت شيء واحد لايستغنى عنه « كارل ماركس » فى سبب ولا نتيجة ، وهو شهوة الهدم .. ثم يركب عليه الاسباب والنتائج او يدعها لك تركبها كما تشاء ، وما دام هناك باب مفتوح للهدم ، فبكل ظني ثابت ثبوت اليقين وكل ما عداه كفر وبهتان

وباب الهدم لاينفتح اذا كانت النقائض تأتى من القوى الحية ، لان هذه القوى الحية تخرج لنا طبقة جديدة بعد

كل طبقة ، وتسلط عواملها الدائمة العميقة الاغوار لطلب السلطان أو طلب السيادة على المجتمع الجديد

ويا للخسارة اذن ويا لخيبة الرجاء ! ..

لا محل اذن لاستئصال الجماعات وتقويض ما بناه الناس فى مختلف الحضارات ، ولامحل اذن للغاية الاخيرة التى من أجلها نقتحم جميع الغايات ! ..

ولا ضرورة للبحث عن تفسير جامع مانع لمعنى المادة ، ولا عن دليل قاطع على غلبة الادوات والآلات ، اذ يكفى أن تنظر وراء جميع الفروض والتخمينات ، فترى الهدم هناك أو لاتراه .. وحيث ترى الهدم فكل شيء ثابت ، وكل شيء واضح ، وكل شيء مفسر اليوم ، ومفسر الى آخر الزمان .. وحيث لا ترى الهدم ، فكل شيء باطل مناقض للعلم متهم النية متهم الدليل !

ومن سخرية القدر أن النظامين اللذين قاما فى أضخم بلاد العالم وانتسبا الى « المادية الماركسية » قد فعلا فى نقضه أضعاف ما فعلاه فى اثباته ، وهما نظام روسيا ونظام الصين ..

فكل منهما قد هدم القاعدة الاولى من قواعد المذهب ، لانه هدم قوله : ان الثورة السياسية تابعة للثورة الصناعية ، واثبت ان الثورة السياسية هى التى تنشىء الصناعة الكبرى أو هى التي تهيىء الاسباب لانشائها .. ولا حاجة بالثورة السياسية الى تلك التلفيقات اللولبية التى يتملص فيها دعاة المذهب من جحر ليدخلوا فى جحر آخر ، ويجعلوها مقدمات محتومة فى زعمهم تفضى الى نتائج محتومة لامهرب منها .. ولا حتم هناك وانما هو الترخيص أو الاستثناء الذى يجوز فى كل مذهب ، ولا

يستأثر بطريق واحدة للتاريخ لا يؤذن له فى خطوة يخطوها الى وجهة غيرها ..

فالثورة الروسية قامت بعد الحرب العالمية الاولى فى بلاد ترجع الى الصف الاخير بين صفوف البلاد الصناعية ، والثورة الصينية التى انتسبت الى المذهب المادى قامت بعد الحرب العالمية الثانية على ايدى الفلاحين خلافا لما توقعه جميع الاقطاب الشيوعيين خارج الصين ، وعلى رأسهم « ستالين » ..

والصين ــ بعد ــ هى البلاد التى اخترعت المطبعة والبارود والابرة المغناطيسية والمدن التجارية وعملة الورق ومصارف الموانىء وسلسلة المعاملات «البرجوازية» التى انتشرت فى بلادها وتجاوزتها الى غيرها ، ولم تفعل تلك الادوات شيئا مما فعلته فى أوربة وفرضت به فرائضها المحتومة على مجرى التاريخ من نظام الرق الى نظام رأس المال ..

واذا جاز مثل هذا الترخص أو الاستثناء ، فما هو وجه الحتم الذى لايرتضى مقدار شعرة من الحيد الى يمين أو يسار ، ولا يحتمل من المستقبل البعيد تعديلا من مفاجآت التاريخ أو من مبتكرات التطبيق ؟ ..

يتساءل « كارل ماركس » بغير حق : هل يحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليعلم ان تاريخ الانسان يتوقف على ضروراته المادية ؟ ويلقى هذا السؤال ولا يلقى بالا الى الضرورات التى تنشأ من الانسان وقد ينشىء من أجلها الالات ووسائل الانتاج !

ولكننا نتساءل بحق : هل يحتاج الانسان الى بداية عميقة ليعلم أن وسائل الانتاج ووسائل الاشراف عليها وراء الحسبان من الآن الى آخر الزمان أو آخر الازمان !

ما هي وسائلنا الصناعية اليــــوم الى جانب وسائل الطاقة الذرية ؟ وما هي وسائل الطاقة الذرية الى جانب القوة المغناطيسية وقوة الجاذبية ؟

لقد كان يسيرا على « كارل ماركس »أن يتخيل في زمانه مجتمعا يستولى فيه الصانع على مكنات الصناعة ، فلم تمض على زمانه عشرون سنة حتى أصبحت ادارة المكنة الكبيرة هندسة يتخصص لها المدير بدراسة السنين ، ولا ينفرد بعدها بادارتها دون الخبــــير الادارى والخبـــير الاقتصادى والخبير السياسي والخبراء في غير الاقليم على نحو من الخبرة يناسب كل اقليم

اهو لعبة هذا المصير الانســـانى بمفــاجآته واحتمالاته ونقائضه وأعاجيبه ، يأتى رجل واحد في بضع سنــوات ليفكها ويركبها على حكمه وهواه ، ثم يغلق البـــاب فلا مراجعة ولا تردد ولا ارتياب

أهذا هو العلم وما عداه هو الوهم أو الحلم أو الخرافة أو الوبشية في التفكير ؟ .. كلا .. مع استعارة قليلة من « كارل ماركس » في توكيـــداته الخــــارقة بغير موجب للتوكيد .. اذ لايحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليرى أن الخرافة هي هذا الهراء ، وأن العلم وســلامة التفكير من هذه الخرافة براء

قلنا : ان المادية الماركسية بقية من بقــايا الخــرافات الاسرائيلية ، على ما فيها من الترقيع والتفكير الســاذج والنتائج التى لاتستلزمها المقدمات ..

فاذا رجعنا مرة اخرى الى الظواهر المادية فهنالك خرافة النعيم الألفى (١) التى امتلأت بها الاساطير الاسرائيلية

---

(١) Millinium

العتيقة ، ولم يفلت « كارل ماركس» من اوهامها على الرغم من صيحاته باسم العلم أو صيحاته على أفيون الشعوب افيون الاديان ..

والنعيم الالفى خرافة اسرائيلية تقول لشعب الله المختار : أن العالم سيخرب بعد ألفى سنة ، ثم يخرج من فى القبور من أبناء اسرائيل فيعمرونه فى نعيم مقيم لاتبديل فيه ولا تأخير ولا تقديم .. هذا النعيم الالفى هو ميراث اليهودى « كارل ماركس » من أساطير قومه ، وله ميراث آخر من عاداتهم وتقاليدهم وان لم يكن من الخرافات أو النبوءات

ميراثه الآخر هو تقديس الفلوس ! .. ما الذى يحرك التاريخ ؟ .. الفلوس ! .. ومن الذى يسود العالم ؟ .. صاحب الفلوس !

ومن هم القابضون على زمام الحضارات والعقائد والاداب والفنون والاخلاق وكل ما يشتمل عليه تاريخ الانسان فى السر والعلانية وفى هذا الزمان وما غبر من الازمان وما سيأتى أو سوف يأتى من الازمان ؟

سبحان الله .. هل يحتاج الانسان الى بداهة عميقة ليعلم أن القابض على هذه الازمة جميعا هو القابض على مفاتيح الفلوس ؟

هذه احدى الظواهر النفسية التى لابد منها لتفسير المذهب الماركسى بين ظواهره وخباياه ، وهى تنقضه ولا تفسره وكفى .. لانها ترينا كيف يكون صاحب المذهب ثمرة من ثمرات الظواهر النفسية تعمل عملها حيث تصادفها الظواهر النفسية من قبيلها ، وقلما تصادفها مقدمة من مقدمات التفسير المادى على وفاق المذهب واحاجيه وقضاياه

الشيوعية والطبقات

الطبقات والإنتاج

تاريخ الانسانية فى رأى الماديين المفسرين للتاريخ هو تاريخ الطبقات المتوالية ..

والعامل الحاسم فى تكوين الطبقة هو وسائل الانتاج ، فمن يملك وسائل الانتاج الضرورية فى المجتمع ، فهو سيد المجتمع ، وكل مافى المجتمع من شرائع وعقائد وآداب وعادات فهو مسخر فى خدمة مصالحه واغراضه بقصد أو على غير قصد من الطبقة الحاكمة أو الطبقات المحكومة

ولا داعية الى استمداد قول من غير أقوال الماديين التاريخيين لاسقاط هذه القاعدة الكبرى على أساسها ، لان الاقوال المسلمة عندهم تكفى لاسقاطها وتشككهم على الاقل فيها ، وتوجب عليهم أن يبحثوا عن سبب غير هذا السبب — أو مع هذا السبب — لتفسير الاطوار التاريخية، لولا انهم يريدون هذا السبب ولا يريدون غيره ،ويتعمدون أن يصلوا الى نتائجه المقدرة عندهم من طريقها أو من غير طريق

فمن المسلمات عندهم ان الانسان قد وصل الى تدجين النبات وتدجين الحيوان قبل أن تظهر فيه طبقة تستغل الطبقات الاخرى ، وأن هذا التدجين قد تم على خطوات متعاقبة ، أولاها صيد الحيوان للانتفاع بلحومه وجلوده

فى الطعام والكساء ، وثانيتها صيد الحيوان والاحتفاظ به للانتفاع بألبانه وأصوافه ، وثالثتها صيد الحيوان للانتفاع به فى الزرع والحرث والانتقال وحمل الاثقال

فاذا كانت هذه الاطوار الهامة قد تمت قبل نشوء الطبقة ، فليس من الحتم أذن أن تكون الطبقة هى التفسير الوحيد للأطوار السابقة والاطوار التي نشأت بعدها ، وليس هذا من الحتم بصفة خاصة اذا كانت الاطوار التاريخية ملتبسة العوامل والاسباب كما يقول «انجلز» فى كتابه عن فلسفة « فيورباخ » (١) وكما يقول فى كتابه عن أصل الاسرة ، وهو الكتاب الذى اتفق مع أستاذه «ماركس» على آرائه ومات « ماركس » قبل ان يكتبه ، فكانا فى جميع هذه الآراء على وفاق

يقول « انجلز » ما ترجمته بحرفه : « انه بينما كان تحقيق هذه القوى الدافعة للتاريخ فى حكم المستحيل نظرا لاشتباكها واختفاء العلاقات المتداخلة بينها وبين آثارها ، نرى أن عصرنا الحاضر قد بسط الى الان هذه العلاقات المتشابكة تبسيطا يمكننا من حل الغازها ، وأنه بعد قيام الصناعات الواسعة ـ أو بعد الصلح الاوربى سنة ١٨١٥ م على الاقل ـ لم يبق سرا مجهولا عند احد فى بريطانيا ان الصراع السياسى كله انما يدور على تنازع السيادة بين طبقتين : طبقة الملاك النبلاء ، والطبقة الوسطى »

وما معنى هذا على أى وجه من الوجوه أردنا أن نعرف معناه ؟ ..

ان معناه البين أن اطوار التاريخ قبل القرن التاسع عشر لم تكن قاطعة فى الدلالة على سبب وحيد لا يسمح بافتراض سبب آخر ، لاستحالة الفصل بين المقدمات والآثار

(1) Ludwig Feurbach and the outcome of Classical German Philosophy.

ومعناه ان النظرية التى يريدون من أجلها ان يقلبوا الكون على من فيه قائمة على ملاحظات محصورة فى نحو ثلاثين سنة من تاريخ الانسانية ، يجوز جدا أن تختلف بين تلك الفترة التى كانت بداءة انتقال لم تظهر عواقبها التى لا يطيق الماديون انتظارها ، لانهم فى عجلة لاتحتمل هذا الانتظار

وليت الملاحظات ــ ملاحظات ثلاثين سنة ــ فى تاريخ الانسانية قد كشفت عن شىء يؤيد مذهبهم بين الطبقات ، لان الصراع بين الملاك النبلاء والطبقة الوسطى لم يكن صراعا على استغلال احداهما للاخرى ، بل كان صراعا على دعوى السيادة كما قال « انجلز » وغايته فى رأيه هى استغلال طبقة ثالثة من العمال ..

ان تدجين النبات والحيوان قبل نشوء الطبقة كاف لتقدير اسباب للاطوار الاقتصادية والاجتماعية غير تنازع الطبقات .. فان لم يكن كافيا ، فحسب الباحث الامين أن يعلم أن الملاحظات المستمدة من التاريخ مشكوك فيها قبل سنة ١٨١٥ ، وان الملاحظات المستمدة بعدها مأخوذة من تاريخ ثلاثين سنة ، ليقف موقف التهيب قبل الهجوم على الهدم وتحريم النظر فى كل حيلة للاصلاح تنقذ الامم من هذه العاقبة ..

الا أننا لانريد أن نكتفى بهذا العرض لرأى القوم تفنيدا لدعواهم فى هذا الامر الجلل ، ونريد أن نسترسل فى تفصيلاتهم لان التفصيلات أدل على سخف هذه النظرية من ذلك العرض الوجيز

فلنعلم اذن أن امتلاك وسائل الانتاج هو أصل الطبقات المستغلة ، ولكن يجب أن نعلم مع ذلك أن الملكية لذاتها

ليست عاملا حاسما فى تكوين الطبقة ، لان الاجير الفقير قد يقيم فى كوخ يملكه ، وصاحب المصنع الغنى قد يقيم فى قصر يستأجره ، وما الملكية الحاسمة الا ملكية الوسائل التى تنتج ضرورات المعيشة ..

كذلك لايتوقف الامر على وحدة المصادر التى تأتى منها الثروة ، فان الطبيب والمحامى يعيشان من مصادر مختلفة وهما من طبقة واحدة . ولكن العلاقات الاقتصادية فى تكوين الطبقات أهم من مصادر الكسب والمورد . وكل طبقة تتعلق مصالحها بالطبقة المسيطرة على وسائل الانتاج فهى لاحقة بها منتمية اليها ، وشعورها نحوها على وفق شعورها بالاعتماد على بقائها والدفاع عن مصالحها ..

وعلى هذا التقدير يرى الماديون المفسرون للتاريخ أن الانسانية مرت بسبعة ادوار منذ قيام الجماعات او المجتمعات الاقتصادية فيها .. الدور الاول هو دور « الشيوعية البدائية » ، وفى دور كانت الملكية الخاصة فيه مجهولة وكانت مرافق المجتمع مشاعة بين جميع فراده ، ولم تكن فيه بضائع للبيع والتبادل ، وانما كانت فيه حاجات المعيشة فى متناول من يريدها ..

والدور الثانى هو دور « البربرية السفلى » وفيه ظهر الحديد واصبحت له قيمة تجارية أو استغلالية ، وهنا ظهرت وسائل الانتاج ولم يظهر العمل المأجور بعد .. اذ كانت وسائل الانتاج فى ايدى الاسرة تتقسم بينها العمل والجزاء ..

والدور الثالث هو دور « البربرية العليا » وفيه ظهر الزيت والخمر مع الحديد والمعادن المصنوعة وانقسم فيه المجتمع الى أغنياء وفقراء يحتاجون الى مافى ايدى

الاغنياء فيعملون فى خدمتهم ويعيشون من عطائهم ..

والدور الرابع هو دور « السادة والارقاء » وفيه ظهر العبد المسترق الى جانب الفقير المدقع ، وكانت مجتمعات المدن اليونانية تجمع هذه الطبقات بتغليب عمل الرقيق تارة وتغليب العمل الماجور تارة اخرى ..

ثم كان الدور الخامس متمثلا على أتمه فى نظام الدولة الرومانية ، فقام العمل كله — أو أكثره — على كواهل الارقاء ، واصبح العمل عيبا يترفع عنه الرجل الشريف صاحب الرئاسة والمكانة فى المجتمع وفى الدولة ..

ثم كان دور الاقطاع وساعد على قيام سيادة البرابرة على الدولة الرومانية ، فان السادة بين البرابرة لم يكن يعيبهم أن يعملوا أو يشتركوا فى العمل، فأصبح رب الاقطاع سيد المجتمع الجديد خليطا من المنتج والمستغل لانتاج الآخرين ..

وجاء الدور السادس وهو دور «رأس المال الاول» وكانت التجارة فيه غالبة على الصناعة والزراعة ، واتسعت اسواق التجارة أثناء هذا الدور بعد كشف أمريكا طرق الملاحة الى الشرق الاقصى ، فكانت طبقة تجار المدن — البرجوازية — صاحبة السيادة فى هذا الدور ..

وتلاه دور رأس المال فى عهد الصناعة الكبرى ، وهو الدور الذى يبلغ فيه الاستغلال أتمه ويبلغ فيه نهايته المحتومة فى وقت واحد ، وتقوم بعده طبقة واحدة لا تستغل غيرها فلا تقوم الى جانبها طبقة أخرى

ويسقط دور رأس المال هذا حين تجتمع الثروة كلها فى قبضة احاد معدودين ، وتبقى الكثرة الساحقة من المجتمع محرومة لا مصلحة لها فى الصناعة الكبرى .. فتثور على

اصحاب الاموال وتهدم اركان المجتمع القائم وتنشىء لهـا مجتمعا يلائمهـا بعلاقاته وعـاداته وادابه ، وتقضى على أصول الاديان والعقائد الاولى لانها وجدت جميعا للدفاع عن أصحاب وسائل الانتاج ، وتمكين كل طبقة مستغلة فى دورها من تسخير العاملين على اختـلاف الاعمـال والصناعات

ويعجل السقوط الى نظام رأس المال كلما اشتد التنافس بين أصحاب الاموال أو أصحاب المصانع ، فتطغى الثروات الكبيرة على الثروات الصغيرة . وتتقلص الاوساط بين أصحاب رءوس الاموال والاجراء ، ويتحكم أصحاب رءوس الامـوال عندزوال المنافسة فلا يسـمحون للاجراء بأكثر من الرزق الضرورى لاقامة أود الحياة

ومما يعجل بسقوط هـذا النظام أن صاحب المـال يحتاج الى مضاعفة الربح بزيادة المنتجات ، فتزيد هذه المنتجات عن الحاجة ولا تجد من يشتريها فى أوطانها ، وتدعو الضرورة الى استعمار البلاد المتأخرة واستغلال خاماتها وأيديها العاملة ، ولكنه علاج مسـكن يؤجل القضاء المحتوم ولا يدفعه ، ثم يأتى هـذا القضـاء حين تصبح طبقة أصحاب الاموال منعزلة وحدها أمام الجموع المسخرة فى داخل البلاد وخارجها

ومتى انفردت الطبقة الحاكمة فى هـذا النظام أمام الجموع الزاخرة التى تئن تحت وطأتها فتلك هى الخاتمة التى لا فكاك منها ، وتلك هى نهاية الطبقات وبداية العهد الابدى الذى لا طبقات فيه ..

***

وقبل البحث فى صواب هذه الآراء أو خطئها نبـدأ بالاشارة الى علاقتها بالظواهر النفسية ، لان هـذه

العلاقة واضحة هنا كما تتضح فى كل مبـدأ وكل رأى وكل تأويل من أصول المذهب أو فروعه ..

ما هى الطبقة ؟..

الطبقة فى تعريف « كارل ماركس » هى الطائفة التى تكون لها مصالح معارضة لمصالح طبقة أخرى .. وعلى هذا يكون التعريف هو البرهان !

لابد من فرض العداوة بين الطبقات حتى يقال انها طبقات .. والا فهى معدومة أو ناقصة فى دور التكوين

فلا يمكنك أن تتكلم عن طبقة الا اذا افترضت العداوة لازمة لوجودها ، وهكذا يدور بك التعريف والبرهان معا فى حلقتهما المفرغة التى لا يدرى اين طرفاها .. فهى طبقة لانها تعادى غيرها وهى تعادى غيرها لانها طبقة ، ولا بد من عنصر العداء فى جميع الاحوال

ونعود الى سـؤال « كارل ماركس » لنعيده بحق فنسأل : هل يحتاج الانسان الى بديهة عميقة ليعلم أن الناس يختلفون ولو لم تكن هناك طبقات ؟

أليست هناك أعمال متفاوتة فى الكفاية والاهمية ؟.. أليست هناك رغبات تتنازع بين الناس لتقدير كفاياتهم واختصاص كل منهم بأحب الاعمال اليه ؟.. وأين هو مقياس الشعرة الذى يجعل كل انسان يعرف قدره ولا يزيد عليه ، ويعرف حاجته ولا يزيد عليهـا ، ويعرف عمله الواجب ولا ينقص منه ؟.. وأين هو ميزان الشعرة الذى يحكم بين أصحاب الحظـوظ المختلفة من القوة والصحة والذرية والذكاء والهمة والجمال وسائر المزايا التى يتفاوت بها الناس ولا تضبط الفوارق بينهـا فى ميزان ؟

لابد أن تنفى هذه الفوارق كافة من كل حسبان وكل مظنة وكل احتمال .. لانك اذا اعرتها حقهــا من الاثر الفعال أفلتت الفرصــة وانفتح الباب ـ أو الابواب الـكثيرة ـ لاختلاف الاقدار واختلاف الناس فى الكسب والمعيشة واختلاف الطبقات

فلا بد اذن أن تنفى هذه الفوارق كما تسقط الفوارق من قبيلها فى قصص العجائز وأحلام الحالمين فى أسطورة « أورفيوس » وما اليها من الاساطير التى أبطلت النزاع قديما بين الذئاب والنعاج وبين الـكواسر والبغاث

هكذا والسلام !..

والا فكيف تسنح الفرصة التى لا فرصة غيرها للهدم والجزم واغلاق الطرق كافة امام بنى الانسان غير الطريق اللازم لـ « كارل ماركس » ، ولا منعرج عنه الى سواه ؟

اننا سنرى ان « كارل ماركس » لم يصنع شيئا ، ينفى هذه الفوارق ، لان وســائل الانتاج لن تئول الى أيدى طبقة واحدة ولو زالت جميع الطبقات التى عرفت فى تاريخ الانسانية الى الآن ، ولن يأتى الزمن الذى تصبح فيه السيطرة على وسائل الانتاج سهلة مبذولة لكل من يريد ، ومتى افترقت الكفايات والاقدار والاعمـال فليس تعريف القوم الطبقة الا كلمات مرصوصة من لغو المقال

***

وبعد ملاحظة هذه الظاهرة التى لا مرجح غيرها لوضع الطبقة فى موضعهــا من مذهب « كارل ماركس » نعود الى الدعوى العلمية التى يدعونها لأصــول المذهب وفروعه ، فنقول ان الثقــات من خبراء علم الانســان « انتروبولوجى » لم يثبتوا فرضا من تلك الفروض ولم

يذكروا لنا مجتمعا من المجتمعات البدائية خلا من الملكية الخاصة لوسيلة من وسائل الانتاج ، ونحن فى عصرنا هذا ننظر الى المجتمعات المترقية فى الحضارة فلا نرى مجتمعا منها خلا من المشاعية التى كانت فى العصور الاولى مما يعيه التاريخ ويدل على ما كان قبل التاريخ

فالانهار وكنوز الثروة الارضية فى حيازة المجتمع كله يمنح الرخصة فى استغلالها باذن منه متفق عليه فى الشريعة العامة ، والسلاح الموقوف على الدفاع العام لا يملكه فرد ولا جماعة بغير اذن المجتمع أو اذن الدولة ، ومثل الانهار والمناجم وأسلحة الجيوش كمثل الآبار والمراعى وأسلحة الصيد العامة أو أسلحة القتال فى المجتمعات البدائية ، لم يتغير فيها شىء من جهة المبدأ أو جهة التحليل والتحريم بحكم العرف والشريعة

ولم يذكر علماء الانسان عهداً حرمت فيه الملكية الخاصة من هذه الوجهة ، ولكنها تترك للاستغناء عنها كما تترك ملكية الانهار وما اليها فى الحضارات المترقية ويمكن أن يقال ان الملكية الخاصة وجدت حيث وجدت الحاجة اليها والرغبة فيها والقدرة عليها ، وانها قائمة قيام المشاعية أو الشيوعية فى المجتمعات الاولى

يقول «سبك» (١) فى مبحثه عن أرض الصيد بين قبائل الشمال الشرقى الحمراء : « ان أرض الصيد هنا محدودة بحدودها الصريحة يرثها الابن عن أبيه ، وتنتقل الزوجة الى سبكن زوجها الخاص ، وللاخوة فى بعض الاحوال حقوق فى المزايا الاقتصادية » (٢)

ويقول الرحالون الذين عاشوا بين قبائل الكاى فى غالة الجديدة ، ان الارض بينها مشاعة على العموم ، ولكن اللص الذى يضبط فى أرض

---

(١) Speck

(٢) The Family Hunting Band as the Basis of Orgonlkian organization

بقوم على زرعها أحد غيره يجوز قتله ولا يحق لأهله أن يثأروا له أو يطلبوا الدية من قاتله ، وأنهم ربما سمحوا بغرس شجرة مثمرة فى أرض الغريب ولكنهم لا يسمحون ببناء كوخ أو خص عليها ، وأن الرجل منهم يملك أسنان الخنزير البرى أو اسنان الكلب ، لأنها ذات قيمة سحرية أو فنية ويحق له أن يقتل من يسرقها أو يحاول اغتصابها ، وأن ثمرات الأشجار عندهم حق لغارس الشجرة فى حقل يزرعه غيره ، وأن الصائد الذى لمح الصيد لأول مرة صاحب حق فيه لا نزاع عليه « ١ »

ويروى خبراء علم الانسان عن قبائل « كاريرا » الاسترالية أن الأرض عندهم قد تملكها شعبة من القبيلة ، وقد ينشب القتال بين مالكيها واعدائهم ثم لا يخطر على بال الغالب أن يستولى على الأرض ويطرد منها من كانوا يحتلونها من العشائر المهزومة

وتروى حالات شبيهة بهذه الحالات عن العشائر البدائية فى الهند وسيلان والأقاليم الافريقية ، يرجع اليها فى مصادر كثيرة نذكر منها كتاب « رحلات فى أفريقية الغربية » « لكنجلى » وكتاب « العشائر والبطون فى كليفورنيا الجنوبية » لـ « جيفورد » وكتاب السكان الاصلاء فى ويلز الجديدة الجنوبية لـ «فريزر» وكتاب توزيع الارض وتقاليد الميراث بين المكسيكيين الاقدمين » لـ « بالدلير » واشباه هذه الكتب والتقارير التى اجمعت على اختلاط أحوال المشاعية والملكية الخاصة فى الجماعات الاولى ، ولم ينفرد منها مرجع بحصر جماعة قط فى نظام واحد خلا من أثر الملكية الخاصة أو أثر الملكية المشاعة

وأيا كان المرجع فى هذه النظم ، فلا الخير ولا العقل يسيغان أن نتصور أن الاستغلال وجد لان أناسا أرادوه وقالوا لابناء مجتمعهم : نحن نريد أن نستغلكم ، فقال لهم أبناء المجتمع : حبا وكرامة .. ها نحن أولاء بين أيديكم فاستغلونا كما تشاءون !

فما وجد الاستغلال قط لانه رغبة مستجابة لا معارضة فيها ، وانما وجد لانه قدرة يستطيعها أناس ويعجز عنها أناس آخرون .. وهذه القدرة اما أن تكون قدرة الشجاعة ، أو قدرة الخبرة بفنون القتال ، أو قدرة القيادة السلمية ، أو قدرة البنية القوية التى تخضع من تغلبهم لمشيئتها وتروضهم على طاعتها ..

---

(١) «Primitive Society». D.H. Lowie

وقلما تكفى البنية القوية وحدها لتمكين احد من القيادة الدائمة ما لم تكن مقرونة بمزية عقلية أو خلقية تسندها وتدبر لها وسائل دوامها .

ونحن نقرأ فى كلام « ماركس » و« انجلز » ان المجتمعات البدائية انتقلت من عصر المشاعية الى عصر الرق بعد أن تعودت الاغارة على جيرانها والتعويل على ثمرات أرضهم وكسب أيديهم ، ولكنهما يعبران هذا الدور عبورا سريعا ، ولا يقولان لنا كيف وجدت الطبقة التى تسترق العبيد من الاسرى الغرباء أو من أبناءالقبيلة الضعفاء

وهنا نرجع الى الظاهرة النفسية لتفسير هذا السكوت أو هذا العبور السريع ، فان اللعبة كلها لعبة الهدم والنقمة ــ تبطل لا محالة اذا اعترف « ماركس » وأتباعه بالطبيعة الانسانية التى تميز أناسا بالشجاعة ، وأناسا بالدراية فى فنون القتال ، وأناسا بالحيلة والذكاء أو « بالشخصية » المطاعة لجملة هذه الصفات مجتمعات ، واذا اعترف « ماركس » بوجود هذه المزايا قبل أن توجدها وسائل الانتاج لم يستطع أن ينفى كل النفى ــ على طريقته الجازمة الحاسمة ــ ان قيام الطبقة الغالبة ممكن بعد انهيار نظام رأس المال ووصولنا الى المجتمع الذى لا طبقات فيه ، وما دامت الطبيعة الانسانية قد عملت فى انشاء الطبقة الاجتماعية فهى عاملة غدا فى انشائها بعد قيام المجتمع المزعوم الذى لا طبقات فيه ، وليس فى وسع « كارل ماركس » اذن أن يجزم ويعزم ويدمدم على من يناقضونه ، ويحولون بينه وبين أمنيته العزيزة التى يضرب حولها السدود

ويأبى جهده أن يحوم حولها الخيال ولو على أبعد احتمال

ان الثقات من رواة علم الانسان لم يذكروا لنا مجتمعا فى أعرق أطوار الهمجية خلا من المتازين بمزية النسب أو الدراية أو القدرة ، ولو أننا عرضنا قطعان الماشية التى تملكها تلك المجتمعات لوجدنا بين تلك القطعان مزايا القيادة والزعامة وغزارة الدر وكثرة الذرية .. فاذا كان الادميون الذين يملكونها جمهرة من الناس لا تنوع بينهم ، فما هم بالمجتمع ولا هم بالبنية الاجتماعية التى لها وظائفها وأعضاؤها وخصائصها ككل بنية حية .. وتفصيل هذه الخصائص والمزايا مشروح فى كتب علم الانسان وعلم الاجناس البشرية التى لا نحصيها ، ولكنها مجملة فى باب الرتبة من كتاب « الجماعة البدائية » لمؤلفه الدكتور « روبرت لوى » (١) حيث يقول :

« ان الافكار المتطرفة فى اختلاف الاقدار موجودة فىجوانب شتى من العالم وقبائل « المايدو » الشماليون يصلحون نموذجا يقاس عليه ..فهنا رئاسة انتخابية مبنية على الثروة والسخاء ، ولكن « الشامان » اذا كان بصفة خاصة رئيسا للجماعة السرية له قدر يغطى علىقدر الرئيس،والواقع أن انتخاب الرئيس انما يكون بوساطة « الشامان » الذى ينقل وحى الارواح باختياره كما ينقل وحيها باسقاطه »

ثم يقول : « ان الفوارق السابقة تنشأ من اختلاف الافراد مستقلة عن فوارق الدرجة والنسب . والامثلة مع ذلك متعددة لاحوال التفوق الفردى الذى ينقل بالوراثة »

ويقول المؤلف عن مزايا الشجاعة : « ان الهمجى لا يتهم بالبلاهة ولا يغفل عن المزايا المتعددة ولا يجهل أن الرجل الكسلان فى العمل قد يكون ناشطا فذا فى الصيد او اصابة الهدف ، وبعد تلخيص الامثلة من جماعات أمريكا وأفريقية وجزر الاقيانوس التى تحسب من القبائل الهمجية يقول فى الاجمال الاخير ان المجتمعات الديموقراطية ـ أى التىيولد فيها الاطفال

---

(١) Primitive Society by: Lowie

سواء فى الرتبة ـ لا تلبث خصائصهم الفردية أن تميزهم بعضهم من بعض، فلا يكونون جماعة هملا على سواء ، بل مجتمعا متكونا من الافراد .«١»

ولعلنا ــ نحن بني الانسان ــ خلقاء أن نترك لحكم العلم كل بحث الا البحث في بواعث النفس الانسانية وطبائع الاحياء العاقلة .. ففى هذه الامور يحق لنا أن نراقب أنفسنا ونراقب تجاربنا ، ونقول كلمتنا الى جانب كلمات الباحثين بين شعوب الهمجية أو شعوب الحضارة حين يحكمون على النفوس ولا ينحصر حكمهم فى الاخبار والروايات .. وهذه الطبيعة الانسانية فينا ومن حولنا وأمامنا فى تواريخ الامم التى تعددت أجناسها وأقاليمها ووسائل انتاجها ، ولم تحتجب فى طور من أطوارها دلائل الطموح والهمة والنزوع الى التفوق والرئاسة ، وليس من العلم أن نمسخ هذه التجارب المحسوسة وهذه الدوافع الكامنة فينا لنصغى الى قول يقوله « كارل ماركس » عن الطبيعة الانسانية كأنها طبيعته وحده ، وليست طبيعة الناس فى ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم .. ولو كان قولا يسمع من هنا ويترك من هنا لصح أن يصغى اليه من يريد أن يصغى الى كل مقول مسموع ، ولكنه قول له جرائره ولا تقل جريرة منها عن تقويض كل ما كان ، وتفنيد جميع المأثورات والمسلمات

ولمن يريد به أن يقول انكم تحكمون على الطبيعة الانسانية فيما مضى وما حضر ، ولا تستطيعون أن تحكموا عليها فى ظروف غير تلك الظروف مما يتمخض عنه المستقبل المجهول

---

(١) Agglomeration of undifferentiated Automata
Aggregate of Individuals

نقول : نعم ، لا نستطيع .. ولـكننا نقيس المقبل على الحاضر والماضى الذى تشابه أو تقارب فى جميـع العهود .. اما الذى لا يستطاع حقا فهو الجزم بالتغيير وترتيب النتائج الحاسمة عليه ، فنحن لم نر المستقبل ، و « كارل ماركس » لم يره .. وعلينـا أن ننظر الى نبوءته بكثير من الحذر والتريث فى امر ينقض كل ماعرف الى الآن عن طبيعة الانسان

واذا قدرنا حسن النية ، وخطر لنا ان الامر قـد التبس على دعاة المادية فى منتصف القرن التاسع عشر .. فليس هذا الالتباس بالسائغ بعد التجربة الروسية فى القرن العشرين ، فان المجزرة التى حدثت حـول تفسير الآراء الماركسية وتطبيقاتهـا لا تنتهى الى غـير نتيجة من نتيجتين : فاما انها آراء خلافية لم تبلـغ من الثبوت مبلغا يساوى العواقب التى تترتب عليها ، واما ان هذه المجزرة أثر من آثار الصراع بين العـوامل النفسية فى طبيعة الانسان .. كائنا ما كان نظـام الانتاج ووسائل الانتاج ، وكلتا النتيجتين لا تجيز لنـا تسليم الملايين من الارواح البشرية والمأثورات الانسانية لقولة قالها صاحب نبوءة ، أو صاحب علم ، أوصاحب دعوى فى النبوءات والعلوم

***

من الخطوات الاولى تعثر معنـا المذهب المادى فى تفسير التاريخ ، فلم يبطل الخلاف على تفسير المشاعية الهمجية ولا على تفسير الرق بعد الانتقال من المشاعية الى البربرية الاولى ، وفى وسع « ماركس » ومن على شاكلته أن يتصوروا قيام السادة والارقاء قبل ظهور المزايا البشرية فى شجاعة الشجعان ودراية الاذكياء وعلو

الهمة ودوافع التفوق والسيادة ، وفي وسعهم أن يتخيلوا قطيعا من الهمل أغار على قطيع آخر وجاء منهم بالاسرى الارقاء فأسلمهم الى طائفة من السادة يسخرونهم ويحتكرون ثمرات سخرتهم ، لانهم يشتهون السيادة ولا يشتهيها معهم أحد سواهم ..

فى وسع الماركسيين قاطبة أن يتخيلوا هذه الاخيلة لانهم معذورون مضطرون الى المقدمات التى تفتح أبواب النقمة والخراب ، ولكنه عذر لا يقبله المحايدون فى هذه المعركة المثارة على النوع الانسانى ، فضلا عن المتحيزين المتعصبين لهذا النوع ، الذين لم يخرجوا من زمرته لانهم دخلوا فى طبقة من الطبقات

ومما هو حقيق بالانتباه اليه ، أن اللبس فى نظريات الماديين عن الطبقة يزداد كلما اقتربنا من العصور التاريخية المدونة ، ويطرد فى الزيادة كلما اقتربنا من العصر الحاضر الذى نشاهده ونلمس وقائعه ونستقصى حسابه واحصاءه .. ولو كانت هذه النظريات على استقامة لانعكست الآية ، وكان اللبس فيما غبر عند فجر التاريخ أشد من اللبس فى شئون العصر الحاضر ، ولولا علة كامنة فى طوية التفكير لكان الاختلاط فى شئون الجماعات البدائية أشد من الاختلاط فيما بعدها عصرا فعصرا الى هذا العصر الذى يسمونه بعصر رأس المال والصناعة الكبرى ..

انهم قد اختلط عليهم الرأى فى مبادىء الملكية والمشاعية كما كانت عند فجر التاريخ وكما هى فى الايام الحاضرة ، والرأى المستقيم أن المبادىء متشابهة حيث وجدت الملكية الخاصة ، وربما صح ان الملكية العامة فى البلاد الروسية ـ بعد اعلان الشيوعية فيها ـ مقاربة

جدا للملكية العامة فى البلاد المصرية على عهد الفراعنة الاول .. اذ لا فرق بين ملكية الدولة للمرافق فى العهدين ، وليست الملكية هنا لجميع الافراد على السواء ولكنها ملكية للدولة ترخص فيها لكل فرد من الافراد بمقدار

ولم تكن ملكية القبيلة مختلفة المبدأ عن ملكية الدولة أو ملكية الفرعون أو ملكية الحزب المنادى بالشيوعية بين الافراد .. كلها تعرف المشاعية فىالمرافق ولا تنكر الملكية الخاصة عند لزومها ، وكلها تدين بالتأميم مع اختلاف مرافقه وأساليب ادارته .. فلا محل للاطناب والتهويل فى ترتيب أطوار الملكية المشاعية على مذهب الماديين

وقد قلنا ان ازدياد اللبس فى نظريات الطبقة حسب نظام الملكية حقيق بالانتباه ، لانه يقل فى نظرياتالعهود الغابرة ويزداد فى نظريات العهود التاريخية ويطرد فى الزيادة كلما اقتربنا من حياتنا الحاضرة .. ولولا علة كامنة فى طوية التفكير لانعكست الآية وجاز بالامس ما لا يجوز اليوم من الاخطاء والضلالات ..

أما هذه العلة الكامنة فى طوية التفكير ،فهى اقتراب العصر الحديث من نقطة الفصل فى نتيجة المذهب بحذافيرها .. وكلما اقترب من نقطة الفصل بلغ أشد الحاجة الى العسف واللى ، وشد النظرية من هنا وجذبها من هناك ، لتدخل فى الجحور الضيقة التى يعصرونها فيها واحدا بعد واحد حتى تأذن بالنتيجة المنظورة أو النتيجة المشتهاة

وعلى هذا كان الخلط فى شئون الطبقة البدائية مسألة مبدأ وتفسير ، فلما اقتربنا من العهود التاريخية

المدونة تعدى الخلط مبادىء الآراء الى الوقائع العيانية التى لا خفاء بها ولا نكران لها فى صفحات التـــاريخ المعروف ..

أى فرق ــ مثلا ــ بين طبقة الاشراف (١) وطبقـة السوقة (٢) فى الدولة الرومانية من حيث وســـائل الانتاج ؟

كلتا الطبقتين كانت تملك الضياع ، وتملك التجـارة وسفن الملاحة ، وتملك العبيد الارقاء العاملين فى الزراعة والتجارة .والصناعة والمناجم المبـاحة لغير الدولة .. .وهذه مسألة أصيلة فى المذهب المادى وليست بالمســألة العرضية التى تحتمل القولين : انها مسألة الانتاج فى عهد الرقيق .. فان قامت قام معها المذهب وان سـقطت سقط معها ولم تقم له قائمة .. فماذا كان بين الطبقتين من الفوارق فى وسائل الانتاج وفى تسخير الرقيق ؟.. ولمـاذا بقى فارق النسب ــ أو دعـــوى النسب ــ الى نهاية الدولة الرومانية قبيل وقوعهـا فى أيدى البرابرة تمهيدا لعهد الاقطاع ثم عهود الفرسان ؟

ولماذا انتهى عهد السادة ولم يقم بعده عهد العبيــد الارقاء تبعا للاحجية الفلسفية التى جعلت النقيـــض مولدا للنقيض ؟

ان نهاية راس المال بداية عهد الاجراء ، كما نعلم من جميع المقـــدمات والنتائج الماركسية ، فلماذا لم يستول الرقيق على أزمة الانتاج بعد زوال عهد الســـادة من سراة الاشراف والسوقة الرومانيين ؟

---

(١) Patricians

(٢) Plebeians

واين هما النقيضان فى عهد من العهود ؟ لماذا يكون الملك البربرى نقيضا للشعب البربرى ؟ ولماذا يكون الاقطاع نقيضا للرق ؟ ولماذا تكون الصناعة نقيضا للاقطاع والرق مجتمعين ؟

هذه نقائض « أحاجى » وتخمينات لا يصدق عليها معنى النقيض فى المنطق ولا فى العلم ولا فى الصفات الاجتماعية ، وانما يجب أن تكون نقائض فى عرف الماديين لانها يجب أن تكون درجات متوالية فى السلم الذى ينحدر الى الهاوية : هاوية الخراب ..

***

كان الخلط فى المبادىء والتفسيرات عند الكلام على المجتمعات البدائية ، فلما اقتربنا من عصور التواريخ المدونة تكاثر الخلط فى الوقائع والنظم المقررة ، وجعل يستشرى ويمتد من عصر البربرية الى عصر الرق الى عصر الفروسية الى عصر الصناعة الكبرى .. وأول دلائل الخلط فى عصر الفروسية أو وسائل الانتاج لم تتغير بين العصرين : عصر الرق وعصر الاقطاع .. فآلات النسيج وآلات الرى وآلات الصناعة المعدنية ومتاجر الموانىء ومصارف الحواضر ، لم يتغير منها شىء بين زمن وزمن الا كما كانت الآلات والادوات تتغير بين مكان ومكان .. أى انه كان تغييرا محليا لايرتبط بالنظم الحكومية.

وثانى دلائل الخلط فى هذا العصر ـ عصر الفروسية ـ ان فرسان الاقطاع لم يكونوا طبقة متضامنة متكافلة ، ولكنهم كانوا آحادا متنافسين متنافرين ، يفترقون أو يتفقون كما كان الملوك والامراء يفترقون أو يتفقون

لانهم فى الواقع كانوا أمراء صغارا يجرون فى التحالف والتخالف على سنة الامراء الكبار ، ويقفون جملة أمام جملة تدخل فيها جميع الطوائف والطبقات

والعامل المهم في انتشار هؤلاء الفرسان بين الاقاليم أو الاقطاعات أن السلطة المركزية سقطت « اولا » بعد انقسام الدولة الرومانية الى شرقية وغربية ، ثم سقطت سقوطها الاخير بعد اضمحلال الدولتين وتفرق الولايات والاقاليم بين الرؤساء البارزين فيها ..

ولو أراد « كارل ماركس » لقال ان الرعايا من الفلاحين والتجار والصناع احتاجوا فى هذا العصر الى الحماية ، فنشأ نظام الفرسان موافقا لهذه الحالة واستقر بعد نشوئه لانه كان لازما لمصالح الطرفين

ولو انه قال ذلك لما خرج على تفسيراته المادية ، ولكان مقاله اقرب الى المعقول وأشبه بطبائع الامور. لان الفرسان عدد قليل لايزيد على الآحاد فى كل اقليم ، ورعاياهم أضعاف اضعافهم يعدون أحيانا بمئات الالوف ، ولان الفلاحين والتجار والصناع فى كل اقليم كانوا يخشون أن يغير عليهم أبناء الاقاليم الاخرى ويتسلطون عليهم فى ديارهم ويسومونهم تكاليف السيادتين فى وقت واحد .. سيادة الفارس الاعلى صاحب الكلمة النافذة فى الاقليم ، وسيادة الرعايا لامثالهم فى مرافق الزراعة والصناعة والتجارة

ولكنه لو قال ذلك لفاتته أولا دعوى الاستغلال ، وفاتته بعدها سلسلة الطبقات حلقة بعد حلقة الى خاتمتها المنظورة .. ولو قال ذلك لاعترف بالمزايا الانسانية قبل وسائل الانتاج ، واعترف بمزايا الشجاعة

والدراية العسكرية والقدرة على الرئاسة وهيبة الحكم سابقة لوسائل الانتاج ، ودون ذلك وينهار المذهب جدارا تحت جدار

غير أن الفلسفة الماركسية لم تستطع أن تغفل عن حقيقة الصلة بين الفرسان ومن خولهم من الفلاحين وأصحاب المرافق التجارية أو الصناعية ، فأطلق « كارل ماركس » وصاحبه « فردريك انجلز » اسم العلاقة العاطفية (١) على هذه الصلة ، ولم يطلق عليها هذا الاسم الا لانهما كانا فى عصرهما يسمعان أغانى الاجيال السابقة ينشدها الفلاحون اذ لم يبق احد ينشدها من طائفة الفرسان وامراء الاقطاع ..

ثم تأتى دلالة الخلط الثالثة عند الكلام على زوال الاقطاع وزوال عصر الفروسية ، فان الفلسفة المادية تقلب الاوضاع كعادتها فتجعل زوال الاقطاع لاحقا لزوال سلطان القلاع والحصون ، وانما تحررت الافكار والضمائر ثم زال سلطان القلاع والحصون حين أراد المعترفون به قديما أن يزيلوه ..

ان البارود لم يسقط القلعة أو الحصن ، لان المنجنيق ظل زمنا أقوى من مدفع البارود ، وكان المنجنيق فى أيدى حماة القلاع والحصون ، ولكن الافكار والضمائر تحررت فاستخدمت البارود للغلبة على أصحاب السلطان ، ولو انها بقيت كما كانت ولم تتحرر لاصبح البارود نفسه اداة من أدوات الفارس المتحصن فى قلعته يقهر بها من يعصيه

وقد عرضنا لذلك فى حديثنا عن البارود الذى لم ينفجر

---

(١) Idyllic.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والطباعة التى لم تطبع ، فقلت فى مجموعة الاحاديث التى نشرت بعنوان « افيون الشعوب » :

« ان بعض المؤرخين يشك فى سبق اهل الصين الى اختراع البارود ، لانه يربط اختراعه بالكشف الذى سجله « روجرز باكون » فى معمله عند منتصف القرن الثالث عشر ، ويرى أن وجود البارود يتوقف على وجود ملحه (١) وهو لم يكن معروفا فى زعمه قبل « روجرز باكون » . الا ان الراجح ان « روجرز باكون » نفسه قد عثر على الصيغة الكيمية فى المرجع العربى الذى اشار اليه « أومان » فى تاريخ فن الحرب ، فان لم يصح هذا فالصحيح بلا مراء أن هذا الملح يوجد على سطح الارض فى بلاد آسيا الشرقية ، ومنها الهند التى يوجد بها على سطح الارض الى اليوم »

وندع هذا ونرجع الى الزمن الذى انقضى بين كشف البارود والانتفاع به فى الحملات على القلاع والحصون ، فقد مضت ثلاثة قرون منذ جاء ذكر البارود فى أوراق « روجز باكون » الى أن أصبح قوة فعالة فى الهجوم على المعاقل المحصنة ، وقد مضت هذه القرون فى تنقية الاخلاط وضبط المقادير الصالحة لسرعة الانفجار وتركيب هذه الاخلاط تركيبا موافقا للادوات التى أمكن اختراعها يومئذ سواء أكانت مما تحمله اليد أم تجره الخيول ..

وكانت مشكلة الوقت الذى ينقضى بين اطلاق القذيفة وتعبئة المدفع أو الرامية عقبة معوقة ، ولم تكن من أسباب الاسراع والتغلب . ولا شك أن المنجنيق الذى كان يقذف الحجارة على قرب قد كان أفعل من المدافع الاولى فى تهديد الحصون والقلاع ، بل استطاع الهوجنوت الى أوائل القرن الثامن عشر أن يقاوموا المدفع حول الحصون بمتاريس التراب وما اليها .. فلم يكن البارود اذن هو القوى الحاسمة فى تغلب نظام على

---

(١) Saltbetre

نظام ، ولم يكن استخدام المدفع الاول أسهل من فنون الفروسية التي احتكرها نبلاء القرون الوسطى، وأصح من هذا أن يقال ، ان البارود فى أوربا قد أفاد فى ميدان الصناعة قبل ان يفيد فى ميدان القتال ، لان بدعة الاسلحة النارية حولت الانظار الى البحث عن الحديد والفحم فنشطت حركة التعدين واستفادت منها الصناعات الحديثة مع توالى الطلب على حسب حاجة العصر الحديث

***

ونتهى الى الخلط الاكبر حين ننتهى الى الحلقة الاخيرة من سلسلة الطبقات ، وهى حلقة « رأس المال » أو الصناعة الكبرى

فهذه الطبقة لا تخالف الطبقة التى تقدمها وكفى ، بل تناقضها على حسب الاحجية الفلسفية على وجه لا ندرى معنى المناقضة فيه . ولا جدوى من متابعة « كارل ماركس » خلال السراديب والانفاق التى يتلوى بينها ليصل الى مبدأ هذه الطبقة ، ولا من متابعته فى سراديبه وأنفاقه الاخرى التى يعود فيتلوى بينها ليصل الى فنائها ، ثم الى النعيم الالفى المرتقب فى مجتمع أبدى لا طبقات فيه ..

حسبنا أن ننظر الى النتائج المحتومة فى تقدير «كارل ماركس » ثم نعلم ان المذهب قائم على هواء بغير أساس متى علمنا انها نتائج غير محتومة وانها منقوضة فيما شهدناه وعهدناه ، ولا يقترب بها المستقبل الى تقديره خطوة بل يبتعد بها خطوات ..

فالنتائج المحتومة فى تقديره هى :

(أولا) ان الثروة تنحصر فى أيدى فئة قليلة من اصحاب رءوس الاموال واصحاب المصانع الكبرى

و (ثانيا) ان الطبقة الوسطى تزول رويدا رويدا ثم سريعا سريعا ، فلا تبقى منها بقية فى خاتمة الدور

و « ثالثا » أن طبقة الاجراء تبتئس وتنحدر مع تقدم الصناعة حتى تبلغ نهاية الانحدار متى بلغت الصناعة الكبرى نهاية الصعود ، ويومئذ تثور هذه الطبقة لانها لا تخسر بالثورة شيئا غير القيود والاغلال

و (رابعا) ان طبقة الاجراء تستولى بعد ذلك على الصناعة الكبرى فتديرها لمصلحتها ، ولا تستغل بادارتها طبقة أخرى فيظل المجتمع ـ أبدا ـ بغير طبقات

***

هذه النتائج المحتومة لم تتحقق نتيجة واحدة منها ، ولم يكن ما تحقق حتى الآن الا مناقضا لها هادما لدعواها .. فرءوس الاموال تتفرق ولا تنحصر، وأسهم الشركات توزع بعشرات الالوف ومئات الالوف،ومصانع الشركات الكبرى أحيانا يساهم فيها العمال وتتفرق حصص الربح منها بين الاغنياء والمتوسطين والفقراء ، وتتحول المرافق العامة الى التأميم كلما كان المشاع أوفق لادارتها من الملكية الخاصة.. وليس هذا بمبدأ جديد فى الملكية العامة أو الخاصة ، بل هو المبدأ القديم الذى يشيع ملك المرفق ما دام الاستئثار به لمصلحة فرد أو أفراد محدودين غير مستطاع

والطبقة الوسطى تزداد ولا تنقبض ، ولا يقل نصيبها من الملكية أو الثروة على حسب تقدير «كارل ماركس» .. ولا يتقرر ذلك بالفروض والظنون ولكنه يتقرر

بالاحصاءات والارقام ، ويقوم بهذه الاحصاءات اناس من تلاميذ « كارل ماركس » يرون أن الثروة صائرة الى التوزيع لا الى التركيز وانها تصير الى ذلك فى طريق غير الطريق الوحيد الذى رسمه لها « كارل ماركس » فى قضائه المبرم ، ومن هؤلاء « ادوارد برنشتين » (١) الذى يسميه الشيوعيون « المنقح » (٢) لانه يدخل التعديل بعد التعديل على القواعد التى يؤمنون بها ايمان المتدين بوحى السماء . وقد جعل « برنشتين » حدا لثروة الطبقة الوسطى فى عصر « كارل ماركس » (١٨٥١ — ١٨٨١) فقدرها بمبلغ يتراوح بين ١٥٠ جنيها وألف جنيه فى السنة ، فظهر من الاحصاء ان سكان انجلترا زادوا خلال هذه المدة بنسبة ثلاثين فى المائة وزاد عدد المالكين ابناء الطبقة الوسطى بنسبة مائتين وثلاث وثلاثين وبعض الكسور

وتكررت هذه الظاهرة حسب الاحصاءات المأخوذة من المجتمعات الالمانية والفرنسية ، فازداد السكان — مثلا — فى بروسيا بنسبة عشرين فى المائة من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٧ وكانت نسبة أصحاب الثروة التى تتراوح بين مائة وخمسين وثلثمائة جنيه فى السنة قد زادت بنسبة ٨٤٫٣ فى المائة وزادت الثروة التى تتراوح بين ثلثمائة وألف وخمسمائة وخمسة وعشرين بنسبة ٤٦٫١ فى المائة وزادت الثروة التى تتراوح بين الف وخمسمائة وخمسة وعشرين وخمسة آلاف جنيه بنسبة ١٥٦٫٧ فى المائة (٣)

---

(١) Bernstein.

(٢) Revisionist.

(٣) Evolutionary Socialism by Edward Bernstein.

وتسلم الاستاذ « باولى » (١) بيانات الاحصاء فى انجلترا وويلز من عصر « ماركس » الى سنة ١٩٣١ فوجد أن السكان زادوا بنسبة ٥٣ فى المائة ، وان الذكور من أبناء الطبقة الوسطى زادوا بنسبة ٩٥ فى المائة ، ولم يزد الذكور من طبقة العمال الا بنسبة ٦٣ فى المائة ، وعد الاستاذ « باولى » من أبناء الطبقة الوسطى طوائف الكتاب والموظفين فى الادارة والتجارة والاشغال الفنية، وفصل البيان عن هذه الزيادات فى تعليقاته على الطبقة الوسطى وأطوارها منذ قيام الصناعة الكبرى .

ولم تأت هذه المناقضات جميعا من أناس ينكرون المادية التاريخية ، بل جاء معظمها من اناس كانوا يتبعون « كارل ماركس » ويعملون بآرائه ، ثم وضحت لهم منافرتها للواقع واستحالة تطبيقها على علاتها فعمدوا الى تصحيحها وتنقيحها ، وترقبوا شيوع الثروة من طريق التوزيع الطبيعى والتطور السلمى والتدرع بالوسائل السياسية وبرامج الاصلاح الاجتماعى لانصاف المظلومين والحد من طغيان الثروة محصورة بين أيدى طبقة واحدة من الطبقات كائنا ما كان المجتمع الذى تعيش فيه

***

ثم يتراكم الخلط كله عند الهدف الاقصى الذى جعله « كارل ماركس » نتيجة النتائج لصراع الطبقات وتواريخ الجماعات البشرية منذ خطواتها الاولى فى الحياة الاجتماعية .. ولا شىء أدل على خطأ المقدمات من كذب النتيجة وصلاحها أن تكون نتيجة لمذهب آخر يفند

---

(١) Bowley.

مذهب « كارل ماركس » ويبطل سوابقه ولواحقه في تفسير التاريخ

فالطبقة العاملة لا تزداد سوءا على سوء مع تقدم الصناعة واتساعها الى غاية مداها ، ونجاح الشيوعية أقل ما يكون في البلاد التي تقدمت فيها الصناعة ذلك التقدم ، وأكثر ما يكون في البلاد التي لم تعرف الصناعة الكبرى ولم تنشأ فيها طبقة من الصناع تديرها اذا استولت عليها ، وتنعكس النسبة تماما في هذه النتيجة حيث وجدت الدعوة الشيوعية ، فلا تنجح الدعوة الشيوعية إلا بمقدار التأخر في الصناعة الكبرى لا بمقدار التقدم فيها ، ويحدث هذا في الامة الواحدة كما حدث في الولايات الالمانية الشرقية والغربية ، ويحدث في القارة الآسيوية كما يحدث في القارة الاوربية، فلا تروج الدعوة الشيوعية في اليابان كما راجت في الصين ، ولا تروج في الصين نفسها بين أبناء الاقاليم الجنوبية الشرقية كما راجت بين أبناء الاقاليم الغربية والشمالية

وكلما تقدمت الصناعة تبين أن الايدى العاملة لا تستطيع ان تديرها وأن تستولى عليها ، ونجمت في الامة طبقة جديدة من الخبراء والمهندسين تأخذ بزمامها وتملك نفوذ رأس المال أو تزيد عليه ..

فالصناعة التي كانت في عهد « كارل ماركس » سهلة الادارة يتولاها من يحرك المكنة اليدوية ، قد أصبحت خبرة دقيقة في جملتها وفي كل جزء من أجزائها ، وأصبحت هذه الخبرة موزعة على فنون مركبة وآلات متشابكة ومعارف ذهنية وسياسية وكفايات خلقية

لا يقل فعلها فى الادارة عن فعل الكفايات الذهنية والسياسية

وكلما اتسع ميدان الصناعة تضاعفت الحاجة الى طبقة الخبراء والمهندسين والمديرين وذوى الكفايات على تنوعها .. فتدبير الصناعة فى الميدان العالمى أصعب جدا من تدبيرها فى الميدان القومى أو ميدان الامةالواحدة هنا بلاد تكثر فيها الخامات ، وهنا بلاد تصلح لاقامة المصانع لهذا الصنف ولا تصلح مصانعها للاصناف الاخرى ، وهنا بلاد ميسرة لمراكز المواصلات ، وهنا بلاد تقبل على الاكسية ولا تقبل على الاطعمة ، وهنا بلاد يكفيها مهندسوها وخبراؤها ومديروها ويزيدون على حاجتها ، وهنا بلاد تطلبهم من غيرها أو تستعين بهم حيث كانوا ولا تتمكن من تنشئة فريق منهم بين أبنائها ، وهنا مبادلات ومقايضات ، وهنا معاملة بالنقد أو بالصفقات التجارية ، ويحيط بكل هذه البلدان عالم متغير متنقل على حسب الاطوار البشرية والطبيعية والحوادث التى تخطر على البال أو الحوادث التى لا تقع فى الحسبان .. فمن تخيل أن هذا العالم فى ميادينه الصناعية والاقتصادية يخلو فيه مكانالمديرين والساسة وذوى الكفايات الذهنية والخلقية فانه لكاسد الذهن حقا مطموس الخيال أو مطموس الحس والعيان

ومن تخيل أن « العملة » بأية صورة من صورها تبطل فى هذا العالم ، فمن البلاء حقا أن يسمع له رأى فى مقادير الامم وأطوار التاريخ .. ومن تخيل بعد خروج العملة ــ ان خرجت ــ أن هذه العوامل المتشابكة تساس وحدها وتترك الملايين من الخلق يأخذ كل منهم حقه ولا يزيد عليه ، ويعرف كل منهم كفايته ولا يدعى ما

عداها ، وتوزن فيه المطالب اليومية والسنوية بميزان الشعرة ـ الذى يرضي كل آخذ وكل مانح ـ فليس فى العالمين ولا فى المخرفين من أمعن فى التخيل وراء هذا الامعان ، ومن تحدث عن الغيب المجهول بسند أضعف من هذا السند وتلفيق أوهن من هذا التلفيق

***

ان الواقع أمام أعيننا قد عصف بالمذهب المادى فى مسألة الطبقات عصفا يزيل الثقة بنبوءاته عن الحاضر والمستقبل . ولا ضرورة مع هذا لازالة الثقة واقتلاعها من جذورها ، لان الثقة التامة واجبة لكل مذهب يطلب من الناس أن يتابعوه الى نتائجه الهائلة فى تاريخ الانسانية فاذا تزعزعت الثقة التامة فهذا التزعزع كاف عند كل ذى ضمير للاحجام الطويل ..

شرور أهون من تلك الشرور ، وعاقبة أقرب الى المداركة من تلك العاقبة ..

وليست النتيجة المعكوسة فى أمر الطبقة العاملة أو الامم التى تروج فيها الشيوعية هى كل ما يعصف بالمذهب بين يدى هذه العواقب وتلك الشرور ، فان نجاح الدعوة الشيوعية بين الامم المتأخرة يصيب المذهب فى مقاتل شتى ولا يصيبه فى مقتل واحد .. انه يصيبه فى مقتله حين يثبت أن الدعوة السياسية تفعل ما لا تفعله أطوار الاقتصاد فى عهد الصناعة الكبرى ، ويقلب المذهب القائم على سبق وسائل الانتاج لكل دعوة سياسية أو فكرية .. وانه يصيبه فى مقتله مرة أخرى حين يثبت انه مذهب متأخر لايساغ فى غير الشعوب المتأخرة ، وانه فتنة كسائر الفتن التى أصغى فيها

الجهلاء لكل ناعق منذ عرفت هذه الفتن فى تاريخ الحضارة أو تاريخ الهمجية

***

وقبل ختام هذا الفصل نقول : اننا لم نكتبه فى نشأة الطبقة من وجهه عامة لانه شرح طويل لاينهض به فصل فى كتاب ، ولكننا كتبناه عن نشأة الطبقة فى مذهب « كارل ماركس » لندل على الخلط فى دعامة من أضخم دعامات المذهب يرتفع بارتفاعها ويهبط بهبوطها . ونحن ـ بعد ـ لا نخرج عن الموضوع اذا أضفنا اليه الالمامة عاجلة بآراء الباحثين عن نشأة الطبقة من غير القائلين بالفلسفة المادية الاقتصادية ، لانها تساعد على المقابلة بين الاقوال المتعارضة فى نشأة الطبقات الاجتماعية

نشطت البحوث الاثنولوجية بعد عصر «كارل ماركس» وألقيت الاضواء المتلاحقة على مطلع التاريخ وأحوال الجماعات البدائية فى الازمنة الاولى وفى الزمن الحاضر ، واشتركت الدراسات النفسية والدراسات الاثنولوجية فى هذا الباب فتجمعت منها خلاصة حسنة فى هذه الناحية من البحوث الاجتماعية

وأقوى الآراء عن نشأة الطبقة وبنائها التقليدى منذ نشأتها الاولى أنها ترجع الى النسب والسلالة ، وان الغالب على سادة المجتمع أن يكونوا من سلالة طارئة على الوطن الاصيل ، ينظرون الى أبنائه نظرة الغالب الى المغلوب ، ويترفعون عن معاملتهم فى الشئون العامة أو الخاصة معاملة الانداد ، ثم تتبدل الطبقة مع الزمن بما يعترى الطبقة الممتازة من النقص والفساد وما تكسبه الطبقات الاخرى من المزايا والكفايات

واشهر القائلين بهذا الرأى « جوزيف شمبيتر » فى بحوثه عن « الاستعمار والطبقات الاجتماعية » (١) وعن « الطبقات فى مجتمع متجانس من الوجهة السلالية »(٢)

والشواهد على صحة هذا الرأى ملحوظة فى تاريخ الاشراف من أبناء رومة القديمة ، وتاريخ قبائل الفرنك والغاليين عامة فى البلاد الفرنسية ، وتاريخ المغول الآسيويين بين من سبقهم الى أوربة الشرقية من القبائل السلافية .. وأبرز ما تكون هذه الشواهد فى البلاد الهندية حيث تتعدد الطبقات ، ويستأثر الجنس الآرى المغير على البلاد بمزايا الرئاسة الدنيوية والدينية ، ويترك الطبقة الثالثة للتجار وأصحاب الاموال ، وينعزل تمام الانعزال عن الطبقة الدنيا التى لا تشبهه فى السحنة ولا فى العادات

والطبقة الغالبة تستأثر بخيرات البلاد بطبيعة الحال ، ولكن الفارق بعيد بين الاستئثار بالمال لان المستأثر به قوى قادر على التسلط ، وبين الاستئثار بالسلطة لأن المستأثر بها يقبض على وسائل الانتاج وتثمير الاموال .. فالسادة الغالبون قد تركوا الاعمال المالية للطبقة الثالثة دون طبقتهم ودون طبقة البراهمة ، وفرضوا لانفسهم من الاتاوات عليهم ما يقدرون على تحصيله بقوة الحكم وقوة السلاح

ولا نتراجع بعيدا مع التاريخ أو نذهب بعيدا الى الاقطار القصية لنرى مصداق هذا الرأى فى أقوال الباحثين والمؤرخين ، فان تاريخ مصر فى عصور المماليك والدول

---

(١) The Sociology of Imperialism

(٢) Social Classes in an Ethnically Homogenious Environment

السابقة لهم يعطينا من هذه الشواهد مايكفي لتقرير فعل السلالة فى تكوين الطبقة ، أو تقرير السبق فى هذا الفعل على أثر الاسباب الاقتصادية

ومن بقايا الطبقة التى ينشئها اختلاف النسب أن أبناء الطبقة الممتازة يأنفون من اختلاط النسب بينهم وبين الطبقات الاخرى ، وان رجحت عليهم فى الثروة والاستيلاء على وسائل الانتاج .. ومن قبل منهم مصاهرة تلك الطبقات عيب ذلك عليه واعتده هو من قبيل التضحية التى يساق اليها لضرورة من الضرورات

***

والباحثون النفسيون فى العصر الاخير يردون جميع الاسباب الاقتصادية الى البواعث النفسية ، فهي الوشيجة الجامعة بين أبناء الحرفة وأبناء الطائفة وأبناء الطبقة ، ولا تكفى الصلة الاقتصادية اذا لم تقترن بها الصلة النفسية ، وقد تكفي الصلة النفسية للتأليف بين الجماعات على اختلاف الطبقات

والباحثان الامريكيان « لومبارد » و « مايو » يذكران الامثلة الكثيرة على أسباب التجمع والتفرق بين أبناء الحرفة الواحدة ، فضلا عن الطبقة المحيطة بالحرف المنوعة .. فقد بحثا فى تكوين الجماعات بين العمال ، والتفتا بصفة خاصة الى أحوال التغيب (١) بين عمال كليفورنيا أثناء الحرب العالمية ، فوجدا أن العمال المتغيبين ينقطعون عن المصنع ثم يفارقون المدينة لأنهم لا يجدون حولهم من يألفونه ويألفهم ويستريحون الى مصاحبته ويستريح الى مصاحبتهم ، ووجدا أن أسباب التغيب

(١) Absenteeism

والانقطاع تزول حيث يتيسر الحاق العـامل المتغيب بفئة يأنس اليها وتأنس اليه

وسبق هذين الباحثين باحث آخر ــ هو « تريشر » ــ الذى كان معنيا بدراسة أطوار الشبان الذين ينتمون الى العصابات ، فقد ظهر له من دراسة ١٣١٣ حالة أن الشاب الذى ينتظم فى العصابة يلجأ الى ذلك لقلة الالفة بينه وبين الفئات الاجتماعية من رياضية أو ثقافية، فيركن الى أمثاله من أفراد العصابة لأن المفروض فى العصابات الساطية أو الخليعة انها تستبيح مالا يستباح ولا تبالى أن تقدم على المحظورات والمنفرات ، كأنها تحيلها الى مزايا وشروط لا تتوافر فى جميع الشبان

ومحصل البحوث الكثيرة فى هـذا الاتجاه أن اجتماع أبناء الحرفة انما يأتى من الالفة النفسية ، وأن على الحرفة أن تيسر هذه الالفة لتشابه الازياء والعـادات ومطالب الحياة .. فاذا كانت الحرفة لا تتكفل بتيسير هذه الالفة لم يشعر أبناؤها بالتقارب بينهم ، وجنح بعضهم الى بيئة غير بيئتها ولو فارق مورد رزقه وفارق مدينته بمن فيها

وليس من المشاهدات النادرة بيننا أن نرى أناسا من أبناء الطبقات العليا يختارون أصدقاءهم من أبناء الطبقات الدنيا لأنهم لا يشبهون أندادهم فى الثقـافة أو الشواغل النفسية والعقلية .. وليس من المشاهدات النادرة أن نرى أبناء الطبقات المحرومة يلقون الترحيب والحفـاوة بين أبناء الطبقـات الموسرة ، لأنهم يحسـنون من آداب المعاشرة وآداب التفـاهم على الجمـلة ما ليس يحسنه أندادهم فى المراتب الاجتماعية

واذا كانت العوامل النفسية هى الغالبة ، أو هى التى تخلص لنا من الظروف الاقتصـادية ، فليس اهمـالها

والتعويل المطبق على مادونها ممـا يعين على التقـديـر الصحيح فى أطوار الاجتماع

***

والدراسة التى تتخلل جميع الدراسات فى زماننا هذا هى دراسة الاحصاءات والمقارنات.

وقد رأينا نموذجا منها فى احصـاءات « برنشـتين » و « باولى » عن الطبقة الوسطى .. ومجمل ما يؤخذ من سائرها أنها تبطل الحصر المزعوم فى تقـديرات « كارل ماركس » وتبتعد بالتاريخ المقبل عن الوجهة التى لا وجهة سواها ..

ونظرة نلقيها نحن ــ أبناء العصر الحاضر ــ على ما حولنا، تطلعنا على حقيقة الطبقة كما تنبىء عنها تلك الاحصاءات والمقارنات ، ونعلم منها أن حاجز الطبقـات مرن ينفتح فى كل جيل لطائفة من الامة يدخلون منه أو يخرجون ، ويتبدلون من ثم طبقـة غير الطبقة وعملا غير العمـل فى المجتمع أو البيئة .. ولا ينقضى جيلان فى مدينة أو قرية الا شوهد فيهما تداول الغنى بين البيـوت والعشـائر فاستغنى قوم من الفقراء وافتقر قوم من الاغنيـاء .. ومالم يكن نظام الطبقة مصحوبا بنظام وراثى كنظام الوراثة بين النبلاء فى البلاد الانجليزية ، فقلما ترى حفيدا غنيا من أجداد أغنياء ، ونكاد نقول ان نظام الوراثة فى انجلترا هو الذى أغلق الباب على من فيه وترك الغنى يتسرب الى أيدى العاملين فى الصناعة والتجارة لأنهم عملوا فيه بغير منافسة من سادة المجتمع الاقدمين

واذا أحصـينا المنتفعين من الطبقات ، لم نجـد أن الاستغلال مقصور على ذوى الاموال .. بل وجـدنا أن كثيرا من العاملين المجتهدين وصلوا الى الغنى من عملهم

في مزارع الاغنياء وبيوتهم التجارية ، ولا يقل عدد هؤلاء الاغنياء عن الربع أو الخمس من جملة الاغنياء فى جيل واحد ، وقلما عرف هؤلاء أحدا من أجدادهم على نصيب من اليسار

هذه المعلومات عن أطوار الطبقات تؤيد الفروض أو ترجحها على احتمالات كثيرة ، بل تؤيد جميع الفروض الا ذلك الفرض المحتوم الذى لا ينفرج في مذهب « كارل ماركس » لقيد انملة يميل اليه تاريخ الانسانية الى غير الخاتمة التى يضر عليها ، ويتشبث بها ، ولا يطيق أن يتوهم على البعد أو على القرب خاتمة سواها

ذلك النعيب الجهنمي لا توجبه معلومات الباحثين عن اطوار الطبقات ، ولاتتادى اليه المقدمات التى وصلنا اليها او نبصر أمامنا أننا واصلون اليها .. وانما المقدمة التى توجبه كامنة هنالك فى خبيثة الظواهر النفسية المريضة .. مقدمته نفس خبيثة مطبوعة على الشر لا تريد غيره ، ولا تطيق النظر الى شيء يمتزج فيه بأمل من آمال الخير أو عاطفة من عواطف البر والامان



القيمة الفائضة

القيمة الفائضة أصل من أصول المذهب الماركسي لا يقل شأنها فيه عن شأن حرب الطبقات أو التفسير المادى للتاريخ ، ولعله أخطر شأنا فيه من كليهما .. اذ لا حرب بين الطبقات ، ولا تفسير للتاريخ بوسائل الانتاج ، ان لم تثبته نظرية القيمة الفائضة .. ولا محل للقول بالمجتمع الذى لا طبقات فيه ان لم تثبت هذه النظرية ، فان القيمة الفائضة هى ربح رأس المال الذى يقوم عليه المجتمع ويتهدم لأجله ، فيخلفه مجتمع لا فضلة فيه من الربح فوق نتاج العمل ، ولا طبقات ، ولا استغلال ..

وخلاصة القيمة الفائضة فى مذهب « كارل ماركس » أن قيمة كل سلعة انما هى قيمة العمل الانسانى فيها .. ولكن العامل لا يأخذ هذه القيمة كلها ، بل يأخذ منها مقدار ما يكفيه للمعيشة الضرورية ، وتذهب القيمة الفائضة الى صاحب رأس المال بغير عمل.

وأحوج ما تكون النظرية الى الثبوت فى مذهب «كارل ماركس » يكون حظها من الوهن والتلفيق والمحال .. وقد قيل عن نظرية القيمة الفائضة فى هذا المذهب انها « كعب أشيل » أو مقتل المذهب فى جملته ، وهى فى الواقع كذلك لولا أن الكعب أخفى موضعا فى هذه النظرية المنكشفة

بجميع مقاتلها من النظرة الاولى الى النظرة الاخيرة

ماهى القيمة « أولا » فى علم الاقتصاد ؟ .. انها شىء غير الثمن ، وغير الكلفة ، وغير السعر .. ولكن الفاصل بينها لم يوجد بعد على حد قاطع لا خلاف عليه ..

وقد نجحت المشـــكلة مع الخطوة الاولى من خطوات البحث فى علم الاقتصاد .. اذ لا معنى لعلم الإقتصاد ، ان لم يكن معناه انه علم « التقويم » أو البحث فى القيم وعواملها ومؤثراتها وأسباب التأثير فيها

ولا داعية الى معرفة كبيرة بالاقتصاد أو اختصـــاص عظيم بفن من فنونه العويصة للعلم بأن القيمة غير الثمن .. فالثمن معروض مطلوب لا يجهله من يسأل عنـــه ، وتقديره بعد عصرالمقايضة يرجعالىقيمة المعادنالحقيقية، وقيمتها المتداولة ، وقيمتها فى حساب الدولة التىتضرب المسكوكات .. وهنا تدعو الحاجة الى التفرقة بينالقيمة والثمن ، لأن العملة التى يقدر بها الثمن هى نفسها ذات قيمة لابد من البحث عنها

ولم يكن معقولا أن يسأل الباحث الاقتصادى عن قيمة الشىء فيقول انها هى ثمنه بالعملة المعدنية ، فاننا لا نزال بعـــد ذلك مضـــطرين الى البحث عن قيمة العملة وقيمة المعدن ومعيار هذه القيمة فى عرف التجارة وعرف الدولة التى تضرب باسمها المسكوكات ..

قالوا : ان الثمن هو قيمة الشىء مقدرا بالنقود ، وأما قيمته بالسلع الاخرى فهى قيمة العمل الذى يستلزمه كل منها .. فاذا قيل مثـــلا أن قيمة الذراع من الحرير تساوى مائة رغيف ، فمعنى ذلك أن العمل اللازم لصنع ذراع الحرير يساوى العمل لصنع مائة رغيف

فهل هذا صحيح ؟..

كلا .. وقصاراه من الصحة انه حيلة تفريقية او معيار مفروض للقياس عليه ، مع الاستعداد للزيادة هنا والنقص هناك ، أو مع الاستعداد لافتراق المعايير كل الافتراق ..

ان هذه السلعة يصنعها عامل فى يوم ، ويصنعها عامل آخر فى يومين ..

وان هذا العامل تكفيه صحفة من البقول لتوليد طاقة العمل فى بنيته ، وقد يزامله عامل آخر لا تكفيه الصحفة أو لا يستطيع هضمها ولا غنى له عن طعام غيرها فى النوع والثمن

ويستطيع عامل أن يباشر عمله فى الشتاء بلباس خفيف ، ولا يستطيع العامل الآخر ذلك الا بمضاعفة الدثار والاحتماء بين الجدران ..

والأرض المخصبة تنبت الحبوب بقليل من العمل ، ولا تنبتها الارض المجدبة الا بعمل كثير وتكاليف شتى للرى والتخصيب .. ولا تعرض الحبوب من صنف واحد الا بثمن واحد مع اختلاف العمل فى انباتها ..

والكتاب المقرر للتدريس فى هذه السنة يباع بمائة قرش للطالب فى المدرسة ، ولكنه لا يشتريه بخمسة قروش اذا تقرر كتاب غيره .. ولم ينقص العمل الذى بذل فى تأليفه أو طبعه أو تحضيره ذرة من أجل ذلك التغيير !

والعنب يعصر اليوم فيساوى القدح منه مليمات ، ثم يترك العصير فى الباطية سنة فيرتفع ثمنه خمسة أو ستة أضعاف ، ثم يترك عشر سنوات فيساوى مئات !

والبلوطة تغرس اليوم ولا يساوى العمل فيها دريهمات، ثم تمضى السنوات فتساوى الدنانير .. ثم يظهر فى ابان ذلك منجم جديد يغنى عن الخشب ، فيهبط الثمن الى ربعه أو ما دون ربعه فى ذلك المكان !

والنظارة التى يشتريها زيد بدينارين ، تعرض على عمرو فلا يشتريها بدرهم .. ولا يأتى ذلك من اختلاف العمل فيها بطبيعة الحال !

وهذه الحلية ينفق الصانع الماهر فى عملها شهورا أو سنوات ، ثم يموت طالبها الذى أوصى على صنعها لتزيين كسائه او قنيته من مدخراته ، فلا تباع بعشر الثمن المتفق عليه ! ..

يقال اذن ان طلب السلعة يضاف الى عملها فيعطيها القيمة التى تستحقها ...

وهذا معيار كمعيار العمل يؤخذ بالتقريب ، ولا ضابط له على التحقيق ..

ان هذا التاجر يعرف المكان الذى يقيم فيه طلاب السلعة ، ويملك الوسائل التى تؤديه اليهم ..

وربما وجد التاجر الذى يعرف المكان ولا يملك الوسيلة ، أو وجد التاجر الذى لايعرف المكان ولا يملك الوسيلة .. فهل يبذل هؤلاء التجار ثمنا واحدا للسلعة الواحدة ؟..

ويتفق أحيانا ان السلعة تطلب فى ابانها ولا تحتمل البقاء الى موعد آخر ، ويتفق أنها تطلب فى كل أوان ، أو تطلب فى أوان مؤجل وهى عند تاجرين .. هذا يطيق الانتظار الى الموعد المؤجل فلا يبيعها الا بما يرضيه ، وهذا يعجز فى الانتظار فيقبل فيها الثمن المعروض عليه !

وليس العمل والطلب كل ما يبحث فيه عند البحث في القيمة .. اذ هنـاك عوامل أخرى بديهيـة تدخل في الحساب وتتغير عوارضها بتغير الاحوال ..

هناك اللزوم والكثرة ..

فالماء ألزم من الجوهر .. ولكن الجوهر يباع بألوف الدنانير ، ولا يزيد ثمن الماء على أجرة حمله عنـد موارد الانهار والعيون ..

والجزء من الكتاب يباع بثمن معوجود جميع الاجزاء، ولكن قد يباع بثمن الكتاب كله اذا كان هو الجزء الناقص في مجموعة بعينها ، وأن لم يـكن ناقصـا في غيرها من المجاميع ...!

والدفتر من طوابع البريد لا يساوى كثيرا أو قليـلا عند غير الهواة ، وربما بيع بثروة من المال القيم لهذا أو لذاك من الهواة أو التجار العارفين بمكان الهواة !..

لاجل هذا الاضطراب فيتعريفالضوابط التي تقوم بها الاشياء ، لا يبرح الباحثون الاقتصـاديون يتنقلون من تعريف الى استدراك ، ومن استدراك قديم الىاستدراك جديد ..

ومن هنا نشأ الاختلاف بين تعريف القيمة الاسـمية ، والقيمة التجارية ، والقيمة الذاتيـة ، والقيمة المقدرة بالعمل ، والقيمة المقدرة بقوة العمل ، ولم ينحسم هـذا الاختلاف كل الحسم بتعريف من التعريفات ..

ومن هناقيل ان القيمة غير الكلفة ، وانالكلفة بحساب العمل شيء والكلفة بحساب الانتاج شيء آخر ..

ومن هنا وجـدت تلك النظريات التي تزداد كل يوم

ولا تنقص مع الزمن ، لانها كلما ازدادت من ناحيـة ظهر عليها الاعتراض من جملة أنحاء ..

وعندنا تقويم القيمة بالمنفعة النهائية (١) . وعندنا تقويم القيمة بالاضافة الهامشية (٢) ، وهى التى تحسب تكاليف الجملة ثم تحسب السـلعة الزائدة .. وهى فى كثير من الاحوال أقل من تكاليف السلعة فى الجملة .. وعنـدنا تقويم القيمة بنتائج فقد الشىء مع نتائج الحصول عليه .. وعندنا تقويم القيمة بمتوسط الطلب .. (٣) وعندنا تقويم القيمة بالطبقة الخصوصية (٤) .. وعندنا غيـر ذلك أشتات من التعريفات .. من قال لنا ان تعريفا منهـا حاسم لا استدراك عليه ، فهو جاهل بما يقول او دعى يكذب فى دعواه ..

وليس من قصدنا هنا ان نوازن بين هـذه التعريفات، وأن نفرغ من البحث فيهـا حيث لا فراغ من البحث فى هذه الامور .. ولكننا نحقق المقصد المأمون من هذا البحث اذا علمنـا أن التعريفات جميعـا تسمح بالمراجعـة والاستدراك ، ولا تؤخذ مأخذ الضبط الجازم من الوجهة الفكرية العلمية ، وندع الضبط الجـازم من الوجهة العملية التى تهدر فيهـا الدماء .. وينعب فيهـا نعيب الخراب ، ويتحول فيها التاريخ عن مجراه فلا يعود اليه الا بعد اليأس والضلال

***

وعلينا قبـل الكلام عن نظرية « كارل ماركس » بين هذه النظريات أن نرجع بها الى ينبوعها من الظواهر النفسية،

---

(١) Final Utility — (٢) Marginal Cost
(٣) Average Demand — (٤) Class Price

ولا مشقة على الباحث عن ذلك الينبوع فى ضمير « كارل ماركس » اذ لا توجد بين تلك النظريات الا نظرية واحدة تملى له فى اشباع طوية النقمة والاذى ، وهى نظرية القيمة الفائضة .. فاما « قيمة فائضة » وتسويغ لهدم المجتمعات كافة وتحريم لبرامج الاصلاح جميعا ماعدا الفتنة العمياء ، واما لا « قيمة فائضة » فلا مجتمع اذن بطبقة واحدة ، ولا مسوغ اذن لنعيب النقمة والبغضاء ونذير الرعب والبلاء

***

ان أحدا من المنكرين للمادية التاريخية لا يعصم « كارل ماركس » من الخطأ ، كما يعصمه أتباعه وشراح مذهبه كلما استعصى عليهم اثبات رأيه على الصراحة ، وألجأتهم غلطاته ومساوئه الى التأويل المتكلف والتخريج العسير .. ولكنه مهما يكن من خطئه أو غلطه خليق أن يفهم ما يفهمه أوساط الناس والا يخفى عليه ماينجلى لهم بغير خفاء . ولا تعليل لخفاء الحقائق البينة عنه الا أن يكون مغلوبا على عقله بحكم هواه ، ويرجح هذا التعليل اقوى الوجحان حين ننظر الى الآراء التى يقبلها فاذا هى الآراء التى تملي له فى اشباع الحقد والنقمة ، وننظر الى الآراء التى يرفضها فاذا هى الآراء التى تحول بينه وبين اشباع ضغينته .. وتفتح الطريق لوجه من وجوه الاصلاح غير الوجه الاوحد الذى لا معدى عنه لجميع آرائه وتقريراته وتقديراته ووصاياه

وليس من التعليل المقبول أن تخفى عليه ثغرات القوانين والنظريات التى يتعقبها غيره بالحينطة

والاستدراك ، ثم يتركونها وهم على علم بما فيها من النقص ومصارحة بما يعوزها من الاسانيد .. بل الغالب فى جميع الزيادات التى يدخلها على تعريفاته أنها تنم على حيلة كحيل الفقهاء فى فتح المنافذ للاستثناء والتخلص من الحرج ،.ولا يتأتى ان نفرض له حسن النية فى هذه الحيلة الفقهية الا أن يكون مغلوبا على عقله منساقا بحكم الجبلة المتسلطة عليه ..!

كيف تخلص « كارل ماركس » من المحرجات أو الفجوات فى تعريف القيمة بالعمل ؟.. لم يتخلص بمعنى واضح له أو يتأتى توضيحه لمن يتشكك فيه ، ولكنه تخلص منها بتلك الحيل الفقهية المصطنعة فقال : « انه يقصد قوة العمل ولا يقصد العمل الواقع ، وانه يقيده بصفة العمل الضرورى فى « الساعة الاجتماعية » : فالسلعة بعد هذه الاستدراكات تساوى قوة العمل الضرورى محسوبة بالساعات الاجتماعية ..

وعلى هذا يعتقد « كارل ماركس » انه زاغ من الثغرات المفتوحة عليه ، وأعد الجواب لكل اعتراض على أنه الذى يلقى الاعتراضات الكثيرة من خبراء الاقتصاد منذ مائة سنة ، ولا تتناقص هذه الاعتراضات اليوم بل تزداد

لقد زعم « انجلز » ـ صفيه المشهور ـ أن «ماركس» أتى بمعجزة العبقرية حين استبدل قوة العمل بالعمل ، وجعل قيمة السلعة منوطة بتوليد القدرة على العمل لا باجراء العمل الواقع فى مختلف الصناعات .. الا ان هذا التبديل يبعد التعريف ، ويزيد ثغراته ولا يلمه ، أو ييسر لنا الاحاطة بجوانبه ومنافذ الشك فيه ..

فقوة العمل تفتح الباب للعامل النفساني «السيكولوجى» الى جانب العامل الحيوى « البيولوجى» وتكاد تخرج بنا فى كل خطوة من المعلوم الى المجهول ..

ان الصانع الايطالى مثلا يطلب صحفة المكرونة فى مصر ولا يقنع بصحفة العدس أو الفول ، وان يكن فيها من الغذاء ما يساوى صحفة المكرونة !..

وان الفاعل الذى يشتغل على نغمات الاناشيد يقل مله ويزيد نشاطه ، ويخول الفاعل المنشد حقا فى الاجر اكبر من حق الفاعل الذى يصغى اليه ..

وان الاجير الذى يشكو الظلم لا يخلص فى عمله كما يخلص زميله الذى يجهل تلك الشكاية ويعتقد ان أجره مكافىء لعمله ، وان تساوى الاجران ..

أما كلمة الضرورى ، التى ألحقها بالعمل ، فهى الفتوى الفقهية التى تجيز كل اعتراض ولا تمنع اعتراضا واحدا مما تقدمت الاشارة اليه ..

ان المهارة الضرورية لرسم صورة من صور الفنون الجميلة تجعل العمل الذى تتضافر عليه الوف الايدى ، أمثل أجرا واتقانا من عمل اليد الواحدة ، ولا تحل لنا مشكلة واحدة من مشكلات التقدير او التسعير ..

وأن الخبرة الضرورية فى قائد الجيش لا تحل محلها خبرة الألوف من جنوده الذين يحسنون القتال ولا يحسنون القيادة ..

أما الساعة الاجتماعية فهى صندوق الساحر الذى يجمع الاسرار ، ولا يرفع الستر عن سر واحد نحتاج الى جلائه واقراره على قرار لا يقبل النزاع ..

فالعناصر التى تدخل فى تكوين الساعة الاجتماعية تشمل كل ما تتميز به المجتمعات من العادات والتقاليد والاجواء والشروط الصحية، وتكاليف الساعة الاجتماعية فى جوار القطب غير تكاليفها فى جوار خط الاستواء ، والرضا عسير مع الفصل بين العامل وعادات بيئته أو تقاليدها الاجتماعية ، وهو يسير بالاجر نفسه اذا اشتغل العامل وهو لا يشعر بالغربة عن بيئة تلك العادات والتقاليد

واذا سأل السائل : ما هو الفرق بين الساعة الاجتماعية فى مصانع الحديد وبين افران الخبز ؟ وكيف يكون العدل أو المعادلة فى الصناعتين بين الاجر والربح ورأس المال ؟ فبماذا تسعفنا كلمة الساعة الاجتماعية فى جواب هذا السؤال ؟

ان رأس المال المتنقل فى الافران أكثر من رأس المال المتنقل فى مصانع الحديد ، وصاحب الفرن لا يتكلف لاقامة مصنعه كما يتكلف صاحب مصنع الحديد عند بناء الدار وشراء العدد واستئجار المهندسين والخبراء .. وقد تدور « ألف دينار » من رأس المال كل أسبوع بربح جديد فى صناعة الخبز وتوزيعه على العملاء ، ولا تدور هذه « الالف » بعينها الا مرة أو مرتين . ولاشك أن مقياس الربح هنا غير مقياس الربح هناك .. فما هو الفرق بين الساعتين الاجتماعيتين : ساعة فى المخبز، وساعة فى مصنع الحديد ؟ وهل نجعل لكل صناعة ساعة اجتماعية تدور معها بمقاييس العدل والظلم ومقادير الاجور والارباح ؟

وهل يستطيع أحد ــ بناء على هذا التعريف ــ أن

يدعى الحكم المبرم فى قضـــائه على المجتمعات بتواريخها وعاداتها وآدابها وأديانها ونظم السياسة والشريعـــة فيها ؟ وهل يمتنع التردد على ضـــمير يستند الى ذلك التعريف قبل خوض الدماء والاشـــلاء الا أن يكون ضميرا مسيخا اعماه الدغل عن منافذ الشك التى تتفتح أمامه كما تتفتح منافذ الغرابيل ؟

والمصادفة لا تطرد فى الخطأ الفكرى على وجهة واحدة من الجانبين المتقـــابلين ، فلا يجوز أن يخطىء الفكر — مصادفة — فى قبول القيمة الفائضة على الرغم من تراكم الادلة التى تنفيها أو تشكك فيهـــا ، وأن يخطىء — مصادفة — فى انكار النظريات التى تخالفها على الرغم من تراكم الادلة التى تؤيدها أو ترجحها .. فليس هـــذا الاطراد من مصادفات الخطأ على نسق واحـــد طردا وعكسا ثم عكسا وطردا من الجانبين ، ولكنه هوى يغلب على العقل فيتجه به الى وجهة واحدة حيث مال ..

انظر مثلا الى « القيمة الفائضة » التى يختـــار لها فى الجزء الاول من كتاب « رأس المال » مثل الربح المكسوب للتاجر من ثمن الحصان ، وهو يختار الحصان عمدا ليقول انه سلعة لا يضاف اليها شىء من عند صاحب المال ..

فلو أراد أحـــد أن يختار مثلا ينقض نظرية « كارل ماركس » لـكان مثل الحصان أصلح الامثلة لنقضـــه ، وكان أصلح من السلعة المصنوعة التى لا تحيـــا ولا تموت !

فالسلعة الجامدة قد تبقى زمنا بغير عمـــل مضـــاف يعمله التاجر للمحافظة عليها ، ولـكن الحصان يحتـــاج الى العلف والسقى والسياسة والحراسة ، ولا تبقى له

قيمة الحصان التى من أجلها يباع ويشترى اذا هـزل أو مرض أو ذهب فريسة لوحش من الوحوش .. وفى هذا المثل ترتبط القيمة كلها بعمـل التاجر ، ولا تبقى للحصان قيمة أصيلة ولا قيمة فائضة بغير ذلك العمل .

ولا ينوب عن تاجر الخيل كل تاجر يبذل ثمن الحصـان ثم يبيعه رابحا فيه .. بل لابد من معرفة خاصة بالخيل وأوصافها ولوازمها ووسائل المحافظة عليها وعرضها فى أسواقها أو حيث يشتريها من يطلبها ، وليست هـذه المعلومات العامة مما يجهله أحد لوأراد أن يعرفه ويدخله فى حسابه ، الا أن « كارل ماركس » ضرب المثل بالحصان وقال : ان التـاجر يشتريه بمائة جنيه وهو ينوى أن يبيعه بمائة وعشرين جنيها ، ولو لم يكلفه شيئا من النفقة بين المشترى والمبيع .. ونسى ان تجارة الخيل لا تقوم على هذا الافتراض ، وان الربح فى هذه الحالة انما يصح أن يقال انه بغير عمل وبغير مقابل اذا تساوى وجـود التاجر وعدمه .. فهل هما مستويان ؟.. وهل يقبل « ماركس » هذا التساوى المزعوم بهذه السـهولة اذا كان فيه انكار للقيمة الفائضة ؟

لقد كان مثل الحصان هذا محل مناقشة بين أصحاب النظريات الاقتصادية لبيان عمل التاجر فى صفقتـه التجارية ، فقال بعضهم : ان التاجر خـدم البائع لانه أعطاه مالا انفع لديه من الحصان ، وخدم الشارى لانه أعطاه حصانا أنفع لديه من ثمنه ، وأخذ على عاتقه أن ينوب عنهما فى البحث عن فرص البيع والشراء .. وهو عمل له جزاء ، ولـكن « ماركس » يسمى هذا الاقتصاد باقتصاد الرعاع أو الاوباش ـ وهى تسمية لاتستغرب من أحد كما تستغرب من الرجل الذى جعل رسـالته

تسليم العالم بقضه وقضيضه للصعاليك — ومن تفكير الرعاع عنده أن يقال : ان التاجر قد خلق « قيمة » للحصان بعمله ، وأن يوصف عمله بشيء غير صفة التداول (١) التى هى من طبيعة الحال .. فماذا لو ضاعت قيمة الحصان كلها فمات ، وماذا لو أكل بثمنه علفا قبل أن يباع ؟.. هذه اعتراضات لها ثبوتها اليقينى عند « ماركس » فى حالة واحدة وهى الحالة التى ترضيه ولا ثبوت لها — بل لا وجود لها — فى أية حالة لاترضيه!

وانه ليرفض قيمة الادارة بمثل هذه السهولة حين يقال له انها تقدم وتؤخر فى نجاح المعمل واستمراره وكفالة ربحه ، وان الفرق بين معملين فى الرواج قد يرجع الى حسن الادارة او خلل الادارة ، فيعيش أحدهما وينمو ويضمحل الآخر ويموت ، وكلاهما فيه عمل وفيه عمال ..

ولم يصنع « كارل ماركس » فى حل هذه المشكلة بادىء الرأى ، الا أن يفرق بين الادارة ورأس المال .. وكيفما تشعبت الآراء فى هذه الفروق فلا خطر لها فى الموضوع الذى أثيرت من أجله ، لان النتيجة على جميع الاقوال أن السلعة لا تستمد قيمتها كلها من عمل الصانع ، وان عمل الصانع قد يزداد وتقل قيمة سلعته مع خلل الادارة وانه قد ينقص وتزيد قيمة السلعة مع حسن الادارة وانتظامها .. فليست القيمة اذن مستمدة من عمل الصانع أو أعمال الصناع اجمعين

وبالسهولة التى يرفض بها « كارل ماركس » كل رأى لايرضيه ، نراه فى مسألة الادارة يرفض كل احتمال

(١) Circulation

لاستبداد المدير بالنفوذ ، ويحصر الاستبداد فى صاحب المال .. ولا دليل له على ذلك الا انه يريده ويأبى ما عداه ..!

فالانسان يطلب الربح لانه يطلب الامتياز ، ويأبى « كارل ماركس » هذا لانه يفسد عليه عمله فى حاضره ومصيره ، ويقول : ان الانسان يطلب الامتياز لان هناك ربحا يطمع فيه ، فما لم يكن ربح فلا امتياز .. !

والحصان هنا معلق وراء المركبة ، على عادة المذهب فى أكثر نظرياته ، ومن ذاك ما تقدم فى قيمة العمل .. فالصحيح أن العمل الانسانى له قيمة بمقدار طلبه ، وأما الصحيح فى المذهب فهو قلب الواقع راسا على عقب أو هو القول بأن السلعة لها قيمة بمقدار ما فيها من عمل الانسان

وعلى هذا القياس المعكوس يقال : ان حب الامتياز يأتى من حب الربح ، ولا يقال : ان حب الربح يأتى من حب الامتياز ..

ولا تؤخذ الحجة من الواقع المحسوس فى طبيعة الانسان ، ولكنها تؤخذ من الهوى الدفين فى الطبيعة الممسوخة .. فلو قيل : ان المدير يحرص على امتيازه كما يحرص عليه صاحب رأس المال سقط المذهب من قمته الى أعمق غور فيه ، فوجب اذن أن يلغى هذا القول ولا يطول النظر فيه .. مخافة الكسر على الزجاجة المخبأة وراء الظهر ، ولا سند لها من الجدار !

على أن الظاهر من مساجلات « كارل ماركس » وزمرته فى الايام الاخيرة أن الحملة على نظرية القيمة الفائضة كانت أقوى من المكابرة واللجاج ، وانها زعزعت

المذهب فى الآونة التى أدبر فيها ادبارته. المنذرة بالموت بعد فشل الفتنــــــة البارزيسية .. فتراجع دعاته الى خطوطهم الاخيرة ووعد « كارل ماركس » غير مرة باعادة البحث للافاضة فى مســـــألة القيمة الفائضـــة ، وتعزيزها بالادلة من أطوار الحركة الاقتصادية فى تلك الآونة .. ثم مات ولم ينجز وعده ، وشعر صفيه « انجلز » بالحرج من مناوشة ناقديه ، فأعلن أن الرد على اعتراضـــــات الناقدين سيظهر فى الجزء الثالث من كتاب « رأس المال » الذى عثر على مسوداته فى أوراق « ماركس » بعــــد موته ، ثم ظهر الجزء الثالث فاذا هو يتراجع ولا يفسر ما غمض من أقواله السابقة ، واذا به يعترف بأن بعض السلع يتبادل بقيمته الانتاجية و « أن جملة أثمان الانتاج للسلع الاجتماعية ـــ مشتملة على جملة خطوط الانتاج ـــ تساوى جملة القيم جميعا » .

وها هنا تفرقة صريحة بين قيمة الانتاج وقيمة العمل لان خطوط الانتاج تشمل رأس المال والادارة والعمل ، ولا معنى معها للقول بالقيمة الفائضة التى شهر من أجلها الحرب على مجتمع الصناعة الكبرى وما ســـــبقه من المجتمعات .. وقد ختم « كارل ماكس » رســـــالته بنصوصه وشروحه واستدراكاته دون أن يبسط القول فى شيئين من أحق الأشياء فى مذهبه بالشرح والاثبات ، فلم يقل لنا كيف كان فى الامكان ان يظفر الصانع بحقه كاملا فى مجتمع القرن التاسع عشر أو المجتمعات السابقة وكيف كان فى الامـــكان ان يتم تداول رأس المال مع ذلك وتبقى الإعمال وحقوق العمال ؟

وأغرب من ذلك انه لم يقل لنا كيف يعرف الصـــــانع

حاجته ، وكيف ينالها بغير بخس ولا محاباة ، وكيف تدار المصانع على سنة العدل والمساواة بعد زوال رأس المال واستيلاء الاجراء على المصانع وموارد الارزاق ..

فهذا العالم الذى يؤكد لنا أنه لا يحلم كما يحلم الطوبيون من الاقتصاديين الرعاع ، يزعم أنه يعلم — ولا يغرق فى النوم والحلم — حين يتنبأ لنا عن مجتمع يزول منه رأس المال ، فيطلب فيه كل فرد حاجته بغير زيادة وينالها لساعتها بغير نقصان ، ويخدمه مديرون ورؤساء لا يحرصون على مزية الرياسة ولا يحتالون على البقاء فيها ، وأن المنافسات التى تنبعث من تفاوت الحظوظ فى الذكاء والقدرة والجمال والصحة وكثرة النسل لن يكون لها عمل بعد زوال رأس المال ، وان « الفلوس » وحدها هى التى تعمل كل شىء ولا عمل بعدها — بتة — للتمايز بالحظوظ والاقدار ..

من صدق هذا فليس بالعسير عليه أن يصدق طوبى من طوبيات الحالمين ، وعلم الله ما رأينا أناسا يجلسون مجلس الجد للبحث العلمى فى هذه الخرافات الا عبرت أمامنا صور الاطفال الصغار وهم يلبسون اللحى الطوال ليمثلوا هيبة القضاء بين الاعيب الفراغ ..

وما كانت النبوءة عن المجتمع « بلا عملة فائضة » هى خاتمة النبوءات عند هؤلاء العلماء المحققين غير الحالمين وغير الواهمين ، فانه ليكفى عندهم أن يقول القائل اننى عالم غير حالم ، وأننى ادين بالمادة ولا أدين بما وراءها ، ليجوز له الشطح الذى لا يجوز لاحد ، ولا يستند فيه الى سند . وهذه نبوءاتهم عن عاقبة الاطوار الاجتماعية رحلة قريبة جدا الى جانب النبوءة التالية عن عاقبة الاطوار المادية ، فان « أنجلز » صفى « ماركس » يعلم

علما ليس بالحلم « أن المادة تتحـــرك فى دورات ابدية تستتم كل دورة مداها فى دهر من الزمان ، تلوح السنة الارضية الى جانبه كأنها عدم .. دورة تلوح فيها فترة التطور الاعلى ـ ونعنى بها فترة الحيـــاة العضوية التى يتوجها الوعى الذاتى ـ شيئا صغيرا بالقياس الى تاريخ الحياة وتاريخ الوعى نفسه .. دورة تكون فيها كل هيئة خاصة من هيئات المادة ـ سواء كانت شـــمسا أو سديما ، أو كانت حيوانا أو نوعا كاملا من أنواع الحيوان، أو كانت تركيبا كيميا أو انحلالا كيميا ـ أبدا فى تحول وانتقال .. دورة لا يدوم فيها الا المادة المتغيرة أبدا ،والا ناموس التغير الابدى والحركة الابدية . ومهما تتكرر هذه الدورة ويبلغ من قسوة تكرارها فى الزمان والمكان ، أو مهما تطلع فيها من شموس وأرضين ثم تغرب بعد حين، أو مهما يطل الانتظار قبل أن تبرز هنا أو هناك منظومة شمسية أو كوكب تتهيأ عليه البيئة للحياة العضوية ، ومهما ينشأ أو ينقرض من الخلائق قبل أن تنجم بينها أحياء تفكر بأدمغتها وتجد لها ملاذا يسمح بالحياة ـ ولو الى فترة وجيزة ـ فاننا مع هذا لعلى يقين أن المـــادة فى كل تغيراتها تظل أبدا واحدة وأبدا كما هى ، وانها لن تفقد صفة من صفاتها ، وان تلك الضرورة الحديدية التى تقضى بزوال أرفع زهرات المادة ـ وهى القوة المفكرة ـ هى بعينها تقضى بميلادها كرة اخرى فى زمان آخر .. »

نعم .. هذه هى النبوءات الراسخة عن مصير الاطوار الاجتماعية ومصير الاطوار الكونية ، ومن شروطهـــا المسلمة أنها بغير دليل ولا محاولة للدليل ، وهل يلزم الانسان أن يدلل على صحة كلام بعد قوله فى فاتحة كل دعوى من دعاويه : انه يؤمن بالمادة ولا يؤمن بالاحلام !

حقوق الفرد

اذا كان غرض البحث فى حقوق الفرد وحقوق الجماعة ان نوازن بينهما ، ونقدم بعضها على بعض ، فليس عند « المادية التاريخية » أدب خاص تضيفه الى التراث العريق من آداب الامم فى تقدير الفرد عامة ، ولا فى تقدير الفرد الممتاز أو الفرد العظيم ..

فمن قديم الزمن ، فرغ الناس من هذه الموازنة واتفقوا على أن حقوق الجماعة أولى بالتقديم من حقوق الافراد ، وان حق الفرد اذا وقف فى طريق الجماعة وجبت التضحية به لخدمة الجماعة وتغليب مصالحها العامة على كل مصلحة فردية

فى هذه المسألة لايوجد قولان ..

واذا رجعنا الى آداب الجماعات الاولى لنعرف موضع المغالاة فيها ، فمما لا نزاع فيه أن المغالاة فى حقوق الجماعة أعم وأقوى من المغالاة فى حقوق الفرد على حدة أو حقوق الافراد متفرقين .. وما كان فرد من الافراد ليعظم فى قومه ما لم يكن له فضل فى الذود عنهم .. ومعونة عائلهم ، واطعام جائعهم ، وايواء شريدهم .. ولا خلاف بين رأيين فى ان الموئل الاخير لحق الفرد هومصلحة

الجماعة بحذافيرها ، فلا حق للفرد العظيم في التعظيم الا ان تكون مصلحة الجماعة ملحوظة في اكبـــار العظمة والاعتراف بأفضال ذويها ..

وعندنا في اللغة العربية ذخيرة من الشعر الجـــاهلي يخرج منها القارىء بفكرة واحدة ، وهى انه « لا خير فيمن لا خير للناس فيه » ..

وما كان أدب العشيرة العربية الا مثالا للعشائر الاولى على وفاق في المغزى والنتيجة مهما تتبدل أســـاليب التعبير ..

ولما ترقى البحث في هذه الشئون الى مذاهب الفلسفة، كان محور الفلسفة عند « أرسطو » أن الحكومة المثلى هى الحكومة لمصلحة الرعية ، وأن الحكومة الســـيئة هى الحكومة لمصلحة الرعاة ..

وقد يتعدد القول في الاختيار والاضطرار ، ولا تأتى الفلسفة المادية التاريخية ـ مع ذلك ـ بشىء يضـــاف الى التراث العريق في تقدير الفرد بالنسبة للجماعة .. فقد يقال مثلا ان الفرد مضطر الى خدمة الجماعة ، بحكم تكوينه ، ولا ينفى ذلك حقه في الـــكرامة ، لانه افضـــل من الفرد المضطر الى العدوان على الجماعة بحكم تكوينه ولا يكون رد الفعل من قبل الجماعة طبيعيا معقـــولا ، اذا تساوى في معاملة الفردين : معاملة الفرد المضـــطر بحكم تكوينه الى خدمتها ، ومعاملة الفرد المضـــطر بحكم تكوينه الى العدوان عليها ..

كذلك لا تأتى المادية التاريخية بأدب جديد في معـــاملة الفرد اذا قالت : انه يفلح في سعيه كلما وافقته ظروف

الجماعة ، وانه لا يخلق الظروف التى تساعده وتنشأ فى الامة قبل مولده .. اذ لاشك أن الفرد الذى يريد عمل الخير وينتظر موافقة الظروف لانجازه ، أكرم وأنفع لقومه من الفرد الذى يريد عمل الشر ولا يستطيعه الا اذا وافقته الظروف ..

وليكن تعبير المعبر فى هذه الحقيقة ، بما شاء من الوان الأساليب ، فان تقدير الافراد لايتساوى اذا كان منهم من هومضطر الى العظمة وكان منهم من هومضطر الى الخسة ، ولا يغض من قدر العظيم أن الامة قادرة على اخراج مثله .. فان مثله سيأتى أيضا عظيما افضل فى صفاته وكفاياته من الحقير ..

واذا قال القائل ان قدحا آخر من الماء سيروينى ان لم أجد هذا القدح الذى أمامى فهو لا يبطل نفع الماء بهذا المقال ، ولا يزال الماء ماء ضروريا للرى وحفظ الحياة فى الحالتين ..

كان « هيجل » مثاليا يقول بالفكرة ولا يقول بالمادة .. وكان يرى نابليون الاول على حصانه فى معركة « جينا » فيقول : انه رأى روح الكون يمتطى ذلك الحصان ، ثم يعود فيقول : لو انه لم يكن نابليون لكان تدبير الروح الاعظم كفيلا بوضع شخص آخر فى مكانه على صهوة جواده يسمى بما شاءت المقادير من الاسماء ..

ثم جاء الماديون التاريخيون ، فاقتبسوا قواعد المذهب المادى من أمام الفلسفة الفكرية ، وكرروا هذه العبارة بنصها فى أمر نابليون وغير نابليون ..

ان الانسان قد يدين بكل حرف من حروف المادية التاريخية ولا يوجب عليه العقل أن ينظر الى الفردعامة،

أو الى الفرد العظيم ، نظرة غير النظرة الانسانية المأثورة من أقدم العصور .. فمن أين جاءت تلك الرغبة الملحة عند الماديين فى تحقير العظمة الانسانية ، والحرص فى كل مناسبة على بخس حقها ، واللجاجة فى تفضيل الكثرة على المزية كلما تكلموا عن حادث من حوادث التاريخ ، جاء من خسة النفس أو من الظاهرة النفسية ، ولم يجيء من فكرة سليمة يستلزمها الايمان بكل حرف من حروف المادية التاريخية .. ؟!

لتكن الجماعة أولى بالرعاية من الفرد الصغير أو الكبير .

نعم .. هو كذلك ، وقد كان كذلك ، وكانت الجماعة على هذا تفهم انه عظيم ولا تفهم انه صغير ..

ولتكن العظمة ضرورة من ضروريات التفاعل الاجتماعى لا فضل فيها لصاحبها ..

نعم .. هى كذلك ، وقد كانت كذلك ، ولم يقل احد اننا نتربص بها لنهينها ونغض من قدرها ، ونصيح فى وجهها لسبب ولغير سبب قائلين مكررين : ان غيرك قد كان وشيكا أن يحل فى محلك ويفعل ما فعلت أو ما ستفعلينه ..

وليكن الفضل الاكبر لموافقة الظروف الاجتماعية ، ولا فضل لاحد لم توافقه هذه الظروف .. لكنه فضل لازم ، ووجد لانه لازم ، واستحق التقدير اللازم لانه لازم ، ولا يقال عنه انه فضول وانه ادعاء غير مقبول..

فالى مصدر آخر غير البحث العلمى والآراء الفكرية نرجع بالنظر لتفسير النقمة على حق الفرد العظيم أو

غير العظيم ، أو لتفسير النقمة على كل فرد له لون ، وله شية ، وله علامة مميزة ، بين القطيع السائم الذى لا لون له ولا شية ولا علامة .. !

نرجع الى طبيعة الدناءة التى تنبع منها الشيوعية ، وتتجه اليها فى نفوس المستجيبين لها .. وكلما اختبرنا هذا المذهب واختبرنا ضمائر أصحابه تكشف لنا مصدر الشيوعية فى جوانب شعورها وجوانب تفكيرها .. فمن الخطأ أن نتوهم أنها نقمة على امتياز الثروة المغتصبة كالنقمة التى يشترك فيها جميع الناس .. فى جميع العصور ، ولكنها فى أعمق مصادرها نقمة على كل امتياز وحسد لكل ممتاز ، ولو كان امتيازه لنفع بنى قومه أو نفع بنى الانسان ..

***

ومن الوقائع المشهودة أن تاريخ الشيوعية نفسها يبرز لنا عمل الفرد فى توجيه الجماعات وتحويلها عن وجهتها .. فليس اعلان الدعوة الشيوعية فى روسيا حتما من قضاء التاريخ ، لو لم يكن « لنين » على رأس الفئة التى تسلمت زمام الثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ..

فلم تكن روسيا ممهدة للدعوة الشيوعية دون غيرها تمهيدا لا منصرف عنه الى سواه ، ولكنها سارت فى طريق الشيوعية لان الفئة التى قادتها يومئذ هى التى سيرتها اليها ، وقد تولى النازيون أمر الثورة فى المانيا ، وتولى الكماليون أمر الثورة فى تركيا ، وتولى « سن يات سن » أمر الثورة فى الصين ، وقامت فى العالم ثورات متفرقات بقيادة هيئات من هذا القبيل .. فاختلف

الاتجاه باختلاف القيادة ، ولم يكن بين الامم التى انقادت لها من جامعة بينها غير السخط وحب التغيير .. ولو أن فيالق « لنين » لم تتسلم زمام الامر فى روسيا ، لما كان حتما لزاما أن تسير البلاد على الخطة التى سارت عليها تطبيقا لمذهب « كارل ماركس ». أو خروجا عليه ..

وما هو الحتم التاريخى الذى كان يستلزم قيام الدعوة الشيوعية فى روسيا بعد الحرب العالمية الاولى ؟ بل ما هو الحتم التاريخى الذى كان يستلزم ايمان «لنين» بمذهب المادية التاريخية ؟ .. ان « لينين » لم يحلم قط بأن تقوم الثورة فى حياته ، وكان يقول : انها لو قامت فى مدى مائة سنة لحق للثائرين ان يغتبطوا بهذا التوفيق ، ولعله كان واحدا من أولئك الثوار الروس الذين قالوا للزعيم الصينى « سن يات سين » ـ كما قلنا فى كتابنا عنه ـ انهم لا يتوقعون الثورة وهم بقيد الحياة !

وخصلة أخرى من خصال الشيوعية ينبغى ان نلتفت اليها ، كلما تكلم القوم عن الحتم التاريخى ، وحاولوا ان يسحبوه الى الحاضر أو الى المستقبل ..

فالحتم التاريخى لا يظهر من حوادث الماضى واحكامه المتسلسلة من أدواره المتعاقبة .. ولكنه يظهر كلما قامت فى طريق الغرض عقبة تمنع نفاذه أو تعوقه الى حين ..

وانكار الحقوق الفردية على هذا القياس لم يكن حتما لزاما فى سوابق التاريخ .. وانما أصبح حتما تاريخيا يوم وقفت الملكية الفردية ، والمنافسة الفردية ، والكفايات الفردية ، عقبة أو عقبات فى طريق النفاذ.

أن الحرية الديمقراطية لا تنكر منع الجور والشطط وتحريم المنافسة التى تضر بسلامة الافراد .. والحرية الديمقراطية لا تنكر أن تتدخل الدولة فى شئون الملكية الفردية اذا وجب ذلك لمكافحة وباء ، أو تخفيف غلاء ، أو دفع غارة من الاعداء .

والحرية الديمقراطية لم تنقض قواعدها حين أصدرت القوانين التى تحرم زيادة ساعات العمل على عشر فى النهار .. ولكن صدور هذه القوانين لتنفيذها على الانوال فى البيوت ، قد كان من المستحيل فى ظل الديمقراطية أو ظل الشيوعية أو ظل الاستبداد .. اذ من اليسير أن تراقب المصنع الذى يعمل فيه ألف عامل لتمنع زيادة العمل على عشر ساعات ، وليس من اليسير أن تراقب ألف عامل متفرقين فى البيوت ، لتفرض على كل منهم أن يعمل فى اليوم عشر ساعات ولا يزيد ..

وكثيرا ما تسمع من أعداء الحرية الديمقراطية من يسألك : أكان من نعم التنافس الحر أن يساق الاطفال دون العاشرة الى العمل الشاق بالليل والنهار ؟ .. يسألون هذا السؤال وينسون أن التنافس هنا تنافس العمال فيما بينهم وتنافس المصانع فيما بينها على السواء .. ويسألونه وينسون أن الحرية الديمقراطية بطبيعتها لا تنكر تحريم الارهاق والشطط بالتشريع الصارم كلما دعت الحاجة .. ولكن لا الحرية الديمقراطية ، ولا الشيوعية ، ولا الاستبداد المطلق ، ولا حكومة من الحكومات ، تستطيع أن تنفذ قانونا غير قابل للتنفيذ . وليس تقديس التنافس الضار هو الذى حال دون اصدار القوانين التى تحرم زيادة العمل على الطاقة

.. ولكن هذه القوانين لم تصدر قبل عهد المصانع الحافلة بالعمال لان تنفيذها على البيوت ، وعلى الالات اليدوية المتفرقة شيء غير ممكن فى الواقع أيا كان السلطان المشرف على الصناعات

فالحرية الديمقراطية لم تكن تمنع الاصلاح بتحريم الشطط فى التنافس الذى يريد المتنافسون أنفسهم أن يحرموه .. الا أن هذا الاصلاح لايوافق غرض الماديين التاريخيين ، وليس على منهجهم أن تبقى الملكية الخاصة مشروعة فى القوانين . ولهذا يظهر الحتم التاريخى فجأة لانكار الحقوق الفردية والحرية الفردية والكفايات الفردية ، ولا موجب لظهوره من سياق التاريخ .. وانما الموجب الوحيد لظهوره أنه الوسيلة الى تحقيق الغرض المنشود ..

***

هذا الحتم التاريخى المنجم على حسب الغرض ، هو مصدر الآراء التى رتبت للفرد مكانته فى مذهب الماديين التاريخيين ، وفرضت له نصيبه من الحرية ومن الفضل فى خدمة المجتمع أو تنفيذ برامج الاصلاح .. وهو نصيب تضاءل مع الزمن فى أقوال فلاسفة المذهب قبل أن يتضاءل فى أعمال التطبيق ، لان ما قالوه فى عهد « كارل ماركس » عن حرية الفرد لم يزل يتضاءل ويتضاءل حتى أصبحت الحرية الفردية على ألسنتهم وصمة تعاب وتدعو الى الاتهام بانكار حق الجماعة فى أن تصنع بالفرد ما تشاء ..

والمشهور عن « كارل ماركس » انه ثائر جامح يصدم العالم الواقع بما يزعجه ولا يبالى مغبة هذا الازعاج ، الا انه اذا امتحن بحيلته فى ازجاء القول عن مكانة الفرد

كان وصف الماكر الحذور أليق به من وصف الثائر الجموح .. فلم يكتب فى مؤلفاته كلمة واحدة تشير من بعيد الى الخطر على الحرية الفردية من مذهبه فى الاجتماع ، وما كان فى وسعه أن ينبس بكلمة فى هذا المعنى ثم يطمع فى مستمع واحد يصغى اليه بين صيحات الحرية التى ملأت أجواء القرن التاسع عشر ، وكانت تذهب بالناس الى الانفة من طاعة القانون وطاعة الحكومة على وضع من الاوضاع .. فراجت بينهم دعوة الفوضوية والنقابية ، وراجت بينهم دعوة الشيوعية نفسها لانها وعدت الامم أن تنتهى بها الى عصر تذبل فيه الحكومات حتى تزول .. ومن لم يذهب الى هذا المدى فى الانفة من الطاعة ، فلا مطمع فى اصغائه الى مذهب يحدثه عن الاستبداد ، ويجعل حرية الفرد نافلة من النوافل أو مظهرا كاذبا يخفى وراءه قسوة الضرورة التى لا تحفل بالحريات ولا بالافراد

كان « ماركس » وأتباعه يترنمون بالحرية الفردية فى موكب الديموقراطية ، وكانوا يشهرون بالسلطة الفردية فلا يصدمون أحدا لان سلطة الفرد كانت هى الخطر الاعظم على الحرية الفردية فى تلك الآونة ، ولم ترد الاشارة الى دكتاتورية الصعاليك أو استبداد الطبقة الاجيرة (١) الا مرتين فى رسائل « ماركس » الخصوصية .. أما الكتب والبرامج المسهبة ، فكل ما ورد فيها بيان عن حالة الحكومة بين قيام الثورة واستقرارها ، وأهمه ما جاء فى برنامج مؤتمر جوثا (٢) وقصد به « ماركس »

---

(١) Dictatorship of the proletariat

(٢) Gotha

الى التوفيق بين الفوضوية التى ترفض الحكومة فى جميع العهود ، ونظام الشيوعية الذى يترخص فى اقامة الحكومة لحراسة النظام الجديد ريثما تنتظم الاحوال بعد الغاء الطبقات ..

وقد ختمت رسالة المادية الماركسية فى القرن التاسع عشر ، وهى لا تجرؤ على المساس بالحرية الفردية ، ولا تمس مطالب الفرد الا حيث تستطيع أن تمشى فى جوار فكرة من أفكار العصر المقبولة أو مبدأ من مبادئه المحبوبة

فالحملة على احتكار الثروة لم تكن غريبة على الاسماع حيث تنهال الحملات كل يوم على احتكار السلطة واحتكار السيادة بأنواعها وألوانها ..

والرجوع بكل شىء الى حقوق الامة فى المسائل الاقتصادية ، لم يكن غريبا على الاسماع حيث ترجع الحقوق السياسية جميعا الى الامة ، ويتسع نطاق النيابة عن الامة فى شتى طبقاتها ..

والحتمية التاريخية لم تكن غريبة عن الاحاديث الشائعة حول نواميس الكون وقوانين الطبيعة ، أو اجراء كل شىء فى العالم على سنة عامة لا تسمح بالشذوذ فى عظيم أو دقيق من أحوال الحركة والسكون بين السماوات والارضين ..

والتشهير بالمال والتهافت عليه لم يصدم أحدا فى الجيل الذى جاء بعد ثلاثة أجيال أو أربعة تسمع عن أصحاب الاموال كل مذمة ومنقصة ، وتتلقى من منابر الوعظ أو منابر الفلاسفة المبشرين بالطوبيات سوء النذير من جراء الجشع والتكالب على الحطام . وقد كانت الطوبيات تتبع بعضها بعضا فى انجلترا وايطاليا وألمانيا منذ عهد

« توماس مور » الانجليزى الى عهد « جوهان فالنتين » الالمانى الى عهد « شامبنلا » الايطالى الى غيرهم من أصحاب البشائر الاجتماعية المجمعين على تدنيس الطمع، وتبشير المحرومين بالراحة والرزق الخفيض .. وقد بدأ عصر الطوبيات فى القرن السادس عشر واستمر بعده الى القرن العشرين ، واقترن به عند نهاية القرن الثامن عشر عصر البرامج الاجتماعية التى كان من روادها السابقين « بابوف » الفرنسى و « روبرت أوين » الانجليزى ، ورواد علم الاقتصاد وعلم الاجتماع بين أمم الحضارة الاوربية .. وليس فيهم من كان يذكر الطمع فى الاموال بغير المذمة والتشهير

هذه النواحى من الفردية المعيبة هى النواحى التى اختارتها المادية التاريخية للتسلل من خلالها الى عقول أبناء القرن التاسع عشر ، ولا نقول للهجمة عليها .. فما كان بمذهب المادية التاريخية من حاجة الى الهجمة على قواعد الاحتكار ، ولا الى الهجمة فى مجال البحث عن نواميس الكون وقوانين الطبيعة .. اذ كان « العقل العصرى » يثور قبلها على السلطة المحتكرة ، والقوة المحتكرة ، والثروة المحتكرة ، والمزايا المحتكرة جميعا ، لانها فى جملتها عدوان على حرية الافراد .. ولا نبتعد بالكلمات عن معانيها اذا قلنا أن البحث عن النواميس الكونية كان فى لبابه ثورة على رجال « الكهنوت » الذين أحتكروا العلم باسرار الكون فجاء « العقل العصرى » منكرا لهذا الاحتكار مذيعا لاسرار الكون على السواء بين جميع القادرين على استطلاع تلك الاسرار

ولقد كانت فلسفة الماديين — على هذا — تسللا الى العقول فى موضوع الحقوق الفردية ، ولم تكن هجوما

بصدم تلك العقول .. الا انها تسترت بكراهة الاحتكار لتقول بكراهة الامتياز كيفما كان ، وجعلت الفرد كبيرا أو صغيرا لغوا أو كاللغو فى حركة التاريخ ، وليس لفكرة من أفكارها الفلسفية معنى مفهوم ان لم يكن معناها الغاء الفرد بالقول الصريح

فلا معنى للنص على أن « الفرد » لا يصنع شيئا الا بموافقة الظروف ..

ان هذا تحصيل حاصل يصدق على الفرد وعلى الجماعة وعلى كل قوة انسانية أو حيوانية أو مادية تؤدى عملا فى هذا العالم ، ولا يمكن أن تؤديه اذا عارضتها قوة أكبر منها ..

ومن تحصيل الحاصل أن يقال : ان مشيئة الافراد تتفاعل ويأتى فيها فى النهاية شىء غير الذى أراده كل فرد منهم على حدة ، فان المواد الكيمية تتفاعل مثل هذا التفاعل ..ولا نقول من أجل ذلك: ان الحديد كالقصدير، أو ان الذهب كالنحاس ، أو ان الكبريت كالملح ، أو ان العناصر ليست عناصر مؤثرة مختلفة التأثير من أجل ذلك التفاعل المفروض

كل ذلك تحصيل حاصل لا موجب للعناء فى شرحه ، لو كان الغرض منه أن عمل الفرد محاط بالعوامل التى تساعده تارة وتقاومه تارة أخرى .. وانما الموجب له أمر واحد وهو ذلك الولع بالتسفيل والتخسيس والتلصص على كل تعلة خفية لتصغير كل عظيم ، واستمراء الحقد والحسد فى طوية كل مهين لئيم ..

ومن التسلل الى العقول أن ينادى زعماء المادية بحقوق الفرد السياسية فى المنشورات العامة ، ثم يحتفظوا

بين سطور المباحث الفلسفية بتفسير تلك الحرية على النحو الذى أرادوه ، ولعل حصة « انجلز » فى هذا الباب كانت اكبر من حصة « كارل ماركس » حينما تصدى للبحث عن فلسفة الحرية ، فان « انجلز » هو الذى أسهب فى تفسير معنى الحرية حين تصدى للرد على « دوهرنج » فقال : انها هى معرفة الضرورة ، وان الانسان يعتقد أنه كان حرا فى اختيار أمر من الامور لانه يجهل العوامل التى تكونت منها حرية الاختيار ، ولم يشأ « انجلز » — أو لم يستطع — أن يبين لنا ما الفرق بين العوامل التى « تضطر » الانسان الى الحرية ، والعوامل التى تضطره الى العمل الآلى المكره المجرد من الاختيار أو من الشعور بالاختيار ! .. فلن تكون النتيجة أن الحالتين سواء ، وأن الشعور بالاختيار كالشعور بالاضطرار ، وأننا نختار بينهما فلا نملك أن نختار .. !

ولم يجهر الدعاة الشيوعيون باحتقارهم للحرية الانسانية الا بعد أن قامت لهم دولة تملك سلب الحرية .. فسلبوها واعتبروها ترفا لا يساوى ضرورات المعيشة ، ولعبوا بالالفاظ فى هذه المقارنات الجوفاء بين الكماليات والضروريات لعبا مبتذلا يشف عن سوء فهم أو سوء نيه . فان كبح الاستبداد ضرورة الضرورات فى مجتمعات الآدميين ، ولا يكبح الاستبداد بحشو البطون بل بالحرية فى الضمائر والافكار ..

وقد كان الشيوعيون يشهرون الخبز فى وجه أنصار الحرية ، وينسون أن الفاشيين والنازيين يساوونهم فى هذا « البرهان » الحيوانى ان لم يرجحوا عليهم .. لانهم جميعا يؤيدون مذاهبهم وتطبيقاتهم باطعام الجياع وتدبير العمل للعاطلين ، ولكنهم لا يسألون كما يسأل

الشيوعيون : ما جدوى الحرية للبطون الجياع ؟ ..

ولو قد ثبت أن الحرية ترف رخيص ، وأنها ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية لدفع أخطار الاستبداد لما كان فى ذلك السؤال حجة على شيء .. اذ كان الطعام الزم للكائن الحى من أمور كثيرة لم يتركها الآدميون لهذا السبب ، ولكنهم بها كانوا آدميين ولم يكونوا آدميين بما يأكلون ويشربون

ولقد يحق ذلك السؤال لكثير من السائلين غير أصحاب المذهب الذين قضوا على الملايين وعذبوا وشردوا أضعافهم من طبقة المحرومين وغير المحرومين ، فان الذين ماتوا جوعا وقحطا فى تاريخ الروس منذ القدم لا يساوون شطرا من هؤلاء القتلى والمعذبين ..

ثم عاد القوم الى نغمة الحرية الفردية بعد سنواتهم التى تصرمت فى ازدراء هذه الحرية وعقد المفاضلات بينها وبين الخبز وما اليه .. فلما احتفلوا بذكرى « كارل ماركس » بعد انقضاء ستين سنة على وفاته ، لم يشغلهم أمر فى هذه الذكرى كما شغلهم أن يدفعوا شبهة الجناية على كيان الفرد وكرامته الانسانية فى ظل الشيوعية ، فطلبوا الى اسقفهم الاحمر (١) ان يكتب لهم رسالة خاصة عن الماركسية والفردية ، فكاد يترنح وهو يردد كلام رفيقه « باربوس » الذى كتب من قبله يقول : « انه ما من شيء أدهشه كدهشته من تلك الفردية المتدفقة فى بلاد الروس ، اذ نشهد فوعة الشخصية متوفزة على ريعان الشباب »

وبعد عشر سنوات على هذه الانشودة ـ البريئة ـ

---

(١) Dean of Canterbury

يموت « ستالين » فيتنفسون فى بلاده الصعداء ، ونسمع من أعظم الشخصيات حوله أنهم عاشوا بين يديه فى سجن من الكبت والرهبة ، لم يصدقوا أنهم نجوا منه بعد موته واستوائهم على عرشه زهاء ثلاث سنوات ..!

***

قيل أن الحرية يخدمها ما يعمل لها ويعمل لمحاربتها على السواء ، وهى كلمة تصدق أبلغ من هذا الصدق اذا قيلت عن الحرية الفردية أو عن الشخصية الإنسانية ..
فان الشيوعية تستهين بها فى تفسير اطوار التاريخ وتتجاهلها فى دراسة الحركات الاجتماعية ، ولكن لو زالت تواريخ الحركات الاجتماعية وبقيت لنا منها حركة الشيوعية لكان فيها الكفاية « لفرز » مجهود الفرد فى الاعمال العامة ، وابراز ما ينسب اليه فى أطوار التاريخ مقدما على نسبته الى الامة أو البيئة أو الطبقة ..

ان « ماركس » و « انجلز » زعيمى المذهب الشيوعى ولدا فى المانيا ، وتمرسا بالحياة الاجتماعية والسياسية فى فرنسا ، وكونا مذهبهما فى انجلترا .. ووضعت هذه المبادىء بعد موتهما موضع التنفيذ فى روسيا . وليست أمامنا صفة واحدة محققة بين هذه الامكنة المختلفة غير صفة « ماركس الفرد » و « انجلز الفرد » متحيزة فى هذه الاشتات من الاحوال الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية

وأبرز من ذلك للصفة الفردية أن « ماركس » و« انجلز » ــ كليهما ــ من الطبقة البرجوازية ، وليس فى وسعهما أن يزعما انهما كانا يمثلان أخلاق الطبقة البرجوازية حين تصديا لانصاف الطبقة الاجيرة ، والا لكان فى هذا الزعم قضاء على مبادىء المذهب وقضاياه فى الاخلاق والاجتماع

والفلسفة والاقتصاد .. فلابد من صفة خاصة « للفرد ماركس » و « الفرد انجلز » مستقلة عن صفات سائر الافراد فى طبقة الماليين أو طبقة الاجراء ..

ولقد كان دور التنفيذ أبرز لهذه الحقيقة من دور الدعوة ، فان البارز أمامنا فى تنفيذ الفلسفة الماركسية بعد الحزب العالمية الاولى هو شرذمة من الافراد سلطت ارادتها على بلاد لم تتهيأ للماركسية بأطوار الصناعة ولا بأطوار الاجتماع ، وقد ادعى هؤلاء الافراد لانفسهم من الحقوق والسلطات مالم يجرؤ على ادعائه أشد الناس غلوا فى الإيمان «بالفردية» المطلقة ، ثم تركزت هذه«الفرديات» فى « فردية » واحدة يتسلط بها زعيم واحد بوسائله « الفردية » التى مكنته من تسخير أعوانه وأتباعه مدى حياته .. وهذا هو الواقع المجسم أمام الاعين والعقول . أما تلك التخريجات الملتبسة التى تغوص بنا فى سراديب الارادة الخفية والارادة العلنية فهى أشبه بألغاز ما وراء « الطبيعة » التى يهيم فيها أصحاب المذاهب الجبرية والقدرية حين يخوضون بغير علم فى اقامة الفواصل بين ارادة الخالق وارادة المخلوق ، أو فيما سبق به القدر ولحق به القضاء ..

وحسب الباحث دراسة الشيوعية بين جميع الحركات التاريخية ، ليقول باللغة التى يستطيعها الانسان : ان « الفرد » شىء من الاشياء التى لاتهمل فى تطوير التاريخ ، وان ارادته وارادة الجماعة من مصدر واحد فى تكوين العوامل التى توضع فى ميزان الحوادث والاقدار

واذا تصدى أحد لمناقشة هذا الرأى فانه لايقول لنا : ان الجماعات التى لارأى لها فسرت التاريخ بما يبطل هذا الرأى أو يشككنا فيه ، ولكنه يقول لنا : ان رأى ماركس

عن أعمال تلك الجماعات يصورها لنا على غير هذه الصورة ويستدل لها بغير هذا الدليل

***

ويكاد المتكلم أو الكاتب يتعثر بالمفارقات اللفظية التى لا تستقيم فى التعبير اذا تكلم عن تطور الفرد أو تطور الجماعة فى التاريخ على وجه غير هذا الوجه ، مع ايمانه بالتطور فيما مضى وبالتطور فى المستقبل قياسا عليه ، سواء فهم من التطور أنه نمو وتقدم أو فهم منه أنه تغير وتوفيق بين الكائن الحى وأحواله كلما تغيرت هذه الاحوال فاذا حدث التطور على أية صورة من الصور ، فلابد ان يتناول الكائن الفرد المسمى بالانسان وأن يتناول النوع الانسانى فى مجموعه

ولا توجد غير صفة واحدة تحيط بكفايات التطور أو التقدم عند النظر الى الفرد أو الكائن الحى المسمى بالانسان ، وتلك هى زيادة التبعة وزيادة القدرة على النهوض بها ..

وفى وسعنا أن نلخص هذه العبارة فى كلمة واحدة وهى « استقلال » الشخصية ..

فما الفرق بين القادر والعاجز ؟ . وما الفرق بين العالم والجاهل ؟ . وما الفرق بين الرئيس والمرءوس ؟ . وما الفرق بين الرجل والطفل ؟ . وما الفرق بين الرشيد والقاصر ؟ . وما الفرق بين صاحب الثروة والفقير ، أو بين صاحب العائلة ومن يعول ؟

يقول من شاء ماشاء فى شرح هذه الفروق بمختلف المقاييس ، فلابد أن يئول بها الى مقياس واحد وهو أن الراجح أوفر نصيبا من التبعة والقدرة عليها أو انه بعبارة

اخرى أوفر نصيبا من استقلال الشخصية

فلا تقدم ولا تطور اذا فقد الانسان هـــذه القدرة أو تعرض فيها للنقص والضمور ..

وليست ملامح الشخصية الفردية مما يجهله احـد فيجوز أن يجهله زعماء الشيوعية ، فقد اشار «ماركس» و « انجلز » الى تعدد المواهب والملامح فى معارض كثيرة من معارض البحث والدعوة ، وقال « ماركس » بأصرح العبارات فى رسالته عن فقر الفلسفة (١) : « ان الناس يولدون على اختلاف فى الادمغة والملـكات الذهنية ».. وقال في انتقاده لبرنامج جوثا (٢) : « أن عالما من المؤهلات المنتجة والغرائز يضحى به من أجل اتقان الاجزاء الآلية» وقال فى الجزء الاول من كتاب « رأس المـال » : « ان توزيع العمل ينشأ من توزيع الاخلاق حيث يحتاج عمل الى زيادة فى القوة ، وعمل آخر الى زيادة فى الذكاء ، وعمل غيرهما الى زيادة فى الانتباه » ويقول « انجلز » بمثل ذلك فى مباحثه الفكرية الاقتصادية ، ولا سيمـا الرد على « دهرنج » والاشتراكية الطوبية والعلمية (٣) ويتبعهما فى هـــــذا المعنى أقطاب المذهب من الدعاة والباحثين الغربيين أو الروسيين ..

ولـكنهم يحرصون على تغليب فكرة الانتاج وقيـام المجتمع بغير طبقات فلا ينتهون بهذه الخصائص الفردية الى النتيجة التى تقتضيها ، وهى تقتضى أن يكون الافراد هم المؤثرون فى مجرى التـاريخ العـام مهما يكن معنى التفاعل بين المشارب والارادات ، فان الهيدروجين يظـل

---

(١) Poverty of Philosophy

(٢) Critique of Gotha Programme

(٣) Socialism and Scientific Utopios

فعالا فى تكوين الماء ولو أطلقنا على السائل اسما آخر لا نذكر فيه الهيدروجين ، ونظل نعتمد على الهيدروجين ولا نعتمد على عنصر غيره كلما أردنا تكوين الماء أو تحليله بعد تكوينه . ومهما يكن من تغير المظهر الخارجى بعد الامتزاج والتفاعل ، فنحن لا نلغى عنصرا واحدا من عناصر المزيج ولا نمنع خاصة واحدة من خواصه حيثما أردنا ذلك التفاعل وحرصنا على كيانه الصحيح .

ان المزيج الكيمى المتفاعل يتطلب منا أن نحافظ على الصفة المستقلة لكل جزء من أجزاء ذلك المزيج ، ولا يتطلب منا أن نجور على ذرة من ذراته لان المزيج هو الغرض المقصود فى النهاية .. بل يوجب علينا حرصا على ذلك الغرض الاخير أن نبدأ بالحرص على الاجزاء ، ونعرف أنها تعمل عملها لانها أجزاء يحافظ كل منها على خصائصه وفواعله بغير انتقاص ولا تشويه .

فلا تطور بالنسبة للكائن الحى المسمى بالانسان الا ان يستوفى كيانه الفردى وأن تتم له الشخصية الانسانية بتبعاتها وحرياتها ، وأن نعتبره قوة عاملة فى بيئته بغير لف من هنا أو دوران من هناك لنمسح باليسار مانقرره باليمين ..

ان الجزء شىء حقيقى وبغيره لا يوجد المزيج الكيمى كيفما اختلف به التفاعل والتشكيل .. وان الفرد شىء حقيقى وبغيره لا يوجد الاثر الاجتماعى كيفما كان المجتمع على التعميم .. أما نوع الانسان فلا يكون له تطور الا أن يكون تطورا محيطا بالنوع غير محدود باللون أو بالسلالة أو بالطبقة أو بالجماعة .. ولايكون تطورا انسانيا وهو خاص بطبقة أو بقوم أو بسلالة أو باقليم ..

ونكاد ندخل فى المفارقات اللفظية اذا تكلمنا عن ارتقاء

نوع الانسان ، ولم نقصد بذلك شمول الارتقاء لكل ما تمخضت عنه جهود النوع من المزايا والملكات والقابليات والاطوار

***

ان الكلمة نفسها تكاد توحى لنا بمعناها الذى لاتقبل معنى سواه ، فكل تطور انسانى هو تطور للفرد فى طريق الكيان التام والشخصية المستقلة .. وكل تطور للنوع فهو احاطة بالفضائل النوعية فى أوسع نطاق يحتويها : نطاق النوع الذى لا تخفيه حواجز الالوان والسلالات والطبقات ..

واذا كان هذا هو حكم العقل وحكم الواقع بين ايدينا، فهو كذلك حكم التاريخ حيثما وضح له معنى مطرد فى شعابه المتفرقة وسياقه المتلاحق دورا بعد دور ومجالا بعد مجال ..

سألنا فى كتابنا عن « غاندى » فى فصل عن « العناية الالهية وتاريخ الانسان » :

« هل للتاريخ الانسانى وجهة معينة نستطيع أن نتبينها من جملة الحوادث الماضية » ؟ ..

ثم قلنا : انه سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر وهو : ماذا عسى أن تكون وجهة التاريخ المعقولة اذا تخيلنا له اتجاها يتوخاه على نهج مرسوم ؟

ثم أجملنا الجواب بما يصح أن يكون تتمة لهذا الفصل يغنينا عن جواب جديد ..

قلنا فى ذلك الجواب : انه شىء يتعلق بالانسان الفرد ، وشىء يتعلق بالناس كافة أو بالانسانية جمعاء .

فالشىء الذى يتعلق بالانسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعة ..

والشىء الذى يتعلق بالانسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون والاتصال ..

وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل الذى تنطوى فيه جميع المطالب ، فهو اشمل من القول بازدياد العلم أو ازدياد القوة أو ازدياد الفضائل والملكات ، لان هذه الخصال كلها تتمثل فى زيادة استعداده لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعة ..

« وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الانسانية برمتها ، فهو أشمل من القول بارتقاء النظم السياسية وارتقاء المعاملات التجارية وارتقاء الاخلاق الاجتماعية ، لان هذه الخصال كلها تتمثل فى التقارب بين الامم والتعاون بينهما على وسائل الوحدة والاتصال ..

« هذا وذاك هما الوجهة التى نتخيلها للفرد وحده ، وللناس كافة اذا كان للتاريخ وجهة معقولة تدل عليها الحوادث الماضية ..

« فكان الانسان الفرد قبل نشأة القبيلة هملا مستباحا ، لا يحفظ له حق ولا يفرض عليه واجب ، ولا ينال من الحرية الا ما يغفل عنه المعتدون عليه

« ثم نشأت القبيلة فنشأ معها للفرد نوع من الضمان ، ولكنه ضمان شائع لا يستقل فيه بحرية ولا تبعة ، فيؤخذ بذنب غيره فى الثأر والمغرم ويقاسمه غيره فيما يغنمه ويستولى عليه .. فهو رقم متكرر وليس بكم مستقل فى الحساب

« ثم نشأت الامم فازداد نصيبه من الحرية كلما ازداد نصيبه من التبعة ، واصبح المقياس الوحيد لارتقاء الامة هو مقدار حظ الفرد فيها من الحريات والتبعات ...

« فليس لأرتقاء الامة علامة أصدق من هذه العلامة ، وهى حريات الفرد وتبعاته ، بل ليس للارتقاء علامة غيرها يطرد بها القياس فى جميع الامور .. »

« ... تلك هى وجهة التاريخ المطردة فى حالة الانسان الفرد حيث كان ..

« اما وجهته فى حالته الانسانية كلها فالاتجاه الى التقارب بينهما مطرد يتعاقب فى كل مرحلة من مراحل التاريخ ..

« ونحن الان فى عصر يلمسنا هذا التقارب فى كل علاقة من علاقات العالم المعمور : فى المواصلات ، والمعاملات ، وفى الروابط السياسية وفى نقل المعلومات واذاعة الاخبار ، وفى هذا التضامن التام الذى يجعل الازمة فى ناحية من الارض ازمة قريبة يحس بها أبعد الامم من تلك الناحية ، او يجعل القوى مهتما بموقف الضعيف منه ، مهما يكن

من اعتزازه بالسطوة والثراء ..

« ولم تكن الحروب والمطامع حائلا دون هذا الاتجاه ، بل لعلها كانت من دوافعه ودواعيه .. فأسفرت كل حرب من حروب الرومان والفرس والعرب والصليبيين والعثمانيين عن تشابك بين ناحية وناحية في البكرة الارضية ، ومن جراء هذه الحروب تشابكت آسيا واوربة وافريقية وانفتح الطريق الى القارات المجهولة ..

« واذا نظرنا الى اثر الحروب في المخترعات وتسخير قوى الطبيعة جاز لنا أن نقول : ان وسائل المواصلات قبل غيرها مدينة للحروب بالشيء الكثير .. فماذا يكون الطيران والإزادار ومحركات القوى جميعا لولا ضرورات الحروب واشتراك غريزة الدفاع عن النفس في سباق هذا المضمار ؟ ..

« بل نحن نتعلم من التاريخ أن الدولة الحاكمة لا تدوم إلا بمقدار ما يكون لدوامها من رسالة عالمية ..

« فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم ، واخذت في الانحلال حين بطلت رسالتها العالمية واستلزم التحول في اطوار الامم واتساع مجالها رسالة عالمية اخرى على غير ذلك النظام ..

« ولنبحث عن دلالة ذلك الإتجاه في تاريخ الاقليم الذى نتكلم في هذا الكتاب عن بطل من ابطاله .. وهو الاقليم الهندى او الاقاليم الهندية على التعبير الصحيح ..

« فقد كانت حروب الاستعمار الاوروبى محنة طامة على الشرق بأسره ، نقم منها الشرق لما اصابه من بلواها ، ورغب فيها الغرب لامر اراده وارادت الحوادث غيره ، ولم يخطر للشرق ولا للغرب على بال ..

« لم تكن الهند قط وطنا واحدا في عصر من العصور ، لانها كانت تتألف من شتى العناصر وشتى المصالح وشتى المواقع الجغرافية ..

« فلم تدافع قط دفاعا واحدا ، ولم تشترك قط في هجوم واحد ، ولم تجتمع قط على مطلب واحد بينها وبين ابنائها ، ولا بينها وبين الغرباء عنها والمغيرين عليها ..

« فلما ابتليت باستعمار واحد طغى عليها من اقصاها الى اقصاها — وجد فيها وطن واحد يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه ..

« وولدت الهند مولدا جديدا في التاريخ ..

« وزال الاستعمار أو كاد ، وبقيت « الهند الجديدة » وبقيت

معها علاقات يشتبك فيها الشرق والغرب ، وتنتظم في الوحدة الانسانية على نحو لم تعهده ولم تحلم به قبل محنة الاستعمار ..

« فاذا كان اتجاه العالم المعقول هو الاتجاه الذى تنتهى اليه الحوادث فى حياة الفرد وحياة الانسانية عامة ، وكان هذا الاتجاه مما تلتقى عليه عوامل الوفاق وعوامل الشقاق ، ويتوافى عنده ما يراد ومالا يراد — فمن عمل المؤرخ الباحث ، لامن عمل المتدين المؤمن فحسب — أن يفهم للتاريخ معنى غير معنى المصادفة العمياء ، وان يرى للعالم مصيرا مقدورا يمضى الى غاية هذا الاتجاه ، حيث تهديه عناية الله .. »

هذه النظرة الى تطور النوع سهلة جلية لا تنأى بنا عن الواقع ، ولا عن المعقول ، ولكنها تضعنا امام الواقع والمعقول وجها لوجه ولا تحشمنا أن ندور بها حول الاحاجى والمعميات ..

يتطور النوع فينتفع بمحصول النوع كله ، ويزيل ما بين اجزائه من الحواجز والمسافات ..

يبدأ الناس تاريخهم منعزلين متباعدين ، فاذا اخذ التاريخ فى التطور فهنالك تشتبك العلاقات بينهم مرحلة بعد مرحلة ، فتتقارب المسافات ، وتتقارب المواصلات ، وتتقارب الحضارات ، وتتقارب المصالح على علم أو على غير علم ، فتصبح حياة النوع الواحد فى العالم الواحد حقيقة يترجم عنها اضطراب سائر الاجزاء لاضطراب جزء منها فى أقصى موقع من مواقع الدنيا الانسانية بما اشتملت عليه من الاصدقاء أو الاعداء ..

وقد نرى هذا التقارب بين الطبقات على ما تقدم فى الكلام عن الطبقة كما نراه فى التقارب بين الاقوام وبين الحضارات ..

وتؤثر هذه العلاقات الواسعة فى حياة كل فرد من افراد النوع بداهة . أيصبح فرداً من نوع بعد أن كان فرداً


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



للبحث عن أقرب الحلول الى المحسوس والمعقول !

***

ولا نحب أن ننسى فى ختام هذا الفصل أن طائفة من المفكرين من غير الشيوعيين يعتقدون اليوم أن العصر الحاضر يعدل عن مبادىء الحرية الفردية ، وينظرون الى خطط التنظيم الاقتصادى وبرامج السنوات الخمس أو العشر فى الأمم أو الجامعات « الاممية » ، أو ينظرون على الجملة الى مشروعات التأميم والتعميم فيحسبونها دليلا على التحول من الايمان باستقلال الفرد الى الايمان بوجوب الحد من ذلك الاستقلال فى شئون الاجتماع والاقتصاد ، والى الايمان من ثم بوجوب الحد من استقلاله فى الحقوق السياسية ..

وبعضهم يقول : ان الفردية مبدأ قديم قد حان الوقت لاعادة النظر فيه من الوجهة الفلسفية ، وآخر ما اطلعنا عليه فى هذا الموضوع — مع الايجاز — بحث « لدافيد ريسمان » بعنوان « الفردية معادا فيها النظر » يتوسط فيه بين الفردية المطلقة والجماعة المطلقة ، فلا ينكر حق الفرد ولا يرى أن عمل الجماعة التعاونى (١) يلغيه أو يفتئت عليه ، بل يرى ان الجماعة — حيث لا يستطيع الفرد أن يستقل بالعمل — هى الوسيلة الصالحة لصيانة استقلال الافراد ، وأن التنافس — ككل عمل انسانى — قد يخرج عن حده فيرده اليه القانون ، ولا يفتئت به على حق الفرد ما دام جميع الافراد سواء فى حكم القانون ..

ولم نطلع على بحث من بحوث « اعادة النظر » فى هذا

---

(١) Grouping

الموضوع الا أحسسنا منه انه يقوم على أساس أخلاقى، أو شعور يمزج بين الفردية والانانيــة او بين الفــردية والصراع على تنازع البقاء ..

وفى الحق ان هذا الشعور لم يبدأ اليوم ولم يكن ابتداؤه بالامس فى ميدان الاقتصاد دون غيره .. فقــد كان الاعتراض على مذهب تنازع البقاء الذى أعلنه «داروين» اشد من الاعتراض على حرية التنافس الاقتصــادى (١) الذى أعلنه آدم سميث الملقب بأبى علم الاقتصاد ..

وكلا المذهبين لا يســلم من الخطأ الكثير ، الا ان الاستناد اليهما فى مناقشة الحرية الفردية يوقع أصحابه فى أخطاء أكبر من أخطاء المذهبين ..

فما خطر لـ « آدم سميث » قط ان حرية التنــافس تمنع الامم أن تلجأ الى تنظيم المعاملات فى أحوال كأحوال الحروب أو ما يشابه الحروب ، وأولى من أحوال الحروب بالتنظيم هذه الحالة العالمية التى تتوقف فيها معاملات الامم بعضها على بعض ، وتذهب فيها جهود الافراد عبثا ان لم تدبرها الامة كلها تدبيرا يوافق المطلوب من الامم الاخرى

أما مذهب « داروين » فان عنــوان الــكتاب الذى تضمنه وهو « اصـــل الانواع » (٢) خليق ان يصحح الخطأ فى هذا الموضوع ، لان تنافس الافراد أو تنــازع البقاء انما هو لمصلحة الانواع كما يفهم من عنوان الكتاب ، وقد فطن زعيم الفوضوية « كروبتكين » الى هذا المعنى فقال : « ان حرية الافراد هى السبيل الى تقدم الانواع

---

(١) Laisser-faire

(٢) Origin of Species







الشيوعية والآداب والفنون





« ولقد كان المجتمع القـــديم قائما على ظلم الملاك وأصحاب الاموال للعمال والفلاحين ، فيجب علينـــا ان نتلفه وأن نسقطهم ، ولا بد من الاتحاد لتحقيق هذه الاهداف ، الا انه اتحاد لا يتم فى غير المصـانع والمعامل وعلى أيدى طبقة البرولتارية بعد تدريبها وايقاظها من سـباتهـا الطويل . .ونحن نقول الآن عـن تجربة واقعة : ان البرولتارية دون غيرها هى التى تخلق تلك الوحـدة التى يقتدى بها الفلاحون المتفرقون المبعثرون على الرغم من عراقيـل المستغلين. فلا طبقة غير هذه الطبقة يرجى ان تعمل على توحيد الصفوف بين الكادحين، وأن تحمى دائما وتدعم دائما وتشيد دائما مجتمع الشيوعية

« ولهذا نقول : انه لا يوجد شيء يسمى الاخلاق بمعزل عن المجتمع البشرى ، وان تلك الاخلاق تزييف وتزوير ، ولا أخـــلاق عندنا الا الاخلاق التى تســـتمد من صراع طبقة الصعاليك

« .. واذا تحدث النـاس الينـا عن الاخلاق قلنا : ان الاخلاق عنـد الشيوعيين تجتمع كلهـا فى هـــذه الوحدة الوثيقة المنظمة الواعية أمام المستغلين » ..

***

ذلك مصدر الاخلاق الانسانية فى مذهب الشيوعيين من يوم تأسيسه الى يوم قيـــام الدولة الشيوعية .. تفسيره بعلة من علل الظواهر النفسية المريضـة قريب متناسق محيط منه بالسر والعلانية ، وتفسيره بغير ذلك من العلل الفكرية والعلمية يلتوى بنا خطوات كلما مضينا به خطوة فى طريق ..

تفســـيره بعلة الحقــد والـكراهية أنه يقطع الصـلة الانسانية بين الطبقة الموعودة وسائر الطبقات ، ويجعل بينها وبين المجتمعات القائمة فجوة أبدية لا ينفتح فيها باب من أبواب التفاهم أو المصالحة أو البقيا ..

وتفسيره بالعلل الفكرية أو العلمية لا يسمح لاصحاب المذهب قبل غيرهم بالاسترسال فيه الى نتيجة على مدى تلك النتيجة أو الى نتيجة أقرب منها ، لانه يستند الى علل تتنافر وتتضارب ولا تصطحب خطوة الا افترقت بعد ذلك خطوات ..

لا أخلاق فى الانسان الا من وسائل الانتاج ..

ووسائل الانتاج فى المجتمعات البدائية الاولى تحلق لنا انسانا بريئا براءة الطفل ، يكاد مقال « انجلز » عنه فى أصل الاسرة أن يحسب من اغانى القصيد لا من بحوث الآراء والاسانيد ، و «انجلز» هو الذى تكفل هنا بشرح المذهب المتفق عليه بينه وبين أستاذه وصفيه « كارل ماركس » المصدق فى المشهد والمغيب

يقول « انجلز » فى وصف تلك الحالة : « لقد كانت نظاما عجيبا تلك الحالة التى درج عليها الرفقة فى بساطة الطفولة : لا جنود ، لا حرس ، لا شرطة ، لا نبلاء ، لا ملوك ، لا أوصياء ، لا محافظين ، لا قضاة ، لا سجون ، لا محاكم ولا محاكمات .. ويجرى كل شىء فى مجراه على وتيرة ونظام ، فتشترك الجماعة كلها فى تسوية المنازعات والخصومات برأى الشيوخ فى القبيلة أو برأى ابنائها فيما بينهم وبين انفسهم ، ولا يحدث الا فى الندرة أن يقع النذير بالثأر أو بالنقمة الدموية .. اذ ليست عقوبة الاعدام بيننا اليوم الا بقية متمدنة من بقايا النقمة الدموية بما لحقها من مزايا المدنية وآفاتها . ولقد كانت الشئون التى تتطلب التسوية اكثر عددا من مثيلاتها فى يومنا هذا ، ولكن تدبير الشئون المنزلية كان مشتركا بين طائفة من الاسر على اتفاق وعلى قواعد المشاع .. والارض فى حوزة القبيلة بأسرها ، والبساتين على حسب الحاجة فى أيدى الموكلين بالشئون المنزلية ، ولا ضرورة لشىء من هذه الادارة المشتبكة وما يتخللها من الحواجز فى المدينة الحاضرة ، ويتقرر الامر على أيدى أصحاب الامر بعد قرون يكرر فيها القرار بحكم العادة والقدوة ، وليس من الممكن فى هذه الحالة أن يوجد الفقير أو المعوز .. اذ يعرف ابناء القبيلة واجبهم نحو الكبار فى السن والمرضى والمصابين فى الحروب ، وكلهم متساوون فى الحرية ومنهم النساء »

ثم يفرغ «انجلز» من هذا النشيد لينتقل الى وصف أحوال القبيلة بعد امتياز بعض الافراد باقتناء القطعان الكبيرة من الانعام والماشية ، فيقول :

« ذلك جانب واحد من جوانب المسالة ، ولا ينبغى ان يفوتنا ان هذا النظام مقضى عليه .. لانه نظام لا يتخطى حدود القبيلة ، والاتحاد بين القبائل أول علامة من علامات الانحلال كما سنرى ، وكما سيظهر من محاولة قبائل « اروكيز »(١) الامريكية أن تخضع غيرها ، فكل

(١) Iroquois





يرجعان كثيرا الى عوامل المصادفة ، وفى مقدمتها أخلاق القادة الآخذين بأزمة تلك الحركات

***

والعقدة المؤرية التى أعضلت على الاخلاقيين الماديين هى الفصل بين أخلاق العهود واسناد كل طائفة من الاخلاق الى وسائل الانتاج فى عهدها الذى يصلح لها ولا يصلح لغيرها ..

فما هى الاخلاق التى أنشأها عهد الرق لاستبقاء الانتاج بتسخير العبيد ؟.. هل هى المبالغة فى احتقار العبودية والتنفير من الذل الذى يقبله العبيد ؟ ..

وما هى الاخلاق التى أنشأها عهد الاقطاع لاستبقاء الانتاج باستغلال عمل الزراع ؟.. هل هى المبالغة فى تمجيد النسب العريق وازدراء النسب الخامل ؟..

وما هى الاخلاق التى انشأها عهد راس المال لاستبقاء الانتاج بابتزاز حقوق الاجراء ؟.. هل هى المبالغة فى تعظيم الترف والغنى والانفة من ذل الحاجة والفاقة ؟..

لو ان السادة فى كل عهد من العهود يعملون للتعجيل بزوال عهدهم لما أنشأوا أخلاقا غير هذه الاخلاق . ونحن نفهم تحقير ذل العبودية وذل الخمول وذل الحاجة حين توضع الإخلاق للانسان وما يليق بالانسان فى العهود ، ولكننا لا نفهم أن تستبقى وسائل الانتاج بتحقيرها والتنفير منها

وعقدة مثل هذه العقدة تعترض الاخلاقيين الماديين فلا يملونها ويكتفون بتسجيلها كأنما التسجيل وحده كاف للتنفيذ والتصحيح ، وتلك العقدة هى وجود

الاخلاق بعد زوال الداعى اليها على زعمهم فى كل عهد من العهود .. فان « كارل ماركس » يقول فى رسالة الثامن عشر من بزومنير :

« ان الناس يستمدون الدوافع أحيانا من الاسماء الغابرة والاوضاع العتيقة ولا يستمدونها من الحوادث التى أنشأتها ، وان التقاليد الموروثة فى الاجيال الغابرة ترين كالجبال على أدمغة الاحياء » ، و « انجلز » يقول فى الاشتراكية الطوبية والاشتراكية العلمية : « ان هذه التقاليد عقبة معطلة وقوة تصد مجرى التاريخ » ومن البديه أن الاعتراف بهذا الامر الواقع لا يؤيد القول بصدور الاخلاق جميعا من وسائل الانتاج ، ولا يمحو العوامل الاخرى التى ترجع الى شىء فى طبيعة الانسان غير البيئة الاقتصادية .. فما هو الحد الفاصل بين فعل الطبيعة الانسانية وفعل الوسائل الاقتصادية ؟.. وما هو المحك الذى نعرف به ما كان من فعل التقاليد وما كان من فعل الحياة الحاضرة ؟.. ولماذا تكون التقاليد جميعا ضارة ولا يكون فيها ما يفيد وهى صالحة — كما يقول « كارل ماركس » — لاستمداد الدوافع منها حين تعجز الحوادث الحاضرة عن امدادها ؟..

لم تحل الاخلاق المادية هذه العقدة .. وانطوى القرن ونشأ المجتمع الشيوعى من الثورة الروسية ، ولم يكن لدعاته رأى بين فيما ينبغى أن تكون عليه أخلاق « الصعاليك » أو أخلاق المجتمع من طبقة واحدة .. وكاد بيانهم لهذه الاخلاق أن يكون « سلبيا » محصورا فى مخالفة كل خلق من الاخلاق التى جاء تقديسها فى المجتمع البرجوازى كما يزعمون . وأوشكوا أن يتخذوا « الاسرة » محكا للاخلاق التى يحمدونها من المجتمع الجديد ، لأنها فى مذهبهم سولت للناس حب الملكية والوراثة ، وهما راس الآفات والشرور .. فكل ما هدم الاسرة فهو حسن ، وكل ما صانها وحافظ عليها فهو سيىء ذميم . وتساوى الزواج والزنا من أجل ذلك فى شريعتهم ، وسمحوا بالاجهاض لانه فى صورة من صوره انتهاك لحقوق الزواج ، وأباحوا كل ما حرمه الناس قديما

لانه تحريم صادر ــ فى زعمهم ــ من مصالح المستغلين والمستبدين ، ووجب عندهم الخروج على أدب الاحترام ولو لم يكن ذا علاقة بمسائل الاقتصاد ، ووسائل الانتاج ، فكان من تشبيهاتهم للشمس المحمرة أنها تحكى « بركة من بول الخيل » .. وكان من آدابهم أن يجلس القضاة للحكم وهم يدخنون ويأكلون كأنما الشعور بالفارق بين مكان الحكم ونادى السمر رذيلة موقوفة على المجتمعات البرجوازية ، وكأنما الاحترام كيفما كان أدب لا يليق بالمجتمع المنشود أو كأنه أدب لا توجد له علامة فى سلوك الانسان ويستوى من يحترم ومن لا يحترم فى هذا السلوك !..

ودلالة الاخلاق من سلوك الاتباع الذين يقبلون على المذهب لا تقل عن دلالة هذه الآراء التى يروجها الدعاة المؤسسون لقواعده والمقررون لمبادئه فى مباحثهم التى يسمونها بالمباحث العلمية ، فهؤلاء الاتباع لايفهمون من الاخلاق المطلوبة الا انها الخروج على الاخلاق المحترمة فى المجتمعات الانسانية .. وفى أحدى القصص الواقعية التى اشتملت على الكثير من «الشخصيات» الشيوعية حديث صريح يحكى ما يجرى على ألسنة هذه الشخصيات فى المجتمعات المعدة للدعوة ، لا نسمى القصة لاننا لانحب أن نلفت الانظار اليها ولكننا ننقل كلام المؤلف فى الصفحة الـ (٢٥٦) بعد عتاب سمعه المجتمعون من شاب خانه أحدهم واحتال عليه جزاء له على وفائه ومودته ..

قال المؤلف : « قد يكون الحق مايقول ، ولكن صاحبكم لم يستعمل حيلته مع أبى أو اخى ولكنه استعملها معى أنا .. أنا الذى كنت نصيره الوحيد .. أنا الذى تركت أبى وهجرت أسرتى من أجله ، فهل أفهم من هذا أنه تجرد من كرامته بحيث ...

« ولم يتم خالد حديثه اذ قاطعته ضحكة ساخرة صدرت من فم نصيف

« .. أسمعك تقول الكرامة .. هذا لفظ لانعرفه هنا أيها السيد العزيز . فالفتيان الذين يحيطون بك الآن أناس اختاروا لانفسهم لقب الرفقاء الانذال .. الكرامة ؟ .. ان لنا معجما خاصا ياسيد خالد . هذا المعجم هو معجم الفقراء . وهو لذلك خلو من كثير من الكلمات التى تعرفها أمثال الكرامة والشرف والامانة ونحو ذلك من الحلى الغالية التى يستطيع الاغنياء ابتياعها ولكن لايقدر عليها الفقراء !

« وجاء دور خالد لكى يطلق ضحكة ساخرة فاطلقها وقال :

« .. شيء عجيب .. لقد كنت أظن أن الكرامة والشرف جواهر لايتحلى بها سوى الفقراء . ولكنك تحدثنى بأن الفقراء لايعلمون من أمر هذه الصفات شيئا .. فهل لك أن تخبرنى اين أجدها اذن ؟ »

وبعد حوار على هذا المنوال يتقدم أحدهم الى الاستاذ خالد ويسأله :
« هل انت جزرى يا استاذ خالد ؟ »

فيرفع خالد بصره الى محدثه ويقول : « لست بفاهم » ..

فيقال له : « أنصت الى ياسيد خالد .. افترض انك قمت برحلة مع أسرتك ، وبينما انتم فى وسط المحيط اذ قامت عاصفة هوجاء أغرقت السفينة فلم ينج من ركابها سواك وأخت لك . فتعلقتما ببعض حطام الباخرة وظللتما على هذه الحال الى أن القت بكما الريح الى جزيرة صغيرة ، ولما استقر بكما المقام فى هذه الجزيرة رحت ترتاد مجاهلها مع أختك ، فظهر لكما أن ليس من البشر سواكما .. ومرت بكما الايام والليالى دون أن تجوز بكما سفينة حتى تأكد لديكما أنكما لن تغادرا هذه الجزيرة حياتكما ... والآن أخبرنى يا أستاذ خالد : « اتسمح نفسك بأن تعاشر اختك معاشرة الازواج أم تراك تمتنع من ذلك ؟ »

وليس فى مقدور أحد من ألد أعداء الاخلاق الشيوعية ان يفندها بكلام أبلغ فى تفنيدها من كلام اتباعها هؤلاء ، لان أبلغ ما يقال فى تفنيد مذهب انه يجرد الانسان من مزيته على الحيوان ، ومزية الانسان بالشرف والكرامة ، وليست مزيته بحشو البطون الذى يتساوى فيه وأحقر الحيوان !

أننا نصل بعد لأى الى المجتمع الموعود الذى حطمنا من أجله المجتمعات ، ونطمع فى نعيم شعرى كذلك النعيم الذى

ترنم به « انجلز » فلا نجد فى المجتمع الموعود الا مفسدة للاخلاق والعقول اذا صدقنا « كارل ماركس » لانه مجتمع رخاء وسخاء يجد كل ذى حاجة فيه حاجته بين يديه ، وذلك أضر المجتمعات بطبائع الافراد كما يقرر « كارل ماركس » فى كتابه رأس المال وكما يقرر هو و « انجلز » فى كتاب « العقلية الالمانية » ، ولم يرد هذا المعنى عرضا فى موضع واحد من كتاباته بل كرره مرات بمعناه الذى جاء فى الجزء الاول من رأس المال حيث يقول : « ان الوفر فى خيرات الطبيعة يترك الانسان كالطفل ولا يضطره الى تربية ملكاته واستيفاء نموها .. ولكن الطبيعة التى تضن بخيراتها عليه تنبهه وتوقظه وتدعوه الى اعداد ملكاته للعمل الدائم والاجتهاد فى استنهاض قواه » .

فالمجتمع المثالى الموعود شر المجتمعات على الانسان وأسوؤها أثرا فى ملكاته واخلاقه، وهو اسوأ مايكون اذا صدقت فيه جميع الظنون ، وامتنع فيه القلق واستقرت فيه الطمأنينة ، وزالت فيه جميع التكاليف التى تشغل المرء بغير الساعة الحاضرة التى بين يديه .. فلا تفكير فى الغد ايام الحياة ولا بعد ايام الحياة ، اذ لاتبعة على الآباء نحو البنين ولا نحو الاقربين .. ولا فرق بين الوليد الذى تقر به العينان والوليد الذى لا يعرفه ابواه

وقد تخيل الشيوعيون كثيرا فى شئون لا سند لها من الواقع ، وخاضوا بالخيال فى مجاهل التاريخ وما قبل التاريخ .. فنحن لا نعتسف الخيال اذا تمثل لنا المجتمع الذى يسخو للعامل والكسلان ويسقط عنهما معا تبعات الاسرة والابناء ، فرأيناه يعود مضطرا الى الاسرة التى قضى عليها قبل ان يقضى عليه الخلو منها ، ولا ينمو فيه الشعور بالتبعات والتكاليف — وهى اصل الاصول فى الاخلاق —

الا من حيث نمت وتفرعت واينعت فى التاريخ القديم ، أو التاريخ الحديث

***

ان فضل الاسرة فى تكوين الاخلاق الاجتمـــــاعية أو الفردية ليس من الامور التى تجدى فى انكارها أو بخسها نظريات أصـــحاب الاراء ، ولو لم تكن التى يضرب بعضه بعضا كهذه النظريات

ولا يقول أحد : ان الاسرة افادت النوع الانسانى بالنفع الخالص الذى لا شائبة فيه من سوء أو ضرر .. فــلا الاسرة ولا غير الاسرة من اطوار الانسان تسلم من النقص الملازم لكل عمل انسانى لا يخطر على البال انه يأتى كاملا مبرءا من العيوب فى أدوار التجـربة والتطـــور عــلى الخصوص . غير ان الأسيئات التى جـــاءت بها الاسرة خليقة ان تحصل بها وبغيرها ، لانها جاءت فى غريزة الاثرة وتنازع البقاء .. وهى الغريزة التى كمنت فى طبيعـــــة الحيوان الاعجم قبل ان تكمن فى طبيعة الانسان . امـــا حسنات الاسرة فلم تكن لتأتى بغيرها سواء منها حسنات الاخلاق وحسنات المرافق والاعمال والصناعات .. وما من خلق كريم نبحث عن مصــدره الاول الا استطعنا ان نرده الى الاسرة الصغيرة من الاب والام والبنين والاقربين ، وان نترسم علاقته بالاسرة من اشتقاق لفظه فى اللغات المتباعدة كاللغات السامية واللغات الآرية

فالرحمة اجمل الفضائل الانسانية مشـــتقة من مودة ذوى الارحام، وتقابلها فى اللغات الجرمانية كلمة «كايند» (١) بمعنى بلد أو بمعنى القرابة ، ومنها كلمـــة الطفل فى تلك اللغات

---

(١) Kind

والكرم ـ وهو فضيلة البر بالانسانية ـ مأخوذ من صفاء النسب وخلوصه من الهجنة والاختلاط ، وتقابله في اللغات الجرمانيــة كلمة « جنروستي » (١) وهي مأخوذة من الاصل النبيل ، وتشبهها كلمة « اللطف »(٢) وكلمة « الجنتلمان » (٣) وهو الرجل المهذب الرقيق في معاملة الناس وتصريف الامور

والحرية تلاقي الكرم في هذا المعنى ، وتقابلها في اللغات الجرمانية كلمــة « فريدم » (٤) من الالفة ورفع التكليف وكلمة « فرانك » (٥) بمعنى الطليق من القيود ..

ولا تتفق اللغات المتباعدة هذا الاتفــاق الا لأنها تعبر عن حقيقة عامة وشعور عميق في بديهة الانسان . وليس مما يغض من هذه الفضائل ان يقال : انها من فضــائل القلة أو النخبة أو الصفوة بين الآدميين ، فان المزايا لم تزل ندرة في كل خليقة جسدية أو نفسية يحسها الناس بالاعين أو يحسونها بالضمــائر والاذواق .. وجمــال الوجوه ندرة يمتاز بها الوجه الواحد بين المئات والالوف، ومثله قوة البدن واعتدال المزاج مما لا شأن فيه لمذاهب الاقتصــاديين أو الماديين .. فما عرف الناس مزية قط في خلق أو خليقة الا كان المتازون بها أقل من غير الممتازين، ولا يغض من فضل الاسرة في تكوين صفات الرحمـــة والكرم والحرية انها صفات عزيزة لاتبذل بذل الشيوع والجزاف .. ولكن هذه العزة هي التي تعطيهــا القيمة النفيسة حتى بمعيار « الاقتصاد »

ومتى ذكرنا القيم الاقتصادية فنحن نذكر فضــل الاسرة في القيم التي تدور عليهــا مذاهب الاقتصــاد

---

(١) Generosity (٢) Gentleness
(٣) Gentleman (٤) Freedom
(٥) Franc

وتواريخ الصناعات ، فلولا حفظ الاسرة للصناعات الموروثة لما بقيت الى اليوم صناعة واحدة ينتفع بها الغنى اوالفقير .. ولولا تعليم الاسرة قبل ان يوجد فى التاريخ نظـــام التعليم العام لماتت كل صناعة فى مهدها ، ولم تنتقل الينا كما انتقلت بالوراثة من الآباء الى الابناء

وانه لمن الحذلقة الرخيصـــة ان يقـــال : ان الطبيعة الانسانية لا توصف بالخير والشر الا بالنسبة الى العلاقات الاجتماعية او الى المعاملات فى البيئة المشتركة .. فهكذا يقال عن جميع الخصـــائص والاحوال فى الانســـان وفى الحيوان وفى الجماد

بماذا نقدر صلابة الحديد؟ وبماذا نقدر متانة الخشب؟ وبماذا نقدر مرونة الخيط او النسيج ؟ .. ان تقـــدير هذه الخصـــائص بالنسبة الى غيرها فى حالة التركيب لا يزيل تلك الخصائص ولا يمنع استعداد كل مادة لتركيب من التراكيب التى تغنى فيه ولا يغنى فيه سواها

وظهور طبيعة الانسان فى المجتمع لا يمنع ان تكون تلك الطبائع متأصلة فى تكوين كل فرد من افراد البشر متعاونة بين الافراد والجماعات ، ولا يجيز لنا ان نقول : ان الخير هو الشر وان الشر هو الخير ، وان الفرد يســـتعد لهذا كما يستعد لذاك

ومهما نرجع الى المجتمع في تكوين الاخلاق فهناك قوة فى الفرد تناط بها تلك الاخلاق ، وتتفـــاوت بها أدوات البناء فى المجتمع كما تتفاوت بها ادوات البنـــاء فى كل تركيب

تلك القوة هى ضابط الارادة امام الشهوات والرغبات ، ولايلزم ان تكون تلك الشـــهوات والرغبـــات من قبيل العلاقات والمعاملات ليبدو فيها ضابط الارادة بقوته التى تناط بها الاخلاق

فيجوز ان يكون العمل مباحا لاحرج فيه من جانب المعاملات الاجتماعية ، ولكنه اذا تهافت عليه الانسان بغير ضابط من الارادة دل ذلك على نقص فى استعداد الاخلاق وفى استعداد الاجتماع وفى كل استعداد تتميز به قيم الافراد

ان شهوة الطعام شهوة فردية لاتحاط بالقيود التى تحاط بها الشهوة الجنسية ، ولكن الانسان الذى لا يملك ارادته امام شهوة الطعام انسان معيب فى مقاييس الاخلاق لانه معيب فى الارادة التى تناط بها جميع الواجبات

ومن ادعياء الحرية فى عصرنا هذا من يرى ان حرية المرأة التى لازوج لها هى اباحة مطلقة لا يقيدها واجب من الواجبات ، وان القيود الجنسية التى اصطلحت عليها الامم منذ القدم ان هى الا اعتساف من الاديان أو من الكهانات الطوطمية قبل الاديان ، ويعنون بالطوطمية تقديس بعض الاحياء واعتبارها سلفا للقبيلة يضمها فى نسب واحد ويحرم على أتباعه المزاوجة كما تحرم الآن بين الاخوة والمحارم

وتمادى بعض هؤلاء فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تتقيد بموسم للمزاوجة الا لوفرة الثمرات فى ذلك الموسم وامتلاء الجسم فيه بفيض من الحيوية يدعوه الى طلب الذرية . قالوا : واذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسيت قيود الموسم وطلبت المزاوجة انى تيسرت لها من ايام العام . وهذا كلام لا يعنينا ان نخوض فى تفاصيله وأن نتوسع فى تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرضا ان السر فى موسم المزاوجة اعمق جدا من الطعام واحوج الى الفهم جدا من هذا النظر القصير .. والا فلماذا

تتوافر الثمرات فى ذلك الموسم ، ولماذا يكون من خصائص ذلك الموسم ان يزيد قوة التوالد من النبات ، ولا يكون من خصائصه ان يزيد قوة التوالد من باب اولى فى عالم الحيوان ؟ وما بال الحيوانات التى تأكل الاحياء وتجدها طوال السنة تجرى على سنة الحيوانات التى تأكل النبات ؟ وما بال الاسماك فى البحار تقصد الى الانهار القصية للمزاوجة خلال فترة واحدة وهى فى موسم متشابه من الاطعمة طول العام ؟ ..

ان سر التوالد لابعد جدا من ان يحده ذلك النظر القصير ، لانه هو بعينه سر الحياة .. وأيا كان القول فى الاختلاف بين الدواجن والاوابد فى موسم المزاوجة ، فالامر الذى يتفقان فيه ان الحيوان لا يقارب الانثى وهى حامل ولا يطلب المزاوجة للعبث والمجون

« فالحيوان نفسه لاينطلق من جميع القيود فى علاقاته الجنسية ، ومن السخف ان ترد قيود الاخلاق الجنسية فى الانسان الى اعتساف الطوطمية والكهانة .. لان الاخلاق كلها ــ جنسية او غير جنسية ــ قائمة على ضبط النفس ، او على وجود الضوابط الادبية فى بنية الانسان . والطعام مثلا مباح كما تقدم لايتعلق به عرض ولا شرف ولا تزييف نسب ولا اختلاس ذرية .. ولكن الانسان الذى لايضبط شهوته امام اغراء الطعام حيثما أصابه انسان مهين ولو كان طعامه من كسب يديه ، وانما كان ضبط النفس لازما فى الشئون الجنسية لزومه فى كل شهوة من الشهوات لانه قيمة اخلاقية يطلبها الرجل فى المرأة ، وتطلبها المرأة فى الرجل ، ويطلبانها معا فى الذرية التى ترث منهما هذه الفضيلة .. واذا نفر الرجل من المرأة التى تنطلق مع اهوائها وتتهافت على شهواتها فهو لاينفر منها لانها خالفت الدين او خالفت الطوطمية كما يزعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لانها مخلوق معيب فى تكوينه سليب من الضوابط السليمة التى تناط بها جميع الاخلاق . والدين لم يعتسف هذه الضوابط اعتسافا لغير علة ولغير مزية ، ولكنه شرعها وهى فى أصول الفطرة القويمة لانها مزية فى أخلاق الفرد ومزية فى اخلاق النوع .. وما كرامة نوع يعرف الاباحة ولا يعرف ضوابط الشهوات ؟! (١)

---

(١) من كتاب « الصديقة بنت الصديق » للمؤلف

ولترجع الاخلاق اذن الى مصـــــلحة الطبقة او الى مصلحة الطبقات جميعا ، فهى لا تصيب الاحترام عنـــد الفرد الا لانه فرد صالح التكوين مالك لزمام مشيئته بين مضطرب الاهواء والشهوات . ومن السخف ان يقـال اذن : ان الشهوات الجنسية مباحة لمن لا يعترف بنظام الاسرة أو لايدين بقداسة الزواج ، فان شــهوات الطعام التى تعنى الفرد وحده لاتباح كما تقدم اذا نمت عـــلى خلل فى الارادة ، وضعفت عن ضبط النزوات والمغريات .. وهكذا ينبغى ان يكون الحكم على الاباحة التى يطلقهــــا الشيوعيون لهذه الشهوات

***

يقول « انجـلز » ــ وهــو يشرح مذهب « ماركس » ومذهبه فى قواعد الاخلاق من مقاله فى الرد على «دوهرنج» :

« ان واضعى القيم الاخلاقية المطلقة مجانين أو دجالون ، وانه فى عصره لايعرف مقياسا واحدا للقيم الاخلاقية لانه يرى حوله ثلاثة مقاييس : مقياس المسيحية من بقايا عصر الفرسان وعصر العقيدة الاولى وقد تفرع الى شعبتين : شعبة الكثلكة وشعبة البروتستانت ، ومقيــاس البروجوازية ومقيــاس الطبقة الاجيرة أو البرولتارية أو الصعاليك ، وان هذه المقاييس اذا اتفقت على بعض المحامد والعيوب فذلك من الطبيعى الذى لا غرابة فيه لانها تطورت فى عصور التاريخ ومرت بأدوار متشابهة فى العهود الاقتصادية »

ومثل هذا الكلام الذى يقوله الماديون عن الاخـــلاق يجوز ان يقال عن ذوق الجمــال وذوق الطعــــام وسائر الاذواق .. فليس بين الناس مقيـــاس متفق عليه لذوق الجمال ولا مقياس متفق عليه لذوق الطعام ، ولكننا لانلغى من أجل ذلك وجود الكائن الانسانى ولا نبطل وجـــود انسان له شعور يتذوق الجمال أو يتذوق الطعام الا ان يكون عضوا فى طبقة . ومن الجائز كثيرا أن يوجد اناس يسيغون مالا يساغ ، أو يشمئزون مما يسيغه غيرهم ،

ولا يمنع هذا أن نقول : انهم مصيبون أو مخطئون بالقياس الى الذوق العام كما نشعر به أونتخيله .. ومن قال بالتقدم ـ كما يقول الماديون ـ وجب ان يقول بمقياس عام للأخلاق نحتكم اليه عند المفاضلة بين أخلاق الطبقات وأخلاق العهود .. والا فلا تقدم ولا تفاضل ولا وسيلة للخروج من حدود هذا العهد الزمانى أو تلك الطبقة الاجتماعية . ولامحل لانتقاد البرجوازى ، ووصفه ـ كما وصفه ماركس وانجلز ـ بالشر وفقدان الحياء ان لم يكن للخير مقياس غير الخير الذى يرضاه البرجوازيون لخدمة مصالحهم واستبقاء وسائل الانتاج فى أيديهم

وينكشف الدخل كله فى طوايا هؤلاء الماديين حين نذكر ان مذهبهم لايستلزم هذه النتيجة التى يذهبون اليها .. فانما اللازم من مذهبهم فى الاخلاق أن الفرد لايؤثر فى الحوادث العامة بأخلاقه الحسنة أو السيئة الا اذا وافقته الظروف الاجتماعية . والمسافة بعيدة بين القول بهذا وبين القول بأن أخلاق الكائن الانسانى لاتوجد عند الجميع ولايدين بها الفرد فى كل طبقة .. فالقول بأن اخلاق الفرد لاتغير المجتمع معناه ان هذه الاخلاق توجد ولكنها لاتقوى على تغيير الاحوال الاجتماعية . وهذا هو الرأى الذى يطرد مع آرائهم جميعا ويوافق قولهم ببقاء التقاليد الموروثة من العهود الماضية ، ويوافق قولهم الصريح بالتقدم على أى نحو من الانحاء ولأية علة من العلل ، سواء كانت من علل الاقتصاد أو علل الحياة . ولا مفر من التسليم فى الاخلاق بالعامل النوعى الذى يعترف بوجود الكائن الانسانى فى كل طبقة ، ولامفر كذلك من التسليم فى الاخلاق بالعامل الفردى الذى يتمايز فيه الافراد بضابط الارادة والقدرة على مقاومة الشهوات أو فقدان هذه

القدرة لاختلال فى التكوين يحسب من خصـــائص البنيـــة أو خصائص التركيب

ولا مفر على الحائرين من التسليم بالمقياس الذى نثوب اليه عند المقارنة بين مجتمعات شتى فى أزمنة متباعدة او متقاربة ، فان مذهب الماديين فى جميع آرائه وقضاياه لا يدحض هذه الحقيقة ولا يوجب ادحاضها ...

فلماذا اذن هــذا التشبث بمحو الشــعور الانســانى وحصر الشعور كله فى الطبقة ؟.. ولماذا هذا التشبث بطبقة واحدة هى طبقة الصعاليك أو الطبقة التى يئول اليهـــا التاريخ مجردا من الطبقات ؟ ..

من جانب الفكر لا موجب لذلك التشبث ، ولا حجة له من آراء الماديين والشيوعيين بله المعارضين والمناقضين ..

واما من جهة الظاهرة النفســـية المريضة ، فليس فى الدنيا منفس ابرة يصرف عنه الضمائر المبتلاة بداء النقمة والبغضــاء .. لا منفس لهذه الضمائر غير الغــاء النوع والايمان بالطبقة الاخيرة ...

وأية طبقة ؟ ..

الطبقة التى لا تحسد ولا يحقد عليها ، وما من كاشف للدخل فى اطواء تلك الضمائر كهذه الظاهرة الكاشفة عما يفعله الحقد والحسد بالماديين ــ خدام الانسانية ! ــ فلو اســتطاع عازل الحقـد والحسد هنا ان يعزل عقــولهم وضمائرهم لكان موقفهم من الطبقة الاخيرة كموقفهم من غيرها .. ولـكنها تستثنى من الحفيظة الـكامنة فى تلك الضمائر المريضة لأنهم لا يحسدونها ولا يحقدون عليها .

وهذا هو التفسير الاخير لكل رأى وكل تقدير ، بعد كل تفسير وقبل كل تفسير

الآداب والفنون
والمعارف والعلوم

عند الماديين التاريخيين أن « الحاجة » هى مصدر الآداب والفنون والمعارف والعلوم ، ولا استثناء فى هذه القاعدة للرياضيات ولا للفلسفة والعلوم النظرية .. فالانسان لا يفكر فى شيء ، ولا يحلم بشيء ،مالم يكن مبعثه الحاجة الى مطالب المعيشة ، ولا تتطور الآداب والمعارف جميعا الا وفاقا لحالة المجتمع فى هذه المطالب المعيشية ، وتحكمها كلها فى النهاية وسائل الانتاج

وليس فى المجتمع الانسانى معرفة لم تصدر من حاجة معيشته ، غير أن المجتمع ينظم هذه المعرفة فى تركيبين متصاحبين : أساسى (١) ويشمل الحاجات التى تأتى من علاقة الانسان مباشرة بالطبيعة ، والتركيب الآخر يسمونه « بالتركيب الاعلى » (٢) ويشمل الحاجات التى تتولد من علاقة الانسان بالانسان فى المجتمع ، وهذه تحتوى فيها مطالبه الادبية والفنية ومطالب الثقافة الانسانية على الاجمال

ولقد كان فى مقذور هؤلاء الماديين ان يرجعوا بالآداب والفنون والمعارف الى حاجة الانسان ويحسبون له حاجة

---

(١) Fundamental

(٢) Superstructure

عقلية الى جانب حاجته الجسدية ، ولكنهم لو فعلوا ذلك لابتعدت منهم الغاية التى يريدون تقريبها ، وهى استغلال الحرمان المطبق ـ الموعود ـ للتحريض على النقمة والخراب

فليس للانسان اذن حاجة عقلية أو وجدانية الى جانب حاجته الجسدية . كلا .. بل حاجاته كلها مجتمعة فى مطالبه الحيوانية ، وما عدا هذه الحاجات فهو فروع متشعبة منها ، وليست أهلا لأن تستقل بالطلب لذاتها فى مطلع الحياة الاجتماعية أو فى المراحل التى تتقدم منها بعد تلك المرحلة

لماذا يرجع الماديون التاريخيون بالآداب والفنون والمعارف والعلوم الى ذلك المصدر : مصدر الحاجة الحيوانية ؟ ..

أما الاسباب الفكرية فسنرى أنها لا تلجئهم الى ذلك المرجع ولا تواتيهم خطوة حتى تدبر بهم خطوتين ، كدأبهم فى كل علة يتعللون بها لرأى من الآراء

وأما الاسباب التى ترجع الى الظواهر النفسية المريضة فى طباعهم فهى على طرف الاصبع ممن يريد أن يلمسها ، وهى أن غاية مذهبهم ثورة يدعون اليها المحرومين من حاجات المعيشة ، فلا يجوز أن تكون هناك حاجات مثلها أو حاجات تقترن بها ، بل لا يجوز أن يتأخر اليوم الموعود لاستحكام ذلك الحرمان ، فان من يخفف الحرمان او يكذب « اليوم الموعود » به يحول بينهم وبين الامنية المشتهاة !..

وان حيرة الماديين التاريخيين فى البحث عن تلك الغاية لتتجسم بين عينى الناظر ، كلما نظر اليهم وهم يعصرون رءوسهم ليسلكوا بها من جحر الى جحر ومن سرداب الى سرداب وراء تلك الغاية التى لا يطيقون أن تبتعد ولا

ان تتجه الآراء صوب غاية سواها ..

وينبغى للباحث المجرد من الهوى أن يسأل نفسه كل سؤال جدى فى هذا المبحث ، ثم يهتدى الى الجـــواب الصواب فيه قبل ان يحسبه فى زمرة الحقائق المفروغ منها ..

الا أن الماديين التاريخيين يهربون من الاسئلة الجدية فى هذا البحث ، أو يسألونها ثم يروغون منها ويقنعون فى الاجابة عنها بتلفيقات صبيانية لا تحتمل النظر اليها كرة أو كرتين فى مقام التثبت والتحقيق ..

فهل يترقى ذوق الجمال الفنى ـ مثلا ـ بمقدار انغماس المرء فى الحاجات الضرورية ؟.. وهـــل تترقى الآداب والفنون عند اشتداد القحط والفاقة أو تترقى عند زوال الحاجة وتوفر البذخ والرخاء ؟

واذا قيل مثلا : ان الطائر يغنى حين يشبع ، فلمـاذا يغنى اذا كانت حاجته هى الشبع ولم تكـن له حـاجة أخرى هى التعبير عن رضاه بأسـلوب مركب فى طبيعة البنية كتركيب المعدة والجناح ..

واذا قيل : ان الشعر يروج بين القبائل البـادية لانه يحركهم للحماسة والفخر والذكرى ، فليس الســـؤال هنا انه نافع أو غير نافع ولكنه سؤال آخر وهو : لمـاذا يحركهم ولمـاذا يســتحق عندهم أقل عنـاء اذا لم يكن حاجة من حاجات نفوسهم الى جانب حاجات النضـال والغلب فى القتال

وكيف نفسر نبوغ الشعراء والمثالين فى اليونان القديمة بنظام الانتاج الاقتصادى وهو نظام تسـخير الرقيــق ؟ وكيف يتأتى لهم النبوغ ولا يتأتى مثله لكل أمة لها نظام اقتصادى أو نظام انتاج ؟

من الصبيانيات المضحكة. خفا جواب « ماركس » عن هذا السؤال — حيث عرض له في ذيل الكلام عن نقد « الاقتصاد السياسي » فخيل اليه انه يجيبه ويفرغ منه اذ يقول : « ان الصعوبة ليست في فهم علاقة الفن اليوناني وعصره ببعض أطوار الاجتماع ، ولكن الصعوبة حيث نسأل : كيف بقي حتى اليوم يمتعنا باللذة الجمالية ويكاد أن يمثل لنا نموذجا لا ينال ؟ ».

والجواب الوافي عن هذا السؤال — في تقدير «ماركس» — أن الانسان لا يستطيع أن يكون طفلا ولكنه يسر بأحوال الطفولة البريئة من التكلف ، ويجتهد في ابراز حقيقتها على نحو أرفع وأعلى .. وكذلك تمثل لنا طفولة النوع البشري سحرا مضى ولا يعود ، وقد كان اليونان أطفالا طبيعيين عرضوا لنا أجمل طور من أطوار الطفولة الاجتماعية ، ومن ثم هذا السحر الذي يسحرنا به فنهم ..

جواب صبياني مضحك من وراء تلك اللحية العبرانية السابغة التي يضفيها عليه « ماركس » ويظن أنه قال في هذا الموضوع قولا يستحق شيئا غير السخرية والابتسام .. فلماذا تسحرنا الطفولة أولا ؟ وبماذا نفسر هذا الشعور الفني من التفسيرات الاقتصادية ؟.. ولماذا لم توجد طفولة أخرى كهذه الطفولة ، أو قبل هذه الطفولة ، بين الجماعات البشرية الاولى ؟.. ولماذا يتفاوت الناس في تذوق هذا الفن وهم سواء في الشغف بالطفولة وسحرها؟ .. وهل كل ما في ابداع اليونان انه لثغة صبيانية تأتي من الاطفال عفوا ولا يحسنها الكبار ؟..

ان سر الفنون الجميلة مسألة أعمق وأسمى من أن تلغها ترقيعة من ترقيعات المناديين التاريخيين الذين

تعودوا أن يلفوا بها مسائل الاقتصـــاد ، ولا يعسر عليهم تدارك الرقعة فيها برقعة أخـــرى قد تخفى على اناس قليلين أو كثيرين فى بدء العهد بالدراسات الاقتصادية .. لان هذه الدراسات الاقتصادية لم يمض عليهـا اكثر من قرن واحــد قبــل أيام « كارل ماركس » امام المــادية التاريخية ، ولكن الامم قد أخرجت آيات الفنون وروائعها منذ عشرات القرون ، وامتزجت هذه الآيات بعواطفهــا العامة وبعواطف كل انسان على حدة فندر بين الناس من لا يستجيب لآية من آيات الفنــون الكثــيرة فى لحظة من لحظات الرضـــا والامن أو لحظات الحـــزن والخوف ، واستعصى على التعريفات المرقعة أن تفسر لكل انســان متذوق للجمال حقيــقة هواه للفنــون ، وأن نظفــر منه بالارتياح الذى يظفر به الرأى المطابق لبواعث الشعور

واستعصى هــذا على « كارل ماركس » فاضــطر الى استثناء بعض الاحوال ، واخراجها - ولو قليــلا - من نطاق الانتاج وضرورات الاقتصاد .. فاضطر فى مقدمة « نقد الاقتصاد السياسى » الى الاعتراف « بأن فترات من العهود التى يرتقى فيها التطور الفنى الى ذروته العليا لا تكون على اتصال مباشر بالتطور الاجتمــاعى فى عمومه ولا على اتصال بالاسس المــادية فى المجتمــع أو بهيــكل نظامه .. »

واضطر « انجلز » كما تقدم الى الاعتراف فى رسائله بالغلو فى تعظيم شأن العوامل المادية واهمــال شــأن العوامل الادبية أثناء الاشتغال بالدفاع عن قواعد المذهب أمام خصومه ومعارضيه.

وكتب « انجلز » فى رسالة من رسائله الى السـيدة « مينا كوتسكى » - بتاريخ نوفمبر سنة ١٨٨٥ - يأخذ

عليها أنها أذابت « شخصيات » قصتها فى الدعاية للغرض الذى سخرتهم له خدمة لمبادئها الشيوعية ..

ولما بدأ تطبيق المذهب فى روسيا بعد الحرب العالمية الاولى كان « لينين » يعارض جماعة الادب الصعلوكى (١) ويفضل « بوشكين » وليد المجتمع القيصرى على « مياكوفسكى » داعية الادب الشيوعى ، وتقول زوجته « كروبسكايا » فى مذكراتها عنه : انه سأل طائفة من الشبان فى سنة المجاعة ماذا يقرأون ؟ هل يقرأون «بوشكين» ؟ فلما قالوا له انهم يفضلون عليه «مياكوفسكى» لانهم لا يحبون الشعراء البرجوازيين ، تبسم وقال : أظن أن « بوشكين » أفضل .. ثم تقول زوجته انه التفت بعد ذلك الى منظومات « مياكوفسكى » لما رآه من أثره فى تلك النفوس الفتية

واصرح من رأى « لينين » رأى « تروتسكى » اذ يقول فى رسالته عن الادب والثورة : «ان ترديد هذه المصطلحات ـ مصطلحات أدب الصعاليك وثقافة الصعاليك ـ خطر لانه يحصر أدب المستقبل فى المجاز الضيق من أدب الزمن الحاضر .. »

ولما استبد « ستالين » بالامر خيل إليه انه قادر على محو كل أدب لا يتشيع لمقاصده ، ولا يتغنى بمجده ومجد مشروعاته ، وأراد أن يزيل بقايا الادب التى لا تواتيه على خطته .. فأصبحت مشروعات السنوات الخمس للادب تساير مشروعات السنوات الخمس للصناعة والزراعة ، وذهب عهده من ولايته للحكم الى وفاته بغير أثر يذكر فى الآداب العالمية ولا الآداب القومية التى تدفقت من روسيا فى أواخر ايام الحكم القيصرى

---

(1) Prolet Cult

لانها كانت في الواقع أوائل أيام النهضة أو أيام الحرية الفكرية التي لا تقبل التوجيه ولا تستوحي برامج المسيطرين على الأفكار والنيات .. وقد كان من أثر الجو الخانق الذي أطبق على قرائح الشعراء والادباء أن ثلاثة من أشهرهم بخعوا أنفسهم وهم دون الخامسة والثلاثين ، وهم « مياكوفسكي » و « ايسنين » و « تاجريتسكي » الذين كانوا ينزعون ثلاثة منازع متفرقات بين الاشادة بالصناعة ، والاشادة بالريف . والاشادة بمجتمع الحضارة ، فاحسوا بالاختناق الميئس في هذه المنازع المتفرقات .

وما هو إلا ان زال عهد « ستالين » وأدرك الشعراء والقصّاص أنهم في حِل من التمرد على البرامج القاسرة في النظم والكتابة حتى تنفسوا الصعداء ، وارتفعت منهم الصيحة بانتقاد أدب الآلات والمشروعات واجترأت الشاعرة « برجولتز »[1] فتهكمت على الأناشيد التي كانت تنظم للصغار منذ طفولتهم وفاقاً لتلك البرامج الآلية فقالت : ان هذه الأناشيد تنظم في الأمم الأخرى لتنويم الأطفال ، ولكنهم في روسيا ينظمونها لازعاجهم واطارة الرقاد من عيونهم.. ! وكان على رأيها في ثورتها شاعران معروفان هما « باستوفسكي »[2] و « فاردوسكي »[3] ثم لحق بالادباء المتمردين عميدهم الذي اشتهر بفن القصة في اللغات الاوربية « ايليا اهرنبرج » فنشرت لهم الصحف الادبية ما كتبوه ، ومنها صحيفة الراية « زناميا »وصحيفة « المجلة الادبية » وصحيفة « المجلة الادبية » وكلتاهما كانت لسان حال لمشروعات السنوات الخمس في الادب والفن الجميل .

(١) Berggoltz (٢) Pastovsky (٣) Tvardowsky

وان هذا النوع الذي عرفه الادباء الشيوعيون بالتجربة لخليق أن يعرفوه بداهة ، او يستغنوا فيه بتجارب الأمم الانسانية على تنوع لغاتها وآدابها وفنونها .. فانه لمن البديه ان يكون الادب حيوياً إنسانياً قبل أن يجوز في العقل ان تستخدمه طبقة لتسخير الطبقات الأخرى في تعزيز مكانتها أو خدمة مصالحها ، حتى الأدب الذي هو أخص الآداب بالافراد وأبعدها عن مشكلات الاقتصاد والاجتماع كشعر المديح والفخر والرثاء .. وإلا فماذا تساوي قصيدة المديح أو الفخر أو الرثاء التي لا تعني أحداً غير من قيلت له أو قيلت فيه ؟ وماذا يساوي الشعر كله في جميع العهود والدول ان لم يكن له رواة وحفاظ من الرعايا والرعاة ؟..

والشعر العربي ـ على التخصيص ـ يأتي بالحجة القاطعة في تفنيد أثر الطبقة في الآداب والفنون والرجوع باقوى المؤثرات وأفعلها إلى العقيدة والبواعث الوجدانية ، لان هذا الشعر لم تتغير أبوابه ولا مقاييس الحمد والذم فيه مع تغير وسائل الانتاج من أيام الجاهلية إلى أيام الدول الإسلامية ، ومن قيام هذه الدول في المشرق إلى قيامها في المغرب بين الأوربيين وشعوب أفريقيا الشمالية .

فالعصر الذي نشأ فيه الشعر العربي كان على حسب تقسيم الماركسيين عصر السادة والارقاء .. كان في البادية على أيام الجاهلية قليل من الأرقاء يعملون في الصناعات وسائر الأعمال اليدوية ، ثم تجمعوا في الموانىء على شواطىء العراق بعد قيام الدولة العباسية ، ثم اجتمع من الموالي والمماليك ألوف مجندون في الجيش ما برحوا يتكاثرون ويستأثرون بمناصب القيادة والرئاسة حتى آل إليهم الملك وضعف سلطان الخلافة والوزارة

بالقياس إلى سلطانهم ، وهذه أطوار في نظام السادة والارقاء لم يحدث لها نظير في الامم الغربية ، فهي أصدق المراجع لتصحيح الآراء في أمر الادب وعلاقته بنظام الانتاج، وهي أقوى تفنيد لرأي الماديين التاريخيين في ارتباط الادب والفن بالطبقة والتهوين فيهما من أثر البواعث الحيوية والإنسانية ، بل الطبيعة التي تحيط بجميع الاحياء .

فالشعر ـ وهو الفن العربي الأول ـ قد بقيت له أبواب الفخر والغزل والمديح والرثاء والهجاء من أيام الجاهلية إلى أيام الدول الإسلامية في المشرق والمغرب ، وقد بقيت مقاييس الحمد والذم فيه مرعية بين أيام الارقاء الاولى وأيامهم الاخيرة وفي أيديهم الصولة والصولجان ، ولما اختلفت موضوعات الغزل كان اختلافها في دول الاندلس حيث لا يوجد الرؤساء المتحكمون من المماليك والموالي كاختلافها في دول العراق وفارس ومصر حيث وجد الرؤساء من مماليكها ومواليها.. ولما اضطربت أمور الدول الإسلامية ، واختلت دعائم الامن فيها وسرى الضعف إلى اللغة الفصحى من أثر الاضطراب والاختلاط كان النشاط الاكبر لتحرير اللغة وجمع مفرداتها وتصنيف موسوعاتها في دولة المماليك وعلى أيدي أناس من الأعاجم ، ولم ينهض هؤلاء وهؤلاء لتحرير اللغة العربية الفصحى لأنها لغة أمهاتهم وآبائهم .. ولكنهم نهضوا هذه النهضة لأنها لغة العقيدة التي يدينون بها ولغة الثقافة العامة التي يلتقي فيها أبناء الأمة العربية وأبناء الأمم الأعجمية .

ولقد سأل السائلون : ماذا كان أثر النظام القائم على الأرقاء في أدب اليونان وفي شعر يوربيدس وأرستفان واسكايلوس وسفوكليس وغيرهم من الشعراء والحكماء ؟

وسألوا هذا السؤال وعجز المسؤولون عن جوابـــه ، وأحرى من ذلك بالسؤال نظام السادة والأرقاء وأثره في موضوعـــات الشعر العربي ومقاييس الحمد والمذمة فيه ، فان العجز في جواب هذا السؤال على وفاق المذهب المادي لأظهر من العجز في جـــواب السؤال عن أدب اليونان الأقدمين لاننا هنا أمام اثر الفكرة في ناحية ، وجميع الآثار المزعومة في الناحية الاخرى بين شتى الأقـوام والبيئات واللغات والأزمنة ووسائـل الانتـــاج .

ولدينا في مصر شاهد يضارع هذا الشاهد في قوته وتفنيده للسخافـة المادية ، وذاك هو الشاهد الذي نستمده من أدب مصر « الشعبي » خـلال عصر المماليك من أواخر الدولة الفاطمية إلى أوائل القرن العشرين .

فإذا زالت من آداب الأمم جميع الشواهد التي ترجـع بالادب والفن إلى البواعث الحيوية الإنسانية ، كان هذا الأدب الشعبي في مصر قـــائماً وحده بالبرهان المكين على هذه الحقيقة التي لم تبطلها قـــط تجربة من التجارب الإنسانية ..

« على أي موضوع كان الأدب الشعبي يـــدور بمصر منذ القرن السادس للهجـــرة ؟ . .

« انه كان يدور على ملاحم أبي زيد الهلالي والزناتي خليفـــة والزير سالم وسيف بن ذي يزن وغيرهم من أبطال هذا الطراز ..

« وقد اختلفت الهيئة الحاكمة خلال هذه القرون من الدولة الفاطميـــة إلى الأيوبية إلى دولة المماليك إلى الدولة العلوية ..

« واختلفت الأحوال الاقتصادية من رواج النقل في تجارة الشرق والغرب إلى انقطاع الصلة بينهما ، إلى نشأة الزراعة القطنية ، إلى تجدد المعامـــلات التجارية بين القارات الشرقية والغربية .

« وفي جميع هذه القرون كانت قصة أبي زيد هي هي ، وقصة الزير سالم على نسختها الأولى ، وقصة الذوين والتبابعة مسموعة في القرن الثالث عشر كما كانت تسمع قبل ذلك بثلاثة قرون أو أربعة . وهـــذا هو رأي الشعب في الأدب الشعبي ، لا سلطان عليه للطبقة الحاكمة .. لأن هذه الطبقة الحاكمة كانت تجهل اللغة التي نظمت بها قصائد السيرة الهلالية وما شابهها ، ولأن قبائل بني هــلال وبني تغلب وبني من شئت من الآباء لم يكن لها سلطان على الدولة الحاكمة ، ولا كانت الدولة الحاكمة معتزة بهم أو جارية في نظام المجتمع على مثالهم .

« ان هذه الملاحم حقيقة واقعة ، وان غرام الشعب بها حقيقة واقعة ، وان ثباته على الافتتان بها مع اختلاف الدول والأحوال الاقتصادية والطبقـــات الحاكمة حقيقة واقعة .

« فأين يذهب تعريفنا للأدب بأنه مسألة اجتماعية بين هذه الحقائق الواقعة ؟ وأي فرق بين الأخذ بذلك التعريف واهماله غاية الاهمال ؟

« أليس المقصود بالأدب الشعبي أن يكتب بلغة الشعب ؟ أليس المقصود به أن يلقى القبول والاقبال عند طبقة الشعب ؟ أليس المقصود به أن يصدر من صميم الشعب ولا يصدر من الحكام والمستغلين؟ أليس المقصود به أن يأتي طواعية من الناظم إلى المستمعين بغير تسلط ولا اكراه ؟

« بلى !.. وكل أولئك كان موفوراً للملاحم الهلالية وما جرى مجراهــا .. فلماذا كانت هذه الملاحم دائرة على البطولة والغزل ولم تكن دائرة على الرغيف والفول المدمس ؟ ومن الذي أكره الشعب على طلب هذه المعـــاني والاغراض عما عداها ؟..

« جواب واحد لا سبيل إلى الحيد عنه بكلمة من ألفاظ الرطانة التي يلغــط بها أصحاب الأمر والنهي في تعريف الآداب . . وذلك الجواب هـــو شعور الإنسان[1] » .

---

(١) من كتاب « أفيون الشعب » للمؤلف .

نعم .. هو شعور الإنسان مرجع كل أدب في كل بيئة ، في كل نظام اقتصادي ، في كل لغة ، في كل جيل ..

ولهذا كانت موضوعات الحماسة والحب عامة متقاربة في جميع الآداب والفنون . . فلا أدب حيث لا نخوة ولا عاطفة ، ولا أدب حيث لا اشتراك بين جميع الطبقات من الرعايا والرعاة .

وإذا التفتنا من المديح الذي يمكن أن يقال انه خاص بالسادة الأعلياء ونسينا ان الاعجاب بشعر المديح مقصور على الممدوحين ، ثم نظرنا إلى مقاييس المديح أو الحمد في تلك الأشعار . . فكيف يتسنى لأحد أن يزعم أنها هي المقاييس التي تخدم الممدوحين ولا تخدم غيرهم من الرواة والحفاظ والنقاد .

ان الممدوحين يمدحون بالكرم والشجاعة ، وليس الكرم فائدة مقصورة على الممدوح ، وليست الشجاعة كذلك فائدة مقصورة عليه ، وبخاصة في الصورة التي يتكفل فيها الفرسان بالدفاع عن الأوطان ، لأنهم يمتازون بفنون الحرب والدربة على استخدام أنواع السلاح .

●

ومما سمعناه في هذا الصدد ان الشعر العربي تغلب عليه الصبغة الغنائية[1] وأن الشعر الغنائي لا يدل على أطوار المجتمع دلالة الشعر التمثيلي أو شعر الملاحم . ولسنا نعلم ان هذا القول من الأقوال المسلمة في عرف النقاد الماديين أو مدارس النقد الأخرى ، اذ من المعلوم أن الشعر الغنائي يتناول المديح وهو كبير الدلالة على شؤون الرئاسة في الأمة ،

---

(١) Lyric .

ويتناول الغزل وهو كبير الدلالة على شؤون المرأة فيها ، ويتناول الرثاء والهجاء ، وهما معياران صادقـــان للمحاسن والمساوىء وآداب الناس في حالتي الحزن والغضب . أما شعر الملاحم فقد رأينا شواهده في الملاحم الشعبية إلتي شاعت بين المصريين ، وكان في شيوعها هذا تفنيــد لما يراه الماديون من وظيفة الأدب وعلاقته بالطبقة الحاكمة أو بالطبقة التي تسيطر على وسائل الانتاج .

إلا اننا نعمد إلى الشعر التمثيلي في ديوان شاعر من أكبر شعرائـــه في لغات الحضارة وهو « وليام شكسبير » . . وننظر إلى شخصيـــات ملوكه وأمرائه وملكاته وأميراتـــه ، فلا نجد فيها مسوغاً للقول بخدمة الادب لنظام الدولة القائمة .. وقد نجد فيها مسوغاً للقول بالسخـط على أولئك الملوك والملكات لأنهم مصوّرون في روايات الشاعر على صورة منفرة توجب الحذر والريبة ، ان لم توجب التمرد والثورة ..

ويأتي بعد « شكسبير » شاعر آخر يقاربـــه في النبوغ ويحسب بين خمسة أو ستة من شعراء الملاحم وهو «جون ملتون» صاحب « الفردوس المفقود » . . فلا ثورة فيه على قواعد النظام الاجتماعي ، ولا يجوز لنا أن نتخذ من صورة الشيطان في الملحمة انها صورة الخـــلائق المحمودة أو صورة الخلائق المرذولة في زمانه ، واصدق ما يقـــال فيها : انها صورة فنية تترجم عن شعور « ملتون » بخلائقه الفردية أو الاجتماعيـــة على الســـواء .

وإذا كررنا بالنظر راجعين إلى أعلام الشعر التمثيلي في اليونان لم نستطع أن نعرف منه أنه مرتبط بنظام السادة والارقاء ، ولم يخطر على

بال قارئه انه منظوم لاستبقاء وسائل الانتاج إلا ان يكون في البال هوس ينثني به الى ذلك الخاطر ليبحث عنه بين زوايا السطور .

وأي بديهة سلمت من ذلـك الهوس يخفى عليها ان الآداب والفنون هي منافس الطبع البشري التي يلوذ بها من وطـأة المعيشة ، وليست ضرورة أخرى يضيفها الطبع البشري إلى تلك الضرورات ؟

ان طبيعة الإنسان تتنسم من جانب الآداب والفنون نسمات الحرية التي تتفقدها في عالم الضرورات والاثقال فلا تهتدي إليها ، وقد ترددت موضوعات الحماسة والحرب في آداب الأمم وفنونها لانها تجد هذه الحرية في عالم البطولة والعاطفة وتشعر شعـور الإنسان الحي لا لأنها تشعر شعور « المخلوق الاقتصادي » الذي يرسمه لنـا الماديون في أسواق البيع والشراء . ومن البلاء على الطبع الإنساني ان نسلط عليـه الضرورة تطارده في عالم الخيال كما تطارده في عـالم السعي والدأب ، وأن تتراءى أمامه في منافذ الاحلام فيسمعها مع الغناء كما يسمعها مع ضجيج الآلات ، ويبصرها مع الصورة والتمثال كما يبصرها مع الأفران والقدور . وهذه صفحات الآداب الإنسانية تمتلىء بالأحلام التي وجدها النـاس في آدابهم وفنونهم لانهم لم يجدوها في أعمالهم ومساعيهم ، ولم تكن هذه الأحـلام عبثاً خاوياً ولا علالة فراغ . . لانها حوافز النفس البشريـة إلى تقريب البعيد وتحقيق المحال ، وما كان لها من سبيل إلى الطيارة لولا الحصان الطيار وبساط الريح، ولم يكن الحالم بالفص المسحور وقمقم المارد صاحب مصنع يبحث عن زر الكهرباء ومرجل البخار ، ولكنه صاحب خيـال يحلم للإنسانية ويلقي بأحلامه إلى ذمـة الغيب فتخرج في أوانها من حيز الحلم إلى حيز العيان .

●

ويحق لنا أن نقول : ان اسوأ الآداب والفنون في عرف الماديين التاريخيين أوفق للطبقة المظلومة من آدابهم وفنونهم كما يرتضونها ، وكما يحبون أن يفرضوها على تلك الطبقة ..

واسوأ الآداب والفنون في عرفهم هي تلك التي يسمونها آداب « البرج العاجي » أو فنون البرج العاجي .. ويريدون بها كل فن يشغل بوصف محاسن الطبيعة أو وصف المناظر على عمومها لزينتها وجمالها دون ما يتبعها من المنفعة الاقتصادية أو من الأثر في أحوال المعيشة .

وأول ما نلاحظه على هذا التعريف للأدب المسمى بأدب « البرج العاجي » أنه لا وجود لمثل هذا الأدب ، ولا وجود لفن قط يعلمنا أن نتنبه للزينة والجمال ويتجرد على اليقين من الأثر في أحوالنا المعيشية وان يكن أثراً غير مقصود أو غير مباشر . وليكن فن « البرج العاجي » هذا مقصوراً على وصف حدائق الزهر أو جداول الماء أو ما شاكل ذلك من مناظر الطبيعة التي نراها فيما حولنا ، فإن هذا لا يجعل الوصف من أدب اللغو والفضول ، لان حدائق الزهر لها محل في كل مجتمع نظيف متقدم ، وما كان له محل في المجتمع فمن الجائز ـ بل من الواجب ـ أن يكون له محل في صفحات الأدب وآيات الفنون .

والشاعر الذي ينبه النفس إلى صدق الشعور يزيد نصيب القارىء من الاحساس بالحياة ، ويعطيه بذلك قيمة حيوية لا تحسب من اللغو والفضول . . وهو عدا هذا يهذبه ويعوده جمال المعيشة ، فلا يقنع برثاثة العيش ولا يزال متطلعاً إلى حياة أرفع من حياة الضنك والكفاف .. ومتى قورن هذا الأثر « النافع » بأثر الفن الذي يصبح ويمسي في حديث الضرورات أو حديث الصناعات والمصنوعات ، فلا ريب في نتيجة هذه

المقارنة بغير حاجة إلى التعمق في إدراك النفس البشرية .. فإنما الاثر المحتوم للاصباح والامساء في حديث الضرورات ساعة العمل وساعة الفراغ وساعة النظر إلى التمثيل وساعة الإصغاء إلى الغناء إنما هو السآمة والتبرم بالادب والعمل على السواء .

ولا ندري أين يضع الماركسيون تلك المحاسن التي تبذرها الطبيعة بذرا في حياة النبات والحيوان ، سواء حسبوها مع الزينة أو حسبوها مع الضرورة ؟ .. ان الطبيعة لا تنظر إلينا حين تنبت أزهار الفول والحمص والبازلاء ، ولا تبالي بأسماعنا حين ترسل الأنغام من حناجر الطير في بكرة الربيع وفي بكرة الصباح من جميع الفصول ، ولكننا نحن ننظر إليها ونبالي بها ونفهم من زينتها أنها لازمة لها لا تنفصل من الضرورة في مطالب الغذاء ومطالب البقاء ، ومن اللغو أن نقول ان الزينة برجوازية حين تظهر في الحياة الإنسانية ، وطبيعية خالصة حين تظهر في حياة الشجرة وحياة العصفور ؟

ولسنا نمزح حين نسترسل من هذا السؤال إلى سؤال عن لحية « كارل ماركس » التي أضفاها حول وجهه وحملها طول حياته . . ما مكانها من الزينة والضرورة؟ وما مكان هذه الزينة أو الضرورة من وسائل الانتاج؟ وإذا كان هذا قسط الزينة في وجه زعيم فيلسوف ، فلماذا نلغيه ونحرمه في تعبيرات العواطف وتشبيهات الشعراء ؟!

لسنا نمزح بحق في هذا السؤال لان جوابه كيف كان يضطر الماديين الماركسيين الى فهم آخر لمعنى الزينة وعلاقتها بضرورات المعيشة ووسائل الانتاج ؟..

ولسنا نمزح كذلك حين نسترسل في هذا السؤال الى السؤال عن

نموذج الأدب المرتضى بعد قيام المجتمع من طبقة واحدة . . هـل يحرم فيه ذكر وسائل الانتاج لانها بقية من بقايا الاستغـلال ورأس المال وأحابيل البرجوازية والانتهازية والابتزازية وما إليها ؟..

هل يدور على حياة الإنسان بعد ذلك ولا يدور من قريب ولا بعيد على الفلوس والاجور ؟ وهل يتهجى الإنسان بعد ذلك في الذوق الإنساني الخالص ويتعثر فيه بين الحروف والمقاطع كانه طفل لم يشهد النور قبل ذلك آلاف السنين ؟ وإذا كان الإنسان قابلاً بعد ذلك الماضي السحيق أن يحتفظ بالطبيعة الإنسانية ، فلماذا يقال ان الطبقة قد استنفدته قديماً فلم يبق فيه مكان يسمح للإنسانية ان تعيش الى جانب الطبقة بمقدار النصف أو الربع أو العشر أو أي مقدار ؟..

لسنا نمزح بحق في هذا السؤال أيضاً . . لاننا نحب أن نعرف كيف يتخيل الماديون إنساناً يولد في المجتمع الموعود لم يكن إنساناً قط منذ بدأت أدوار التاريخ كما وصفوه .

•

ومن التقسيمات التي ضللت العقول زمناً طويلاً ولم تزل تضللها تقسيم المطالب العامة الى ضروريات وكماليات ، والاسترسال من ذلـك الى ضروب من الترتيب يعاودون بها التقديم والتأخير أو التأخير والتقديم ، فيما يؤخذ وفيما يترك ، وفيما هو أولى بالعناية وما هو أحق بالاهمال ..

ولا خلاف على تفاوت المطالب في لزومها أو الاستغناء عنها ، ولكننا إذا بنينا على ذلك ان المطالب التي لا تلزم في كل حين تهمل ولا ينظر فيها حتى يستوفي الناس ما يلزمهم كان العمل بهذا الرأي خطلا مضيعاً للضروريات والكماليات بل ربما ضيع الضروريات أو ضيع وسائلها قبل الكماليات التي يقال : انها مما يستغنى عنه ..

ان الرغيف ألزم من الكساء والدواء ، ولكننا إذا قلنا انـنـا نهمل الكساء والدواء حتى نستوفي الرغفان أضعناها جميعاً ، ولم نضع ما نحتاج إليه ولا ما نستغني عنه ..

ولا يحتمل هذا القول مغالطة أو مكابرة إلا من جماعـة الدعاة الذين يخاطبون الغرائز ولا يخاطبون العقول والضمائر ، فإذا قـال هؤلاء لإصحاب الغرائز التي تخذلها عقولها وضمائرها : ماذا تصنع المعدة الجائعة بالفن والأدب والعلم ؟ فهذا كلام قد يصلح للتدجيل والتضليل ولكنه لا يصلح لتقرير الحقائق ولا لاشباع الجياع ، ولو سمع هذا الكـلام من فجر التاريخ لما وجدت الان الآلات والمكنـات التي لولاها لمات العاملون جوعاً ولم يجدوا ما يعملونه فضلاً عما يكسبونـه من العمل ، ولو توقف صنع الفن وبناء الصروح ونسج الأكسية واستخراج المعـادن والجواهر الى أن تتم الضروريات المزعومة منذ فجر التاريخ ، لذهبت هـذه الصناعات الضرورية لحسبانها يومئذ من الكماليات .

وهؤلاء الدعاة يتخيلون أو يريدون من النـاس أن يتخيلو أن الإنسانية معدة واحدة لا تعمل حتى تشبـع وتروى ، وينسون أن الإنسانية ملايين من المعـدات والعقول والأذواق تستطيع أن تعمل معاً — ولا بد أن تعمل معاً — وإلا ضاع الجياع في مقدمة الضائعين ، وهكذا عملت الإنسانية ، وهكذا عملت الطبيعة ، وهكذا عمل الكون منذ كان .

وليس من الكماليات ما هو أقل لزوماً من الصروح التى كانت تبنى منذ خمسين قرناً في الحضارات الأولى ، ولكنها لو توقفت يومئذ لما كان لدينا اليوم صناعة بناء ، ولا صناعة ملاحة ، ولا صناعة معادن ، ولا صناعـة نقش وتجميل ، ولكان أول الضائعين بذلك طلاب الضروريات !

●

كنا في لجنة المعارف بمجلس النـــواب ، ودار البحث على الفنون الجميلة .. فقال بعضهم : انها من الكماليات ، فكان جوابي للقائـــل : نعم لعلها كذلك .. ولكننا إذا كنا نعيش بالضروريات فإنما نعيش بالكماليات.

وخرجنا من اللجنة ووصلنا أثناء الحديث إلى ميدان الأزهـــار ، فلقينا رتل من مركبات النقل ليس بينها مركبة واحدة لم تزوق بالالوان أو لم تعلق في عنق حصانها شرابة ملونة الاهـــداب .. قلت لصاحبي : أتظن هؤلاء السائقين من المترفين الذين شبعوا من الضروريات ؟ .. أتظن واحداً منهم في غنى عن ثمن الطلاء الذي يزوق به خشب المركبـــة ؟ .. أتظن هذه « اللاسة » المزخرفة ضرورية لوقاية رأسه ؟! ثم هذا الغناء في إبان الشغل : كيف تحسبه في أبواب الميزانية ؟ وكيف تمنعه دون أن تمنع معه شيئاً من النشاط وشيئاً من الحماسة النفسية ؟ ..

هذه الملاحظة ترى في كل مـــكان وليست مما نفقده في وقت من الأوقات ، ويمكننا جميعاً أن نراه في جميع الأوقات وجميع المناسبات ...

وندع مركبات النقل وتنظر إلى السيارات ، فكم نرى منها للضرورة وكم نرى منها للكماليات ؟ .. انها تتفاوت بالمتانة والسرعة ، وتتفـــاوت كذلك بالشكل والقالب ، وبالمنظر الذي يأخـذ البصر من النظرة الأولى وإليه يلتفت المعجب بها لأول وهلة ، ولاجله قبل غيره يبذل الفرق في الثمن عشرات أو مئات من الجنيهات .

وندع الصناعة والمصنوعات ونتجه إلى الطبيعة في مروجها وحقولها وغيطانها ، ولا نقول إلى بساتينها وحدائقها ، ولا إلى مـــا في البساتين والحدائق من الورد والنرجس والريحان ، فربما قيل عن هذه الأزهـــار بأشجارها جميعاً : أنها « كماليات » مزهود فيها ..

ننظر إلى غيط الفول ، وناهيك بكلمة الفول وحدهـــا رمزاً للأكل

بل للعلف الذي ينزل من طبقات الضروريات الى قرار القرار ، فـــأية حسناء من المترفات تتخطر برائحة أجمل من رائحة غيط الفول ؟ وأي زينة لديها أنقى من زينة زهرة الفول ؟.. ما فائدتها ؟. . ما جدواها ؟. . ما تفسيرها بلغة الضروريات ؟..

ألعلها تغري الحشرات بنقل اللقاح ؟ . . ولعلها تغري النحل بصنع الرحيق؟ .. ربما حدث هذا وذاك ، ولا علينا من حاجة الفول الى نقـل اللقاح أو استغنائه عنه ولا علينا من عمى بعض الحشرات عن اللون وعن الرائحة ؟ ولا علينا من الحشرات نفسها ما الذي ينقل لقاحها وفي أي شيء ترسم لها الطبيعة ألوانها وتوشي لها أجنحتها ؟ بيد أننا نقول : اننا نصف الشيوعيين ــ أحياناً ــ بوصف الحشرات ولا نمزح ، لانهم يرتضون لأنفسهم مرتبة من الخلق دون مرتبـة الحشرة التي يستهويها الجمال ، ولا تفسر كل عمل من أعمالها بوسائل الإنتاج .

●

وسواء قصدنا الى المزاح ، أو لم نقصد إليـــه ، فنحن نمزح على الرغم منا كلما عالجنا البحث في هذا الذي يسميه الماديون التاريخيون رأياً يرتأونه عن أصل العلوم . . لان رأيهم هذا وقـــار يشبه الهزل أو هزل يتشبه بالوقـــار . .

وماذا يقول القارىء إذا سمع أحداً يقول له بلهجة الجد والثقة : إن عينك لا تبصر شيئاً إلا أن تكون لك حاجة فيه ؟

انه قول عجيب .. ولكنه أقل عجباً من قول الماديين التاريخيين في أصل العلوم إذ يقولون : ان عقل الإنسان لا يعرف شيئاً وان معرفته لا تصبح علماً إلا أن تكون له حاجة إليها ، وشرطهم الأخير هنا كشرطهم في سائر آرائهم : أن يؤول الأمر في النهاية إلى وسائل الإنتاج .

وهم كدأبهم يتخطون جميع العقبات ليصلوا الى الغرض الذي يرمون إليه من وراء هذه النظريات ، فإن العقبـــات التي تعترضهم في طريقهم كثيرة لم يذللوا واحدة منها ولم ينظروا إليها إلا على عجل واختـــلاج ليهرولوا الى الخاتمة المأمولة قبل فوات الأوان !..

فمن العقبات التي تعترضهم ان الإنسان يعلم بإرادته وبغير إرادته ، ولكنه يشعر بالحاجة فيريدها ويطلبها ويسعى إليها ، فنحن لا نعـــلم باختيارنا أن الشمس تطلع كل يوم من موضعها ، بل نراها تطلع يوماً بعد يوم فتصبح هذه الرؤية مادة من مواد العلم التي تحصل لدينا حيث نريــــد وحيث لا نريد .. فإذا استخدمنا حرارة الشمس أو نورها بعد ذلـك في حاجة من حاجاتنا ، فنحن هنا نريدها ونعتمد على إرادتنا كما نعتمد عليها في كل شيء ..

ومن العقبات في طريق التعليل المادي للعلوم ، اننا نزداد معرفـــة فنزداد علماً بحاجاتنا .. وكثيراً ما يكون العلم سابقاً بذلك للحاجـــة منها يكن من اضطرارنا إليها ، فقد تعلمنا فعرفنا ما نحتاج اليه من الغـــذاء والكساء والدواء .. ولم يكن أكثرها مما نعلم أننا محتاجون إليه .

ومن تلك العقبات أن الحاجة وحدها لا تحقق لنـــا الغاية التي نسعى إليها السعي الحثيث من أوائل تاريخنا المعلوم، فمن عشرات القرون يحتاج الناس إلى دواء الأمراض المعضلة ولا يعرفون دواءهـا ، وفي هذا العصر يصل الباحث بالمصادفة الى أنفع الأدوية ــ كالبنسلين مثلاً ــ فلا نلبث أن نعرف مواضع الحاجة اليه .

ومن تلك العقبات أن الناس يتفاوتون في استنبـــاط العلوم ، وتحصيلها ، على حسب تفاوتهم في الحاجات . فوسائل الانتاج متساوية أو متقاربة في المجتمعات الإنسانية الى ما قبل عصر الصناعـــة الكبرى ، وليست المجتمعات مع ذلك متساوية في العـــلم والثقافة وتمهيد طريق

الاختراع . وقد كانت معادن الحديد والفحم والنفط موجودة في غير أوربة الغربية من قبل وجود الإنسان، ولكنها لم تحدث المخترعات الصناعية التي حدثت في أوربة الغربية ، ولم يكن لها تمهيد غير التمهيد العلمي في عصر النهضة قبل قيام الصناعة الكبرى على سعة أو في نطاق محدود .

ولنتكلم بلغة الماديين التاريخيين فنقول : ان هذه العقبات محتاجة الى التذليل قبل الوثب منها الى النتيجة المقصودة ، بيد أن الماديين التاريخيين لم يذللوها على شدة الحاجة الى تذليلها ، ووثبوا منها الى الغاية التي لا بد أن يثبوا إليها ، وهي تعليل العلوم جميعاً بالحاجة إليها .

ومن تلك العلوم ما تجوز المغالطة فيه كالعلوم الطبيعية التي ترتبط بالتجربة والتطبيق ، ومنها ما تتعذر المغالطة فيه لان ارتباطه بالتجربة والتطبيق قليل جداً في رأي العارفين به ، كعلوم الرياضيات .

فمن المتفق عليه أن الحقائق الرياضية عقلية لا ترتبط كثيراً بالمشاهدات الحسية ، وانها قد تمت على وجه التقريب قبل تمام العلوم التجريبية بمئات السنين .. وقد رأينا غيرنا أطفالاً في الثانية عشرة يحلون من عمليات الحساب على غير الورق مسائل تحتاج إلى ضرب عشرة أرقام في عشرة ، وهم أشباه أميين. وثبت أن علوم الحركة التي مهدت للمخترعات الحديثة لم تكن ميسورة بغير المعلومات الرياضية التي اقترنت بعلوم النهضة في عصر الحرية الديموقراطية فأسفرت عن خوارق الصناعة الحديثة .

إلا أن استثناء العلوم الرياضية يفسد الحساب الأخير على الماديين التاريخيين .. فلا حقائق رياضية ولا تجريبية يدركها العقل ويجعلها علوماً مفهومة بمعزل عن وسائل الانتاج .

يدركها العقل ويجعلها علوما مفهومة بمعزل عن وسائل الانتاج

ويقول « كارل ماركس » فى الجزء الاول من كتاب راس المال : ان « ضرورة التنبؤ عن موعد الفيضان » هى اصل علم الفلك عند المصريين الاقدمين • ويقول هو ومن على شاكلته : ان الحاجة الى تقسيم المزارع بعد الفيضان هى أصل علم الهندسة ، ولذلك سميت فىاللغة اليونانية بعلم قياس الارض (١)

وبعض ما قاله الماديون هنا يقره غيرهم من الباحثين فى اصول العلوم ، الا انهم لم يستطيعوا ان يمنعوا قدرة العقل البشرى على استنباط العلم الذى لا تلجئه اليه الحاجة ، وفى مقدمته علم الرياضيات بما يشتمل عليه من فلك وهندسة

فهل من المعقول ان تصبح الشعرى اليمانية موعدا للفيضان مالم تكن مرصودة قبل ذلك معروفة المواعيد بمعزل عن مواعيد فيضان النيل

ان مؤرخى الرياضيات الذين تتبعوا اصولها لا تخفى عليهم هذه الحقيقة ، ولا يزالون يعرفون للعقل حقه فى الدهشة أمام روائع الكونوالشوق الى استطلاع أسراره ، ولا يجعلونه فى كل شىء .. وفى كل معرفة .. عبدا مغمض العينين لا يفتحهما الا باذن من وسائل الانتاج ! .. وقد كتب الاستاذ « موريس كلين » مؤرخ الرياضة فصلا عن مولدها من كتابه عن تاريخ الثقافة الرياضيةفىالغرب فقال : « ان الرصد لابد ان يكون قد تتابع سنوات عدة قبل أن يقرر اتخاذ عبور الشعرى بالفلك الاعلى موعدا

---

(١) Geometry

النبوءة عن فيضان النيل » (١)

ولا يلزم ـ بداهة ـ ان يكون المــــرء حجة فى العلوم الرياضية ليفهم ان الهندسة التى شيدت الاهرام وشوامخ الآثار لم تكن ضرورة من ضرورات وسائل الانتاج او وسائل الزراعة من فيضـــان النيل .. فما الذى ارتفع بالعلـــوم الهندسية والفلكية الى تلك الذروة التى ارتقت اليها بين المصريين الاقدمين ؟ وماذا فى زراعة الفيضان مما يوجب اقامة الهياكل بتلك الضخامة وذلك الشموخ ؟ ولماذا تعلم المصريون الملاحة وتعلموا الاهتداء بالنجوم فى طريق الملاحين لجلب الابازير والافاويه التى يســـتخدمونهـــا فى تحنيط الجثث أو تحنيط الاموات ؟ ..

اى جواب يجاب به عن هـــذه الاسئلة يســـقط القول بالعلة المحصورة فى وسائل الانتاج ..

فاذا قيـــل : ان الهيـــاكل المخلـــدة قربان يرضى الارباب لتغدق عليهم الوفر والخصب والنتاج ، فليست وســـائل الانتاج فعلا هى التى علمتهم الهندسة وبناء الصروح ، وانما هى العقيدة التى صورت لهم اسباب الوفر كما يؤمنون بها لا كما فى الارض الزراعية او ماء الفيضان ..

واذا قيل: ان الانسان يؤمن ثم يخلق له الايمان حاجته الى البناء والملاحة ، فماذا يبقى من مذهب « الحاجة » فى تعليل العقـــل وشـــله عن طلب المعرفة الا من طريق الفم والمعدة والامعاء ؟

***

ويلوح لنـــا أننا نقترب من فهم « ميزان » التهجم على الحقائق عند الماديين التاريخيين اذا تذكرنا ـ ونحن نطالع

---

(١) Mathematics in Western Culture

كتبهم الاولى والاخيرة ـ انهم كتبوها بأسلوبين أو فى حالتين من أحوال الامل والقنوط .. فالاسلوب الغالب عليهم هو أسلوب التهجم على الحقائق كلما استطاعوا ، وهو ملحوظ فيما كتبوه أيام الفتنة على أمل فى نجاح الانقلابات او تفاقم البوادر الاولى واستفحالها فى امد قريب ، والاسلوب الآخر هو اسلوبهم كلما خابت ظنونهم وخابت ظنون الناس فى نبوءاتهم فأعرضوا عنهم وتعسر اقناعهم بالهجوم على الوعود والتوكيد بغير برهان

ومما كتبوه على الاكثر فى بعض هذه الفترات تلك الآراء التى يفرقون فيها بين العلوم وامكان تفسيرها بأسبابهم التى يفسرون بها كل ما فى الارض والسماء .. ومن هذا القبيل نحسب تقسيمات « انجلز » للعلوم وما يطرأ عليها من التحول والتطور على حسب البيئة فانه يقسمها فى رده على « دهرنج » الى ثلاث طوائف لا تتعادل فى قابليتها للتأثر بوسائل الانتاج .. وهى طائفة العلوم الطبيعية ، وطائفة العلوم البيولوجية ، وطائفة العلوم الاجتماعية

« فطائفة العلوم الطبيعية تتعلق بالمادة غير العضوية كالفلك والرياضة والطبيعة والكيمياء . وطائفة العلوم البيولوجية تتعلق بالمادة العضوية كعلم وظائف الاعضاء وعلم الحياة . وطائفة العلوم الاجتماعية تتعلق بالاحوال التاريخية ومسائل الشريعة والفكر والدين والفلسفة ..

« فالعلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية تبحث فى أمور لم يصنعها الانسان وليست عرضة للتغير الذى تتعرض له الاحوال الاجتماعية . فلا تتغير وظائف الاعضاء ولاخصائص الموادالطبيعية بين نظام ونظام من النظم الاقتصادية او بين عهد وعهد من العهود السياسية ولا شأن للحقائق المطلقة بهذه العلوم، ولا تزال معرفة الناس بها نسبية أى « غير مطلقة »

أما العلوم التى تتعلق بتاريخ الانسان كعلوم السياسة والفلسفة والدين والفنون والآداب ، فهى عرضة للتغير

بين العهود السياسية على حسب اختلاف وسائل الانتاج، وهى مصطبغة على الدوام بصبغة المنفعة والفرض ، متحولة على الدوام مع العلاقات الاقتصادية التى تنشىء المعلومات والمصطلحات فلا توجد الا حين توجد مقدماتها ونتائجها

وللفلسفة بين هذه المعارف البشرية رخصة خاصة عند الماديين التاريخيين فى الانفصال من وسائل الانتاج الحاضرة لجملة اسباب ، منها انها تحمل بقايا الازمنة الغابرة من قبل التاريخ اذ كانت الحالة الاقتصادية تنطلق بالانسان فى تيه من الاوهام والخزعبلات لاتمت الى الواقع بعلاقة صحيحة ، ومنها انها تتوقف على العلوم الطبيعية فلاتتقدم الا تبعا لتقدمها ولا تصل الى الواقع الا اذا كانت تلك العلوم الطبيعية قد وصلت قبلها ، ومنها انها ذات موضوعات لا ترتبط على الدوام بالموضوعات اليومية ، وهى مع هذا الانفصال عن الواقع تمثل عصورها الحاضرة فى مذهب فيلسوف أو أكثر من فيلسوف، ان لم تكن مذاهبها جميعا ممثلة للعصر الذى تعيش فيه

هذه الرخصة المسموح بها للفلسفة محظورة على الرياضيات لان الرياضيات مأخوذة من المشاهدات الحسية مهما يكن من ظواهرها النظرية المجردة ..

« فلا بد ــ كما يقول « انجلز » فى الرد على « دهرنج » ــ من اشياء ذات شكل حتى تكون هناك صور ورسوم هندسية . والنظريات الرياضية المجردة تبحث فى صور لها محل من المكان وفى علاقات عددية بين أجزاء العالم الواقع ، أى فى علاقات بالعالم المادى جد صحيحة بلا مراء . وانما تتجرد هذه الصور والعلاقات من الماديات ليتيسر بحثها عقليا وتفريغها من محتوياتها لأنها ليست بالضرورية للوصول الى النقطة التى لا أبعاد لها ولا للخط الذى لا عرض له ولا كثافة .. ومن ثم نصل للمرة الأولى الى العلاقات الطليقة والتصورات العقلية والمقادير المتخيلة . واشتقاق المقادير

الرياضية بعضها من بعض لا يدل على مصدر مجرد بل على ارتباط بينها في التفكير ، وقبل أن نستخرج صورة الاسطوانة من حركة السطح القائم الزوايا على جانب واحد لا بد أن تكون حركات كثيرة من هذا القبيل قد شوهدت في الواقع . وهكذا تكون الرياضيات - كغيرها من العلوم - صادرة من حاجات الانسان ، وهذه الحاجات هي قياس الارض وفراغ الآنية ومسافات الوقت وادارة الآلات . غير انه في دور من الأطوار يحدث لهذه القواعد - التي استمدت من العالم الواقع - أن تنعزل من هذا العالم كما يحدث في كل ميدان من ميادين التفكير ، فاذا هي مفروضة عليه كأنها مستقلة عنه تأخذه بموافقتها ومطابقتها ، وانما يحدث هذا في المجتمع وفي الدولة وتصبح الرياضيات بهذه المشابهة دون غيرها صالحة للتطبيق في العالم الخارجي »

***

هذه مراجع العلوم كما بسطها « انجلز » شارح هذه الآراء في مذهب المادية التاريخية ، وهو يؤيد بها آراء استاذه أو يشرحها ، لان « ماركس » لم يشرحها بهذا التفصيل ..

واللازم منها بمشيئة المذهب أو بغير مشيئته :

« أولا » أن الحقيقة المجردة من عمل العقل

« ثانيا » ان النظرية العلمية لا تصح الا بالتجريد

« ثالثا » ان قدرة العقل على استنباط هذه الحقائق لا تستمد من الحاجات ، لان أقدر العقول على استنباطها لا يكون على الدوام اشد العقول شعورا بالحاجات وتهافتا عليها ، وقد يكون اشد المحتاجين اليها اعجزهم عن استنباط الحقائق وادراك العلوم

اذا قال قائل : ان العقل هبة من السماء ركبت في الجسد لتهديه الى حقائق المادة .. فما الذي يلزمه أن يقوله دعاة المادية بعد طول العناء ؟

وننتقل من الفلسفة كما يعيبها الصاحبان الى الفلسفة التي وضعاها لتكون أول فلسفة صحيحة جاد بها ذهن الانسان ، وتكون كذلك آخر فلسفة يجود بها في تواريخه

المقبلة ، فلا فلسفة بعدها ، ما اضاء النيران ، وتعاقب الملوان !

وتقوم هذه الفلسفة الصحيحة الوحيدة فى حياة النوع الانسانى على جملة أصول يجمعها أصلان أو قاعدتان : القاعدة الاولى هى قاعدة التغير . والقاعدة الثانية هى قاعدة الكميات والكيفيات .

ونعلم من القاعدة الاولى ان التغير سنة المادة الابدية وتنطوى فى قاعدة التغير قاعدة « نفى النفى » (١) وقاعدة التطور المتناقض او التطور بأضداد (٢)

فنحن نعرف الشيء بذاته كما هو ، ونعرفه فى الوقت نفسه بنقيضه الذى يشتمل عليه ، لأنه يحمل فيه نقيضه الذي يغيره ويتغير معه ..

ونعود الى تلخيص المذهب فنذكر أن الشيء يمر فى ثلاثة ادوار : فعل يتلوه نقيض ، ثم يتلوهما معا تركيب يجمع النقيضين . ونضرب لذلك مثلا بالحركة : فالحركة فعل ، والمقاومة نقيضه ، ومن الفعل والمقاومة يتألف التركيب الذى نسميه النظام . ونضرب المثل بالنظام ، فهو فعل ، يتلوه التعديل وهو نقيضه ، ويتألف من الفعل والنقيض مركب هو النظام الجديد

أما قاعدة الكميات والكيفيات ، فمنها نعلم أن الصفات والمزايا والكيفيات تنشأ من الكم والعدد .. فاللون الاحمر كيفية ، ولكنه ينشأ من عدد الذبذبات فى حركة الضوء ، والماء يختلف تبعا لدرجة الحرارة من الجمود الى الغليان ، وتختلف مميزاته على حسب هذه الدرجة مثل اذابة المحلولات وتحليل بعض الاملاح

---

(١) Negation of Negation

(٢) Contradictory Evolution.

ولا جديد فى هاتين القاعدتين جاء به الصاحبان من عندهما الا النتيجة التى ينتهيان اليها من كل راى يبدآنه ويمضيان به الى غايته فى مذهبهما ، وهى حصر تاريخ الانسان المقبل فى مصير واحد لا يتقبل التعديل وهو مصير النقمة والخراب

فقديما كان « هيرقليطس » (٥٣٦ ـ ٤٧٠ ق. م) يقول : انت لا تستطيع أن تضع قدميك فى نهر واحد لانه يتغير فى كل لحظة كما يتغير كل موجود فلا تبقى له من حقيقة دائمة الا انه لا يدوم ..

وقديما كان أصحاب العناصر الاربعة والطبائع الاربع يقررون انها لا تزال فى تنافر وتوافق تقوم عليها صحة الابدان أو اعتدال الاحوال

وقديما كان « الاثنينية » يقولون بالخير والشر وأن آله الشر « أهريمان » نجم من فكرة فاسدة خطرت فى بال اله الخير « أو رمزد » فانقسم بينهما كل كائن من الاحياء والجمادات

وقديما قال القائلون بالسعود والنحوس وبالموافقات والعكوس .. وحديثا قيل بالموجب والسالب ، وقال « هيجل » بالاضداد التى اقتبسها الصاحبان وعدلا بها عن معناها عنده الى المعنى الذى أراداه

ولم يقع فى خلد أحد أن الكون كله جسم واحد متحد الصفات معدوم الاشياء أو معدوم الفروق بين الاشياء . ولن يقع فى خلد أحد انه يتركب من أشياء لا عداد لها الا فهم من ذلك بداهة أن هذه الاشياء على اختلاف ، وليست معدومة الفروق والملامح والشيات

ومن سلامة الراى أن تلاحظ هذه الفروق والنقائض ، ولا يزاد عليها الحتم القاطع الا فى الامور المحدودة التى

يحكمها قانون مقيس بتفصيلاته كقانون الحركة(١) تنفصل به الحقائق عن المجازات والتشبيهات

فالاضداد كما يقول بها الماديون في مذهبهم تشبيهات مجازية ، تستطيع أن تطبقها على طريقتهم وتصل بها الى اثبات الحياة الاخروية التى ينكرونها أشد الانكار ...

فالحياة الدنيوية — مثلا — فعل ، والموت نقيضه الذى يتلوه ، ويتألف من الفعل ونقيضه تركيب هو الحياة الباقية ..

أو نقول مثلا : ان الشيوعية فعل ، والفوضوية نقيضه، والديموقراطية التى لا هى بالشيوعية ولا بالفوضوية هى التركيب المؤتلف من الفعل والنقيض.

وانظر مثلا الى صعوبة البت في هذه التشبيهات المجازية بين أقطاب المذهب من تلاميذ «كارل ماركس» من طبقة « بوخارين » و « لينين » .. فهل « الضدية » عداء بين الاضداد أو مجرد اختلاف ؟

ان «بوخارين» يقول انها عداء و « لينين » يقول فى رده عليه انها ليست بالعداء ولكنها مناقضة .. ومن أجل تخطئة « بوخارين » ينسى ان المذهب كله قائم على صراع الحياة والموت بين الاضداد

وانظر مرة أخرى الى الخلاف على تركيب الشيء ونقيضه ، هل يكون هذا التركيب اتحادا أو يكون ضربا من التوفيق ؟.. « لنين » يقول فى رده على المنشفية : انه اتحاد ، وهم يقولون : انه توفيق !

أفهذه هى الفروق التى يقيمونها كالصراط بين الجنة والنار وبين الناجحين من أهل الصدق والهالكين من أهل البهتان ؟ ..

---

(١) Dynamics

وأهزل من هذه الحدود الهزيلة توكيدهم بقيام الكيفيات كلها على الكميات ، فقد يحدث فى طفرة النباتات أن تتجمع بعض التغييرات ثم تتحول فجأة الى صفة جديدة ، ولا مزيد على هذه الملاحظة فى علم صحيح

اما القول بأن الكيفيات والصفات جميعا كانت من قبل كميات ومقادير عددية ، فليس له دليل بل يقوم على نقضه أقوى دليل .. هل مائة الف شكل دميم يتألف منها شكل واحد جميل ؟ .. هل اللون الاحمر حقا كيفية أو هو فى الحقيقة صورة الذبذبات كما تراها عين الناظر اليها ، وما هو الحد الحاسم المصحح للحكم فى هذا الاختلاف بين ما هو مزية وما هو كثرة عددية ؟ .. ان كان هناك حد حاسم فهو لايعدو أساليب الاصطلاح على الاسماء والرموز

ولا ندرى ما هى كرامة الفكر عند انسان يحرمون عليه أن يخرج على رأى من الآراء ، بالغا ما بلغ من وضوح القواعد واستقرار الاصول والفروع ، فأما تحريم الخروج على أمثال هذه الرموز او الالغاز التى تتضارب فيها معانى الكلمات هذا التضارب فهو اعنات للفكر أشد عليه من اهدار الكرامة والاحتقار .. لانه يسومه أن يلتزم الحدود حيث لا حدود ، وأن يؤيد الرأى حيث لا يدرى أحد على التحقيق ــ ولا على الظن ــ أين ينتهى التأييد بعد وأين تبدأ المخالفة

وهذه الالغاز المتضاربة هى التى حرمت الهيئات الرسمية الشيوعية مخالفتها على العلماء يوم وجدت للمذهب هيئات رسمية تملك التحريم والتحليل

ففى كتاب « المادية والنقد التجريبى » (١) يسرد «لينين» قواعد البحث التى ينبغى ان يجرى عليها العلماء

(١ Materialism and Empiriocriticism

ولا يخالفوها . وفى سنة ١٩٣٢ قرر مؤتمر الاتحاد العام للعلماء « ان علم الناسلات (١) وتربية النبات يجب ان يطابق المادية الماركسية » (٢)

وقد عوقب بالنفى والاعتقال - أو التصفية - رهط من العلماء لوحظ عليهم أن بحوثهم لاتؤدى الى النتيجة التى يفترضها هذا القرار ، ومن هؤلاء العلماء « شتفريكوف » و « فيرى » و « افرويمسون » و « ليفتسكى » و « أجول » (٣)

وفى سنة ١٩٤٨ أصدر العالم المعتمد فى تجارب الناسلات « ليسنكو » تقريره الرسمى ، وفيه تعهد صريح بأن يدحض الباحثون التابعون لاتحاد العلماء كل فكرة تخالف مذهب « ميشورين » الروسى صاحب القول الفصل فى مسائل الوراثة

وليس هنا مجال الخوض فى شروح الخلاف بين مذهب « ميشورين » والمذاهب التى ينعتونها بالبرجوازية ويقولون: انها من دسائس المجتمع القائم على رأس المال ، فحسبنا أن نجمل هذا الخلاف بما يكفى لبيان الفارق الذى يقف فيه أناس على ضفة النجاة ويقف فيه أناس آخرون على شفير هار من النار

فالمذهب الحديث فى الوراثة يرجع الى تجارب «مندل» الذى يرى أن الصفات المكتسبة أو الطارئة لا تورث الا اذا تأثرت بها البنية بعد تكرار طويل ، وأن التغير قد يتتابع على البنية ثم يظهر أثره فجأة فيما يسمى بالطفرة

---

(١) Genetics

(٢) صفحة ٩٨ من كتاب العالم فى روسيا تأليف آشبى
Scientist in Russia by Eric Ashby

(٣) كتاب الناسلات السوفييتية والعلم العالمى تأليف هكسلى
Soviet Genetics and World Science by Julian Huxely

أو الانتقال المفاجىء (١) وان تغيير النباتات ممكن بطريق اللقاح والتطعيم فى أحوال معينة لم تشمل تجاربها جميع النبات

أما مذهب « ميشورين » الروسى فهو انكار الخصائص الثابتة فى الوراثة ورد جميع الخصائص الى فعل الوسط والبيئة، ومن قال بغير ذلك فهو متهم فى اخلاصه لانه يقرر شيئا قد يلقى الشك على قواعد المادية الماركسية التى تقول بالتغيير الشامل فى كل موجود ، والتى لخصها « انجلز » اذ يقول : « ان كل كائن عضوى فى كل لحظة هو ذاته وغير ذاته فى وقت واحد ، اذ فى كل لحظة تموت خلايا فى جسمه وتتألف خلايا جديدة . وبعد فترة من الزمن تطول أو تقصر تتغير مادة جسمه كل التغير ، ومن ثم يكون كل كائن عضوى فى كل لحظة هو ذاته وغير ذاته . . الخ الخ »

وموضع الصعوبة على العقل فى التقيد بهذا المذهب أنه لا ينكر الثبات فى تكوين الاحياء ولا يقول : انها تتبدل فى كل لحظة كل التبدل ، فاذا جاز أن يدان العالم لانه يقرر الثبات فى خصائص الوراثة ، فيجوز أن يدان كذلك لانه ينكر الثبات على حسب المصادفات . . لان المسألة تتعلق بالوقت الذى يطول فيه الثبات أو يقصر ، ولا يوجد المقياس الذى يقدر طول زمنه تقديرا محكما فى كل بنية حية أو فى النباتات التى تأتى فيها التجربة بأسرع النتائج بالنسبة الى الحيوان

وأنكأ ما فى الامر أن الكلمة الفاصلة فى العلم على لسان رجل لا يفقه كثيرا ولا قليلا فى علم الناسلات . قال الدكتور « هارلاند » العالم البيولوجى الكبير : « ذهبنا فى أوديسه لمقابلة شاب يسمى « تروفيم ليسنكو » قال لنا

---

(١) Mutation

الدكتور « فافيلوف » انه يجرى التجارب فى الحبوب لتعجيل نموها وتوفير محصولها ، فحادثته ساعات ثلاثا فوجدته على جهل مطبق بأبسط مبادىء الناسلات وتشريح النبات (١) »

ولا يطعن فى الدكتور « هارلاند » بعداوة الشيوعية لانه هو والاستاذ « هلدان » معدودان من علماء الانجليز المتعاونين مع المراجع الروسية

ولقد دامت هذه المعركة ـ التى لا موجب فيها للعراك ـ زهاء عشرين سنة ، ذهب فيها من ذهب من العلماء ضحية للخلاف على معانى الالغاز والرموز ، ثم ثبت أن النظريات التى يقال : ان الفرق بينها وبين العلم البرجوازى ـ كالفرق بين الامانة والخيانة وبين صدق النية والتدليس ـ لم تأت بثمرة واحدة لا تستفاد من التجارب البرجوازية وأن العلماء المجندين للحملة على العلم البرجوازى لم يجسروا على مخالفة قاعدة واحدة من القواعد التى يجرى عليها ذلك العلم البرجوازى فى الصناعات الآلية أو صناعات البناء والملاحة والكيمياء وفنون النسيج والتعدين وما اليها ، لان التهريج فى هذه القواعد غير مأمون العاقبة على المهرجين ، وغير المهرجين فى حل الرموز وتفسير الالغاز

ونرجع الى مصدر العلوم جميعا فى المذهب المادى ، وهو الحاجة على حسب اختلاف المجتمعات ، فنلمس الاكذوبة كأضخم ما تكون الاكاذيب الملموسة اذ نعلم ان الحاجة فى المجتمع الشيوعى لم تعطه شيئا من العلوم يناقض ما أعطت فى المجتمعات البرجوازية ، وان اختلاس الاسرار العلمية من المجتمع المغضوب عليه هو السر الاكبر الذى أسفر عنه تطبيق المذهب فى المجتمع المثالى ثلاثين سنة

---

(١) كتاب روسيا تدير الساعة الى الوراء : تأليف لانجدون دافيز
Russia Puts the Clock Back by Langdon Davies

الأوطان والديانات

الأوطان والديانات

والوطنية والدين أحبولة اخرى من احابيل الاستغلال ، ولا مصدر لهما غير الوسائل الاقتصادية ـ أو وسائل الانتاج ـ التي تستولى عليها طبقة بعد طبقة ، ثم تزولان بعد زوال الطبقات .. ففى البيان المشترك يقول الصاحبان: ان الشيوعيين يخالفون هيئات العمال الاخرى بما يأتى فقط :

« أولا » انهم فى المعارك الوطنية التى يشترك فيها الصعاليك ـ البرولتارية ـ بين البلاد المختلفة يبرزون علانية وينبهون الى مصلحة الصعاليك العامة جملة واحدة بمعزل عن القوميات جميعا .

« ثانيا » وانهم خلال التطورات التى تمر بها حركات العمال ضد البرجوازيين يمثلون على الدوام ، وفى كل مكان ، تلك الحركات فى مجموعها .

وفى ذلك البيان يقولان:«ان العمال لا وطن لهم ، واننا لا نستطيع ان نأخذ منهم ما ليس لهم » .

اما الدين فرأى الماديين فيه تلخصه الكلمة المشهورة فى مقالة « كارل ماركس » عن « هيجل » : « انه نفثة المخلوق المضطهد ، وشعوره بالدنيا التى لا قلب لها .. انه أفيون الشعوب » .. ومثلها كلمة فى حرب الطبقات بفرنسا اذ يقول : « انه الافيون الذى يخدر الشعب

لتسهل سرقته » .. « وان الدين كان وسيلة الاخضاع الروحى كما كانت الدولة وسيلة الاخضاع الاقتصادى » .. وهو رأيه الذى أكده فى كلامه عن حروب فرنسا الداخلية

ويتفق « ماركس » و (انجلز) على أن الدين كما قال « انجلز» فى الرد على (دهرنج)

« ينشأ قبل أن تنهج الوسائل التى يكسب بها الانسان معيشته، وان الانسان يواجه الطبيعة مباشرة فى تلك الحالة فتقف أمامه الطبيعة قوة غلابة غامضة يعبد منها مالا يدركه .. وما الدين الا انعكاس القوى الظاهرية التى تسيطر على معيشته اليومية »

ويقول « ماركس » : « ان المسيحية تقرظ الجبن واحتقار النفس والاذلال ، وتحبذ الخضوع والخسة وكل صفات الكلب الطريد »

« وان أصحاب المصالح قد استغلوا المسيحية كلما وجدوا لهم مصلحة فى استغلالها ، فجعلوها دين الدولة بعد قرنين ونصف قرن من ظهورها ، وجاء البرجوازيون فى ألمانيا فأبدعوا البروتستانتية ولم يستفيدوا منها لضعفهم فاستفاد منها الملوك المطلقون لانها رفعت عنهم سلطان الكنيسة

« والدين — جملة — هو الغذاء الخادع للضعفاء ، لانه يدعوهم الى احتمال المظالم ولا يزيلها »

***

ذلك هو لباب الفكرة الماركسية عن أصل الوطن والدين ، ولهم فى كل فكرة من هذا القبيل تتمة يلحقونها بها مؤداها ان العقيدة الوطنية أو الدينية تنشىء لها «تركيبة عليا» (١) من الشعائر والمراسم تعمل فى الظاهر مستقلة عن وسائل الانتاج ، ولكنها مشتقة منها متوقفة عليها

ودينهم المفهوم فى تعليل جميع العقائد الوطنية أو الدينية أنهم متى وصلوا الى وسائل الانتاج أخذوا كل

---

(١) Superstructure

حالة اقتصادية تصادفهم فجعلوها سببا للعقيدة التى تعاصرها . وقلما يعنيهم ان يذكروا ان النظم الاقتصادية متكررة مشتركة بين جميع الامم منذ عصر الرق الى عصر البرجوازية ثم الصناعة الكبرى ، فكيف يشترك النظام الواحد فى تعليل الوطنية التى تعلم الناس الكفاح والانفة وتعليل الدين الذى يقولون انه يعلمهم الجبن والضعة والاستكانة ! وكيف نعلل بنظام الرق مثلا ديانة توصى باحراق الجسد وديانة توصى بتحنيطه وتخليده فى الحياة الدنيا وفيما بعدها ؟ وكيف يسفر الرق فى اسبرطة عن الجندية والقانون ويسفر فى أثينا عن الحكمة والادب والفن الجميل ؟ ...

وقبل الوطنية كيف نشأت العنصرية وهى تشبهها فى نخوة النسب وصيانة الحوزة وقد تزيد عليها بوحدة اللغة ووحدة العرف والتراث ؟ هل هى أحبولة قديمة بليت فى أيدى الطبيعة فنبذتها واخترعت الوطنية لتكون احبولة جديدة تحل فى محلها؟وهل استقام التاريخ على سنة النصب والاحتيال فليس فيه من النظم والعلاقات الا الشرك القديم ينبذه ويحفر بعده موضعا خفيا للشرك الجديد ؟

***

اندعاة الشيوعية شاهد قوى علىصحة قول القائلينان ملكة الخيال وملكة الفكاهة ضروريتان للبحث الفكرى كضرورة الفهم والمنطق والدراية . فقد كان « ماركس » « وانجلز » وأتباعهما على فقر شديد فى كلتا الملكتين ، ولم يكن لاحدهم نصيب من ملكة الفكاهة ولا من ملكة الخيال ، ولولا ذلك لادركا الصورة المضحكة التىيصوران بها النواميس الكونية وهى تعمل فى المجتمع البشرى ،

فكان لهما من تلك الصورة المضحكة تنبيه يدعوهما الى المراجعة والجد فى فهم مسائل الكون ومسائل الاجتماع

أى صورة للنواميس الكونية فى المجتمع البشرى يتصورها من يلم بمذهب الشيوعيين فى تفسير التاريخ ؟.

انه يتصور ان هذه النواميس الكونية خلعت ملابس الشغل الشريف وتسلمت التاريخ البشرى فى زى جديد، هو زى النصاب المحتال الذى لا يفرغ من خدعة الا ليحتال على خدعة غيرها .. ولا يزال فى عملية مستمرة من الخداع والتضليل يموه الحيل والاباطيل بمظاهر التقدم والحضارة ، ويسعده الحظ بالغفلة بعد الغفلة فى عقول الناس حتى يخذله الحظ فى سهوة من سهواته ، فيظهر له الشاطر « كارل ماركس » من زاوية من الزوايا لم تكن فى الحسبان ويكشف عن زغله للعيان من الآن الى آخر الزمان ..

صورة مضحكة زرية ..

وليس المطلوب من « كارل ماركس » واتباعه ان يبنوا مذهبهم على الخيال والفكاهة وكفى ، ولكن المطلوب منهم ان يدركوا الصورة المضحكة الزرية فينتبهوا الى الخطأ وينتفعوا بهذا التنبه فى معاودة البحث واجتناب الهزل والزراية فى تصوير النواميس الكونية ، وهى اكبر مايتناوله العقل الانسانى بالتصوير

ولو قد تنبها لادركا حكمة الخلق التى لا تدارى نفسها عن أحد يريد ان يبصرها ، فانها أقرب من تلك اللغة الطويلة وراء عمليات النصب .. وراء كل سر من أسرار تاريخ الانسان

ان الوطنية ليست بحيلة من حيل الانتاج لانها خليفة العنصرية وشبيهتها فى ظواهرها وبواطنها ، وليست هى

ـ اى العنصرية ـ من حيلة أحد يقصدها أو لا يقصدها لانها علاقة الدم والقرابة التى لا اختيار فيها لخادع أو لمخدوع ، وليس اهزل من مفكر يعمد الى شعور عام بين الناس على اختلاف أرزاقهم ومواردهم فيزعم انه حيلة من مخدوعين يحتالون بها على مخدوعين آخرين . وما كان شعور الوطنية أو العنصرية فى أمة من الامم وقفا على طائفة أو طبقة أو صناعة او هيئة اجتماعية دون هيئة أخرى فيقال انه من اخاديع فريق للعبث بفريق

أقرب من هذا التفتيش الدائب على عمليات النصب والاحتيال وراء كل سر من أسرار التاريخ ، ان ننظر الى حكمة الخلق فى كل بنية حية وكل كيان اجتماعى أو عضوى ، فنرى هنالك ان حكمة الخلق تودع فى كل فرد ايمانا قويا بخدمته لمصلحته حين يعمل فى خدمة الجماعة أو البيئة التى ينتمى اليها ، واقوى ما يكون ذلك فى خدمة النوع أو خدمة البيئة الحية ، ولو كان خدامها من الاعضاء التى لا عقل لها ولا ارادة .. من الذى يخدع اليد فيرفعها الى الرأس لتتلقى الضربة التى توشك ان تحطمه ؟

من الذى يخدع الخلايا فى باطن الجسد فيدفعها الى التجمع لوقاية البنية كلها من فتك الجراثيم ؟

من الذى يخدع الفرد فيشيع فى بنيته السرور بحفظ النوع ويشيع فى بنيته الصبر على مضانك الحمل والرضاعة والتربية ؟

هذه هى حكمة الخلق فى شعور الفرد بمصلحة الجماعة وشعور الجزء بمصلحة سائر الاجزاء .. هذه هى الحكمة التى تخلق لكل بنية اجتماعية ضربا من « الانانية » الكبرى تقترن بالانانية الفردية لتعمل فى خدمة الجماعة كما تعمل فى خدمة الفرد على حدة ..

فكلما وجدت جماعة من الخلق وجدت معها «شخصية» أو أنانية كبيرة تصونها وتوكلها بالحفاظ على نفسها ، كما توجد « الانانية » فى كل مخلوق لحماية نفسه ومقاومة العوامل التى تنازعه البقاء من حوله ..

سنة الخلق فى خلايا البنية ، سنة الخلق فى أفراد النوع ، سنة الخلق فى آحاد القبيلة او العنصر او الوحدة الوطنية ، سنة قريبة جد قريبة لمن يشاء ان يبصرها حيث استدار بنظره اليها ، ولكنها بعيدة جد بعيدة عمن ينظر الى كل وجهة فيأبى ان يرى شيئا غير النصب والاحتيال فى قواميس الكون وقوانين الاجتماع وأسرار التاريخ

***

ان الجماعات البشرية لم تخل قط من شعور كشعور الوطنية منذ عهد القبيلة الاولى .. ونحن نعرف شعور المصرى الذى كان يؤمن بمقام المصرى فى المرتبة الاولى بين مراتب الاجناس البشرية ، ونعرف شعور العربى الذى كان يفخر على الاعاجم ويصف بالاعجمية كل من لا يتكلم العربية ، ونعرف شعور اليونانى الذى كان يطلق وصف البربرية على كل أمة لا تنتسب الى القبائل اليونانية ، ونعرف فخر الرومانى بالمدينة الخالدة واعتباره النسبة اليها ذروة المرتقى فى الشرف والكرامة . وهذا الشعور فى كل جماعة من هذه الجماعات هو الحافز الذى كان ينهض بكل فرد للدفاع عن « شخصيته الكبرى » التى ركبت فى طبعه الى جانب الشخصية الفردية ، وما كان هذا الشعور بدعة فى طبائع الجماعات والكائنات العضوية ، فاننا نرى أصوله عميقة مكينة فى غريزة النوع وفى تركيب الخلايا الجسدية وتركيب الاعضاء التى تتحرك لدفع الخطر عن البنية كلها ولو أصيبت بأخطر ما يصاب به

العضو على انفراده . . وما اقرب هذا التفسير لمن يبحث عن التفسير ! ومابعده عمن يبحث عن «عملية النصب والاحتيال» وراء نواميس الكون وصروف المقادير !

***

أما الدين فلو كان لـ «كارل ماركس» نصيب من خيال التشبيه لما خطر له أن يشبهه بشيء من المخدرات أو المسكرات ، اذ كانت الاديان جميعا تقوم على الايمان بالجزاء والثواب والعقاب ، وتعلم المتدين أن يحاسب نفسه على تبعات أعماله لانه محاسب عليها فى السر وفى العلانية ، وتغرس فى نفسه عادة الاحترام والتقديس وتحذره القحة وسوء الادب . وهذه العقائد كلها هى وحالة السكر نقيضان لا يجتمعان ، وأول ما يسقطه السكر عن المخمور أو المخدر شعوره بالتبعة وشعوره بالاحترام ، فلا يبالى عاقبة عمله ويتطاول على العظماء فى نظره ، وتكاد تكون الكلمة الاولى على لسان كل سكران : أنا لا يهمنى شيء . . أنا لا أبالى بانسان !

ومن عجز الخيال ان يختار « ماركس » للدين تشبيها لايصدق على عقيدة قط كما يصدق على عقيدة الشيوعية ، لان الشيوعية تروج بين الذين يسقطون التبعة عن انفسهم ويلقون أوزار الجرائم والرذائل على المجتمع ، وتمهد العذر للسراق والجناة والمنافقين بما تتهم به المجتمع من الرياء والظلم وسوء التصريف والتدبير ، وتعطى كل من يشتهى التطاول حجة للتطاول على المحسودين أو للتطاول على ما يشاء من الحرمات والمقدسات . وما من سبب يغرى بتعاطى المخدرات والمسكرات الا كان من المغريات بالشيوعية على حد سواء ، فحيث توجد الاسباب للاقبال على السكر توجد الاسباب للايمان بالشيوعية على السواء

ومن عجز الشعور ـ لا من عجز الخيال وحسب ـ أن يسوى الماركسيون بين الفرائض العامة التى يدين بها المرء فى حياته الاجتماعية ، ولا مساواة بينها فى الحس ولا فى الفكر ولا فيما يقصده من معناها

من عجز الشعور ان يسوى الماركسيون بين فرائض العرف والعادة وفرائض القانون وفرائض الاخلاق وفرائض الدين ، وما من فريضة من هذه الفرائض تقع فى النفس موقع الفرائض الاخرى أو تنبعث فى أعماق الضمير من حيث تنبعث الاخرى

من عجز الشعور أن يقال : ان هذه الفرائض المتعددة تصدر من اسباب اجتماعية أو نفسية واحدة ، اذ لامعنى لتكرار هذه الفرائض فى كل امة لتقوم بغرض واحد وتخرج من مصدر واحد ولو حدث هذا اتفاقا فى بيئة واحدة لامكنت نسبته الى المصادفات أو الفلتات التى لا يقاس عليها ، ولكن فرائض العرف وفرائض القانون وفرائض الاخلاق وفرائض الدين تتكرر فى كل بيئة ولاتغنى احداها عن سائرها

فالانسان يتبع العادة اتباعا آليا يكاد يخرج من عداد الاعمال الارادية ، ويقال عن العمل انه جرى بحكم العادة ليقال انه غير مقصود وانه لم يصدر عن روية وتقدير . ويصح ان ترجع العادات فى جملتها الى التقليد المرعى فى البيئة الاجتماعية المحدودة ، وان ضاق نطاقها كما يلاحظ فى العادات التى تختلف بين اقليم واقليم وبين قرية وقرية

وفرائض القانون يتبعها الانسان بمشيئته ، ويروغ منها احيانا اذا استطاع لانها تفرض عليه برأى «السلطة» ولا يؤمن بصحتها أو انصافها فى جميع الاحوال

وفرائض الاخلاق يتبعها الانسان ويخجل من مخالفتها

لانها فى الغالب منوطة بكرامته الانسانية التى تعم كثيرا من الامم والبيئات ، ولا يحس انها صادرة من السلطة أو انها مقيدة بعشيرة واحدة .. ولا نحسبها كانت على غير هذه الصفة حتى فى الازمنة الاولى التى كان وازع الاخلاق فيها مقصورا على عشيرة واحدة غير ملزم لابنائها فى معاملتهم للعشائر الاخرى . فهذه العشائر الاولى أيضا كانت تؤمن بأن الاخلاق من كرامة الانسانية ، ولكنها كانت ترى ان الانسانية المثلى صفة من صفاتها دون سواها ، وأن العشائر الاخرى لا تستحق رعاية الاخلاق لانها لا تستحق كرامة الانسان

هذه الفرائض يمكن ان يقال : انها من وحى البيئة المحدودة أو أنها من وحى الامة والدولة أو انها من وحى الانسانية فى بيئاتها المختلفة .. وكل هذا لا يمكن ان يقال عن الدين فيحيط به ويستغرقه ويفسر جميع بواعثه وأسراره فى المجتمع أو فى الضمير ..

انما يفسره بعض التفسير انه يقوم على علاقة الانسان بالكون كله لا بالنوع الانسانى ولا بالامة أو البيئة الخاصة ، وأنه يلتمسه لانه يلتمس معنى حياته ومعنى الوجود الظاهر له والمغيب عن حسه وعقله ، وقد يناقض الاعتقاد الدينى فى بعض الملل غريزة البقاء فى نوع الانسان ، وقد يثير المتدين على قومه وعلى عشيرته الاقربين ، وقد يوقع فى روعه ان الخلاص فى الخروج على وحى العرف المحدود ، ووحى القانون ، ووحى الاخلاق ، المصطلح عليها ..

ومن الجهل بطبيعة الشعور الانسانى أن يقع فى الظن أن صاحب الثروة يستغنى عن هذا الشعور الدينى ، ويستغنى عن فهم معنى حياته ومعنى الوجود المحيط

به ولا يحتاج الى الدين الا ليضلل به المحرومين ويستعين به على الكسب والاستغلال

وأجهل من ذلك ان يقال : ان الانســـان يتدين لانه ضعيف بين نواميس الكون وقوى الوجود .. فهـــذا كلام من قبيل تحصيل الحاصل لانه يمنع تفسير الدين على وضع من الاوضاع ، فلن يكون الانسان على حال من الاحوال الا ضعيفا بين نواميس الكون وقوى الوجود . فكيف ندرك الحقيقة اذن فى حقيقة الدين ؟ هل نرجعها الى اليوم الذى تنقلب فيه الآية ، فيصبح الكون اضعف من الانسان او يصبح الكون مهملا فى نظره لا ينطوى على سر من الاسرار

على ان الضعف الانسانى لا يصلح للاحاطة بتفســـير الدين الا اذا كان الضعف اغلب الصفات على أصـــحاب الضمائر الدينية ، وليس هذا من الحقائق التى تؤيدها المشاهدة والتجربة ، لانه يناقض المشاهدة والتجـــربة فى كثير من الاحوال ، فلا يكون الدعاة الدينيون الا من أقوى الاقوياء وأعظمهم نفوسا وأقدرهم على الارادة والمضاء

***

وسائل انتاج .. وسائل انتاج .. لا شىء ولا أول ولا آخر غير وسائل الانتاج .. دين ، وطنية ، علم ، فلسفة ، أدب ، فن ، اخلاق ، أسرة ، زواج ، رهبانية .. كل هذا تبحث عنه فى وسائل الانتاج ولا تبحث بعده عن شىء غير وسائل الانتاج

ان الرجل الذى يفسر جميع الامور بارادة الله مفهوم من الوجهة العلمية لانه يؤمن بأن الله هو السبب الاول لجميع الاسباب ، ولا مناقضة للعلم فى الرجوع بالاسباب طرا الى أصلها الاصيل

أما الذى لا نفهمه من الوجهة العلمية ، فهو وسائل الانتاج التى لا تفسر لنا شيئا لانها تفسر كل شيء بلا استثناء .. ولو كان من شأنها أن تفسر كل ما تدعى تفسيره لوقفت بنا فى منتصف الطريق حين تقول لنا مرة ان وسائل الانتاج هى التى تنشيء الطبقة ، وتقول لنا مرة أخرى أن الطبقة هى التى تنشيء وسائل الانتاج ، وتقول لنا فى جميع المرات ان علاقات الانتاج هى المهمة وليست هى الآلات والمخترعات والموارد والنفقات

***

وانه لمن المألوف قديما وحديثا أن نسمع أن الاغنياء يستمتعون بمحاسن الطبيعة ، وجمال النساء ، ونفائس الجوهر ، لانهم يملكون المال الذى يشارفون به بهجةالربيع ومناظرالاودية والبحار ويغرون بهالمرأة ويقتنون به ذخائر الاحجار الكريمة .. الا انه من السخف ـ أهزل السخف ـ أن يقول قائل من أجل ذلك ان أصحاب الثروة هم الذين خلقوا الربيع ، وخلقوا جمال المرأة ، وخلقوا كنوز المناجم والبحار ، لانهم يملكون المال أو يملكون وسائل الانتاج .. والله لاسخف من ذلك ان يقول قائل : انهم خلقوا الاديان والعقائد فى المجتمعات لانهم يشترون ضمائر الادعياء من المتدينين .. فان محاسن الطبيعة والنساء لا تنكر الثروات الضخام ولا تحيطها بالريبة والوعيد ، ولكن الاديان جميعا تنحى على جشع الثروة وتستريب بمن يجمع منها مالا طاقة له بتحصيله بوسائل الربح الحلال ، وهذه هى الاديان الكتابية الثلاث تسمعنا نعوتا للثروات الضخام وأحكاما على أصحابها أقل ما يقال فيها انها ليست من أقوال المحاباة والاستحسان

فشريعة موسى عليه السلام قد شرعت لقوم من أحب خلق الله للمادة ومتاعها فحرمت عليهم الربا والرهن ،

وجاء في سفر الخروج من العهد القديم الذى يدينون به :

« ان أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى ولا تضعوا عليه ربا . وان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده له لأنه هو وحده غطاؤه » وتكرر هذا فى سفر اللاويين. حيث يقول الاصحاح الخامس والثلاثون : « واذا افتقر اخوك وقصرت يداه عندك فأعضده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك . لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة بل اخش الهك فيعيش أخوك معك » ... وسبق هذا التحذير تحذير من الاستئثار بما يشتريه صاحب المال ، فجاء فى الاصحاح الخامس والعشرين « أن الأرض لا تباع بتة لان لى الارض وانتم غرباء ونزلاء عندى .. بل فى كل ارض ملككم تجعلون فكاكا للأرض .. اذا افتقر أخوك باع من ملكه يأتى وليه الأقرب اليه ويفك مبيع أخيه ، ومن لم يكن له ولى فان نالت يده ووجد مقدار فكاكه يحسب سنى بيعه ويرد الفاضل للانسان الذى باع »

وفى سفر أشعيا نذير بالويل لمن يجمعون المال والعقار « فالويل للذين يصلون بيتا ببيت وحقلا بحقل (١) » .... « ومن انفق نفسه للجائع واشبع الذليل أشرق فى الظلمة نوره واصبح كالظهر خلا من الدامس (٢) »

ويعقب المعقب على هذه الوصايا ـ حقا ـ بان الاخلاف من قوم موسى فهموا منها أنها مشروعة لشعب اسرائيل دون غيره ، أو يعقبون عليها ـ حقا ـ انها لم تسمع ولم يعمل بها او لم يكن العمل بها الا على الرياء والمواربة . فلا هذا ولا ذاك يثبت شيئا مما يقوله الماركسيون عن اصل الاديان ، اذ يزعمون انها من صنع الاغنياء لمحاباتهم وتسويغ سلطانهم .. لان قصور العقائد الدينية كقصور الثروة فى كل زمن عن بلوغ ما تصبو اليه .. فلا رياء الاغنياء للدين بمبطل حقيقة المال ، ولا رياء المتدينين للمال بمبطل حقيقة الدين ، وليس انتفاع الغنى بمداراة العقائد الدينية حجة للقائل بخلق الثروة للعقيدة ، ولا انتفاع المعتقدين بمداراة المال حجة للقائلين بخلق العقيدة للثروة ، وانما يدل هذا

---

(١) الاصحاح الخامس

(٢) الاصحاح الثامن والخمسون

وذاك على حقيقة واحدة : وهى ان وسائل الانسان جميعا لا تبلغ به كل ما يصبو اليه ، وانه لا يعلن كل ما يبطن فى جميع الاعمال والنيات

***

وقد اسلفنا أن الشريعة الموسوية شرعت لقوم من أحب خلق الله للمادة ومتاعهـا ، فلم يكن فيها ما يعزز قول القائلين أن الاغنياء يروجون العقائد فى المجتمع لتسويغ مطامعهم واستباحة ما لا يباح. ثم جاءت المسيحية على اثر الموسوية ، فكانت فى صميمها حملة على الثراء أو ثورة على ملكوت الارض من أجل ملكوت السماء ، وآيتها أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى الى ملكوت السماء ، وادبها بعد ادب السيد المسيح مشروح فى وصية يعقوب من الاصحاح الثانى حيث يقول :

« ان دخل الى مجمعكم رجـل بخواتم الذهب فى لباس بهى ودخل معه فقير بلباس وسخ فنظرتم الى اللابس اللباس البهى وقلتم له : اجلس أنت هنا حسنا . وقلتم للفقير : قف أنت هناك أو اجلس هنـا تحت موطىء قدمى فهل لا ترتابون فى انفسكم وتصيرون قضاة أفكار شريرة ؟.. اسمعوا يا اخوتى الاحباء !.. أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء فى الايمان وورثة الملكوت الذى وعد به الذين يحبونه ؟ أما أنتم فأهنتم الفقير .. أليس الأغنياء يتسلطون عليكم وهم يجرونكم الى المحاكم ؟ »

ان معظم ما وعته الاناجيل الباقية والكتب الملحقة بها يوافق هذه العقيدة وهذا الادب الدينى فى مواجهة الفقر والغنى .. فمن الهذيان الا تعلل الديانة المسيحية فى نشأتها أو فى تطورها الا بالعلة الببغاوية التى يحفظها الماركسيون كلما عللوا الظواهر الاجتماعية ، فردوها جملة واحدة الى خدمة مصالح الاغنياء .. ولو كان أمامنا مائة تعليل لنشأة دين كالدين المسيحى ، لجاز أن يقبلها العقل على علاتها قبل أن يسيغ القـول بأن المسيحية اختراع

الاغنياء لترويض الفقراء ، ولابد أن نبتعد من هذا التعليل مراحل شاسعة حين نعلم أن الغنى المسيحى يؤمن بدينه كما يؤمن به الفقير المسيحى ، ولا يشعر لمحة عين بأنه مذهب مخترع على قصد منه لخداع الفقراء وتسخيرهم فى خدمة دنياه .. ومن خطر له هذا الخاطر من الاغنياء فقد يماثله أناس من الفقراء ينحرفون بهذه المظنة عن الدين كما ينحرف عنه أصحاب الاموال

وليس مما ينقض الرأى الصواب فى نشأة المسيحية ان تراد لمقاومة اغراء المال ثم يستطيع اصحاب المال أن يحتفظوا بالقدرة على الاغراء ، فان المضروب الذى لا يقتله السكين ويلويه على الضارب لا يقال عنه من أجل ذلك انه هو الذى صنع السكين ليضرب به ويلويه على ضاربه ، وما يقوله الماركسيون بهذا المعنى فانما هو أضحوكة لا يقل عن هذا الضرب من الاضاحيك

لا جرم يصطدم الهذيان الماركسى الذى يسمونه علما بالحقائق التاريخية وبالواقع من تجارب الماركسيين فى دولتهم بعد الحرب العالمية ، فيعاد النظر فى تعليل نشأة المسيحية ويتراجع الدعاة شيئا فشيئا عن التفسير الماركسى المحفوظ الى تفسير آخر يحاول اصحابه أن يوفقوا بين التاريخ كما حدث وبين فلسفة التاريخ على مذهبهم ، ويلم بهذا الموقف الجديد « تيماشيف » صاحب كتاب « الدين فى روسيا السوفيتية » اذ يقول فى الفصل الذى كتبه عن السياسة الجديدة : «ان الحزب الشيوعى كان على خطأ فى رأيه عن اصل المسيحية . وكانت هناك نظريتان : احداهما نظرية الاستاذ « ويبر » الذى يقول بأن المسيحية من نشأتها ديانة استغلال ومستغلين ، والاخرى نظرية الاستاذ « كوتزكى » الذى يرى أن المسيحية تخلص من الشقاء وانها فى نشأتها ديانة أرقاء وشوق الى الحرية ..

وعندهم أن المسيحية كسائر الديانات أفيون للشعوب ، ولكن لابد من بيان السبب الذى كفل لها النجاح ، وهذا السبب هو انها حركة دينية جديدة لا تسمح بالتمييز بين الاجناس والاقوام ، وتهيىء الطريق لنظام جديد فى الزواج وتعترف بكرامة الانسان الخالص وبالمساواة بين الناس على تفاوت طبقاتهم .. وقد كانت الثورة على الاحوال الاجتماعية هى قوام الدين بين المسيحيين الاول وكانت جماعاتها الاولى ديمقراطية ، وطرأ على المسيحية بعد ذلك طوارىء شتى لم تزل بعدها محافظة على كرامة المثل الاعلى .. ولا نكران لما قامت به المسيحية من المساعدة على التقدم بالمقابلة بينها وبين الديانات ، فانها جاءت بأفكار جديدة وقواعد يبنى عليها مجتمع جديد

« وبعد أشهر قليلة أقرت جماعة الالحاد المجاهدة مقترحات « رانوفتش » واذاعتها فى منشور موجه الى دعاة الالحاد قالت فيه : « ان المسيحية لا ينبغى أن تجعل كأنها صورة موحدة مع نظام رأس المال ، فان المسيحيين الاول لم يكونوا أغنياء ولم يكن من دأبهم تعظيم الثروة .. »

***

ان بعض هذا الاجتراء على الشك فى « العقيدة » الماركسية ، كان فى السنوات الاولى لقيام الدولة الشيوعية بمثابة جريمة للخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالموت والتشهير .. ولو أن العلماء النظريين الذين فسروا الدين هذا التفسير قد اجترأوا على العقيدة الماركسية هذه الجرأة مبتدئين بالرأى من عند أنفسهم ، لكان أسعدهم حظا من ينفى الى مجاهل سيبريا أو ينبذ من المجتمع ليقضى بقية حياته فى عزلة الخمول .. الا أن العلماء النظريين فى النظام الشيوعى لا يقدرون على مثل هذه الجرأة ، ولا يكون اقدامهم عليها الا دليلا على الايعاز الخفى أو التحول الصريح

فى « تفكير » الدولة برمتها ·· وقد كانت هذه النظريات تنشر ورئيس الدولة « كالينين » يخطب فى مؤتمر المعلمين ليقول :

« ان التعليم بالروح الماركسية ينبغى الا يفهم منذ الآن كأنه تعليم القضايا الماركسية . بل ينبغى أن يراد به بث عاطفة الحب للوطن الاشتراكى وتنمية الصداقة والزمالة والانسانية وفضائل الأمانة والتعاون فى العمل » ... وخطب فى مناسبة أخرى فقال : « ان هدم الدين بغير نظر فيما يخلفه لا يجدى ، وأن « لينين » كان يرى أن المسرح سوف يحل فى المجتمع المقبل محل الدين (١) »

ولما قررت الدولة اجازة يوم رسمى فى الاسبوع ، كان من مقترحات « المؤمنين » أن يختار يوم الاثنين أو الاربعاء أو يوم من الايام غير يوم الاحد فأعرضت الدولة من هذه المقترحات وقررت يوم الاحد دون غيره وعهد الى الاستاذ « نيكولسكى » أن يكتب بحثا فى هذا الموضوع ينشر فى مجلة العصبة لاقناع شبانها بصلاح هذا اليوم دون غيره لاجازة الاسبوع

ولم يحدث هذا التحول منذ عشرين سنه الا بعدحبوط العقيدة الماركسية فى دور التعليم وفى الاندية والمعاهد والمجتمعات التى أقيمت لنشر الالحاد وصرف الناشئة عن التربية الدينية ·· فحرمت الدولة فى السنوات الاولى تعليم الدين للتلاميذ الصغار ، وأوجبت تعليم المذهب الماركسى للطلاب المتقدمين فى الدراسة ، وأرسلت المبشرين الى الاقاليم يسفهون الاديان جميعا وينعتونها بنعوت الجهل والخداع والاستغلال ، وتجسم فى حملات هؤلاء المبشرين غباء الغبى وجحود الجاحد مجتمعين ·· فانه من المفهوم أن يلحد الملحد لانه عرف الدين الذى مرق منه وعرف الالحاد كما تراءى لعقله ·· وأما الالحاد المفروض على من لا يعرفه

---

(١) عدد ١١ ابريل و ١٣ يوليه ١٩٣٩ م من مجلة عصبة الشبان الشيوعيين . Komsomolskaya Pravda

ولا يعرف الدين ، فذلك هو غباء التقليد الاعمى فى الجحود وفى الدين

وقد كان دعاة الالحاد ممن جمعوا الغباوتين فتدينوا وهم يجهلون ، وألحدوا وهم لا يعلمون ، وروت صحيفة «العصبة الملحدة » فى عددها الثانى سنة ١٩٣٩ أن مبشرا « الحاديا » القى محاضرة على جماعة من الكيميين فخلط بين الترك والايرانيين ، وعقد المقارنة بين المسيحية والملة الكاثوليكية الرومانية كأنهما ديانتان منفصلتان ، وعقبت الصحيفة على ذلك محذرة من اختيـــار هؤلاء المبشرين من زمرة الاميين وأشباه الاميين • وقـــد نشرت « صحيفة المعلمين » ، فى عددها الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٨ أن التلاميذ الذين أبعدوا كل الابعاد من تعليم الكنيسة هم أشد تلاميذهم تعلقا بالتمائم والتعاويذ ، وأكثرهم اقتناء للاحجبة والرقى التى يتوسلون بها الى النجاح • وقالت صحيفة « برافدا » فى عددها العشرين من أغسطس سنة ١٩٣٩ أن بعضهم يحسب أن الجيل الجديد يرفض الخرافات وهو فى الـواقع يتعلق بها ويصـــدقها ، وقالت صحيفة « المعلمين » التى سبقت الاشارة اليها فى أعداد متفرقة فى سنة ١٩٣٧ الى سنة ١٩٣٩ أن الشبان يحتالون بالتمائم لاستهواء قلوب معشوقاتهم ، وأن عاملا كتب الى الصحيفة يسألها أن ترشده الى « ساحر » أمين يستشيره فيما يعنيه

***

وعلى هذا النحو حـــار دليل الوحى الماركسى عند أول موضع قدم ، وضلت العقيدة الراسخة الخـــالدة قبل أن تفارق باب المحراب •• وهى هى العقيدة الراسخة الخالدة التى لا يجوز أن تتزعزع ، ولا يسمح لعقيدة أو فكرة غيرها أن تفسر شيئا من أسرار الماضى وخبايا المستقبل فى مسائل الدين على الخصوص •• واضطر سدنة المحراب أن يخرجوا

للوحي المنزل ترجمة بعد ترجمة ليصححوا خطأه لا ليهتدوا بهديه في مسالك الغيب المحجوب ، ووجب عليهم أن يفسحوا الطريق : للديانة التي سموها أفيون الشعوب وقالوا عنها أنها وضعت لتخدير المساكين وترويض المتمردين . . فاذا هي على الطرف الآخر ثورة جائحة من المساكين والمتمردين على طغيان أصحاب الاموال والعروش

ومن سخرية القدر أن تبتلي العقيدة الماركسية بالتحريف والتبديل في بضع سنوات ، فلا تدرى كيف تعلل ما أصابها كما عللت ما أصاب جميع المبادىء التي انحرفت عن سوائها بعلتها الوحيدة التي لا تدرى علة سواها ، وهي أن المجتمع يسخر المبادىء ويطوعها لخدمة رءوس المال كي يستديم لها الربح الفائض والسيادة الغالبة . . فاذا لم يكن هناك استغلال ورءوس أموال ، فلا موضع لتحريف المبادىء عن سوائها ولا متسع في العقل والضمير لغير الفلسفة الماركسية على استقامتها

وقد منيت عقيدة العقائد بالتحريف والتزييف بين أناس يكفرون برأس المال كما يكفرون بالاستغلال ، ولم ينقض من الإبد الطويل الذي سنطبق عليه فلسفة الماركسيين أكثر من عشر سنين عند ابتداء ذلك التحريف والتزييف . فاذا تواضعنا بالإبد الابيد فهبطنا به الى مليون سنة ، فالى اين يا ترى ينتهي التغيير بالعقيدة الراسخة الخالدة التي لا تقبل التغيير في المدى الطويل بله المدى القصير . .

وجاء الإمتحان الاول للعقيدة الراسخة الخالدة أيام الحرب العالمية الثانية ، فنادى الكفار بالوطنية وبالدين أنها حرب الغيرة الوطنية ، وأن المجاهدين أحرار في العقيدة الدينية التي يبسرونها أو يعلنونها . . ولم يكن جيل القيصرية هو الذي ألجأهم الى التمسح بالوطنية أو بالحمية

الدينية فيقال انه قديم شنبوا عليه وشابوا فلا مندوحة عنه فى ابان المحنة الداهمة . بل كان الجنود المقـــاتلون فى الصدمه الاولى من جيل بين العشرين والاربعين ٠٠ أكبرهم لم يزد على الثالثة عشرة عند قيــام الدولة الشيــوعية . وتسعة اعشارهم على الاقل لم يتعلموا حرفا فى غير مدارسها ولم يستمعوا كلمة من غير دعاتها . ولا تفسير لاستفزازهم بنخوة الوطن وحمية الدين الا أنه افلاس للمذهب المادى فى تكوين المجتمع وغرس الاخلاق فى نفوس لم يزاحمه عليها مزاحم من المهد الى مقتبل الشباب

***

وبعد فهذا فصل عن تفسير الفلســـفة المادية للعقائد الدينية لم نرد به تفسير الاديان ولا الموازنة بينهـــا ٠٠ ولكننا نؤدى ما أردناه به حين نتبين قصور تلك الفلسفة عن تفسير نشأة الدين فى المجتمع وفى النفس البشرية ، بالقياس الى الفرائض الاجتماعية العامة كفرائض الشريعة وفرائض العرف والعــادة وفرائض الاخـــلاق والآداب ، وأوضح ما يكون القصور فى هذه الفلســـفة حيث تعرض لسريرة الانسان وعوامل الحياة الاجتماعية التى لا تحيط بها كلمة « المال ». أو كلمة الانتاج

وقد عرضنا فى ختامه لتطبيق التفسير المادى على الاديان الكتابية ، فتناولنا الكلام على اليهودية وعلى المسيحية ولم نعرض بعد للاسلام لاننا سنخصه بفصل مستقل يدعونا اليه أمران ٠٠ أولهما أننا نحن مطالبون قبل غيرنا ببيان الحقيقة عن الاسلام فى هذا الموضوع ، والآخر أن الاسلام يدحض الفلسفة الماركسية عن نشأة الدين فى كل رأى ذهبت اليه ، ولا يدحضها فى معرض الكلام على رأى منها أو رأيين ٠٠ ولهذا يهم الباحث المستقل بيان وجهته لانها تحتمل تفصيلا فى البحث لا يحتمله بيان الحقيقة عن سائر الاديان

الشيوعية والإسلام

الإسلام والشيوعية

اطلع « ماركس » و «انجلز » على بعض مراجع « الانثروبولوجي » - علم الانسان التى تكلم أصحابها عن عبادات القبائل الاولى ، لانهما يستدلان بأحوال المجتمع فى تلك القبائل على سبق النظام الشيوعى البدائى - لنظام الملك الخاص والطبقة المستأثرة بوسائل الانتاج .
ولكن لا يظهر من كلامهما على الاديان الكبرى أنهما توسعا فى الاطلاع عليها ، ولا يظهر من كلامهما العاجل عن الاسلام والمسلمين أنهما اطلعا على قواعد الاسلام كما يفهمها من يتصفح القرآن الكريم والاحاديث النبوية ، فضلا عن أقوال الائمة والحكماء الاسلاميين

وقد قلنا فى ختام الفصل السابق اننا مطالبون بافراد القول عن الاسلام فى مذهب الشيوعيين ، لاننا أحق من الكتاب الغرباء عنه بجلاء الشبهات التى يوردها عليه من يجهلونه أو يسيئون النية فى تصوره وتصويره .. ونزيد على ذلك أن دراسة الشيوعية فى آرائها عن الدين خاصة تستوجب دراسة الدين الاسلامى قبل غيره من الاديان العالمية الكبرى ، لانه يتضمن وحده معظم الشواهد التى تدحض آراء الشيوعيين فى نشأة الدين ، ولان الاسلام نظام اجتماعى الى جانب عقائده وشعائره الدينية .. ونظرة الشيوعيين اليه فى دور تطبيق

المذهب الشيوعى على الخصوص كنظرتهم الى مزاحم خطير يخشون منه أن ينازعهم السلطان على عقول الامم وضمائرها فى مسائل الاخلاق والمعاملات ، مع ما يوحيه الى العقول والضمائر من ايمان وثيق لاطاقة به لفلسفة الحياة كما يبسطها الماديون

فعلى صفحات وجه هذا الدين الحنيف — ولا ايغال فى أعماقه بعد — حجة ناهضة لا تنهض معها حجة للذين يزعمون أن الدين خدر للشعوب يروضها على الفقر والمسكنة ، ويلهيها بالآخرة عن نعيم الدنيا ليستأثر به سادة المجتمع ويغتصبوا منه علانية — أو يسرقوا منه خلسة — ما طاب لهم أن يغتصبوه أو يسرقوه ..

فالاسلام يأبى للمسلم أن ينسى نصيبه من الدنيا ويأمره أن يأخذ من طيباتها ، ويعيد عليه هذا الامر فى آيات متعددة من القرآن الكريم

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)

(لا تحرموا طيبات ما أحل الله)

(يا أيها الذين آمنوا كلوا مما فى الارض حلالا طيبا)

(ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض)

وليس من الاسلام أن يتجرد المسلم من زينة الدنيا ليقبل على الآخرة ، بل هو مأمور بأن يأخذ نصيبه من الزينة وهو بين يدى الله ، وأن يعد زينة القوة من نعمه التى يشكره عليها

(يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة)

ولم يخطر لعدو من أعداء الاسلام أن يتهمه بتحسين الجبن والاستكانة لاتباعه ، بل خطر لهم أن يصفوه بنقيض ذلك ويبالغوا فيما وصفوه فيقولوا عنه انه دين السيف أو دين القتال

ولا مبالغة فى وصف الاسلام بهذه الصفة الا أن يكون معناها عند قائلها أن الاسلام يعرف السيف ولا يعرف غيره ، أو أنه يضع السيف فى غير موضعه ، ويبطل الحجة والبرهان جهلا بها حيث لا موضع للغلبة والاكراه

وليس السيف من شريعة الاسلام بهذا المعنى ، فقد كان الاسلام مبتلى بسيوف أعدائه قبل أن يكون له سيف يذود به عن نفسه .. ولم يأمر الاسلام قط بتجريد السيف عدوانا على أحد ، ولم يجرده قط فى سبيل الدعوة الا ليحارب به قوة تقاوم الدعوة بالسيف ، فحارب الدولة البيزنطية والدولة الفارسية لان الخلاف بينهما لم يكن خلافا على الحجة والاقناع .. وفعل ذلك بعد ابراء الذمة من دعوة العواهل المتحكمين فى بيزنطة وفارس الى الكلمة السواء .. فلما أعرضوا عنه وتوعدوه وحالوا بينه وبين أسماع الناس جرد عليهم السيف اذ لا محيص له من تجريده ، وكان الاحتكام الى السيف هنا كأشرف ما يكون الاحتكام اليه فى قضية من قضايا الدنيا أو الدين

وأصدق ما يقال عن الاسلام فى أمر السيف أنه يأمر بالسيف لانه ينهى عن الجبن وينهى عن العدوان ، ولم يأمر به ليوضع فى غير موضعه أينما كان

(وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)

(وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان)

ومقاتلة البغى واجبة على المسلم كلما اوجبتها الضرورة فى صد العدوان من الاجانب عنه أو فى صد العدوان بين طائفة وطائفة مثلها من المسلمين :

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله)

والمسلم فيما دون الحرج الذى يوجب القتال لا يعفى من اصلاح السيئات التى يؤمر باجتنابها ، اذ هو مطالب بتقويمها اذا استطاع بيده .. فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان . ومن الواجبات الاجتماعية المفروضة على الجماعة فى الاسلام أن يكون منها آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، يتولون عنها هذه الفريضة التى لا تنساها جماعه انسانية الا بادر اليها الفناء ... (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ، وما هلكت الدول كما جاء فى الكتاب الكريم الا لانهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) . وقد حق الهلاك على المستضعفين لانهم يعتذرون بالضعف ، وهم قادرون على النجاة بأنفسهم من الخضوع للسادة المتحكمين فيهم : (قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الارض . قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)

ومهما يتعنت صاحب الهوى فى توجيه الكلمات ومعانيها، فما هو بقادر على أن يتخذ من أوامر الاسلام حجة لتسخير المجتمع فى خدمة أصحاب الاموال أو القابضين على وسائل الانتاج ، كما يقول المفسرون الماديون للاديان .. فقد كان السادة فى الجزيرة العربية يربحون من الربا المضاعف

ومن احتكار التجارة ، فجاء الاسلام بتجريم هذا وذلك أشد التحريم (ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون)

وقال عليه السلام : « من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه »

ويمنع الاسلام الاحتيال بالمتاجرة بالاعيان سترا للربا الذى يحرمه ، وفى ذلك يقول عليه السلام : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى »

ومن الاحتكار الممنوع أن يجتمع المال فى أيدى طبقة من الامة « كى لا يكون دولة بين الاغنياء منكم »

ومن المحتكرين من يكنزون الذهب والفضة والقناطير المقنطرة (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)

فاذا قيل عن هذه الاوامر والنواهى أنها خدمة لاصحاب الاموال وتيسير لاستغلالهم أرزاق الفقراء فليس للكلام من معنى يقبله العقل أو يأباه

ولم يكن فى سنة الاسلام ان يبيح لمنكر أن يقول كما قيل كثيرا ان الشرائع انما توضع للفقراء ولا تسرى على الاغنياء .. فقد كانت التفرقة بين الناس فى الحدود أشد ما حظره النبى وحظر منه قومه ، وكان ممن وجب عليهم الحد فى حياته عليه السلام سيدة من أسرة مخزومية فشفع لها عنده أسامة بن زيد ، فزجره وقام فى الناس خطيبا فقال : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »

ولنا ـ بعد ـ أن نمتد بأطراف البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الاسلام الى أقصى تخوم الجزيرة العربية ، فلا نرى في هذه البيئة الكبرى حجة لمن يقول ان الدين ينشأ في البيئة لخدمة سادتها واستبقاء سيادتهم عليها .. فقد كان سادة العرب على خصلة لم يشتهروا بخصلة أشهر منها ، وهي الكبرياء بالنسب والعصبية العربية ..

كانوا فيما بينهم يفاخر بعضهم بعضا بعراقة الاصول والاجداد ، وكانوا في جملتهم يفاخرون الامم بالنسبة العربية ويسمونها الاعاجم كأنها كانت عندهم خلقا من الحيوان الاعجم ، وكان أميرهم يترفع عن مصاهرة الاكاسرة وهو تابع لهم في دولتهم ، لان عزة الملك لا ترفعه الى مقام الكفاءة العربية ، فلو صدق القائلون بأن الدين من املاء السادة في بيئتهم لما خرج من هذه البيئة دين انساني يخاطب الناس كافة ، ويستنكر المفاخرة بالانساب والعصبيات ، ويسوى بين العرب والعجم ، وبين القرشي والحبشي .. بل يفضل الاعجمي على العربي والحبشي على القرشي اذا فضله بالصلاح والتقوى

وقد كان الاسلام صريحا في هذا الادب الانساني منذ نشأته الاولى ، ولم تأت فيه وصايا المساواة عرضا في سياق وصاياه النافلة التي تستحب ولا تكره مخالفتها .. ولكنها جاءت في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية مؤكدة مقررة على صيغة لا هوادة فيها ، وكانت سنة النبي عليه السلام في توكيدها وتقريرها من السنن التي لا تخفى على أحد من أصحابه فيما عم أو خص من قدوة حياته الشريفة ، صلوات الله عليه

فمن القرآن الكريم نعلم أن النبي صلوات الله عليه مرسل للناس كافة « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وأن الناس أمة واحدة (يا أيها الناس انا خلقناكم

من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعـــارفوا • ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وان الحياة الباقية لا أنساب فيها ولا فضل فيها لغير العمل الصالح والكفة الراجحة : (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون)

والنبى صلوات الله عليه يقول : « لا فضل لعربى على أعجمي ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » ويتمم بـــلاغ الرسالة فيقول فى خطبة الوداع « أيها الناس ، ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد : كلكم لآدم وآدم من تراب • أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ولا لاحمر على أبيض ولا لابيض على أحمر فضل الا بالتقوى »

وكان أبو ذر الغفارى من أقرب الصحابة اليه عليـــه السلام ، ولكنه سمعه مرة يقول لرجل أســـود : يا ابن السوداء • فبلغ به الغضب غايته وعبر عليه السلام عن ذلك بامتـــلاء الكيل ، فقال : طف الصاع ! وإعادها مرة أخرى ، ثم قال : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى وبعمل صالح •• »

هذا الادب الالهى الذى لا تفاضل فيه بين الناس بغير الاعمال قد نشأ فى وكر الانساب والعصبيات ، فليس فى نشأته هذه مايفسر نشوء الاديان لخدمة السادة فى المجتمع واستبقاء سيادتهم عليه

واذا خابت الفلسفة المادية فى تفسير نشأة الاســـلام باملاء البيئة أو باملاء السادة عليها ، فانها لأخيب من ذلك فى تفسير هذه النشأة باملاء الديانات التى سبقت الاسلام واتصل اتباعها بالجزيرة العربية •• فان اليهـــود كانوا يدينون بأن اسرائيل شعب « يهوا » وأن يهوا اله اسرائيل ، وأن أبناء ابراهيم من سلالة اسحاق هم دون غيرهم المفضلون

بموعد الرضـــوان •• ولما ظهرت المسيحية بين أبنـــاء اسرائيل ، توجهت بالدعوة اليهم أول الامر لانها تحمل البرهان اليهم فى مواعيد الانبياء التى يدينون بها ، واتفق فى أوائل الدعوة ــ كما جاء فى انجيل متى وانجيل مرقس ــ « أن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت بالســـيد المسيح فأتت وخرجت . عند قدميه ، وكانت أمميه وفى جنسها فينيقيةسورية فسألته انيخرج الشيطانمنابنتها فقال لها : دعى البنين أولا يشبعون • ليس حسنـــا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب . فأجابت وقالت : نعم ياسيد ! والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل من فتات البنين، فقال لها : لاجل هذه الكلمة اذهبى • قد خرج الشـيطان من ابنتك •• »

وأصرت اسرائيل على الاعراض عن الدعوة المسيحية ، فاتجه بها السيد المسيح الى الامم وضرب المثل لهم بالمدعوين الى وليمة يرفضونها فيشهدها من حضرها بغير دعوة:«اذ أرســـل الداعى عبيده فى طلب ضيوفه فقال هذا : انى اشتريت جقلا وعلى أن أخرج فأنتظره ، وقال ذاك : انى اشتريت ازواجا من البقر وسأمضى لاجربها •• فغضب السيد وقال لعبده : اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الى من تراه من المســـاكين •• فعـــاد العبد وقال لسيده قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان • قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلىء بيتى فلن يذوق عشـــائى أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء »

ثم انتشرت الدعـــوة فى غير بنى اسرائيل ، وكان من استجاب لها أولى بها ممن أعرض عنها ، لانهم أصـــبحوا « أبناء ابراهيم بالروح »

ثم جاء الاسلام من جوف الجزيرة العربية ليعم بالدعوة

أبناء آدم كافة ، ومنهم أبناء ابراهيم بالجسـد وأبناؤه بالروح .. فلم يكن فى نشأته ما يفسره املاء السوابق الدينية أو يفسره املاء البيئة العربية ، وجاء مع دعوته الانسانية بآدابه الاجتماعيه أو الفردية التى يكابر المتعنت فى تعنته ما استطاع المكابرة ولا يستطيع أن يفسرها بممالأة الاغنياء والمحتكرين ، أو بأنها خدر للنفس يروضها على الذل والاستكانة أو يلهيها عن الدنيا بخيال الآخرة ، فان الفجوة الواسعة بين حقائق الاسلام وهذه التفسيرات المادية تلوح للنـاظر من اللمحة الاولى ولا تجشمه أن يتعمق الى قرارها ..

وكأنما قضى على الفلسفة المادية أن تبتلى بكل حجة من قبل الاسلام على أوفاها .. فلا توسط بين حقيقة الاسلام وبين فروض الفلسفة المادية : دعوة عالمية من طرف تقابلها من الطرف الآخر تبعة فردية يستقل بها الانسان فى طويته كأنه وحده عالم قائم بنفسه ..

(كل نفس بما كسبت رهينة)

(ولا تكسب كل نفس الا عليهـا ولا تزر وازرة وزر أخرى)

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

(قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنـا عليكم بوكيل)

ان هذه التبعة تكليف لايدين به ضمير يتعاطى من الدين خدرا يذهله عما حوله وينسيه ما هو حق له وما هو واجب عليه .. وحسب الاسلام عند الشيوعية أنه يفندها هذا التفنيد الصادع فى جميع مقوماته ليستحق منها عداوة شديدة ، تخصه بها بين الاديان العالمية التى يتبعها ملايين الخلق فى الزمن الحاضر .. الا انها ــ على هذا ــ كانت

تعمه وسائر الاديان بعداوتها ، ولا تميزه بعداوة خاصة وهى فى دور الدعوة وترويج النظريات .. وظلت كذلك حتى دخلت فى دور التطبيق وحلت محل القيصرية الروسية فى علاقاتها بالعالم الاسيوى داخل بلادها وعلى تخومها ، فاستجد لها من اسباب العداء له سبب اقوى لديها من كل سبب .. لانها وجدت فيه نظاما اجتماعيا يتعرض لكل مشكلة من مشكلاتها ، ولم تجد مثل هذا النظام لملة من الملل التى تعاملها وتجتهد فى نشر الدعاية بين أبنائها

فالنظام الاجتماعى - أو السياسى - الذى أخذت به اليهوديه قبل عشرين قرنا لا يسرى اليوم على بقعة من الارض ، ولا يخشى منه على الدعاية الشيوعية فى المستقبل .. والمسيحية قد نشأت بين مزدحم الشرائع والنظم السياسية من جانب الهيكل وجانب الدولة ، فتركت معترك السياسة وقصرت دعوتها على الاخلاق والعبادات

أما الاسلام فقد نشأ فى بيئة يتركها للفوضى والاختلال ان لم يأخذها بنظام واف من نظم الحكم والتشريع ، وقد أخذها بهذا النظام وأودعه من دواعى التوفيق ما يلائم الزمن بعد الزمن والبيئة بعد البيئة ، ولا يضيق فيه باب الاجتهاد كلما وجب الرجوع اليه فى أحوال غير الاحوال التى نشأت فيها الدعوة الاسلامية . وجاء القرن العشرون ولم تفارقه مرونته التى تصلح للحياة العصرية ولا تستعصى مع الزمن على التجديد ، ولا يخفى أن العهد بالاديان العالمية التى يتبعها الملايين أنها تملك هذه الحيوية لتعيش بها فى الاجيال المتعاقبة ، أو تفقدها فتنحل وتزول ويخلو مكانها لدعوة من الدعوات كيفما كانت ، أو تتخبط فى مكانها بين الانكار والشك والبوار فكانت للاسلام هذه الحيوية التى أعيت خصومه فى حرب الاستعمار وحرب الالحاد والانكار

ومن أجل هذه الحيوية ، جردوا له كل ما تجرده الدولة ذات المذهب على خصوم مذهبها .. وشنوا عليه حملة شعواء من أشنع حملات القمع والاضطهـــاد ، وحملة أخرى فى مثل شناعتها من حملات التشـــوية والتشريد مع تكميم الافواه عن المناقشة أو الدفاع

ونحن لا نستقصى فى هذا الكتاب أخبار القمع والاضطهاد التى ترامت الينا من أرجاء العالم الاســـلامى فى القارة الاسيوية ، لان استقصاء هذه الاخبار موكول الى مقصد آخر غير مقصدنا من بحوث هذا الكتاب ، وهو مناقشة المبادىء والآراء ، والابانة عن مواطن الضعف والخلل فى أساسها الذى تقوم عليه . وقد يغنينا عن استقصاء تلك الاخبار فى عرض الطريق أن نشير الى « مصادرة » الفريضة التى تظهر مصادرتها على البعد ولا يجدى فيها التكذيب والتمويه .. تلك هى فريضـــة الحج فى كل عام ، فان حجاج الامم الاسلامية كانوا يلتقون فى مكة بالالوف من أبناء الاقطار الاوربية والاسيوية الذين كانوا يخفون الى الاماكن المقدسه كل عام قبل قيام الدولة الشيوعية .. فلما قامت هذه الدولة امتنع وفودهم سنوات ، ثم وصل منهم من استطاع الوصـــول بعد ذلك فلم يجاوز عددهم ثلاثين أو أربعين حاجا فى كل مرة ، كان يبدو عليهم أنهم يحسون فيما بينهم رقابة شديدة عليهم ، وأنهم ربما كانوا مندوبين لغرض يحملون عليه غير أداء الفريضة

وتلاحقت ــ فى خلال حملة القمع والاضطهاد ــ تلك الحملة الاخرى من حملات التشهير والتشويه ، ونمت عليها أقوال الصحف والنشرات وبعض الكتب الموسوعة التى تقضى عليها مادتها باستيعاب موضوعاتها ، ومنها موسوعة الثقافة الشيوعية ، فانها وصمت الاسلام بوصمة الرجعية ومعاونة الاستغلال ، واعتبرته من عقبات التقدم وموانع

الحضارة العصرية ، وأفردته بالعدواة التى تستحقها كل عقيدة تصلح لمنازعة المذهب المادى على ضمير الانسان

***

وما كانت الخصومة الشيوعية لتتورع عن الدعاية الرخيصة كلما أعوزتها أسانيد الدعاية المقنعة ، لان القناع سابق للدعاية فى خطط الشيوعية ، وارخص ما تكون دعايتهم اذا آنسوا العجز عن اقناع خصومهم •• ومن هذا القبيل كانت حملة التشهير والتشويه التى اصطنعوها فى دعايتهم على الاسلام ، فليس لها من معنى يخرج به القارىء من جملتها وتفصيلها غير معنى واحد ، وهو أن الاسلام لم يتنزل فى القرن العشرين ••

فما كان دين من الاديان ليهاجم بدعاية أرخص من هذه الدعاية المفروغ منها ، لان الاديان لا توجد لتلغى وتعاد كل صباح ومساء •• فاما أن توجد لتدين أمة فى أجيالها المتعاقبة أو لا توجد على الاطلاق ولا يتصور لها وجود •• واذا كان طول الاجل مأخذا على الدين ، فالاسلام لا يؤخذ بهذا المأخذ الهزيل ، لأنه آخر الاديان الكتابية فى تاريخ الظهور

انما تؤخذ على الاسلام آدابه وفرائضه التى جاء بها يوم ظهوره ، وانما تؤخذ عليه هذه الآداب والفرائض اذا جاءت رجعية فى حينها لا تصلح شيئا مما تصدت لاصلاحه ولا تفتح فى الغد طريقا للمصلحين

ولم يكن الاسلام كذلك من وجهته العامة ، ولا كان كذلك من وجهة المآخذ التى أحصاها عليه الشيوعيون ، وأهمها الرق وتعدد الزوجات وحدود العقاب وشروط المعاملات الاقتصادية •• وسنرى أن الاسلام لم يأت بحكم من الاحكام فى مسألة من هذه المسائل الا كان فيه اصلاح

للحالة التى كان عليها فى عصر الدعوة ، وحض على الاصلاح فى العصور المباشرة التى تليه .

فالاسلام لم يشرع الرق الذى كان مشروعا قبله فى جميع الاديان الكتابية ، وكان الفيلسوف «ارسطو» يسوغه بآرائه الاجتماعية والسياسية . وقسم الجنس البشرى الى فريقين : فريق يعمل بعقله ومشيئته ، وفريق يؤدى للفريق الاول أعماله كما تؤديها الآلات

لم يشرع الاسلام الرق ، بل شرع العتق وحض عليه وجعله من وسائل التقربى والتكفير عن السيئات

وما أباحه الاسلام من الرق لا يزال مباحا الى اليوم بين أمم الحضارة فى حروبها ، فان الاسرى يعتقلون ويسخرون فى العمل ولا تفك قيودهم الا بالمبادلة أو سداد الغرامة والتعويض ، وهذا هو الرق الذى أباحه الاسلام وأوجب معه المن بالعفو أو الفكاك أو المكاتبة : (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد وأما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)

ولا يبيح الاسلام استرقاق الاسير فى كل قتال ، بل يشترط فى القتال أن يعلنه الامام مع عدو لا ذمام معه ولا معاهدة ، ويأمر بمعاملة الاسرى معاملة لا يحلم بها أسير فى حرب من حروب الحضارة الحديثة ، وينهى أن يذكره صاحبه فيسميه « عبدى » مؤثرا على هذه التسمية الزرية أن يدعوه ب « فتاى » كما يدعو ابنه فى كثيرمن الاحيان .

وأذا كان الاسلام لا يسوى بين الاحرار والعبيد فى جميع الحقوق ، فال[illegible] فى العصور الحديثة لا حقوق لهم ولا مساواة بينهم [illegible] يأسرونهم ما داموا على ذمة الفكاك أو الفداء ، وغاية الفرق بين العصر الحديث والعصر القديم أن الدول فى هذا العصر تتولى المبادلة على الفداء بعدمعاهدة

الصلح بين الغالب والمغلوب ، وأما في العصور الغابرة فلم تكن للدول عناية بهذه المبادلة ولا بالتعاهد على الصلح فى جميع الاحوال ، ومن لم يفده أهله من الاسرى فلا شأن به للدولة التى كان ينتمى اليها ، ولا استثناء لذلك فى شرائع الحرب والسلم الا بعد قيام الدولة الاسلامية وتفرقتها بين الامم المسالمة والامم المعاهدة والامم المقاتلة ، فان الدولة الاسلامية قد أوجبت على الامام فكاك الاسرى من جنوده ما استطاع

***

والنظام الاجتماعى الذى جاء به الاسلام قدصنع فى مسألة تعدد الزوجات ما قد صنعه فى مسألة الرق .. حالة سيئة تعانيها المرأة من حرمان المجتمع والقانون أصلحها الاسلام ومهد لمسايرة التقدم الطبيعى الذى يأتى مع الزمن من ضروب الاصلاح .

وعلينا قبل الاستطراد الى الكلام عن مركز المرأة فى الاسلام ان ندفع وهما يعلق بالاذهان عن الاديان الكتابية وتعدد الزوجات، فان الشائع بين الغربيين والمتفرنجين من الشرقيين أن الاسلام هو الدين الكتابى الوحيد الذى لم يحرم تعدد الزوجات .. وذلك وهم يخالف النصوص ووقائع التاريخ ، فان تعدد الزوجات بغير قيد هو القاعدة الغالبية فى زواج الآباء والانبياء الذين ذكرت زوجاتهم فى كتب العهد القديم ، وليس فى الاناجيل نص على تحريم ما أباحه العهد القديم .. ولكن الآباء الاوائل فى المسيحية كانوا يحثون على الرهبانية ويستحسنون للاسقف ان يكتفى بزوجة واحدة اذا لم يستطع أن يترهب ، لان شرا واحدا أهون من شرين . وقد أفتى القديس « أوغسطين » فى كتابه عن الزواج الامثل باباحة التسرى لمن عقمت زوجته وثبت

عليها العقم ، وحرم مثل ذلك على المرأة التى يعقم زوجها لان الاسرة لا يكون لها غير سيد واحد ، وكان لشرلمان أولاد شرعيون من عدة زوجات معترف بهن ، وبحث المشرع المشهور «جورتيوس» موضوع تعدد الزوجات من الناحية الفقهية فصوب شريعة الاباء فى العهد القديم ، وقال « وسترمارك » المؤرخ الحجة فى شئون الزواج ان الكنيسة والدولة كانتا تقران تعدد الزوجات الى القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر فى الحالات التى لا تحفظ فى سجلات الكنيسة أو الدولة

فالاسلام لم ينفرد بين الاديان الكتابية باباحة تعدد الزوجات ، ولم يوجبه على أحد لانه أباحه ، بل أوجب على الزوج أن يعدل فى المعاملة اذا بنى بأكثر من زوجة ، وصرح القرآن الكريم بصعوبة العدل بين النساء « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم »

فحكم الاسلام فى تعدد الزوجات هو الحكم المطلوب من كل شريعة تقابل كل حالة محتملة .. ولو وقعت فى كل الف حالة واحدة يكون فيها تعدد الزوجات خيرا من الطلاق او من العقم ، لعيب على الشريعة ان تتجاهلها ولا تحسب حسابها .. وانه لمن السخف أن يقال ان تطليق الزوجة المريضة او قبول العقم أفضل فى جميع الاحوال من الجمع بين زوجتين ، وانه لاسخف من هذا أن يقال ان متاجرة المرأة بعرضها عند التفاوت بين عدد الرجال والنساء اكرم من تعدد الزوجات ، وانه لمن التعاق السمج ان يقال ان الاغضاء عن الاباحة الفعلية يجعل الشريعة صالحة لقديسين يبنون بقديسات ، ويجعل الدنيا سماء للملائكة لا يقع فيها الا ما ينبغى أن يقع فى السماوات ، وأنه ما على الشريعة الا ان تقول ان الناس كذلك ليكونوا طائعين او راغمين

ثم يعلموا أنهم كذلك وهم يعلمون رجالا ونساء أن الزواج الذى يخرج عليه الزوجان معدود بعشرات الالوف

ولقد يعذر من يرى أن الزواج علاقة لذة ومتعة جسدية اذا اغضى عن الفارق الطبيعى بين الجنسين ، ويعذر مثله من يرى ان انقطاع النسل فضيلة فى حالتى الرهبانية والزواج ، ولكنه لا عذر لمن يؤمن بأن الزواج للنسل ثم يتجاهل التفرقة الطبيعية بين وظيفة الذكر ووظيفة الانثى فى الحياة النوعية ، فان هذه التفرقة لاتهمل كل الاهمال الا تباعد ما بين الطبيعة وبين المجتمع من وشائج الحياة وليس من المطلوب ان يلد الرجل من مئات النساء، ولكنه لا يكون فى جميع الاحوال كالمرأة التى لا تلد الا من رجل واحد فى عدة شهور

***

قلنا ان الاسلام قد عالج تعدد الزوجات كما عالج الرق فى عصر الدعوة : حالة سيئة أصلحها ، وتطور منظور مهد له واشار اليه ، ولم يضع قط عقبة فى طريقه ....
والحالة السيئة التى أصلحها الاسلام أن تعدد الزوجات كان مباحا مطلقا من كل قيد فى البلاد العربية وفيما جاورها؛ وكان رأى المرأة فى الزواج مهملا لا يعتد به سواء خطبت لرجل متزوج أو غير ذى زوج ، فقيد الاسلام هذه الاباحة المطلقة وجعل للمرأة رأيا مشروطا فى زواجها ، ونبه الرجل الذى يتزوج بأكثر من واحدة الى وجوب العدل فى المعاملة، ثم نبهه الى صعوبة العدل وفضيلة الاكتفاء بزوجة واحدة « فان خفتم الا تعدلوا فواحدة » « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ..

اصلاح ليس بالقليل ، ولا ينبغى ان يحسب قليلا حتى فى موازين المستغلين له من دعاة القرن العشرين ، فانهم

لخلفاء ان يسألوا أنفسهم : هل كان من المفيد تحريم تعدد الزوجات لو اراد احد تحريمه ولم يقنــــع يومئذ بذلك الاصلاح ؟ .. ما كان ذلك التحريم بالجد الذى يقـــدم عليه مشرع فى شئون الاجتماع ، وما كان له من وصـــف يوصف به الا انه عبث تتنزه عنه حكمة التشريع، ولن يكون التحريم الا عبث عابث حين تكون الاباحة حكما عالميــا قد انعقد عليه اجماع الشرائع والعادات والاديان

وربما كان العمل المنتج فى هذا الاصلاح منوطا باسناد حق الموافقة الى المراة قبل البناء بمن يخطبها ، سواء كانت ولية امرها أو كان لها ولى ينـوب عنها .. والنبى عليه الســـلام يقول : « لا تنكح الايم حتى تســـتأمر الا البكر حتى تستأذن » ، وقال : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها »

فهذا الحق ينقل أمر انصاف المراة الى يديها ، فان قبلت تعدد الزوجات راضية فهى أولى باختيار ما يرضيها ، وان قبلته لضرورة لامحيص عنهـــا فوجود هذه الضرورة فى المجتمع رد كاف على من يتغافل عنها ولا يلتفت اليهـــا ، وما كانت المراة لتقبلها يوما الا وهى توقن أن قبولها أوفق لها من رفضها

***

على ان تعدد الزوجات على اطلاقه قبل الاسلام ، لم يكن يضيم المراة كما كان يضيمها قضاء الذلة التى رانت عليها فى شعوب الحضارة وشعوب البداوة على الســـواء وكانت بعض الحضارات ــ كالحضارة المصرية القديمة ــ يميل الى انصافها فى حقوق الاسرة والمجتمع ، ثم شملتها النكسة العامة التى غمرت العالم الانسانى فى الحقبة التى مرت به من القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن السادس

بعده .. اذ كان هذا العالم الانســانى قد غشيت نفســه بمساوىء الترف المادى والانحلال الخلقى ، فخرج منهــا بعقيدة احتقار الجسد وتصوير المرأة فى صورة النجاسة المحذورة لانها عنوان المتعة الجسدية والشهوات الحسية ؛ فهبطت فى معيار الاخلاق والعقائد الى حطة النجاسة .. وبقيت فى معيــار التشريع حيث أبقتهــا أم الشرائع فى العصــور القديمة ــ دولة الرومان ــ ولم تزد فى شريعتها كثيرا عن منزلة الرقيق المملوك الذى لا يستقل عن مشيئة رب الاسرة بحق من الحقوق

وأما فى بلاد العرب فقد كانت المرأة حالات تتراوح بين الكرامة والمهانة ، احسنها لم يرتفع بها عن حالة الطفل القاصر فى رعاية أهله ، واسوأها تدل عليه عادة وأد البنات خشية العار أو خشية الاملاق .. فهذه الحالة العامة فى شعوب الحضارة والبداوة هى التى انقذها منها الاسلام ، لانه رفع عن الجســد وصمة النجاســة ورفع عن المرأة وصمة العار ، ووهب لها فى المعاملات حقوق الشخصــية المستقلة التى تملك ما عندها وتملك أن تنيب عنهــا من يديره لها ولو لم يكن وليهــا أو قريبهــا ، وفرض لهــا المساواة المثلى التى تستقيم مع اختلاف الجنسين ، ولم يحرمها من المساواة الا ما يعد الحرمان منه نوعا من الاعفاء عند تقسيم العمل بين الجنسين المختلفين

***

والمساواة المثلى هى العدل الذى لا ظلم فيه على احد ، ولهذا لم يستطع فقهاء التعريفات أن يجعلوها مساواة فى الواجبات لان المســاواة فى الواجبات مع اختــلاف القدرة عليها ظالم قبيح ، ولم يستطيعوا أن يجعلوها مســاواة فى الحقوق لان المســاواة فى الحقوق مع اختــلاف الواجبات

ظلم اقبح من ذلك ، لانه اجحاف يأباه العقل واضرار يحيق بالمصلحة العامة كما يحيق بمصلحة كل فرد من ذوى الواجبات والحقوق

وقوام الامر اذن ان تكون المساواة العادلة مساواة فى الفرص والوسائل ، فلا يحرم انسان فرصته لاحراز القدرة التى تمكنه من النهوض بواجب من الواجبات ، ولا يحرم وسيلته التى يتوسل بها الى بلوغ تلك الفرصة ما استطاع من وسائل السعى المشروع

والمساواة فى الفرص مفهومة بين أبناء الجنس الواحد ، لانها ممكنة فى حدود الوظائف الطبيعية .. وأما غير المفهوم فهو المساواة فى الفرص بين جنسين مختلفين فى التركيب والاستعداد وفيما ثبت من الواقع فى تواريخ جميع الامم ، وفيما يتطلبه المجتمع من تقسيم العمل بين هذين الجنسين

هذا الاختلاف واقع دائم لا حيلة فيه لاصحاب التعريفات او اصحاب الدعايات السياسية ، ولا تجدى فى الغائه والغاء دلالته تعلة من التعلات التى يردونه اليها ، فلا ينتهون منها الى غير السفسطة والمحال

« فكل ما يقال فى تعليل ذلك راجع الى علة واحدة ، وهى تفوق الرجل على المراة فى القدرة والتاثير على العموم .. فليست جهالة القرون الاولى بسبب صالح لتعليل هذه الفوارق العقلية بين الرجال والنساء فى جميع الامم ، لان الجهل كان حظا مشتركا بين الجنسين ولم يكن مفروضا على النساء وحدهن دون الرجال .. ومن زعم ان الرجل فرض الجهل على المراة فقبلته واذعنت له ، فقد قال انه اقدر من المراة او انه أحوج الى العلم واحرص عليه منها . وليس الاستبداد فى القرون الاولى سببا صالحا لتعليل تلك الفوارق لان استبداد الحكومات كان يصيب الرجل فى الحياة العامة قبل ان يصيب المراة فى حياتها العامة او حياتها البيتية ، ولم يمنع الاستبداد طائفة من العبيد المسخرين ان ينبغ فيهم العامل الصالح والشاعر اللبق والواعظ الحكيم والاديب الظريف

وليس عجز المراة عن مجاراة الرجل فى الاعمال العامة ناشئا من قلة المزاولة لتلك الاعمال ، لانها زاولت اعمال البيت الوف السنين ولا يزال الرجل يبزها فى هذه الاعمال كلما اشتغل بصناعاتها ، فهو اقدر منها على الطهو وعلى التفصيل وفنون التجميـــل وتركيب الاثاث وكل ما يشتركان فيه من اعمال البيوت . وقد يرجع الامر الى الخصائص النفسية فيحتفظ فيها الرجل بتفوقه على الرغم من استعداد المراة لتلك الخصائص من أقدم عصور التاريخ .. فالنواح على الموتى عادة تفرغت لها المراة منذ عرف الناس الحداد على الاموات ، ولـكن الاداب النسوية لم تخرج لنا يوما قصيدة من قصائد الرثاء تضارع ما نظمه الشعراء الرجال سواء منهم الاميون والمتعلمون ، وقد كان اكثر الشعراء فى العهود القديمة من الاميين .. بل هناك خاصة نفسية لاتتوقف على العلم ولا على الحرية ولا نوع العمل او الوظيفة فى المجتمعات او البيوت وهى خاصة الفكاهة وخلق الصور الهزلية والنكات التى يلجأ اليهـا الناس حين يحال بينهم وبين التعبير الصريح

وربما كان الاستبداد أو الضغط الاجتماعى من دواعى تنشيط هذا السلاح النفسى فى قرائح المستعبدين والمغلوبين ، لانه السلاح الذى ينتقم به المغلوب لضعفه والمنفذ الذى يفرج به عن ضيقه وخوفه ، وقد كان ضغط الرجال على النساء خليقا أن يغريهن باستخدام هذا السلاح لتعويض القوة المفقودة والانتقام للحرية المسلوبة ، ولـكن الآداب والنوادر لم تسجل لنا فكاهة واحدة اطلقتها النســاء على الرجال كما فعل الرجال المغلوبون فى الامم الحاكمة أو المحكومة على السواء ، أو كما فعلوا فى تصوير رياء المرأة واحتيالها على اخفـاء رغباتها وتزويق علاقاتها بالرجال ، وهذه الملكة ـ ملكة الفكاهة ـ خاصة نفسية لم يقتلعها من طبائع الرجال ظلم ولا جهل ولا فاقة ولا عجز عن العمل فى سبيل الحياة .. فمن اللجاجة ان يتجاهل المتجاهلون هذه الفوارق وهى أثبت من كل ما يثبته العلم والعلماء ، وما كان للعلم أن يوجد شيئا لم يكن له وجود فى الواقع أو فى تفكير العقول ، وانما هو أبدا فى مقام التسجيل أو مقام التفسير (١) »

***

ان هذه الاعتبارات موضوعة حتما بين يدى كل تشريع يتحـرى مصـــلحة المجتمع فى حاضره ومســـتقبله ، ومتى نظـــر التشريع الى هـذه الاعتبـــارات فانه لا يقيم العدل بين الجنسين على أساس المساواة فى الفرص

---

(١) من كتاب « الفلسفة القرآنية » للمؤلف

ولا على مطالبة كل منهما بواجبات كواجبات الآخر أو تخويله حقوقا كحقوقه .. وليس أمامه من اعدل الجنسين غير العدل على اساس تقسيم العمل بينهما كما يتوفر عليه كل منهما ، وهذا هو العدل على سنة المساواة بين الواجبات والحقوق ، وأن تكون حقوق الجنس مكافئة لواجباته ، وواجباته مكافئة لحقوقه . ومن الهزل - لا من الجد في شيء - أن نعلم أن تربية البنين وتنشئة الجيل الجديد وتنظيم البيت والاسرة واجب على المرأة قبل الرجل ثم نزعم أنها مساوية له اذ تقوم بهذا الواجب وتقوم بأعباء الرجل في الاعمال العامة على السواء

وعدل المساواة بين الواجبات والحقوق هو عدل الاسلام في بيان حقوق المرأة وحقوقها هى على الرجل وحقوق الرجل عليها (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) .. (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

وان تقسيم الواجبات والحقوق في الاسلام على هذا القسطاس لهو تقسيم الفطرة الذى نرجع اليه قسرا كلما شردنا عن طريقه ، وما نخال أن تقسيم الفطرة مجهول بعد تقرير مكان المرأة الطبيعى في القيام على شئون البيت وتربية الجيل الجديد .. ومن حقها اذن على الرجال أن يتولى الانفاق عليها وعلى البيت ، اذ كانت لا تستطيع أن تعول أبناءها وتكدح لنفسها

نعم .. ان المرأة في المجتمعات الحديثة تضطر الى العمل لكسب معيشتها ، الا أن هذا الاضطرار خلل في المجتمع يؤسف له ولا يغتبط به ولا يبنى عليه قوام الحاضر والمستقبل .. وقديما كان الطفل الصغير مضطرا الى العمل لكسب معيشته ، فلم يكن هذا فضيلة للمجتمع الذى يحدث فيه تستوجب التشجيع والاقرار ، وتستقيم عليه أسس

التربية والتشريع .. بل كان خللا وخيم العاقبة تتضافر الجهود على سداده وتحريمه ، وتحاربه الشرائع والآداب على الرغم من الاضطرار اليه فى كثير من الاحوال

وان الخلل الذى يلجىء المرأة الى السوق والى المصنع والى معارك الحياة العامة لحقيق بمثل هـذه المحاربة ، ومفروض علينا ان نجعل القضاء عليه أملا ننشده ولا نجعله انكارا لحقوق المرأة وانتقاصا من كرامتها .. وهكذا تستوى مصالح المجتمع على جادتها أو تنقلب على من ينسخونها ـ ويمسخونها ـ كما تنقلب قوانين الفطرة على كل خـارج عليها

وبعد أربعين سنة من اللغط « بالرجعية » فى الاسلام والتقدم فى المذهب المادى القائم على العلم ورعاية القوانين الطبيعية فى زعم أصحابه ، يحق للناقد المسلم أن يبتسم وهـو يرى فى كل يوم ضربة من ضربات الفطـرة ترتد بالسخرية على من يخرجون عليها ، ونقرأ فى خطب الفلاسفة الماديين كلاما عن الاسرة ـ الملعونة فى عرف الماديين ـ يقيم عليها دعائم المجتمع الصناعى الذى ينبغى أن يعصف بالاسرة عصفا اذا صح ما قدره لـه « كارل ماركس » وأتباعه ، ويقول لنا الفيلسوف « خارشيف » من خطاب للشـبان الشيوعيين أذيع فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٥٦ .. « ان الاسرة السوفييتية الناشئة تخلق من أجل العمل المشـترك على مصلحة الوطن ، كى تزوده بأبناء وبنات مجتهدين مخلصين ، وأن سعادة الاسرة لن تنفصل عن سعادة المجتمع الاشتراكى وجهوده »

وادعى من ذلك الى الابتسام قول الزعيم «خروشيشف» فى تقريره للمؤتمر العشرين من مؤتمرات الحزب الشيوعى كما نشرته « برافدا » فى الخامس عشر من فبراير سـنة ١٩٥٦ :

« اننا لا نستطيع ان نتجاهل الحقيقة الواقعة التى تلاحظ فى هيئات كثيرة من هيئات الحزب الشيوعى ، وهى الحذر من ترشيح النساء للمراكز الرئيسية ... فان عدد النساء قليل جدا بين اصحاب المراكز الموجهة فى الاعمال السوفييتية ، ولا سيما مراكز السكرتارية فى اللجان ومراكز الرئاسة فى اللجان التنفيذية والمشروعات الصناعية والحقول المشتركة وحقول الدولة »

ولم يلاحظ هـذا الحذر فى مجتمع يدين بالرجعية الاسلامية ، وتعينه حدث فى مجتمع مضى عليه أربعون سنة يغتصب التسوية اغتصابا بين الرجل والمرأة وينشأ أبناء الاربعين وبنات الاربعين فيه وما سمعوا قط شـيئا غير « أوامر » المساواة بين الجنسين فى المدرسـة والمصـنع والطريق والبيت .. وما اجترأ قط على التشكيك فى هذه المساواة بين أبنائه وبناته أحد يريد أن يأمن على حياته من تهمة النكسة والخيانة واستعادة الآداب الغابرة التى قام عليها الاستغلال فى بلاد رأس المال

***

وستمضى أربعون سنة أخرى بعد هذه السنين الاربعين التى مضت على وضع الشريعة الماركسية فى موضع التنفيذ، وسيبتعد العالم مسافة اخرى من أحكام هـذه الشريعة كلما خرجت من دور النبوءات والنظريات ودخلت فى دور الوقائع والمحسوسات ، وسيكون ابتعاد العالم عنها فى المستقبل أعجل وأسرع من ابتعاده عنها فيما مضى ، لان حماسة الايمان بها كانت تصمد للحوادث حينما يطيل أجلها على غير طائل ، ولن يقوى هذا الايمان المتهافت بعد اليوم على صدمات الحوادث فى الداخل والخارج الا من قبيل تغطية الهارب لمهربه ان بقيت به حاجة الى التغطية بعد انكشاف الامر وشيوع التفاهم على بطلان المذهب بين دعاته وأدعيائه

وسيرثى غدا لمن يبقى بعد هذا الزمن متعلقا بحباله الرثة محتجا به على نظام من النظم الدينية أو الوضعية ، فما من نظام سيكون غدا أبعد من النظام الماركسى عن حقائق الامور وسيبقى من الاسلام على التخصيص ما كان باقيا قبل ظهور المادية التاريخية وبعد احتجابها ، فيزول المذهب الـــذى قالوا انه مذهب العصر والعلم والتقدم الى المستقبل بغير نهاية ، ويبقى المذهب الذى قالوا انه قد لحق بأمس الدابر فليس له من الغد نصيب • ويتمارى غدا من يتمارى فى شأن الاسرة والمرأة بعد الشوط الطويل الذى يعبره العالم اليوم مترددا مختلفا على نظـــام الاسرة وحقوق المرأة أو حقوق الجنسين ، ولكنه لا يتمارى فى جناية المذهب المادى على الاسرة وجنايته من ثم على المجتمع فى حاضره ومصيره ، ولن يتمارى فى حقيقة النظام الذى ينقذ المرأة من براثن الاستغلال والابتذال ، فلن يكون خلاصها من الاستغلال على يد النظام الذى يرسلها الى الاسواق والمصانع ومعارك السياسة والكفاح ، ولن تخلص من الاستغلال الا اذا ملكت بيتها أما وربة أسرة وسيدة للعالم الصغير الذى ينشأ منه الغد ويسكن اليه الحاضر من وعثاء الكفاح فى الاســـواق والمصانع ومعارك السياسة

والشيوعى الذى يرثى له غدا حين يحتج ببقايا مذهبه على النظام الاسلامى فى شأن المرأة ، سيرثى له من اليوم حين يحتج ببقايا مذهبه على النظام الاسلامى فى شـــئون المعاملات •• فكل منتقد لهذا النظام يســـتطيع أن يقول شيئا الا جماعة الشيوعيين أصحـــاب الآراء المعروفة فى رءوس الاموال واستغـــلالها فى أيدى المرابين والمتجرين بالنقود •• فان الذين يزعمون أن الاسلام لا يصلح للمعاملات العصرية قد جمعوا أسبابهم كلها فى مســألة المصـــارف

والقروض ، أو فيما سموه مسألة الربا على غير فهم لاحكام الاسلام فيه

وهؤلاء لهم كلام يقولونه في هـــذا الصدد ، اذ لا كلام فيه لاحد من الشيوعيين •• لان هؤلاء الشيوعيين قد تطول ألسنتهم في كل مجال ولا تستطيع أن تطول فى هذا المجال، مع فلســـفتهم المعلومة عن رءوس الاموال وعن الاســـتغلال وبيع النقد كما تباع السلع لفائدة أصحاب « الاعمال » وعلى حساب طوائف العمال !

فماذا يقول الشيوعى اذا أراد أن ينتقد الاسلام فى تحريمه الربا والاتجار بأعيان النقود ؟ •• آنه يسكت الســكوت الذى يستحق الرثاء ، فانه ليقف هنا موقف العاجز عن تحريك لسانه بالثناء ، وهو لا يريد الثناء ، أوبالمذمة والتجريح ولا وجه عنده لمذمة أو تجريح

لقد حرم الاسلام الاتجار بأعيان النقود ، كمـــا حرم اكل الربا اضعافا مضـــاعفة •• وما من شريعة عصرية تبيح اليوم ما حرمه الاسلام على المرابين ، وهى آمنة على سلامة المجتمع من الخراب او من الفتنة والاضطراب ..

فأما المعاملات التى لا ضرر فيها على أحد ولا اتجاربالنقد فى غير عمل ، فليس للاسلام فيها حكم غير حكم القانون الصالح اينما كان ، وانى يكون ..

***

ومسألة الحدود الجنائية أدق المسائل بعد مســـألة الرق ومسألة المرأة ومسألة المعاملات ، ودقتها انهامسألة فقهية للفقهاء وولاة الامور ، وليس قصارى الامر فيهـــا انها مسألة من مسائل الشعائر والمعتقدات

وهذه المسألة الفقهية الدقيقة تتشعب فيهـــا شروح الفقهاء من حيث تتعدد الحدود والجنايات ، وتتعـــدد

الشروط والاركان، وتتعدد الادلة والشبهات، فيقع فيها اللبس الكثير كما يقع فى عموم المسائل الفقهية ، ويخطىء المسلم الجاهل دقائق الرأى فيها كما يخطئها الجاهل بالاسلام من الاجانب عنه احسن النية أو اساء ..

والافاضة فى البحوث الفقهية ليست من أغراض هذا الكتاب ، وقد نستوفى أغراضه اذا نبهنا الى منافذ الخطأ فى فهم النظام الاجتماعى الذى جاء به الاسلام ، وفهم نظام العقوبات على التخصيص .. وهذا ما ننبه اليه بالايجاز فى الاسطر التالية ..

اننا نسمع على الدوام ان عقوبات الشريعة الاسلامية ينبغى ان تطابق أحوال القرن العشرين .. ونقول : نعم .. ولا نحسب ان أحدا يقول غير ذلك ، ولكن الالزم من ذلك ان تكون مطابقة للبيئة التى تنزلت فيها وللزمن الذى تنزلت فيه

وقد تنزلت الشريعة الاسلامية فى الجزيرة العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها الغالبة بين جميع القبائل شريعة الغارات التى تستباح فيها دماء المغلوب وامواله ونساؤه ، وكل مملوك له فى حوزة الفرد أوحوزة القبيلة ، وكان أهل الكتاب يدينون بشريعة موسى التى لم يبطلها السيد المسيح ولها حدود مفصلة فى التوراة وقصاص تؤخذ فيه العين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم ..

فاذا جاء الاسلام بعقوبات لا تصلح لعصر الدعوة لم يعط التشريع حقه فى ذلك العصر ولا فى العصورالتالية لكنه يعطى التشريع حقوقه جميعا اذا صلح لزمانه و ينقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاجتهاد عند اختلاف الاحوال ، فيشتمل جزاؤه على جنايات الحدود

والقصاص وعلى الجنايات التى تستحدثها أحـــوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمهـا من موجبـات الجزاء

وهذا ماصنعه الاسلام فى جنايات الحدود والقصاص، وفى غيرها من الجنايات التى تدخل عند الفقهـاء فى باب التعزير ، وعلينا ان نذكر :

« أولا » ان الحدود مقيدة بشروط وأركان لابد من توافرها جميعا بالبينة القاطعة ، والا سقط الحـد أو انتقل الى عقوبات التعزير اذا كان ثبـوته لم يبلغ من اليقين مبلغ الثبوت الواجب لاقامة الحدود ..

« ثانيا » ان القصاص مشروط فيه العمد وارادة الاذى بعينه ، فان لم يثبت العمد فالجـزاء الدية او التعزير وقد يجتمعان او يكتفى بالـدية دون التعزير أو بالتعزير دون الدية

ولنذكر ان جرائم التعزير تشمل جميع الجرائم التى يعاقب عليها بالسجن أو بالغرامة أو بالعقوبات البدنية

ولنذكر فى جميع هذه الاحوال ان الشريعة الاسـلامية توجب درء الحدود بالشبهات ، فاذا قامت الشبهةللشك فى ركن من اركان الجناية أو ركن من أركان الشهادة فلا يقام الحد وينظر ولى الأمر فى التأديب بعقوبة من عقوبات التعزير

***

ولنضرب المثل بأكبر جنايات الحـدود وأشـيعها فى الجاهلية العربية وجاهليات الامم فى عنفوانهـا ، وهى جناية قطع الطريق والعيث فى الارض بالفسـاد ، ففى هذه الجناية يقول القرآن الكريم : « انما جـزاء الذين

يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فســـادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خـــلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهـــم فى الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم »

فهذه جناية لها عقوبات متعددة على حسب الاضرار والجرائم ، ومنها القتل والصلب وقطع الاطراف والنفى وهو بمعنى النبذ من الجماعة اما بالسجن أو بالاقصاء ، ويلزم العقـــاب من ازمته احكام الدين .. فاذا كانت جنايته قد انتهت بالعقوبة قبل أن يلزمه قضاء الاسلام فهذا هو الباب الذى فتحه الإسلام لابتداء عهد وانتهـــاء عهد غبر بأوزاره وعاداته وانطوى حساب الجناية والعقاب فيه بانتهائه

واشد هذه العقوبات لم يكن شـــديدا فى عرف امة من الامم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيثون فى الارض بالفساد ، مع حضور الخطر وكثرة مغرياته وقلة الزواجر الاجتماعية التى تحمى المجتمع من أضراره وجرائره ، وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة فى جميع الامم مع قيام الجريمة وقيـــام اسباب الحذر منهـــا ، وظلت كذلك الى القرن السابع عشر فى البلاد الاوربية التى استقر فيها الامن بعد الفزع وانتظمت فيها حراســـة الطريق بعد الفوضى التى طغت عليها من جـــراء فوضى الجوار بين الحكومات

وتلحق بجناية قطع الطريق جناية السرقة التى لاغصب فيها ، وشروطها أن يكون السارق عاقلا مكلفا وأن يكون المال المسروق محرزا مملوكا لمن يحرزه بغير شـــبهة ، بالغا نصاب السرقة كما يتفق عليه الفقهاء ، وكل جريمة

من قبيل السرقة لم تثبت فيها هذه الاركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الجانى بحد السرقة ويؤخذ فيها بعقوبات التعزير ، وعند الضرورة القاهرة التى يقدرها الامام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن الغلامين السارقين فى عام المجاعة

ولا بد أن يمتد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة لعصر من العصور ، ولا محل لسؤاله اذا اراد ان يحصر هذه الشريعة فى زمن واحد وبيئة واحدة ، ولكنه يحسن السؤال اذا عرض أمامه أحوالا للامم فيها القديم والحديث وفيها الهمجى والمتحضر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل : هل فى الشريعة قصور عن حالة من الحالات التى تعرض لتلك الامم فى جميع أطوارها ؟ وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صالحة فى حالة من تلك الحالات ؟

فهكذا توزن الشرائع التى تحيط بالمجتمعات فى مئات السنين ومئات البيئات ، وبغير هذا الوزن تكثر منافذ الخطأ أو يبطل السؤال فلا محل للسؤال

***

وننظر الى المجتمع الانسانى الذى يقيمه الاسلام بعد هذه النظرات المجملة الى مسألة الرق ومسألة المرأة ومسائل المعاملات ومسائل العقوبات ، فنحن اذن خلقاء ان نرى فارقا بين المجتمعين ـ مجتمع الاسلام ومجتمع الشيوعية ـ لا تستوى فيه وجوه القياس ، لانه فارق بين وهم مفروض على التخمين ، وبين حقيقة واقعة من حقائق الماضى والحاضر وحقائق المستقبل كما يراها من يشهده رأى العين

فالمجتمع الشيوعى فرض خيالى قوامه دعوى المدعين

انه سيأتي ــ ان اتى ــ سويا بغير طبقات ، وان الشرور الاجتماعية وشرور الطبائع كائنة ستفارقه ابد الابدين اذا فارقه شيء واحد ، وهو راس المال

هذه هي الخرافة التي يسمونها بالمجتمع الشيوعي الذي سيحق غدا متى حقت الدعوى او حق الفرض والتخمين

أما المجتمع الاسلامي فهو هذا المجتمع الانساني المتجدد الذي يحق على سنة التقدم بما يحققه من مبادىء الاسلام ، وهي مبادىء لا تنتشر وتنطوي في مدى أيام أو مدى أعوام . .

يقوم المجتمع الانساني على المساواة بين الناس بغير تفرقة بين الانساب والالوان والاجناس ، ولا تمنعه المساواة أن يعطي المزايا النافعة حقها من الانصاف لمصلحة المنتفعين بتلك المزايا في جميع الطبقات ، ولا تفاضل في الحقوق بالمال او بالوراثة ، فانما يكون التفاضل بينهم بالعلم والعمل : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .. « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة »

واذا وجدت درجات الثروة فلا ينبغي أن تكون حكرا تستأثر به طبقة واحدة ولا أن تكون « دولة بين الاغنياء » ولا بد في كل ثروة من حق معلوم للسائل والمحروم

والاسلام لا يحل مشكلة الفقر بالصدقات المفروضة على الاغنياء لمعونة المحرومين والمعوزين ، ولكنه جعل هذه الصدقات منذ الف واربعمائة سنة لمن جعلتها لهم دول العصر الحديث من العجزة والمرضى والشيوخ والمنقطعين ،

وحل مشـــكلة الفقــر « أولا » بخلع القداسة التى كانت تجلله فى كثير من الاديان ، ثم حلها بايجـــاب العمل على القادرين وايجاب تدبيره على الامام المسئول لكل قادر عليه

***

والمجتمع الاسلامى لا يهدم شيئا من كيان الاجتمــاع الذى استفاده بنو الانسان من أطوار حياتهم الاجتمــاعية فى الحقب الطوال ، لان المفهوم من سير الهداية الالهيـــة كما يسردها القرآن الكريم أن حياة النوع الانسانى تاريخ متصل يتمم بعضه بعضها وتنتهى الى التعارف بين الشعوب والقبائل فى أخوة عامة لا فضل فيها لقوم على غيرهم الا بالعمل الصالح ، ولهذا يحرص الاسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية وفى الاسرة وفى الايمان بوحدة النوع ، ولا يهدم بنية من هذه الابنية الحيـــة التى « تحققت » لتعيش بين القوى العاملة فى المجتمع لا لتنهدم وتندثر فى حقبة بعد حقبة ، كأنها من الشرور التى تولد على الرغم منا ، وتعود كلما استأصلناها كرة بعد كرة ولا ندرى من أين تعود !

وقد جاء فى القرآن الكريم فى وصف أهل النار أنهم (كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار)

ففى هذا الوصف « للعالم الملعون » بيان للفــارق فى تقدير الاسلام بين المجتمع المثالى فى الشر والفساد والمجتمع المثالى فى الخير والصلاح ، ويصدق الوصف المثالى لعالم الشر والفســـاد على التاريخ الانســـانى كما توهمه الشيوعيون . . كلما تعاقبت أطوار التاريخ لعن الاواخــر

منها أوائلها وجاء الخلف الاخـــير ليصب النقمة والعذاب عليهم أجمعين

ذلك فى الحق تاريخ جحيم ، أو تاريخ عالـــم ملعون ، لا خير فى أوائله ولا أواخره ، وشره ثابت فيما كان وخيره لا يكون الا فى أحاجى الاوهام والظنون ، بعد هدم ما كان جميعا أملا فيها سوف يكون

كيان الاجتماع فى الاسلام لا يتهدم بل يزداد قوة على قوة ، ويدعمه الاسلام ليؤسس به بنيانا مرصوصا يشد بعضه بعضا، ويتعاون على البر والتقوى ولا يتعاون على الاثم والعدوان

فالشخصية الانسانية فيـــه حقيقة حيـــة، والاسرة الاجتماعية فيه حقيقة حية ، والنـــوع الانسانى الذى تنتمى شعوبه وقبائله الى أسرة كبيرة يجمعها التعـــارف والتعاون هو كذلك حقيقة حية

لا شىء ينهـــدم جزافا أو لانتظار مجتمع من الخلق لا رابطة بينهم الا انهم كانوا مأجـــورين يســـامون بخس الاجور

هذا المجتمع الذى ينهدم من أجله كل كيان قائم لم يكن قط الا وهما من أوهام الخيال ، أو حلما من أحلام كابوس الشر والفســـاد .. اما الشخصية الانسانيـــة وروابط الاسرة ووحدة النوع الانسانى فهى أمامنا بنية حية أو بنية تحيا ولا يجوز أن تنهدم لوهم من الاوهام ..

كل منها « كيان » حق صنعته العناية الآلهية ورصدت له رسالته وآتته قدرته عليها، ولم يخرج من بوتقة الخلق «غلطا» ليعاد تركيبه بعد تصحيح حسبة الاجور ورءوس الأموال

وما من حجة غير حجة الشيوعية ينهدم بهـــا كيـــان

الشخصية الانسانية ، وينهدم بها كيان الاسرة ، وينهدم بها كيان النوع الانساني ، ليئول ميراثه الى طائفة مزعومة ما وجدت بعد ، وما من دليل قط على انها وشيكة الوجود

ما أهزل الحجة وما أكرم البناء الذى يراد له الهدم والفناء ..

ان الشخصية الانسانية — شخصية الفرد المسئول — لاذنب لها الا أنها لاتستطيع كل ماتريد ، وأن مايريده الافراد يتم فى المجتمع على نحو غير الذى أرادوه .. ولو ثبت هذا الذنب لما اوجب مقت الحرية الفردية ولا أوجب بطلان العمل الذى تعمله ، فربما كانت مناواة المجتمع للفرد هى الشر الذى تزيله أو نتمنى له الزوال .. وكما يقال أن عمل الفرد موقوف على التجاوب بينه وبين المجتمع ، يقال كذلك أن عمل المجتمع موقوف على التجاوب بينه وبين الافراد ، فلا وجه لهدم « الشخصية الفردية »حتى لو صح أنها لاتفعل كل شيء

والاسرة تنهدم لانها أذنبت بتعليم الناس شريعة الميراث، وما تعلمت الاسرة الميراث الا من طبيعة التكوين التى تجعل الولد وريثا لابويه فى خلقه وخلقه . ولا يستطيع المجتمع أن يجرده من هذاالميراث أوينجيه منهان طلبالنجاة وما كان ميراث المالكين شيئا فى جانب الميراث الذى تلقاه وراثة الصناعات أبناء بعد آباء وآباء بعد أجداد ،وماكان فى بنى الانسان من خير اذا لم يبق منهم الا من يعمل لساعته ولا يفكر فى غده ولا فيما يكون بعد حياته ..وهذه خليقة تعلمها الناس من الاسرة ومن الميراث ، وتعلموا خيرا يذهب بذهابه ميراث هذا المخلوق المسمى بالانسان حيث كان

وأما النوع الانسانى فينهدم لأنه لم يوجد قط فى عرف

الشيوعيين ، بل كان الموجـــود فى كل حقبة طائفة من السماسرة وطائفة من الاجراء وطائفة من أصحاب المال، ودنيا واسعة لك أن تسميها سوقا أو مصرفا أو مصيدة من مصائد الحيلة والخديعة .. وليس لك أبدا أن تسمى هذه الدنيا فى طور من أطوارها أو فى جميع أطوارها عالما يسكنه بنو الانسان !

كلما دخلت أمة لعنت أختها ..

هذا هو الجحيم الشيطانى الذى زيفه الابالسـة ، ولم يفرزه أحد قبل مقدم اخوانهم وأندادهم فى الحيلة والخديعة دعاة الشيوعيين ! ..

وهذا بحق هو العالم المثالى للشر والفساد ..

وفى مثل هذا العالم قد يسهل العبث بكل كيان اجتماعى بناه التاريخ ، ولا يزال يبنيه ويوطد بناءه على اتصال بين ماضيه وتاليه .. قد يسهل العبث بهذه الابنية الاجتماعية فى دور التحريض والتخريب ، ولكنها قوى اجتماعيـة لا يتأتى الاستغناء عنها فى دور التـأسيس والتنظيم .. ولا بد أن تحيق غوائل الحرمان منهـا بالمجتمع فى جملته وبكل فرد من افراده على حدة ، وقد حاقت بالمجتمـع الشيوعى عواقب الحرمان من هذه القوى الحية ! .. قوة الكرامة الانسانية فى « شخصية » الفرد ، وقوة العاطفـة المتأصلة فى كيان الاسرة ، وقوة الايمان بوجود بنى الانسان التى تعلو على منافع الطوائف والافراد .. فأحس المجتمع الشيوعى عواقب هدمها فى اليقين الخـــواء والعواطف النخرة ، والحماسة المكذوبة من صنع الكلام فى مصـانع الاوهام .. فثاب أعداء الوطن والدين يتمسحون بالوطن والدين ، وقالوا فى رثائهم للحرية الشخصية بعد موت « ستالين » ان اختناق الضمائر والعقول فى عهده انما كان

شهوة من شهوات استبداده ، خرج بها على مبادىء الدعوة المقدسة وخالف بها أناجيل « ماركس » و لينين » ، وقالوا عن الاسرة انها قوام المجتمع كله أو قوام الوطن كما يسمونه الآن ، وقالوا عن وحيهم المعصوم ـ بعبارة وجيزة ـ أسوأ ما كان في عرفهم كفرا بواحا منذ عام أو عامين

ونحن لا نعلم أن « ستالين » كان فى استبداده مخالفا لمبدأ من مبادىء استاذيه « ماركس » و « لينين » ·· والمهم هنا هو مبادىء « لينين » بعد الحرب العالمية الاولى لان « ماركس » لم يحضر عملا من أعمال التنفيذ والتنظيم فى الدولة الشيوعية ، ومبادىء « لينين » التى أعلنها فى هذه الفترة صريحة فى جواز الحكم المطلق وموافقته للمبادىء الشيوعية ، فانه يقول فى الجزء الثلاثين من مجموعة أعماله الروسية : « آن اشتراكية السوفيت الديمقراطية لا تناقض بحال من الاحوال قيام الدكتاتورية والادارة بيد فرد واحد ·· اذ يتم فى هذه الحالة تنفيذ ارادة الطبقة على يد حاكم بأمره يعمل على تعجيلها وقد يكون ألزم لتحقيقها »

فليس فى استبداد « ستالين » خروج على مبادىء المذهب كما شرعها مؤسس المذهب فى دور التنفيذ ، فاذا كان فى الامر من جديد فالجديد فيه أنه هزيمة جديدة للمذهب فى حربه للحرية الشخصية تتلو هزائمه الاولى فى حربه للاسرة وللحرية الشخصية أوللحقوق الشخصية المهضومة ـ قبل موت ستالين بسنوات ـ فجاء المذهب الذى جعل الملكية الخاصة ينبوعا لجميع الشرور يوحى بها ويبيحها فى المزارع المشتركة ، وجعل من حقوق الفلاح فى تلك المزارع أن يحتجز قطعة من الارض لسكنه وتربية دواجنه يملكها فى حياته ويورثها بعده لخلفائه فى المزرعة المشتركة ، ولا يسمى ذلك عندهم بالملك الخاص لانهم يسمونه بالسكن المقيم

ومما ألمنا به فى هذه الاسطر عن القوى الاجتماعية التي تهدمها الشيوعية ويبنيها الاسلام نعلم أن النظامين متقابلان لا يتلاقيان ، وأنهما متضادان مذهبا وخلقا ومجتمعا ولا ينحصر التضاد بينهما فى العقائد والمعقولات

فالشخصية الاسلامية التى تهدمها الشيوعية يوطدها الاسلام وينوط بها أوامره ونواهيه ، ويعرفها مستقلة لاواسطة فيها بين الخلق والخالق من سلطة دينية أو حكومية ، ولا حجاب فيها بين الارض والسماء

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)

(ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزور وازرة وزور أخرى)

والاسرة التى تهدمها الشيوعية يجعلها الاسلام سكنا للزوجين وموئلا للبر والرحمة بين الآباء والابناء

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

(وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما)

والبنون من زينة الحياة الدنيا ومن نعم الله التي يحصيها على عباده

ولقد يكون للآباء فى الامم المقاتلة ، وفى غيرها هوى فى ذرية البنين يغتبطون بهم ويزهدون فى الذرية من البنات ، فالقرآن الكريم يؤنبهم على ذلك ويلهمهم شعورا غير هذا الشعور فى محبة الذرية من بنين أو بنات :

(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم

يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) .

أما الشعور الانساني الذي لا يحجبه شعور الطبقة ولا شعور العصبة فهو الشعور بالاسرة الواحدة تجمع الشعوب والقبائل من أب واحد وأم واحدة ، وهو شعور الاخاء بين جميع المؤمنين (انما المؤمنون اخوة) .. (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) .. وذلك هو المثل الاعلى لنعيم الابرار

***

والقوى التي تنعقد فيها المقارنة بين النظامين الاجتماعيين هي أشياء موجودة محسوسة الاثر ، يحاربها الشيوعيون لانهم يجدونها ويحسون أثرها ، ثم هم يجدون منها سدودا تصدهم وتعوق مبادئهم أن تنتشر بين الشعوب الاسلامية ، ولا تصدهم بسدود من التعصب الديني وحسب كما تصورهم العقائد الدينية الاخرى ، بل تلقاهم بالمبادىء التي تغنيهم عن مبادىء الشيوعية وبالنظام الذي يغنيهم عن نظامها ويحز في نفوسهم أنهم يحاربونها بمبادىء يرجعون بين آونة وأخرى عن مبدأ منها ، ويبتعدون عنه ليقتربوا من النظام الذي شنوا الغارة عليه وأرادوا أن يزعزعوه فما عتموا أن أيدوه وأكدوه

وانهم لفي عداء عنيف للاسلام من أجل هذا لا من أجل أنه دين ينسبونه الى عمل الانسان ولا ينسبونه الى الوحي الالهي كما ينسبه المسلمون ، ولو كانت قوى الاسلام الاجتماعية تطاوعهم وتجاريهم على سياستهم وعلى مطامعهم لما حاربوه ولا ضارهم أن يؤمن المسلمون بأنه من وحي الله لا من عمل الانسان

فليست المشكلة بين النظامين مشكلةالبحث «الاكاديمي» في مصدر الاسلام .. اذ يكون مصدر الاسلام ما يكون ،

فهم محاربوه ما دام سداً فى وجوههم لا ينفذون من ورائه الى السيادة على بلاد المسلمين

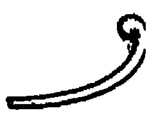
ولغة الاشياء الموجودة هى اللغة التى يفهمها الشيوعيون ويجب أن يفهمها بين ظهرانينا نحن المسلمين تلك الشرذمة المتحذلقة التى تقيس الدين بجميع المقاييس الا مقياسه الصحيح الذى يصلح لتقديره

فمن عجز العقل أن يحسب أنه يفرغ من قضية الدين الكبرى كما يفرغ من شهادة شاهد فى قضية على حسب الواقع والرواية ، أو يفرغ من قضية الدين الكبرى كما يفرغ من حسبة رياضية بميدان الجمع والطرح ومعادلة الارقام .. فانما يوضع حساب الدين فى موضعه حين يوضع معه حساب المتدينين به فى جميع أوطانهم وأزمانهم وجميع احوالهم ومحاولاتهم ، والمتدينون به ملايين من الخلق يقيمون فى أرجاء واسعة فى الارض ويخلف اللاحقون منهم سابقين على دين أو على غير دين ، ومنهم العارف والجاهل ، والحكيم والاحمق والطيب والخبيث والقوى والضعيف ، والمسئول عن قوم والمسئول عن نفسه لا يضطلع بتبعة غير تبعاتها ، وهم يعيشون مع دينهم منفردين ومجتمعين فى أعماق أعمق من أعين الرقباء وسلطان ذوى السلطان ، ويرتفعون معه الى شأو لا يضيئه العلم اذا أحاطت به الظلمات

واذا نظرنا الى الدين نظرتنا الى دواء يعالج به داء المجتمع ، فمن الخطأ أن نحسبه قارورة دواء تشرب ثم تلقى بعد فراغها ، فانما هو « نظام صحة » دائم يؤتى فوائده على مدى اعمار المتدينين ، وأعمار المتدينين ألوف السنين

ولكل قائل كلمته فى مدى الزمان الذى يتطلبه الدين لاصلاح شئون الامم الا .. الا الشيوعيين ..

نعم الا الشيوعيين فلا كلمة لهم في العمر الطبيعي المقدور للدين ، لانهم يفسحون لمذهبهم العمر من القرن العشرين الى ما شاءوا من القرون السبعين والثمانين والتسعين ، ولا سند لهم من اله أو نبي أو رســـول ٠٠ الا أن يكون « كارل ماركس » أو « لنين » أو « ستالين » !



محصول الدعوة

والمحصول من مراجعة الاشتراكية العلمية أنها اشتراكية طوبية غير علمية ، وأنها أشد امعانا فى التخريف وبعدا عن العلم من الطوبيات التى قال « كارل ماركس » انه جاء باشتراكيته العلمية ليدحضها ويمحوها

فلا يكفى أن يصف « ماركس » مذهبه بالاوصاف التى تعجبه لتثبت هذه الاوصاف ، ولا يكفى أن يملأ مذهبه بالارقام والاحصاءات لتزول عنه صفة الطوبية وتلصق به صفة العملية ؛ لان المعول فى ذلك كله على الحصول من وعود الذهب وصوره المتخيلة .. وليس فى الطوبيات جميعا ما هو أشد امعانا فى التخريف والوعود الخيالية من هذه الإشتراكية المزركشة بالارقام والاحصاءات المسماة بالعلمية أو الواقعية أو المادية وما جرى مجراها من الاسماء

« فكارل ماركس » يعد المصدقين به مجتمعا عالميا واحدا من طبقة واحدة لا سيد فيها ولا مسود، ولا حاكم ولا محكوم .. يأخذ فيه كل حقه بغير زيادة ، ويعطى فيه كل حقوق الآخرين بغير بخس ، وينتهى فيه طمع الطامع وحيلة المحتال وكسل الكسلان كما ينتهى فيه حب الرئاسة والاستئثار ونزاع المتنازعين على مراكز التصريف والتدبير أو تزول فيه مراكز التصريف والتدبير ويجرى التصريف بغير مصرف والتدبير بغير مدبر .. فلا يخطر لاحد أنه أحق

بهـــذه المراكز من أخيه ، ويعم ذلك أقطـــــار الارض من مشرقها الى مغربهـــا ، ومن شـــــمالها الى جنوبها ، فيزرع الزارع بمقدار ما يلزم فى الدنيا ، وتنتظم المواصلات والمبادلات بينها بغير رقابة ولا اشراف ولاتقدير سابق ولا حاضر من الموكلين بالتقدير •• واذا خطرلانسان أن يدع مسقط رأسه ليذهب حيث شاء ذهب حيث شاء ، واذا خطر لغيره أنه يستثقل عمله ويستبدل به عملا آخر تم هذا وذاك على ما يشاء حين يشاء •• وفيما بين ذلك ينقطع للعلم من هو أهل للعلم ، وللفن من هو اهل للفن ، وللاختراع من يقدر عليه ، وللصناعة من يحسنها •• رخاء سخاء كما يهب الهواء ويهطل المطر ويتسلسل الماء بـــلا قناطر ولا سدود ولا هندسة ولا بناء ، ثم تطرد الامور على هذا الحلم البديع الى مدى يقصر عنه خيال الحالمين لانه لا يحسب بالعشرات أو المئـــات ، بل يحسب بالملايين من السنين ••

مثل هـــذا التخريف يخجل منه كل حالم فى طوباه ، ما لم يسبقه بتنبيه القارئين الى قصة منام أو ما يشبه المنام من أوهام الاحلام ••

الا أن الاشتراكية العلمية تزعم أنهـــا ترفض هـــذه الطوبيات وتزدريها ولا تشغل الناس بأحلامها وأمانيها •• فماذا وقع فى ذهن الداعية الى هذا المذهب حين تخيل أنه بعيد من الطوبيات وهو غارق فى لجتها لا يملك أن يرفع عينيه من فوقها ؟

هنا — كما فى كل موضع من مواضع البحث فى هذه الخرافة — نفتش عن الظاهرة النفسية فتهدينا الى السبب القريب ، ولا ضرورة بعده لسبب قريب أو بعيد •• فما الذي جعل « ماركس » يباعد بين مذهبه وبين الطوبيـــات

ووعود الطوبيين ؟ •• الفظائع التى فى الطريق ! ••

ان الفظائع لا تلائم الطوبيات وأحلام الطوبيين ، ومن كان يرسل الخيال ليتمنى أحسن الامانى فليست فظائع الفتك وسفك الدماء والوعيد بالخراب والنكال أمنية يتمناها ويرسل الخيال ليسعد بها ويسعد الناس برؤياها

لا طوبى هنا ولا طوبيون •• فماذا اذن غير الطوبى والطوبيين ؟ ••

الفظائع التى فى الطريق ••

ولا شيء فى هذه الفظائع يناقض الواقع العلمى أو العلم الواقعى ، لان الناس تعودوا من الواقع أن يصدم الاحلام ويوقظ النيام ، وتعودوا من العلم أن يهزأ بالخيال ولا يحجم عن تقرير الحال والمال فى أشنع الاحوال •• فلا طوبى اذن فى الاشتراكية الماركسية ، ولا نكوص فيها عن العلم والواقعية ، ولا مجافاة بينها وبين الطوبية — فى الواقع — الا هذا الوعيد بالفظائع ، وهذا الجو الذى يعيش فيه « ماركس » ولا يستطيع أن يخرج منه بحسه ولا بعقله ولا بخياله ولا بمقاصده وآماله ، ولا يستطيع فى الوقت نفسه أن يعتذر له بعذر غير « الواقع العلمى » المزعوم •• فانه بالواقع العلمى يستطيع أن يوفق بين الاشتراكية التى يدعو اليها وبين الفظائع التى يرصدها فى طريقها ، وانه لأعجز ما يكون عن التوفيق بين الطوبية وهذا المذهب المشئوم ، وان كنا نذهب الى غايته الموعودة فاذا هى خرافة من خرافات الاحلام يكاد أن يسمع منها غطيط النيام

علم •• ! اى والله علم !

هكذا قال « كارل ماركس » •• وهكذا ينبغى أن يقول وهو يحس الفظائع تملأ فراغ وجدانه وخياله ، فلا يستطيع أن يوفق بينها وبين نحلة من نحل الطوبيات ،

ولا يستطيع أن يرسلها بغير عذر يشفع لها عند المستمعين اليها ولا عذر اليها ، الا انها « علم واقع » يضطره الى مواجهة المصير الذى لا مهرب منه ..

وماذا يصنع المسكين فى العلم الــواقع ، وفى المصــير الذى لا مهرب منه ولا حيلـــة فيــه ، ولا قرار دونه ولا فرار ؟ !

***

اذا استحق أحد سخرية الســـاخرين لهذا الخلط بين العلم وتلك الخرافة ، فلن يكون « كارل ماركس » أحقهم بالسخرية ، لان دعوى العلم عنده مهرب يلجأ اليه من سبة الفظائع التى يبشر بها ولا مسوغ لها من الاعذار الا أنها ضرورة قاسرة ، وليست بأحلام ولا بحديث من أحــاديث الاسمار ..

انما السخرية فى هذا الخلط حق لهوسة اللغط بالعلم فى أواسط القرن التاسع عشر ، فانها هى التى جعلت تلك الخرافة أهلا للبحث فيها بمقاييس العلم وموازينه ، وهى قبل أن تقاس وقبل أن توزن واضحة النسب بينها وبين الخرافة ، منقطعة النسب بينها وبين العلم والمنطق ، وبين الوزن والقياس

ما الذى يوضع موضع النقد العلمى فى هذه الخرافة ؟..

انها تلفيقة من تلفيقات الفلسفة استعارها « ماركس » لنواميس المادة والمال .. كان هيجل يقول ـ على ما هو معلوم ـ ان الفكرة تعمل ضدين ، ثم يجتمع الضدان فى تركيب واحد يخرج منه ضده دواليك الى الموعد الذى تبطل فيه الاضداد وتنطوى فى الفكرة المطلقة أو الفكر المطلق لاول مرة منذ أزل الآزال الى الابد الموعود

وجاء « ماركس » فقال ان هذه التلفيقة غلط فى عالم الفكر يصبح صوابا لا صواب غيره اذا طبقناه على مسائل

المادة والاقتصاد ، ثم أرسل النواميس الكونية تعمل على هذا النهج فلم تعمل شيئا على وفاقه اذا نظرنا الى تركيب عناصر المادة نفسها قبل كل تركيب .. فان عناصر المادة التى نيفت على المائة فى العصر الحاضر لم تتسلسل واحدا بعد الآخر على النهج المزعوم ، بل ظهرت ـ أو ظهر أكثرها ـ أفقيا اذا صح هذا التعبير ، ولم يتغير عنصر منهـا وفاقا للضدية المزعومة منذ تم تركيبه مع غيره فى طبقة واحدة من طبقات الوجود ، ونعنى بالطبقة الواحدة أن تركيب العنصر منها لا يتوقف على التسلسل فى الترتيب، بل توجد ألوف العوامل الطبيعية التى لا تستلزم خروج الضد من الضد فى خط واحد ، ينتظر الاخير منه الاول أو ينتظر الاول منه الاخير

بيد أننا نتمشى مع هذه النواميس الكونية كما يزعمونها، فنرى أنها تتوقف عن العمل عند نشوء المجتمع البشرى ، وتسلم هذا المجتمع للخلاف على الاجور ينوب عنها فى خلق الاضداد التى تريدها الفلسفة المادية ، ثم يئول الامر الى ثلاثين أو أربعين سنة فى الربع الغربى من القارة الاوربية فينجلى لنا ختام هذه النواميس على النحو القاطع المانع الذى لا يسمح بمنفذ شعرة للمراجعة أو الانتظار ، فنحكم على الماضى حكما لا مرد له ونحكم على المستقبل حكما لا مخرج منه ، ونعرف سر الكون كله من تلك السنين الثلاثين أو الاربعين التى قامت فيها الصناعة الكبرى ، وختمت فيها قصة الخلاف على الاجور

هذه « الجزيرة » التى استقلت بها قصة الاجور عن النواميس الكونية تعود فتستقل مرة أخرى عن قصة الاجور يوم تنشأ فيها الطبقة الواحدة الموعودة .. فلا عمل فيها للنواميس الكونية الابدية ولا لقصة الاجور ، ولا أثر فيها لتلك العوامل الابدية التى ظلت تعمل من مبدأ الكون وتظل

تعمل الى نهاية الكون . في كل شيء الا في مجتمع الانسان هراء وأقل من هراء ..

هراء لا يعطى من الثقة ما يكفي للجزم بهدم كوخ في قرية نائية .. ولكنه يكفي عند الماديين العلميين لهدم كل ما يخالفه من الماضي ، وكل ما يخالفه من المستقبل ، وتعطيل كل اصلاح يجيء من غير طريقه في أنحاء العالم المعمور ، ولو اقتضى ذلك اهدار جيل أو جيلين من تواريخ الامم في تلك الانحاء .. وانه ليقتضي على التحقيق اهدار جيل أو جيلين أو أجيال كثيرة اذا أدخلنا في حسابنا تباعد الاطراف وتباعد البنيات وطوارىء الزمن التي تأتي في خلال هذا الصراع بين الساعين الى الاصلاح والساعين الى تعطيل كل اصلاح في انتظار المجتمع الموعود : المجتمع الذي يستقل عن نواميس الكون وعن نواميس الاجور

أما أن هذه ثقة علمية تملي هذه النبوءات على الماضي والمستقبل الى ما وراء المجهول ، فذاك أبعد خاطر يخطر على بال العارف بحدود العلم وحدود هذه المسألة التي تتخطى حدود التفكير .. وأما أنها ظاهرة من ظواهر الامراض النفسية فهو التفسير - العلمي - الوحيد لتلك الدعوة ، ولا نقول التفسير القريب .. لان الهجوم على تلك الشرور الباغية بمثل ذلك السند الواهن لن يصدر الا عن مرض نفسي في طبيعة الاجرام

وقد مضى القول عن عوارض الظاهرة المرضية التي كانت تحيك بنفس امام الاشتراكية - العلمية - « كارل ماركس » .. ومرض الفكرة كاف في الرجوع به الى مفكر واحد ، ولا سيما المفكر الذي أنشأها وبث من حياته في أجزائها ، ولكننا واجدون أمثال هذه العوارض في كل امام من أئمتها وكل داعية من مروجيها ، ولا نريد أن نختار منهم جزافا ولا نستطيع أن نحصيهم جميعا لان احصاءهم

الذى يحيط بهم قد يستغرق المطولات ٠٠ فلنتحدث عن زعيمين من أكبر المنشئين للمذهب الشيوعى مع « كارل ماركس » وعن زعيمين آخرين من أكبر المنفذين له بعد قيام الدولة الشيوعية ٠٠ والزعيمان المنشئان هما «انجلز» و « باكونين » ، والزعيمان المنفذان هما « لينين » و « ستالين » ٠٠ وسنرى بعد اجمال عوارضهم النفسية أننا أمام شرذمة من الاشرار والمخنثين والممسوخين تجردوا للغاية التى لا يتجرد امثالهم الا لامثالها ، وان تكون بالبداهة غاية خير وصلاح

****

« انجلز » كان مخلوقا مؤنث المزاج ، يكتب الى أخته. وهو فى الثالثة عشرة فيروى لها اخبار الكتاكيت التى يربيها وألوانها وشياتها والكتكوت الاسود الذى يأكل من يده اكلا لما كل ما يضعه فيها من طعام ٠ وكان من طبيعته أن يتم تحت تأثير كل شخصية يعاشرها فترة من الوقت ، ولو كانت شخصية فتاة يعولها ٠٠ فكانت « مارى بيرنز » فتاته الايرلندية هى التى قادته الى وكر الثوار الايرلنديين ، ولم يكن مذهبه أن تستقل الشعوب الصغيرة لانه كان ينصح الشعوب الاوربية الشرقية بالاندماج فى الاقوام الكبرى التى تحدق بها ٠٠ وانما قادته الفتاة الايرلندية الى حيث شاءت لانه سهل القياد ٠ وقد نلمح فى ثورته الوحيدة على « كارل ماركس » حين قصر هذا فى تعزيته عن فتاته أنه أحس من صاحبه سخرية بهذه الرجولة المدعاة التى تمثل لنفسها دور العاشق المفجوع فى العشيقة ، فكان جمود « ماركس » مثيرا له بما ينطوى عليه من هذه السخرية ، اذ كان ذلك الجمود أمرا يعرفه ولا يصدمه فى هذا الحادث للمرة الاولى

وعقدته الاخرى أن أباه الصارم كان يشعر بخيبة الامل من ميوعة ولده وخليفته فى عمله ، وكان الاب شديد التدين على مذهب « كلفن » المشهور بالتعصب والحمية ، فأدخله مدرسة فى رعاية أستاذ معروف بالصرامة والرياضة على الجد والعقيدة الدينية .. فلم تكن له طاقة بالجد ولا بالعقيدة ، وصادفته فترة من الشكوك العامة شاعت بين أقرانه فى عصر « فيورباخ » داعية الفلسفة المادية « وستراوس » صاحب القول بالشك فى وجود السيد المسيح .. فانتهى به الامر الى الفرار من العمل فى مصنع أبيه ليعيش مع « كارل ماركس » فى بروكسل ، وكان يكتب الى « كارل ماركس » قبل ذلك متبرما بالحاكم أو الحارس أو المحافظ (١) المسلط عليه ، وهو يعنى أباه !

وفى سيرة « باكونين » ــ امام الشيوعية الفوضوية ــ ايماء خفى أو صريح الى فجيعة فى رجولته وعلاقاته بعشرائه من الفتيان المهاجرين الى سويسرا والمقيمين فيها ، وكان يقول لأحدهم أنه بحاجة الى أم له ترعاه فى هذه الغربة ! وكان يتزوج وهو يعلم أنه لا مأرب له فى الزواج فتفارقه زوجته باذنه لتلحق بعشيقها فى ايطاليا ، ثم تعود حاملا وتفارق الزعيم الثائر مرة أخرى بصحبة فتى من فتيانه « نشاييف » (٢) فلا تنقضى أسابيع حتى تكتب اليه تبلغه أنها حامل وأنها ستعود للوضع لديه .. ورسائل هذه الفضائح محفوظة فى سيرة ومذكرات أصحابه ، يجد القراء طرفا منها فى كتاب المنفيين الخياليين (٣) لصاحبه « ا٠هـ٠كار » الذى قضى أكثر من عشرين سنة بين السفارات ومكاتب المخابرات

(١) Governor
(٢) Nechaev
(٣) The Romantic Exiles : by E. H. Carr



اشتهار اسمه بعد الثورة الروسية ، تحرينا منها ماكتبه أقرباؤه وأبناء بلده لانهم أولى بمعرفته وأبعد من مطعن التحامل عليه ، وراجعنا ـ مع هذا ـ غير تلك التراجم ، فلم نجد فيها مايخالف الصورة التى صورها له أقرب الناس اليه وأرغبهم فى الثناء عليه ، صـــورة مخلوق ناقص التكوين ناقص العاطفة ، بينه وبين أبنـــاء نوعه جفوة أن لم تكن قطيعة ، تغرى بالعداء ولا تغرى بالولاء

وفى رأينا أن كلمة منه هنا ـ وكلمة هناك ـ أحجى من كل ماقيل عنه أن تبرزه فى صورة العاطفة الناقصـــة وما تنم عليـــه من التكوين الناقص ، وهو القائل فيما نقلناه عنه من غير هذا الفصل ان سياسته مع الخصم أن يمحوه من على ظهر الارض ويعفى على أثره ، وهو القائل فى حـــديث عابر رواه عنه « جوركى » الـــكاتب الروسى المشهور : انه يخشى مغبة التلطف مع الناس ، ولم يقل ذلك فى كلام عن العداوة السياسية أو المذهبية ، بل قاله وهو يستمع الى الموسيقى التى كان يحبها كما يحبها جمهرة الروسيين

روى « جوركى » أنه استمع يوما الى لحن من الحان « بيتهوفن » فقال له انه يود أن يسمعه صباح مســـاء ، وأنه على حبه الموسيقى يحذر أن يصغى اليها طويلا لانها ترقق العاطفة وتهم بيد السامع أن يربت على رءوس من حوله . وينبغى على كل حال أن يحذر الانســـان التربيت بيده على رءوس الناس ، لانها قد تصـــادف هناك عضة تستأصلها . . . ! (١)

انسان يحسب أنه على خطر من العطف والرحمة ،

---

(١) محادثة مع جوركى فى رسالة الماركسية والادب لادموند ويلســون Edmund Wilson

وانه لا يجد الامان مع الناس الا على الحذر والاتقاء .
وعلى هذا الحذر والاتقاء لانعلم من سيرته انه حذر الفطنة واتقاء الوعى الذى يدرك به طبائع الناس ممن هم أولى بادراكه لاشتراكهم معه فى الدعوة ، وملابستهم اياه فيما يعملونه على توالى السنين جهرة وخفية ، فقد كان على خبثه لايقدر على ذلك « التعاطف » من الجانب المقابل لجانب الاشتراك فى المودة والتفاهم « الشعورى » بغير كلفة .. فلم يفهم نفوس أعدى أعدائه المتجسسين عليه والمرائين له بالحماسة والغيرة والمجانسة فى الراى والشعور ، وكان له أربعة من أخص الخواص عنده يعملون لحساب الحكومة ويحتلون مراكز القيادة فى حزبه ، ومنهم «آزيف» رئيس فرقة المقاتلين ، و «مالنوفسكى» محرر « برافدا » لسان حال الحزب وزعيم النواب الشيوعيين فى الدوما ، و « ميرون شرنيمازوف » زميله فى تحريرها وامين صندوقها بالتناوب مع الجواسيس الآخرين و « كوكوشكين » رئيس شعبة موسكو المدخرة لتنفيذ الانقلاب فى ساعة الخطر ، وسيأتى أن «ستالين» — خليفته — كان واحدا من هؤلاء الجواسيس المؤتمنين على أسرار الحزب والزعامة فى أحرج أوقات «الجهاد» (١)

ان هذا الجهل بضمائر الناس — مع ذلك الحذر — معناه نقص العاطفة من طرفها الآخر ، أو معناه انحصار العاطفة انحصارا لا مجاوبة فيه بينه وبين أبناء حواء على العداء ولا على الولاء

***

وقد أصيب «لينين» بالعجز التام عن الحركة فى أواخر

---

(١) كتاب « الثلاثة الذين صنعوا الثورة» تأليف برترام وولف
Three who made Revolution : by Wolf

أيامه ، قيل : من اثر رصاصة لم تقتله ، وقيل من اثر النقص الذى كمن فى تكوينه وظهر مبكرا فى عجزه عن المشى قبل الرابعة ، وتتواتر الشـائعات بين المطلعين على أخباره ــ ومنهم « تروتسكى » ــ أنه مات مسموما ، ولم يمت مباشرة بفعل الفالج الذى كان يعاوده فى السنة الاخيرة كلما خفت وطأته عليه ، وأن « ستالين » عجل بسمه خشية على مركزه فى الحزب بعد وصية «لينين» التى نصح فيها لاعضاء اللجنة العليا فيه بالتخلص من « ستالين » واسناد « السكرتارية » الى غيره

***

واذا انتهينا الى البحث فى طبيعة « ستالين » فنحن أمام « شخصية مفسرة » تتقارب فيها الشـقة بين اقوال الشيوعيين واعداء الشيوعية ، وتتكرر من أعمالها دلائل الاجرام التى لا حاجة بها الى أقوال الانصـار والخصوم

وقال عنه « لينين » فى رسالته الى لجنة الحزب العليا انه فظ خبيث دسـاس لا تؤمن عاقبة كيده على الحزب والمذهب ، وكان أعضاء هذه اللجنة عند الظن بأمثالهم فى أمر هذه الوصية ، فانهم لم يستمعوا فيها لصـوت الوفاء الواجب لزعيم على فراش الموت .. ولم يستمعوا فيهـا لداعى الامانة والغيرة على المذهب ومصـيره ، واستمعوا لصوت واحد هو صوت الرهبة والرغبة بين يدى الرجل الذى قبض على أزمة الدولة بكلتا يديه ، واستطاع بعد قليل أن يطرد من البلاد الروسية زعيما فى طبقة الزعيم المتوفى ، وهو « تروتسكى » الذى لقى مصرعه بعد نفيه على أيدى أجراء « ستالين » ..

وشـهادة « لينين » على صاحبـه اخف محملا على

سمعته من شهادة الزعماء الذين خلفوا « ستالين » وشاركوه فى الحكم مدة لايقل أقصرها عن خمس سنوات وقد يبلغ أطولها الثلاثين ، فقد عرف العالم منهم بعد موت « ستالين » بثلاث سنوات انه « كذاب سفاح يهدر الارواح بالمئات ويسخر مناصب الدولة الكبرى لخدمة شهواته واشباع شذوذه الجنسى الذى اتسم بجنون القسوة أو السادية .. » وأجمعوا كلهم على أنهم كانوا يذهبون اليه ولا يكادون يصدقون بالنجاة وهم خارجون من عنده ، وأنهم كانوا يعلمون جزاءهم لديه اذا خامره الشك فيهم أو الخوف منهم ، فقد سامهم أن ينتزعوا من الابرياء اعترافهم المغصوب بجرائم الخيانة والمؤامرة على الشعب والدولة ، وأن يكرهوا أقاربهم على رفع العرائض المعجلة يلتمسون فيها الاسراع بانقاذ البشرية من الابرياء المحكوم عليهم ، والمبادرة باخماد انفاسهم التى يتلوث بها هواء الوطن المقدس .. ومن هؤلاء الاقارب أمهات وآباء وبنون وبنات !

والثابت بغير حاجة الى الاثبات من أقوال الاقطاب الشيوعيين أن زعماء الحزب الذين قتلهم « ستالين » فى محاكماته لايقلون عن ثلاثة أضعاف الزعماء الذين قتلهم جميع القياصرة ، وأن ضحايا عهده بلغوا الملايين من القتلى والسجناء والمنفيين والمفقودين

ونقص التكوين فى « ستالين » حقيقة لا حاجة بها الى الاثبات من الاصحاب أو الخصوم ، فانه لم يقبل فى الجندية للدواء ذراعه اليسرى والتحام أصابع قدمه واختلاج فى نظره .. واجرامه المطبوع ، كذلك من الحقائق التى لا حاجة بها الى الاثبات من قادح أو مادح ، لانه ثبت من دوائر الحزب كما ثبت فى دوائر

الحكومة .. اذ بلغ من استخفافه بالارواح أنه ألقى على مركبة البريد تلك القذيفة الجهنمية التى اشتهرت فيما بعد « بقذيفة تفليس » ، ولم يحفل بأرواح الابرياء الذين كانوا فى مركبة البريد طمعا فى المال المحمول عليها لصرف «مرتبات» الموظفين .. ولما شاع خبر هذه القذيفة نكب الحزب فى سمعته بين سواد الشعب وخيف عليه الانحلال ، فتقرر فصل « ستالين » من الحزب سترا للمظاهر وحماية للارهابيين من مطاردة الاهلين الذين كانوا يعطفون عليهم قبل تلك الجريمة النكراء

***

وأما الطامة الكبرى بين وصمات هذه الشخصية التى لاتفرغ وصماتها ، فقد كانت مجهولة قبل انفجار السخط عليه من أتباعه وخلفائه ، فلم يكن أحد من غير القلائل المعدودين يعلم أن « ستالين » كان جاسوسا قيصريا الى ماقبل سقوط القيصرية بقليل ، وأن الذين عرفوا ذلك السر المرهوب قد هلكوا جميعا فى المحاكمات الملفقة حين علم باطلاعهم عليه ، ولم يفلت منهم غير فئة بقيد الحياة تعد على أصابع اليد الواحدة

كانت أضابير الجاسوسية القيصرية تملأ المخازن والاقبية فى دواوين متفرقة يتبع بعضها وزارة الخارجية ، وبعضها ادارة الشحنة السياسية ، وبعضها ادارة الشحنة العامة .. وكل منها مقسم على حسب المتهمين المراقبين فى الداخل والخارج ، وعلى حسب الاماكن التى يقيمون فيها والطوائف التى ينتسبون اليها . ووقعت هذه الاضابير فى مبدأ قيام الدولة الشيوعية فى يد « ستالين » أمين سر الحزب ، فوكل بها أقرب الناس اليه وأخزاهم عورات فى نظره .. وكان هذا غاية مايتمناه

البرىء الشريف والمتهم المريب من رجال الثورة بعد زوال القيصرية ، فلم يكن فى مقدور احـــدهم أن يتخذ لنفسه حيطة أكبر من هـــذه الحيطة .. اذ كانت ابادة هذه الاضابير وراء الطـــاقة فى سلطان واحد منهم لكثرة الاضابير وتعدد مواضعها واستحالة الاعتماد على فرد أو أفراد معدودين فى اتمام هذه المهمة .. فضـــلا عن الشبهة القوية التى تتجه الى صـــاحب الامر المهيمن عليها ، وقد يكون بقايا الاضابير مفيدا لصاحب الامر هذا فى تهديد خصومه واكراههم على طاعته واستطلاع الاسرار التى تستغل فى حينها برقابة أعوانه ومأمن من رقابة خصومه

جاء دور المحاكمات أو التطهيرات ، فأمر « ستالين » صنيعته « بريا » أن يستخرج من الاضابير وثائق تدين الزعماء الشيوعيين المقدمين الىالمحاكمة .. فعهد بمهمة التنقيب فى ملفاتهم وملفات أصحابهم الى ثلاثة أو أربعة من مرءوسيه ، وكان المطلوب ان يعثروا علىأوراق تدين الزعماء المغضوب عليهم .. فان لم يعثروا على الاوراق المطلوبة فعليهم أن يستخرجوا أوراقا تدين أناسا غيرهم من الاحياء ، وعلى هذه الاوراق يستند رجال « بريا » فى تهديد أصحابها وارغامهم على أداء الشهادة التىتدين الزعماء المغضوب عليهم ..

وفى احدى هذه التنقيبات ، لمح الموظف المطلوب ــ وهو من الشيوعيينالمخلصين ــ صورا لستالين ورسائل مكتوبة بخطه الذى يعرفه حق المعـرفة ، فمالبث أن تصفحها وعرف مضامينها حتى ارتاع وخشى علىنفسه مغبة الرجوع بهذه الاوراق الىرئيسه « بريا » لانه أيقن أنه هالك لساعته اذا عرفرئيسه أنه مطلع على سر كهذا

السر الرهيب ... ولم يجد أحدا يطمئن الى شرفه ونزاهته غير رئيسه السابق فى الجندية المارشال « توخاشفسكى » الذى ذهب - فيما بعد - ضحية لهذا السر القاتل ، وذهبت معه فئة من خاصة زملائه اطلعوا على الاوراق لاقناعهم بتدبير الانقلاب العسكرى الذى يقضى على سيطرة الطاغية ، فتسرب منهم سر المؤامرة ولم يتمهل الطاغية فى النكال بهم الا ريثما يهتدى الى موضع الاوراق ، ولم يهتد اليه قبل وفاته فيما يقال

وقد عاش من العارفين بهذا السر فى خارج روسيا اثنان : « اسكندر أورلوف » صاحب كتاب جرائم ستالين ، و « اسحق ليفين » مؤلف احدى ترجماته المتداولة ، ووثائق هذا الكاتب الاخير وصلت الى يده قبل أربعين سنة فأودعها خزانة من خزانات المصارف بقيت فيها مختومة مجهولة المحتويات الى شهر مارس من هذه السنة « ١٩٥٦ » (١) . أما الكاتب الآخر « أورلوف » فقد أذاع خبر وثائقه على حدة بعد انتهاء الحملة على ستالين من جانب الكرملين ، وأوجز بيان القصة فى مقال نشره بعدد (١٤ مايو سنة ١٩٥٦) من مجلة « لايف » وأفشى فيه ما كان يومىء اليه فى كتاب ايماء قبل سنتين ، خوفا من مطاردة ستالين له حيث يقيم واشفاقا على من بقى من ذويه فى البلاد الروسية

***

ولقد أوردنا هذا الخبر عن خدمة « ستالين » للجاسوسية القيصرية لانه بعض المعلومات المجهولةالتى

---

(١) اودعت هذه الوثائق فى مصرف المبادلات الكيميه بنيويورك
Chemical Corn Exchange Bank

أضيفت الى تاريخه ، وجرت فى مجـرى المعلوم المتفق عليه من حوادث ذلك التاريخ . ونحن ـ فى الحق ـ لاندرى ماذا يزيدنا هذا الخبر من العلم بخلائقه التى يقل الخلاف عليها بين انصار الشيوعية واعدائها .. فان خلائق الاجرام والغدر والخبث وتسخير المذهب فى خدمة الشهوات والاهواء كلها من الوقائع المتواترة التى قلما تحتاج الى أقوال يتقارب فيها الاصحاب والخصوم . وان يكن ثمة من شيء يوضحه هـذا الخبر عن خدمته للجاسوسية القيصرية لم يكن واضحا من قبل هـذا الوضوح ، فهو سر « المهارب » الكثيرة التى نسبت الى فرط الدهاء وبراعة الحيلة .. فقـد كان من الالغـاز المبهمة التى فسروها بدهائه وحيلته انه كان لايعتقل مرة الا تمكن من الهرب ، ثم تمكن من الوصول الى مؤتمرات الحزب التى تعقـد فى العواصم الاوربية .. ولم يكن من الاحتمالات المظنونة يومئذ أن حضـوره تلك المؤتمرات وظيفة يؤديها للجاسوسية القيصرية ، فلا الغاز اذن فى تلك « المهارب » المثـالية ، لان سرها الخفى لم يكن من عمله بل من عمل معتقليه

وبعد فان هذا الاستطراد الى الالمام بطبائع الزعماء الشيوعيين انما دعانا اليه أنهم جميعا ممن يفسرون لنا دعوتهم بما ركب فيهم من الشر والعوج وسوء الطوية ... وليس هؤلاء الزعماء الخمسـة ممن يختارون جزافا لابراز هذه الظواهر المرضية فيهم وفى دعوتهم ، فانهم زعماء المذهب المفروضـون على كل باحث يذكر المؤمنين من زعمائه المؤسسين . ولو أضفنا اليهم مائة سيرة من سير النابهين فى المذهب لما غيروا شيئا من هذه الظواهر المرضـية بين اناس مطبوعين على الشر ، وأناس مشوهين

ممسوخين يحز فى نفوسهم مايعتلج بها من النقص وفقد الرجولة

ومن الواجب على الباحث العصرى أن يلتفت الى خطر هذه الاحنة التى تبين من تحقيق النفاسيين أنها أفشى مما كان مقدورا لها وأوبل خطرا على المجتمع من سيئاتها الفردية .. فان استقامة الغاية أبعد شيء عن مخلوق لا هو بالرجل ولا هو بالمرأة ، ولا يجهل أنه محتقر فى مقاييس المجتمع فلايزال فى باطنه مشغولا بتحقير كل قسطاس قويم مولعا بالكيد والمماحكة على دأب الممسوخين المحرومين من ثقة الرجولة وثقة الانوثة على السواء ، ولعل الشرير المطبوع على الشر أو التواء الفهم من أصحاب هذه الاحنة التى تلتوى بالضمائر والعقول فلا يفهم من تخفى عليه طواياها فيم هذا الالتواء ، ولا حاجة بها الى الفهم فى الواقع ، الا أنها لابد أن تكون هكذا نقيضا لاستواء الضمائر والعقول

والشر الذى يغلق كل باب من أبواب الاصلاح غير بابه الى النقمة والنكال ، قد يكون حلا مرضيا للمشكلات المرضية فى طبائع هؤلاء الممسوخين ولكنه لن يكون حلا علميا لمشكلات العصر كائنا ما كان مبلغ العرفان الذى يستند اليه ..

فلا تفسير لدعوة الشر المطبق الا سخيمة الشر المطبق فى نفوس الداعين اليه ، ولا جديد فى أمر هؤلاء الداعين فى القرن العشرين .. انهم بلية هذا العالم فى كل زمن . وانهم الخلفاء المسبوقون بالاسلاف فى كل وطن ، ومنهم أسلاف فى عصر كل دعوة الى الاصلاح ، ومنهم أسلاف فى عصر الدعوة المحمدية يدل عليهم ماجاء فى القرآن الكريم : (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم)

فهذا الشر المطبق هو الشر المانع للخير .. الشر الذى يصدر عن طبيعة تنطلق مع الاذى وتحس بالخير كأنه حجاب يخنقها أو سور يصدها فلاتطيقه حاضرا ولاتطيقه أملا يسعى اليه من يرجوه

وتلك كانت شنشنة الدعاة الذين قرروا اسبابهم الواهية ، وقرروا أن يربطوا بها الماضى والمستقبل ولا يدعوا منها سببا واحدا يرتبط بغير ما ربطوه .. وقرروا مع هذا وذاك انها كافية للهدم والنكال ، كافية لتحريم كل سعى الى التقدم والامان ، كأنه تجديف أو تعديل فى محكم التنزيل

***

واذا كانت الظواهر المرضية هى التفسير الحاضر القريب لبواعث الدعوة من نفوس واضعى المذهب ومنفذيه ، فهى — فيما عدا المتعجلين من العابثين والمخدوعين — أقرب تفسير للاقبال على الدعوة بين الطغام الذين لايفقهون من مجادلاتها ومباهلاتها الا انها تخف بهم الى الشر فيخفون اليه بما طبعوا عليه من النقمة والحقد وكراهة الخير لكل محسود ينفسون عليه حظه من دنياه ، وتأتى اليهم الشيوعية — وهم متحفزون قبلها للشر محجمون عنه احجام الخوف والشك — فتغريهم به وتجمله فى أعينهم وتسميه باسم التقدم والاصلاح ، ولا تكلفهم جهدا من الاخلاق ولا جهدا من التفكير بل تعفيهم من كل جهد كانوا يستثقلونه فى ظل العرف المأثور وترسلهم مع الغريزة الوحشية خفافا الى الاذى غير محجمين عنه ولا مترددين بين مسالكه ، ولا مرتابين فيما يستحقونه عند أمثالهم من الحمد والتشجيع على هذا الصنيع

وفيما عدا المتعجلين من العابثين والمخدوعين لاتعنى الشيوعية عند المقبلين عليها الا أنها الجريمة الممنوعة تسربلت بالزينة والجمال فى زى التقدم والاصلاح ، وقد كانت الجريمة محرمة عليهم وهى موسومة بشناعتها وخستها وهم لايمسكون أنفسهم عنها ولا يقدرون على مقاومتها .. فاذا لاحت لهم مزوقة محبوبة مشكورة ، فأحرى بهم أن يفتتنوا بها ولا يكون قصارى الامر معها أنهم يتهيبونها ويعالجون الابتعاد عنها فيستطيعون أو لا يستطيعون

والمتعجلون الذين يستثنون من هؤلاء الاشرار المطبوعين فريقان : فريق العابثين أصحاب الدعاوى الباطلة على المجتمع ويكثر عديدهم بين أشباه المتعلمين ، وفريق المخدوعين الذين يصيخون لوعود البر والعطف ويكثر عديدهم بين المحرومين الذين يطلبون الانصاف بحق ، ولكنهم يصدقون كل وعد مكذوب يستغلهم به المحتالون الدجالون ، أو يستغلون به لهفتهم على الانصاف وطيب العيش باسم الشيوعية أو باسم ماشاء المحتال الدجال من فخاخ المكر والضلال

يكثر عديد العابثين بين أشباه المتعلمين لانهم لايفهمون من التعلم الا أنه حجة الدعوى على المجتمع المسكين ، يجيبها لهم طوعا أو يكون أهلا للشكوى والاتهام وأهلا للتخلل من قيوده والتمرد عليه .. شكواهم على قدر دعواهم ، ودعواهم على قدر غرورهم بما يسمونه العلم ، وهم براء منه لانهم يجهلون أبسط حقائق الحياة .. وأبسط حقائق الحياة أن يعمل العامل فيتعثر فى طريقه مرة ، ويستوى على نهجه مرة أخرى ، ويظفر مع الزمن بحقه المقدور على حسب اجتهاده وكفايته .. ولايوجد

فى الدنيا — وهيهات أن يوجد فيها — مجتمع يقف على باب المدرسة ليلقى على اجازة التعليم نظرة عاجلة ويلقى بين يدى صاحبها آكام الثروة ودسوت المناصب وشارات المجد والفخار ينتقى منها مايهواه ويرفض منها ماليس على هواه ! ..

ولقد سمعنا من هؤلاء من يقول : اننى أحمل الاجازة المدرسية التى يحملها رئيس الوزراء ، فلماذا أتسكع أنا على أبواب الدواوين ويتمتع هو بأكبر المناصب وأفخر الالقاب ؟ ..

ومارأينا أحدا من هؤلاء يسأل نفسه : اين هو المجتمع الذى يحاسبه بهذا الحســـاب ويعترف له بالحقوق فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة على هذا الاساس ..

انهم لايسألون أنفسهم هذا الســـؤال ، لان العبث بالمذاهب أيسر لهم من السؤال والجواب ، ومن احتمال الحقائق على الخطأ أو على الصواب

وأوضح عذرا من هؤلاء العــابثين أولئك المحرومون الذين يصغون لكل « وصفة » اجتماعية اصغاء المريض الحائر لكل من يخلط له الدواء ولو عالج الداء بالداء ، لان الشعوذة — كيفما كانت — أمل أحب اليه من الصبر على البلاء ، وأدنى الى مستطاعه من التمييز بين دواء ودواء

هؤلاء يقبلون على الشـــيوعيين كما يقبلون على غير الشيوعيين ، وينخدعون كلما انفتح أمامهم باب الخديعة فلا يتعظون بالحوادث ، ولا يقدرون على المراجعـة بين ماض وحاضر ولا على المقــابلة بين خادع وخــادع .. ولعلهم لايحبون تلك المراجعة ولايستريحون اليها ، لانه عناء يشغلهم عن التعلل بالرجاء

وقد استجابت جماعات من هؤلاء المحرومين لالوان من الدعوات فى قارة واحدة هى قارة أمريكا الجنوبية .. استجابوا فى تلك القارة لمن ينادى بالشيوعية ، ولمن يحرم الشيوعية ويعاقب عليها .. ولم يمض غير قليل حتى تجلى لهم عيانا أن داعية الشيوعية يعيش فى قصوره عيشة القياصرة ، وان داعية الدين يكفر به ويتبرأ منه ويفسق فى مخادعة فسوق الشياطين .. وفتحت أبواب هذا الداعية لعباده بالامس ، فخرجوا يقولون : « ما كان اغفلنا من حمقى ! .. »

لماذا ؟ .. انهم لم يجدوا هنالك ترفا يشتهيه العاقل أو يحمده الذوق السليم ، بل وجدوا الترف الذى يختلط فيه جنون الشهوة الجامحة وبطر الذوق الممسوخ .. ومن أفانينه عدة تليفونية مصنوعة من الذهب مرصعة بالجوهر ، يدور منها فى مكان الجرس بلبل يغرد تغريدة الدعاء .. كلما طلب الرقم للحديث .. فى شئون الاصلاح والتعمير والانشاء ..

هؤلاء هم المتعجلون المخدوعون ..

وأولئك هم المتعجلون العابثون ..

وربما استمع كلاهما لدعوة الشيوعيين وهم على فطرة قويمة سليمة ، لولا داء الضرورة وداء الغرور .. وليس كذلك من عداهم من الملبين لتلك الدعوة والمستجيبين لغوايتها ، فمن عدا المتعجلين المخدوعين والعابثين هم فى الغالب شيوعيون مولودون ، موجودون فى الدنيا ولو لم يوجد فيها «كارل ماركس» وأعوانه من الزعماء المؤسسين والمنفذين .. وشأن الاتباع كشأن الزعماء فى الولع بالشر أينما ثقفوه والمبادرة اليه كلما استطاعوه ، لا ترى فيهم الا مضطغنا ينتظر أن يضطغن عليه ، أو ممسوخا يستمرىء

القسوة والعداوة ولايستمرىء الرحمة والمودة ؛ أو مشتملا على خزى د. فبين يتحدى به العالم تبجحا ومروقا من الحياء ، ولن يشقى زعماؤه المتصدون لاقناعهم بشقاء العنت فى الاقناع كما يشقى زعماء الدعوات التى تجشم الناس جهدا فى الاخلاق أو جهدا فى التفكير . . وانما العناء مع هؤلاء ان تثنيهم عن غزيرة تعبت فى رياضتها ألوف السنين ولم تثنهم عنها ، وأن تبعدهم عن النكسة الى ضراوة الهمجية . . وقد وجدوا من يتغنى بها ويقول لهم انها هى التقدم والوثوب الى الامام !

***

ومحصول الدعوة ومن يدعو اليها ومن يلبيها ، أنها داء يعالج معالجة الادواء ويحمى منه الاصحاء . . وقلما يقع فيه الصحيح الا وهو شبيه بمرضاء فى عرض من الاعراض يحجب الارادة فى نفوس لا تستعصى ارادتها على الحجاب ، وبضلل الفكرة فى عقول لا تمتنع على التضليل ، وبين هؤلاء الاصحاء الشبيهين بالمرضى جماعة المخدوعين وجماعة العابثين .

ومما يحزن العاطفين على ضحايا الخداع أنهم معذورون يشفع لهم عذر اللهفة والحرمان ولا ترحمهم الحوادث لانهم معذورون ، فما كان السقام ليرحم مريضا يؤثر الشعوذة على الطب ويعرض عن الطبيب الامين ليهرع باختياره الى تجرع السموم من يد المحتال الاثيم

ومما يحزن العاطفين على ضحايا العبث والغرور ، انهم يهزلون بالشكوى فلا تمهلهم الشكوى الهازلة أن تعلمهم الجد فى شكواهم ، وان تبتليهم بالارفة القاصفة ولا ترثى لبلواهم ، فلا يلقون لديها الا الجد الصارم ولا تلقى لديهم الا ندامة الهازل المغرور !

ولقد خرجنا من محصول المذهب بغنيمة الصحة منه اذا

عرفنا دخيلته وأيقنا ــ بعد ما ابتلى من مرضاه وأشباه مرضاه ــ وأنه ليس بالفكرة التى ينفذها البرهان ، ولا بالمطلب الذى يرضيه الانجاز .. ولكنه مرض لا نسلم منه الا أن نتتبع مواطن جراثيمه ، وأن نتتبع مع هذا أسباب سريانه وانتقال عدواه ، وهان بعد ذلك كل خطر يغشيه من وحى العلم أو التفكير



الحاضر

حاضر الشيوعية فى منتصف القرن العشرين نتيجة لقرن كامل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، مضى اكثره فى الدعاية والجدل ، ومضت البقية منه فى التطبيق أو محاولة التطبيق ـ بعد الحرب العالمية الاولى أى منذ أربعين سنة تزيد على تاريخ جيل كامل بحساب الاجيال البشرية، وتكفى لامتحان فلسفة الحياة التى تطبق فى خلالها من المهد الى عنفوان الشباب

وقد أتيحت لدعاة المذهب خلال هذا الجيل فرصة لم تكن متاحة قط لمذهب اجتماعى أو عقيدة دينية ، لانهم ملكوا أزمة الحكم بين مائتى مليون انسان، واجتاحوا كل عقبة قائمة أو تخيلوا أنها قائمة دون غايتهم ، ولو كلفتهم مالا يحصى من الارواح واستباحوا من أجلها كل مالا يستباح

والحاضر ـ بعد هذه الفرصة التى دامت لهم أكثر من جيل كامل ـ ان مبادىء الفلسفة المادية لم تصنع شيئا غير ما يصنعه كل قابض على زمام دولة من الدول الكبار على الخصوص . . لان الاستكثار من الاسلحة والمصنوعات الضخمة سياسة تمت على أيدى النازيين فى المانيا ، والفاشيين فى ايطاليا ، وهم يناقضون الشيوعية فى قواعدها ومقاصدها ، ويدينون بالمبادىء التى قامت الفلسفة المادية لمحاربتها وادحاضها . وهذه السياسة

بعينهـــا هى السيـاســـــة التى تمت على أيدى الرهط الاستعمارى من نبلاء اليابان ، فأنشئوا فى بلادهم صناعة وافية باغراض التسليح و « التصنيع » وبـذر السـلع المصنوعة فى اسواق العالم بأيسر الاسعار

وما أنجزته هذه السياسة فى الدول الكبرى قد أنجزته سياسة مثلها فى الدول الصغار ، وشهدنا نماذج منـه فى بعض الاقطار الاوربية وما شاكلها من الاقطار البدائيــة أو الشبيهة بالبدائية فى أمريكا الجنوبية ، فليس فى هذه السياسة فضل خاص للمذاهب الشـيوعية أو لفلسفة « كارل ماركس » واتباعه الروسيين

وفيما عد التسليح والتصنيع : يقال على الاجمـــال ان التجربة فى الدولة الشيوعية الكبرى قد نجحت بمقدار ما تركت من المذهب لا بمقدار ما اخذت منه ، لانها تبتعد سنة بعد سنة من عقـــائد المذهب الذى قامت عليه ، ولا استثناء فى ذلك لعقيدة واحدة من تلك العقائد ، ســـواء منها ما يعم الحياة الاجتماعية وما يخص الحياة الفردية

لا « ماركسية » اذا كان هنـــاك دين ووطنية وأسرة وملكية خاصة وطبقة حاكمة وتفاوت فى درجات المعيشـة كالتفاوت فى مجتمعات رأس المال بين اغنى الاغنياء وافقر الفقراء

وكل ما فى الدولة الشيوعية ــ فى الوقت الحاضر بعد أربعين سنة ــ يدل على الاعتراف ثم المزيد من الاعتراف بتلك المحرمات المحظورات التى قامت الماركسية لمحـوها أو للابتعاد منها عاما بعد عام ، فلا يكون عامها الاربعون أقرب الى مجتمعـــات رأس المال من عامهــا العاشر او العشرين

فالزعماء الملحدون قد اضطـــروا على الرغم منهـم الى

الاعتراف بالكنائس والشعائر الدينية فى مجتمع تسلموه منذ أربعين سنة ، أى فى مجتمع ليس فيه احد من العاشرة الى الخمسين لم يتتلمذ لهم ولم يسمع منهم فى المدارس والمعاهد العامة والاندية أو المتاحف الموقوفة على نشر الالحاد الا التشهير والزراية بالدين والمتدينين ، وما اضطرهم الى الاعتراف بالكنائس والشعائر الدينية الا شعورهم بافلاس الضمائر التى تعول على الفلسفة المادية فى هدايتها الى المثل العليا وآداب الانسان فى معاملته لاخوانه من الناس

والوطنية قد اعترفوا بها لمثل هذا السبب فى معمعة الحرب العالمية الثانية وهى أول حرب خاضوا غمارها بعد قيام الدولة الشيوعية وامتحنوا فيها قوة الشجاعة التى يستمدها المادى من عقائده المادية ، وقوة المحارب الذى يذهب الى الميدان ليدافع عن تلك العقائد ، أو ليدافع عن وطن يعتقد انه الخدوعة من أخاديع رأس المال

وقد رأينا كلامهم فى مؤتمر الفلسفة عن الاسرة وقداستها وقيام المجتمع والوطن على دعائمها ، وقبل ذلك بسنوات كانوا يبيحون للاسرة فى المزارع المشتركة أن تحتجز لها قطعة من الارض تسكنها وتربى الماشية والدواجن فيها ، ويورثها الاباء للابناء على سنة « الكولاك » الذين قتلوا منهم الملايين لغير ذنب الا أنهم كانوا يملكون من الارض قطعة لا تزيد على القطعة التى يستأثر بها فلاح المزرعة المشتركة فى هذه الايام

وحكاية الطبقة أهم من مسائل الدين والوطنية والاسرة والملكية الخاصة على شدة الاهتمام بها عند أصحاب التفسير المادى للتاريخ ، لان الطبقة الواحدة هى غاية التاريخ الانسانى كله فى رأيهم ، وهى الامل الذى يترقبونه والعذر الذى يعتذرون به لكل موبقة يستبيحونها فى سبيله

.. ومضت السنون الاربعون ولم تفلس نظرية من نظرياتهم العديدة كما أفلست هذه المسألة المحيطة بها من فواتحها الى خواتيمها ، فلم يبطل قيام الطبقة الحاكمة بعد انتهاء الاستغلال على أيدى أصحاب الاموال ، وقامت طبقة جديدة تتحكم فى المجتمع على نحو لم يؤثر قط في بلد من البلدان عن أصحاب رءوس الاموال .. لان أصحاب رءوس الاموال يشركون معهم فى الامر خبراء الصناعة ومهندسيها ومديرى المصانع بالمعرفة الهندسية او بالمعرفة الاقتصادية ، وأما هذه الطبقة الجديدة التى نشأت فى المجتمع الشيوعي فهى طبقة الخبراء والمهندسين وعلماء الاقتصاد مستقلة عن أصحاب رءوس الاموال أو أصحاب الاسهم فى الشركات

وتفاوتت درجات المعيشة مع تفاوت الطبقات ، فعرضت فى واجهات الحوانيت سلع تباع بالوف الجنيهات .. وظهر الساسة والرؤساء بأزياء أغلى أو أفخر من أزياء نظرائهم فى بلاد الماليين ، وتناسق البذخ فى المساكن والمركبات والولائم والمطاعم مع هذا البذخ فى الشارة والكساء

وتتمة الافلاس فى أمر الاستغلال وأثره فى قيام الطبقة الحاكمة ، أن استغلال أصحاب رءوس الاموال بطل ولم يبطل معه قيام السيطرة الجائرة التى تغتفر الى جانبها سيطرة القياصرة العتاة فى أظلم العصور .. وبدا للعارف والجاهل ان ختام الطبقات القديمة لم يختم وسائل الطامحين الى الطغيان بالحيل السياسية أو التنظيمات الحزبية ، فان « ستالين » قد استطاع بحيلة من حيل التنظيم ان يخضع مئات الملايين من الروسيين وجيرانهم لطغيانه الساحق زهاء ثلاثين سنة ، كان فى خلالها يشير بأصبعه فيقضى على عشرات الزعماء وعلى المئات والالوف ممن يلوذ بهم فى الحقيقة أو فى الخيال .. وبقى ظل الارهاب الكثيف الذى بسطه على البلاد ثلاث سنوات بعد موته ،

لم يجسر أحد من القادة أن ينبس فى خلالها بلفظة عابرة فى انتقاده ، حتى انقشع ذلك الظل الكثيف شيئا فشيئا ، وخفت وطأة الرهبة التى كان يرسلها عليهم من وراء قبره، فقالوا عنه أبشع مايقوله عدو عن الد الاعداء ، وكان فيما قالوه عنه مالم يقله أحد عن أشهر القياصرة بالظـــلم والفساد ...

ترى فيم ذهبت أرواح الملايين من القتلى والمعذبين وضحايا المجاعة والتشريد ؟ .. ماذا كان يصيب روسيا وجيرانها من سوء الحكم أسوأ من هذا المصاب ؟ ..

كانت على أسوأ الفروض ، وفى أحلك العهود ، تفقد آلافا من ضحايا المجاعة أو الاضطهاد .. فاذا كان حساب الارواح مقدما على كل حساب فهذا هو حساب الفرق فى الثمن والغنيمة بين أسوأ العصور وعصر الشـيوعية الذهبى كما قدروه وفرضوه ؟ ..

هل تساوى الغنيمة ثمنها بعد هذا الحساب ؟ ..

وهل بعد هذا الحساب يؤمن المفسـدون المطبوعون على الشر بفداح الثمن ، ويقلعوا عن التجربة التى أغراهم بها من قبل وثوقهم الاعمى بشـخاشـخ المذهب الذى لم يتماسـك قط فى محك النظـر ولا فى محك التجـربة والتطبيق ؟ ..

كلا ! ..

بل هم يطلبون فى فرصة أخرى تشمل العالم كله لان التجربة فى مائتى مليون من أبناء هذا العالم لاتكفى ولا تشبع النهم الى الشر فى نفوس الاشرار

لابد من تعطيل دعوات الاصلاح فى جميع الامم وتكرير الضحايا على هذه النسبة بمئات الملايين بعد عشراتها فى التجربة الروسية ، عسى أن تفلح فى الكرة الارضية دفعة

واحدة بعد أن خابت اربعين ســـنة فى بلاد القيــاصرة وماجاورها .. وماذا على الدنيا لو امهلت هؤلاء الدعاة اربعينين أو ثلاث اربعينات يهلكون فيها من يهلكون على وعد « شرف » منهم بالنتيجة التى يضمنونها على هذا المنوال ؟! ..

ان أولئك الدعاة ليقولونها بقلة مبالاة ان لم يقولوها بايمان ويقين ..

ولكننا نحسب ان الحاضر من نتيجة التجربة أربعين سنة قد رد الشيوعية الى قرارها فى كل طبع سليم .. فأكبر ماتحتويه أنها دعاية شغب تتساوى مع عشرات الدعايات من قبيلها عند من يهرعون الى كل فتنة ولا يفرقون بين دعاية ودعاية تغريهم بالهجوم عليها . أما أنها فلسفة تقاس بمقاييس العلم والفكر ، أو نظــام صالح للتطبيق ، فذلك وهم لم تبق منه باقية فى غير الضمائر السقيمة وبحوث النفاسيات ..



المصـــــير

من علماء الاجتماع والسياسة من يتشاءم من مصير الحرية الانسانية ، ويخيل اليه أن دور الديمقراطية قد انتهى ، ووجب ان يخلفه نظام يسمح بالتدخل فى حرية الفرد وحرية المعــاملات على اختلافهــا لتنظيم الثروه العامة وتحقيق البرامج التى توضع للحاضر والمستقبل فى وقت واحد .. ولايتأتى تنفيذها بغير تقييد المعاملات بين الافراد ، وبغير اتباع نظم التأميم فى بعض المرافق والمشروعات

والتحول الذى يلاحظه العلماء المتشائمون حاصــل متسع النطاق ، ولا منازعة فى وقوعه واتساع نطاقه ، ولا منازعة بين بعضهم فى وجوبه وصعوبة الاســتغناء عنه .. ولكن هذه الملاحظات الصادقة جميعــا لا تستلزم الجزم بانتهاء عصر الديمقراطية وعصر الحرية الفردية ، لانها قد تكون من عوارض العصر الحاضر فى طريق طويل تتجدد عوارضه فترة بعد فترة ، ثم تنتهى هذه العوارض ويخلفها طور جديد من أطوار الديمقراطية يدل على النمو والامتداد ولا يسوغ التشاؤم من الحاضر أو المصــير

ويرجح هذا الاعتقــاد أمران : أحدهمــا أن الحرية الانســانية تراث التــاريخ كله كما ينجلى لنا من جملـــة أدواره وأطواره ، وليست عرضا متقطعا تبديه لنا صفحة

من التاريخ هنا وهناك ثم تطويه صفحة تليهـــا الى غـير رجعة

والامر الآخر أن انتنظيم لاينفي الحرية مادام حكمه ساريا بين الناس على سنة المساواة ، وما دام ســـلطان الحاكم فيه مستمدا من ارادة الجميع منصرفا الى تدبير شئون الجميع .. فانتنظيم مواعيد القطارات والبواخر ـ مثلا ـ لايؤدى الى تقييد حرية السفر أو تقييد حرية المسافرين ، وقد يؤدى الى تمكينهم من الســفر الذى يحول دونه ترك « المواصلات » فوضى على غير نظام

والذى يرجح لدينا أنالقيود الحاضرة عوارضموقوتة وأن أسبابها الموقوتة معروفة لاتختلف عن طبيعة القيود الموقوتة التى تدعو اليها الاحوال الاســتثنائية كأحوال الحروب والانتقال من طور الى طور فى نظام الدولة أو حياة الجماعة .. وقد يكون من دواعى التفاؤل أن هذه العوارض الموقوتة خلقتها حركة التقدم واتساع مجال التطبيق ، ولم تخلقها نكسة من نكسات التــاريخ التى تعوق الحركة الى الامام

الا يمكن أن تكون هذه العوارض جميعا راجعة الى اتساع العلاقات العالمية واتســـاع الحقوق السياسية بين جماهير المحكومين ؟ ..

بلى .. يمكن ذلك ، بل هو التعليل الوحيد الراجح بأسبابه المشهورة بين سائر التعليلات ..

فالتنظيم والتأميم خطتان لا مناص منهما مع اتساع العلاقات العالمية وارتباط المعاملات بين الامم فى شئون الزراعة والاقتصاد وشئون الاصـــدار والايراد ، ومن نتائج هذا التنظيم والتأميم أن « تتركب » الاوضـــاع الديمقراطية فى ميدان عالمى متضامنمتكافلبعد انحصارها فى حدود كل أمة من الامم التى كانت تستغنى عنالتوفيق

بين أحوالها والاحوال العالمية فتستغنى بذلك عن التنظيم والتأميم

ويتمشى مع هذا الاتساع العالمى اتساع مثله فى الحقوق السياسية ، يقضى به اشتراك جماعات من الجماهير فى الحكم لم يكن لها من الحكم نصيب كبير ولا صغير ..

هذه الجماهير لابد لها من مفتتح فى هذا المجال ، تفتتح به تجاربها على نحو من الانحاء .. ولابد أن تتعثر فى هذا المفتتح الى حين ، ريثما تدرك ماحولها من العلاقات القومية والعلاقات العالمية حق ادراك فلاتنخدع بالسهولة التى ينخدع بها من يقضى حياته — كما انقضت حياة آبائه من قبله — بمعزل عن مسائل الحكم وكفاياته وكفايات القائمين به والمتطلعين اليه ، فاذا استقر بها القرار عند حدودها التى تعرفها باختيارها أو تقسرها الضرورة على عرفانها ، فهذه الحالة المنظورة أدنى الى الديمقراطية من حالة العزلة التى حجبت تلك الجماهير عن واجباتها وحقوقها وتركتها عرضة للخداع والتضليل ممن يقصدون خداعها وتضليلها أو ممن ينقادون بها — أو معها — مخدوعين مضللين

وسينتهى الشطط فى استخدام الحقوق السياسية لا محالة ، متى انتهت كل طائفة من طوائف المجتمع الى حدودها ، وعلمت أنها عاجزة عن تجاوز هذه الحدود للجور على الطوائف الاخرى ، لان الطوائف الاخرى تملك مثلها سلاح الدفاع عن حقوقها ومصالحها بحكم القانون الصادر من الجميع لمصلحة الجميع

ولم تصل طوائف المجتمعات فى الامم المختلفة الى هذا الحد الذى يمتنع فيه الجور من طائفة على أخرى ، فان الطوائف الوسطى فى أكثر المجتمعات لاتزال محرومة من سلاحها الاجتماعى الذى تذود به شطط العلية وشطط

الجماهير ، ولاتزال مكتوفة اليدين أمام سلاح النفوذ والجاه من جهة وسلاح الاضراب والشغب من الجهة الاخرى .. فاذا وجد فى يديها سلاحها الاجتماعى — ولابد أن يوجد مع الزمن لانه مطلب تدعو اليه مصلحة الجميع كما تدعو اليه ضرورة الدفاع عن الذات — فهنالك تنتظم الحقوق السياسية قسرا بين أناس لايملك بعضهم أن يجور على بعض ، ولا يعجز فريق منهم عن دفع هذا الجور اذا اجترأ عليه فريق يشتط فى طلب الحقوق ، وتقوم الديمقراطية يومئذ بقوة الدفاع عن الذات كما تقوم بقوة العقيدة والايمان

***

ولعلنا — فى المجتمع المتزن المنتظم — نفرغ من غاشية الحقوق التى استفحلت فى العصر الحديث حتى أصبح لها وبال لايقل فى خطره عن وبال الظلم والغشم فى عصور الظلمات لان ادعاء الحقوق لايقل عن جهل الحقوق فى سوء عقباه

وقد غبرت على الناس عصور كانوا يجهلون فيها حقوقهم ، ولا يفرغون فيها من الواجبات المفروضة عليهم .. كانوا مثقلين بالواجبات ممطولين فى حقوقهم بل ساكتين عنها يجهلونها ولا يطلبونها

كانت هنالك واجبات الدين ، وواجبات العرف ، وواجبات الحاكم ، وواجبات السادة على العبيد ، وواجبات الآباء على الابناء ، وواجبات الكبار على الصغار ، ولم تكن هنالك حقوق الا الحق الالهى الذى كان يدعيه مدعيه لانكار جميع الحقوق

فلما نهضت الامم للمطالبة بحقوقها لم تظفر بها على هينة وهوادة ، ولم تزل تجاهد فيها حتى بلغتها من

غاصبيها واستدارت الى أنفسها تطالب بعضها بعضـــا بما يتخيله من حقــوق مهضــومة عنــد المجتمع المحيط بالطالبين والمطلوبين .. اذ كانت بدعة المجتمع وتبعاته قد ظهرت فى أوانها مع ظهور مظالم الطبقـــات ودعاوى الطبقات .. وأوشك الامر أن ينتقل جملة واحـدة من كفة الواجبات الى كفة الحقوق ، لاننا لانسمع الا أحاديث عن حقوق كثيرة ولم يذكر فيما بينها شىء من الواجبات

حق الرعية ، حق الجيل الجديد ، حق المرأة ، حق الطفل ، حق العامل ، حق الزارع ، حق الكتابة ، حـــق الخطابة ، حق الاختجاج ، حق السخط والقلق ومركبات النقص والعقد النفسية وظروف الحياة القاسية وظروف الحياة التى توصف بما شاء المدعون من الصفات .. الى آخر هذا الطوفان المتدفق من الحقوق

ومن يطالب بهـذا الطوفان المتدفق من جميع هذه الحقوق ؟ ..

شبح واحد يسمى المجتمع ، يتكلم الناس عنه كمـــا كانوا يتــكلمون قديمــا عن الدهر ، وعن الحظ ، وعن المقادير ..

شبح مبهم لا ملامح له ولا شيات هو المسئول عن كل أحــد وعن كل حق ، وعن كل شىء .. وكل من عداه سائل لا واجب عليه لانه ألقى التبعة ــ بل التبعـات جميعا ــ على ذلك الشبح المجهول

فاذا زال ذلك الشبح المجهول يوما ، وحل فى محله كيان ذو صورة وأعضاء وحدود وأجزاء وجـدوا أنهم يطالبون أنفسهم وأنهم هم الهاضمون للحقوق أو المقصرون فيهـا اذا تحـدثوا بحق معروف عن موئل فى المجتمـع معروف

وأدركوا اضطرارا أن المطالبة بالحقوق – هى فى الوقت نفسه – مطالبة بالواجبات ، اذ كان المجتمع المسكين قد تحول من شبح مبهم فى الظلام الى «شخص» مرسوم تبدو فيه ملامح جماعاته وآحاده معروفة الطاقة معروفة العمل معروفة التبعات

ولاندرى اليوم متى يتسق هذا المجتمع ويتناسق على سوائه فى كل أمة من الامم التى تسير الى المستقبل ولكنها لاتسير اليه بخطوة واحدة ولا على هدى واحد .. ولكننا ندرى أنه يستقيم على سوائه كلما رجحت فيه كفة « الانسانية » على كفة الخارجين عليها

مجتمع لبنى الانسان جميعا لا لطبقة تجور على سائر طبقاته ، ومجتمع للعالم المتضامن المتكامل لا لمن يتسلط عليه ويسخره فى خدمته بقوة المال والسلاح ، ومجتمع تعمل فيه قوى الحياة الانسانية من شعور عاطفة وخلق وفكر وعقيدة ، وليس بالمجتمع الذى تحكمه الآلات والادوات ..

مجتمع الانسانية وليس بمجتمع الشيوعية ، وكل مصير يتحراه أو ينساق اليه بقوانين الحياة فله قسطاس واحد يفصل بين الهداية فيه والضلال .. انه على هدى كلما كان مجتمع انسان لبنى الانسان ، فى رعاية خالق هذا الانسان وخالق جميع الاكوان ..



فهرس

صفحة

مذهب الشيوعية

الشيوعية والطبقات

الشيوعية والآداب والفنون

صفحة

الاوطان والديانات

الشيوعية والاسلام

عباس محمود العقاد

التفكير

فريضة إسلامية

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

من مؤلفات العقاد في مجال البحث والدراسة الاسلامية كتاب: « التفكير فريضة إسلامية » الذي نقدمه للقراء في طبعته الجديدة هذه. وقد بلغ غاية الاجادة في ابحاثه ودراساته بحيث يشعر القاريء أنه أحاط بموضوع البحث إحاطة لا يمكن ان يكون وراءها زيادة لمستزيد. فهو يؤيد الفكرة التي يعالجها بحشد وافر من البراهين والوثائق. ويحيط بالقضية المطروحة من جميع جوانبها. مؤيدا حينا. مفندا حينا آخر كل ما يمكن أن يعرضه المخالفون من أجل هدم الفكرة التي يعالجها ويؤمن بها.

وكتاب « التفكير فريضة إسلامية » يعرض لك جميع الآيات الكريمة التي تدعو المسلم إلى التأمل والتفكير في كل ما يقع عليه البصر. وتدركه البصيرة. وتؤكد بأن التفكير فريضة كسائر الفرائض وأن العقل الذي يخاطبه الاسلام. كما يقول العقاد. هو العقل الذي يعصم الضمير. ويدرك الحقائق. ويميز بين الأمور. ويتبصر ويتدبر.

والعمل بالعقل أمر من أوامر الخالق. ولا يعطله عن العمل إلا الحرص على مراعاة العرف الشائع. والاقتداء بالسلف. واقتفاء آثارهم. والخوف من السلطة الدنيوية. والاسلام يدعو الى تخطي هذه الموانع. والتحرر منها. لكي يأتي التفكير سليما لا يعوقه شيء من هذه العوائق التي تؤدي الى شلل العقل وجموده.

وبديهي أن يرافق الدعوة الى التفكير اقبال على العلم. أي على جملة المعارف التي يدركها الانسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض. وما خلق الله من شيء في هذا الكون. سواء كان ذا حياة أو غير ذي حياة. ذلك لأن التفكير لا يمكن أن يكون مستقيما صحيحا إلا إذا قام على معرفة صحيحة. فالتفكير وطلب العلم إذا صنوان لا يفترقان.

ومن الأمور التي عالجها العقاد نظرة الاسلام إلى الفنون الجميلة فأورد من الأحاديث وأقوال الفقهاء والأئمة ما يؤيد انتشارها واباحتها في المجتمع الاسلامي داخل اطار من الحفاظ على الأخلاق الاسلامية القويمة. والبعد عن كل ما يؤدي الى ضعف العقيدة، والانحلال الخلقي، وهدم الرجولة. وتراخي العزائم. وقد قال العقاد في هذا الصدد: «والدين الذي ينظر الى الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد ان يظن به تحريما لشيء من الفن الجميل، أو نهيا عن شيء يجمل الحياة، ويحسن وقعا في الأبصار والأسماع. وانما سبقت الظنة الى هذا الخطأ لتشديد الاسلام في منع عبادة الأوثان، ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والانصاب. ولم ترد في الكتاب كلمة تنهى عن عمل من أعمال الفن الجميل. ولم يثبت عن النبي عليه السلام قول قاطع في تحريم صنعه غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة في نفوس اتباعها ومن يفتنون بجهالتها».

ومما لا شك فيه ان العقل المفكر قد تعرض له المعضلات والمشكلات فلا يقف امامها جامدا حائرا بل يحاول ايجاد المخرج منها واجتياز ما يلابسها من سدود. والمسلم العالم الفقيه المفكر مضطر في هذه الحال الى ما يسمونه في الفقه الاسلامي «الاجتهاد» وهو ابداء الرأي. بعد اعمال الروية، في شؤون يستفتى فيها ولم يسبق ان وقع مثلها فيما سلف لأنها من العوارض المتغيرة التي يصادف وقوعها في مختلف الأحوال والأزمان. والمجتهد يستعين بثلاثة أمور هي: القياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة. فالقياس أن يرى المجتهد رأيا فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والحديث قياسا على ما ورد من النصوص المتشابهة في العلة والمقصد.

والاستحسان هو المفاضلة بين حكمين مستندين الى النصوص وترجيح لأحد الحكمين على الآخر.

والمصالح المرسلة هي المصالح التي لم تتقيد بنص ولم يسبق لها نظير. ولكنها عمل تتحقق به مصلحة الأمة فيتصرف فيها الامام المسؤول بما يوافق تلك المصلحة.

ومهما يكن من أمر فالاجتهاد ثمرة التفكير السليم وهو فريضة مثله. وإذا

كان قد منع في بعض العهود الاسلا ية فذلك مخالفة للفريضة، وعمل السياسة فيه كان أقوى من عمل الشريعة.

ولعلاقة التصوف بالتفكير الاسلامي. واشتراك الصوفية وفلاسفة التفكير في صفة مشتركة هي التعمق في طلب الأسرار عقد فصلا تحدث فيه عن التصوف وأصل الكلمة واشتقاقها ورجح أنها مشتقة من الصفاء اذ قال بعض المتصوفة: «انما سميت الصوفية لصفاء اسرارها، ونقاء آثارها». كما قال آخر: «الصوفي من صفا قلبه الله».

فكلمة «الصفاء» أذل الأسماء على الخاصة المميزة لهم بين الخواص المتعددة التي عسى أن تصدق عليهم. ونفى ما توهمه فريق من المستشرقين أن التصوف كلمة مستعارة من الهند وفارس أو من الأفلاطونية الحديثة. وهو قول لا يصدق على مذاهب الصوفية التي تقوم على الحب الالهي والكشف عن الحقائق من وراء الظواهر، فهذه الصوفية أصيلة في الاسلام يتعلمها المسلم من كتابه ويصل اليها ولو لم يتصل قط بفلسفة البراهمة أو فلسفة أفلوطين.

وعن موقف الاسلام من بعض المذاهب الاجتماعية والفكرية المعاصرة كالديمقراطية والاشتراكية ونظرية التطور ومذهب الوجودية يذهب العقاد الى أن المسلم أحق بالديمقراطية من أتباعها المحدثين والأقدمين لأنه- منذ أربعة عشر قرنا- يدين بمبادىء الديمقراطية الأولى التي لا يصدف اسم الديمقراطية على نظام من النظم بغيرها، وهي التبعة الفردية، والحكم بالشورى، والمساواة بين الحقوق، والمحاسبة بالقانون.

وليس في عقيدة المسلم ما يصده عن مذهب من مذاهب الاشتراكية الصالحة، لأنه ينكر احتكار الثروة في طبقة واحدة، وينكر احتكار التجارة في الأسواق عامة، ويفرض على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والضعاف والمحرومين، ويجعل حق الفرد رهينة بمصلحة الجماعة. ومن سمحت عقيدته بهذه المبادىء لم تحرم عليه أن يأخذ من الاشتراكية ما أباحته له قبل أن توجد الاشتراكية والاشتراكيون.

أما مذهب التطور فربما اعان المسلم دينه على قبول مبادئه دون أن تقيده بقبول نتائجه التي تصح عند أناس ولا تصح عند آخرين. وليس في مذهب

التطور مبدأ أهم من تنازع البقاء وبقاء الأصلح، وليس النظر في هذين المبدأين محظورا على من يقرأ في كتابه أن صلاح الدين والدنيا لا يتفق للناس عفوا، وأن الفساد لا يدفع عن الناس بغير دافع. وأن الايمان يحمي صاحبه، ويحميه صاحبه، فلا ايمان لمن لا ينصر الله وينصره الله.

والوجودية مذهب آخر من المذاهب الفكرية المعاصرة خلاصته أن الفرد مسؤول، وأنه صاحب الحق الواجب على قدر هذه المسؤولية، وأنه خليق ألا يدين لسلطان غير سلطان الضمير، لأنه يحاسب على أعماله ونياته ولا يغني عنه أمر الجماعة ولا أمر ذوي السلطان. وذلك عينه هو حق الفرد في العقيدة الاسلامية. وقد وصل الى هذا الحق بفضل هذه العقيدة قبل أن يصل اليه من طريق الجدل العقيم في التفرقة بين وجود الذات ووجود الماهية.

ولسنا نريد الاستقصاء في بيان ما ضمه هذا الكتاب من آراء وأفكار وانما نريد تقديم لمحة موجزة عنها تاركين للقارىء الكريم مجال الاستمتاع بقراءته واقتناص ما فيه من فرائد البحث والتفكير.

ولا يسعنا الا أن نتقدم بخالص الشكر الى السيد شريف عبدالرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لاقدامه على اعادة الطبع لآثار العقاد العظيم التي يجدر بالمثقف العربي، وبالمسلم اينما كان، الاطلاع عليها ودراستها لما تنطوي عليه من جلائل الفكر. ودراسات وأبحاث اسلامية، هي خير ذخر يضيفه الى ثقافته ومعرفته.

فريضَة التفكيْر

في كتاب الاسلام

من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير، قبل الرجوع في تأييدها الى المناقشات والمذاهب التي قد تختلف فيها الآراء...

وتلك المزية هي التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف..

ففي كتب الأديان الكبرى اشارات صريحة أو مضمونة الى العقل أو الى التمييز، ولكنها تأتي عرضا غير مقصودة وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئا من الزراية[1] بالعقل أو التحذير منه، لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والانكار..

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل الا في مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه، ولا تأتي الاشارة اليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على اهمال عقله وقبول الحجر[2] عليه، ولا يأتي تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها، وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف

(١) الزراية: أزرى فلان بالامر: تهاون وقصره وبأخيه وضع منه وحقره.

(٢) الحجر عليه: حجر على الشيء منع منه. وعليه الأ: حرمه.

والخصائص في مواطن الخطاب ومناسباته ، فلا ينحصر خطاب العقل في العقل الوازع ولا في العقل المدرك ولا في العقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح ، بل يعم الخطاب في الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الانساني من خاصة أو وظيفة ، وهي كثيرة لا موجب لتفصيلها في هذا المقام المجمل ، اذ هي جميعا مما يمكن أن يحيط به العقل الوزاع والعقل المدرك والعقل المفكر الذي يتولى الموازنة والحكم على المعاني والأشياء..

فالعقل في مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عن المحظور والمنكر ، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة « عقل » التي يؤخذ منها العقال ، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الانسانية الكبرى التي يتكلم بها مئات الملايين من البشر . فان كلمة « مايند » Mind وما خرج من مادتها في اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة وينادى بها على الغافل الذي يحتاج الى التنبيه ، ونحسب ان اللغات في فروعها الأخرى لا تخلو من كلمة في معنى العقل لها دلالة على الوازع أو على التنبيه والاحتراس..

ومن خصائص العقل ملكة الادراك التي يناط بها الفهم والتصور ، وهي على كونها لازمة لادراك الوازع الأخلاقي وادراك أسبابه وعواقبه تستقل أحيانا بادراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهي أو بالحسنات والسيئات..

ومن خصائص العقل انه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبني عليها نتائجه وأحكامه ، وهذه الخصائص في جملتها تجمعها ملكة « الحكم » وتتصل بها ملكة الحكمة ، وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به الى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغي له أن يطلبه وما ينبغي له أن يأباه..

ومن أعلى خصائص العقل الإنساني « الرشد » وهو مقابل لتمام التكوين في العاقل الرشيد ، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من

نقص في الادراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك..

وفريضة التفكير في القرآن الكريم تشمل العقل الانساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها. فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان..

فمن خطابه إلى العقل عامة- ومنه ما ينطوي على العقل الوازع- قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ الليْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّة وَالسَّحَاب الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ومنه في سورة المؤمنون:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحيِي وِيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلاَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »

ومنه في سورة الروم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ انْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ. وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[1]. وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيما رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ

(١) قانتون: القانت اسم الفاعل للقائم في الصلاة طويلا المواظب على عبادته تعالى.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

ومنه في سورة العنكبوت:

﴿وَتِلْكَ الامْثَالُ نَضْرِبُهَا للنّاس وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

ومنه ما يخاطب العقل وينطوي على العقل الوازع كقوله تعالى في سورة الملك:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

ومنه في سورة الأنعام:

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومنه بعد بيان حق المطلقات في سورة البقرة:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ومنه في سورة يوسف:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَالدَّارُ الآخِرَة خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

ومنه في سورة الحشر، بيانا لأسباب الشقاق والتدابير[1] بين الأمم:

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

وهذا عدا الآيات الكثيرة التي تبتدىء بالزجر وتنتهي الى التذكير بالعقل، لأنه خير مرجع للهداية في ضمير الانسان، كقوله تعالى في سورة البقرة:

(١) التدابر: تدابر القوم: تعادوا وتقاطعوا.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلونَ﴾.

وكقوله في سورة آل عمران:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَت التَّورَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنَ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وكقوله تعالى في سورة المائدة:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾..

وفي سورة الانعام:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ولَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ للذينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وفي سورة هود:

﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وفي سورة الأنبياء:

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وفي غير هذه السور الكريمة تنبيه الى العقل في مثل هذا السياق يدل عليه ما تقدم في هذه الآيات..

ان هذا الخطاب المتكرر الى العقل الوازع يضارعه في القرآن الكريم خطاب متكرر مثله الى العقل المدرك أو العقل الذي يقوم به الفهم والوعي وهما أعم وأعمق من مجرد الادراك. وكل خطاب الى ذوي الألباب في القرآن الكريم فهو خطاب الى اللب- هذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الادراك

والفهم في ذهن الانسان يدل عليه اسمه باللغة العربية..

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾. (سورة آل عمران)

﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تفلِحُونَ﴾. (سورة المائدة)

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هَمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾. (سورة الزمر)

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾. (سورة يوسف)

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾. (سورة البقرة)

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾.

(سورة البقرة)

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(سورة البقرة)

ومن هذه الآيات نتبين ان اللب الذي يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكرى والذكرى، وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعي أوفر من نصيب العقل الذي يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقي الى منزلة الرسوخ في العلم والتمييز بين الطيب والخبيث. والتمييز بين الحسن والأحسن في القول..

أما العقل الذي يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأي والروية فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة تشترك في المعنى أحياناً وينفرد بعضها بمعناه

على حسب السياق في أحيان أخرى. فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر والعلم وسائر هذه الملكات الذهنية التي تتفق أحيانا في المدلول- كما قدمنا - ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغني عن سائر الكلمات الأخرى..

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ[1] كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. (سورة البقرة)

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة آل عمران)

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾

(سورة الانعام)

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(سورة النحل)

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.

(سورة الروم)

﴿أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ[2] لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾

(سورة الأنعام)

---

(١) العفو: العفو نقيض الجهد وهو أن ينفق الانسان ما تيسر أي الزائد عن الحاجة.

(٢) نصرف الآيات: نحولها من وجه الى وجه.

﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(سورة الاعراف)

﴿قُلِ أنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

(سورة يونس)

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ[1]﴾.

(سورة ق)

﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

(سورة الغاشية)

﴿مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾

(سورة القصص)

﴿أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾

(سورة السجدة)

﴿وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾

(سورة آل عمران)

﴿أَفَلَمْ يدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) فروج: فتوق.

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾

(سورة ص)

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلوب أَقْفَالُهَا﴾

(سورة محمد)

﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْـدِي الْمُؤْمِنِـينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾

(سورة الحشر)

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

(سورة البقرة)

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

(سورة الانعام)

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَق كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾

(سورة الرعد)

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

(سورة النحل)

﴿أَوْ يذكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾

(سورة عبس)

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾

(سورة النحل)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرحْمَةً لَعلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

(سورة القصص)

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَـا لَمْ تَكُونَوا تَعْلَمُونَ﴾.

(سورة البقرة)

﴿قَالَوا أَنّي يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلينَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾.

(سورة البقرة)

﴿وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ﴾.

(سورة الانعام)

﴿قلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾.

(سورة الزمر)

﴿يرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

(سورة المجادلة)

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(سورة يونس)

﴿قَالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾.

(سورة الكهف)

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

(سورة الرحمن)

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(سورة العلق)

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾.

(سورة آل عمران)

بهذه الآيات وما جرى مجراها تقررت ولا جرم فريضة التفكير في الاسلام، وتبين منها ان العقل الذي يخاطبه الاسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصر ويتدبر ويحسن الادكار والرواية، وانه هو العقل الذي يقابله الجمود والعنت والضلال وليس بالعقل الذي قصاراه من الادراك انه يقابل الجنون. فإن الجنون يسقط التكليف في جميع الأديان والشرائع وفي كل عرف وسنّة، ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقطة للتكليف في الاسلام، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه، فانها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير...

ويندب الاسلام من يدين به الى مرتبة في التفكير أعلى من هذه المرتبة التي تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة. فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده، ويبدو فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة في الكتاب الكريم يدل عليها قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثيراً﴾.

ويدل عليها ان الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين، كما جاء في قصة موسى وأستاذه عليهما السلام..

والذي ينبغي أن نثوب اليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت في القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد. بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الانسان في تقديره..

فالدين الاسلامي دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة[1] والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الانسان قربانا يسعى به الى المحراب بشفاعة من ولي متسلط أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضي بالحرمان أو بالنجاة، فليس في هذا الدين اذن من أمر يتجه إلى الانسان من طريق الكهان، ولن يتجه الخطاب اذن الا الى عقل الانسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى..

﴿فأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾.

لا هيكل في الاسلام، ولا كهانة حيث لا هيكل.. فكل أرض مسجد، وكل من في المسجد واقف بين يدي الله..

ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب- بداهة- الى غير الانسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم..

كذلك يكون الخطاب في الدين الذي يلزم كل انسان طائره في عنقه ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره:

(١) السدنة: الموكول اليهم خدمة المعابد والاماكن المقدسة.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ و﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1]...

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾.

فاذا كان في الأديان دين يجتبي القبيلة بنسبها أو يجتبي[2] المرء من مولده لأنه مولود فيها، أو كان في الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله، فليس في الاسلام انسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد، ولكنه الدين الذي يوكل فيه النجاة والهلاك بسعي الانسان وعمله، ويتولى فيه الانسان هدايته بفهمه وعقله، ولا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل شيء محيط، لأن خلق الانسان للعقل لا يسلبه القدرة على التفكير ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير..

وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الاسلام ووصاياه. وتأتي فيه الوصايا المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة ولا هي مما يطرد القول فيه متفرقا غير متصل على نسق مرسوم. فانها لوصايا «منطقية» في دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم، وهكذا يكون الدين الذي تصل العبادة فيه بين الانسان وربه بغير واسطة ولا محاباة، ويحاسب فيه الانسان بعمله كما يهديه اليه عقله، ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه من الحكمة والرشاد..

---

(١) رهين: أي يحبس بعمله ويؤخذ به.

(٢) يجتبي: اجتبى الشيء لنفسه اختاره واصطفاه.

المَوانع والاعْذار

حين يكون العمل بالعقل أمرا من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله، أو خوفا منه، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال..

والموانع التي تعطل العقل من هذا القبيل كثيرة يستقصيها القرآن الكريم كما استقصى خطاب العقل بجميع وظائفه وملكاته، ولكنها قد تتجمع في ثلاثة موانع كبرى بمثابة الأصول التي تتشعب منها الموانع المختلفة، فمن سلم منها أوشك أن يسلم من كل مانع يحجر على عقله ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدي الى رأي سواه..

أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعرف، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية، والخوف المهين لأصحاب السلطة الدنيوية..

والاسلام لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنَّة آبائه وأجداده ولا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين ولا يقبل منه أن يلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداء، ولا يكلفه في أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه اذ القرآن الكريم يكرر في غير موضع ان الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به، ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون..

﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا﴾.

(سورة البقرة)

﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾.

(سورة الانعام والاعراف والمؤمنون)

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَت وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً[١] كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

(سورة البقرة)

وما من أحد يهتدي بعقله لا يسعه أن يرى الصواب وأن يكف عن الخطأ. فاذا قسر على نبذ الصواب واقتراف الخطأ ففي وسعه أن ينجو بنفسه من القسر حيث كان، وفي وسعه اذ حيل بينه وبين النجاة أن يلقي الضرر الذي يجنيه عليه من يهدر كرامته ويقتل ضميره. فذلك لا ريب أهون الضررين في هذه الحال، ولا معنى للدين ولا للخلق اذا جاز للناس أن يخشوا ضررا يصيب أجسامهم ولا يخشوا ضررا يصيبهم في أرواحهم وضمائرهم، وينزل بحياتهم الباقية الى ما دون الحياة التي ليس لها بقاء وليس فيها شرف ولا مروءة..

وهذه الموانع كلها - موانع العرف والقدرة العمياء والخوف الذليل - انما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الانسان أن يعيش بغير عقل يرجع اليه في أكرم مطالبه «الانسانية» وهو صلاح ضميره. ولكنها تزول على الأثر يوم يرجع الى عقله أمام كل عقبة من عقباتها، وقد يشق عليه أن يذلل تلك العقبات أو يناجزها[٢]، ولكنه حق العقل عليه ولا بد من حق تهون من أجله المشقة، لأنها أهون من سلب الانسان فضيلته العليا وارتكانه الى حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة[٣] على عملها بما هو أرفع منها..

ان حق العقل في الاسلام يناس بكل قوة من قوى تلك الموانع التي ترصد له وتصده عن طريقه، وأولها وأقواها في صدر الاسلام قوة العرف أو عبادة السلف، لأن العرف في الجاهلية بلغ مبلغ العبادة في المهابة والرعاية وتسخير النفوس لحكمه بما يفرضه عليها من العادات، وما هي في الواقع الا ضرب من

---

(١) اصراً: الذنب. والثقل، والعهد.

(٢) يناجزه: ناجز الفارس قرنه بارزه حتى يقتل أو يقتل.

(٣) الحطة: بالكسر نقصان المرتبة.

العبادات يملك الانسان في جميع أوقاته وعلاقاته، حيث تتراخى عنه أحيانا سطوة العبادات الدينية. ولعل العبادات الدينية لم يكن لها من سطوة في عصور الجاهلية وما شابهها الا لأنها تستمد تلك السطوة من العادات..

كانت الدعوة الاسلامية تثير أهل الجاهلية وتخنقهم أشد الخنق على الرسول القائم بها صلوات الله عليه. وأشد ما كان يخنقهم من دعواته انه يسفه[1] بها أحلام الآباء والأجداد. فقلما كانوا يقولون في مقام الغضب منه والتحريض عليه: انه يسفه أحلامنا ويستخف بعقولنا، وانما كان غضبهم كله منه وتحريضهم كله عليه اذ يقولون عنه انه يسفه أحلام آبائنا ويستخف بعقول أسلافنا، ويقول عن أصول النسب التي يفخرون بها انها كانت على ضلالة وكانت لا تعقل ما تصنع من أمور الدين..

والاسلام حين يأبى على الانسان أن يعنو[2] بعقله كله لهذه السطوة الجائحة انما يعطي العقل حقه في مقاومتها ولا يكتفي بأن يفرض عليه واجب المقاومة، وانما يمدة بالحجة التي تعينه عليها حيث لا حجة له بين يديها. فهو يكلفه ويعينه وهو يثيره ويضع في يده السلاح الذي يشحذه في ثورته، فهو نصير معين يلقي العبء ويعطي المدد الذي يعينه عليه..

وحين يقول الاسلام للانسان.. يجب عليك أن تفتح عينك ولا تنقاد لما يوبقك[3] مغمض العينين، فكأنه يقول له.. يحق لك أن تنظر في شأنك، بل في أكبر شأن من شئون حياتك، ولا يحق لآبائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التي درجوا عليها..

وان الاسلام ليأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده، كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة العقل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها..

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

---

(١) يسفه: سفه أحلامهم: نسب عقولهم الى السفه وهو الجهل.

(٢) يعنو: يخضع.

(٣) يوبقك: يهلكك.

آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾.

(سورة البقرة)

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُوْنَ﴾.

(سورة المائدة)

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾.

(سورة الاعراف)

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

(سورة الشعراء)

﴿إِنَّهمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ. فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

(سورة الصافات).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيْمَانِ﴾.

(سورة التوبة)

---

(١) عاكفين: عكف على الصلاة: أقبل عليها مواظباً لا يصرف عنها وجهه.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

(سورة الزخرف)

ولقد كان هذا حق العقل الذي استمده من الاسلام في مواجهة العرف أو عبادة السلف، وكانت للعرف في صدر الاسلام قوة أكبر من قوة العبادة وقوة الحكومة، ويستوي أن نقول ان العقل أحق بالاستقلال أمام هاتين القوتين، وأن نقول ان الاستقلال أمامها أوجب عليه من الاستقلال أمام العرف أو عبادة السلف، ولعلنا لا نعدو الصواب اذا عممنا القول على جميع العصور ولم نقصره على العصر الجاهلي الذي كانت فيه عبادة السلف أظلم للناس من سلطان رجال الدين وسلطان الحاكم بأمره، فان حرية العقيدة قد يرجع الأمر فيها الى من يتولون أمرها من القائمين عليها في المعابد والمحاريب أو من القائمين عليها في ولاية الشعائر والحدود. فهنا مجال الحق الذي يتمسك به العقل حيث تدعو الحاجة الى ذلك الحق، أو حيث يستوجبه الخطر في أمر الاعتقاد خاصة دون ما عداه من أمور يعمها العرف الشائع أو تعمها عبادة الأسلاف..

وأيا كان الرأى في تفاوت القوى التي يخنع لها العقل وتذهله عن حقه في الحرية أو عن واجبه في التمييز والنهوض بالتبعة، فالأمر الذي لا مرية فيه ان التحذير من فساد الكهان والأحبار خليق يناسب الخطر الذي يخشى من فسادهم أينا كان وكثيرا ما يكون..

وقد بدأ الاسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسقط الكهانة وأبطل سلطان رجال الدين على الضمائر ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل والادانة والغفران..

ثم نبه الى سيئاتهم وعاقبة الذين استسلموا لخديعتهم وكثير منهم خادعون..

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ

مَرْيَمِ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(سورة التوبة)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(سورة التوبة)

وحرص القرآن على أن يعم القول من لهم سلطان ديني كالأحبار ومن ليس لهم هذا السلطان ولكنهم يستمدون من السمعة الدينية نصيبا من السلطان لا يقل عن نصيب الأحبار..

وهذا على تنبيه القرآن الكريم الى ما كان من فضل الصالحين من الرهبان والقسيسين على أممهم حيث جاء فيه من سورة المائدة:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وما نحسب ان التفرقة بين الفريقين تعسر على عارف ولا جاهل، فما من لبس هناك بين أناس لا يستكبرون ولا يهيمون بالمال يأكلون أينما وجدوا الحلال والحرام منه، وبين أناس يتصدون للجاه والخيلاء ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سواء السبيل..

ويكاد الذين كتبوا في تاريخ العقائد يتفقون على تهوين خطر الحكم المستبد على الضمير الانساني بالقياس الى خطر العرف أو خطر الخديعة من رؤساء الأديان. لأن الحكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء الدين. فهو مشكلة مكان لا مشكلة عقل أو ضمير، اما أن ينفضه الانسان عنه في مكانه أو يلوذ منه بمكان أمين، وكثيرا ما يكون الحكم المستبد

حافزا للضمير الى المقاومة محرضا للعقل على الرفض والانكار، وأكبر ما يخشى منه أن يؤدي الى تشبث العناد، لأن هذا التشبث خطر على التفكير كخطر الاستهواء والتسليم، ولا يزال الاستبداد على كل حال قهرا للعقل بغير رادته يترك له الارادة طليقة للمقاومة أو الحيلة أو الخضوع، فهو غير الانقياد للضلال ايثارا له ومحبة للمضلين..

فمن هنا كان حق العقل في مقاومته- بحكم الاسلام- كحقه في مقاومة سلطان العرف وسلطان الأحبار، ويزيد عليه انه يلوم المسلم على الخضوع في مكانه إذا كان في وسعه أن يرحل منه إلى مكان بعيد من سلطانه..

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

(سورة النساء)

ونحن مع العقل في الاسلام حين نذكر ان الاسلام يأمره باستقلال النظر في مواجهة السلف ومواجهة الأحبار ومواجهة الاستبداد، ثم يكون هو هو الدين الذي امتاز بين الأديان بوصاياه الكثيرة في توقير الآباء والرجوع الى أهل الذكر وتمحيض الطاعة لولاة الأمور..

فاذا أمر العقلاء فهكذا يؤمرون، وغير ذلك من الأوامر انما يكون للآلات التي تعمل على وتيرة واحدة في أيدي من يحركونها ويديرونها أو يكون للخلائق البكماء التي تقاد أو تساق ولا رأى لها في مقادة أو مساق.

انما يكون أمر العقلاء أن يؤمروا بالتمييز بين مختلف الأحوال فلا يقال لهم انكم ترفضون كل الرفض أو تقبلون كل القبول، ولا فرق عندهم بين مرفوض ومرفوض ولا بين مقبول ومقبول..

عليكم أن تبروا بالآباء، ولكن البر معهم غير الضلال معهم على غير بصيرة، والعقلاء هم الذين يعرفون موضع هذا وموضع ذاك..

وعليكم أن تسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون، ولكن أهل الذكر لا ينتفعون بذكرهم لا ترجى منهم التذكرة لغيرهم، ومن لم يكن من أهل الذكر فليس بعسير عليه أن يكون من المميزين بين الصادقين منهم والمنافقين، وبين

سيرة الرشد والاستقامة وسيرة الغواية والاعوجاج..

وعليكم أن تطيعوا ولاة الأمر منكم، ولكن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا خير في فتنة يضرمها العصيان على غير بصيرة، ومن لم تكن له قدرة على الطاعة ولم يكن في عصيانه أمان من الفتنة الطامة فله في الهجرة متسع يأوي اليه ما استطاع..

وقوام الأمر كله، بل قوام جميع الأمور في جميع التكاليف ان النفس تحاسب على ما تستطيع ولا تؤمر بغير ما تطيق، ومن وراء ذلك تبعة الأمة كلها حين تؤخذ الأمة بوزر الأمة ولا ينفرد منها كل فرد بمصيره مع مصائر الأمم بحذافيرها، فلا مناص من هذه الوحدة في حساب الأمم، ولا خير للأفراد- مع تطاول الزمن- في عيشة يقف فيها خير الفرد وشره عند بابه ولا يحسب فيها حساب شركائه في بيئته. فلا تناقض بين أمر الفرد بالعقل واشتراكه في تبعة الأمر الذي يعم الجميع ولا يخص أحدا من الآحاد. ولكن الأمم تخاطب بتحكيم العقل كما يخاطب به أفرادها متفرقين، ولا تحاسب الأمم الا على سنّة الأمم في أطوار الاجتماع..

وصفوة القول ان الاسلام لا يعذر العقل الذي ينزل عن حق الانسان رهبة للقوة أو استسلاما للخديعة، ولا حدود لذلك الا حدود الطاقة البشرية، ولكنها الطاقة البشرية عامة كما تقوم بها الأمم، ولا ينتهي أمرها بما يكون للفرد من طاقة لا تتعداه..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنطقْ

المنطق علم يجمع الأصول والقواعد التي يستعان بها على تصحيح النظر والتمييز. وحكم الاسلام فيه- بهذه المثابة- واضح لا يجوز فيه الخلاف، لأن القرآن الكريم صريح في مطالبة الانسان بالنظر والتمييز ومحاسبته على تعطيل عقله وضلال تفكيره..

بيد اننا نحتاج الى التفرقة بين شيئين مختلفين في هذا الموضوع قبل أن نعرض لفتاوى الفقهاء فيه بتحريم أو تحليل، وهما المنطق والجدل أو الخطاب الاقناعي، فانهما ليختلفان ويتباعدان حتى ينتهي الاختلاف والتباعد بهما الى الطرفين النقيضين..

فالمنطق بحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والتمييز الصحيح..

والجدل بحث عن الغلبة والالزام بالحجة، قد يرمي الى الكسب والدفاع عن مصلحة مطلوبة، وقد يتحرى مجرد المسابقة للفوز على الخصم وإفحامه في مجال المناقضة واللجاج..

وقد ظهر المنطق والجدل بين اليونان الأقدمين فأكبروا المنطق ونظروا الى الجدل نظرة اشتباه وانكار، وهو الذي سموه- بعد- بالسفسطة أو ترفقوا فسموه علم البراهين الخطابية Rhetoric وحسبوه صناعة لازمة في معرض الاقناع والتأثير..

وكان اسم «السفسطة» في نشأته الأولى معظما مبجلا بين الحكماء وتلاميذهم وجهرة المعنيين بالحكمة والمعرفة، وكان اسم «السوفيست» أعظم شأنا من اسم الفيلسوف.. لأن السوفيست ينتمي الى ربة الحكمة «صوفية» فهو الحكيم الذي ألهمته تلك الربة وفرغ من مؤنة المعرفة. فلما ظهر الحكيم «فيثاغوراس» استكبر هذه الدعوى وتواضع فسمى نفسه فيلسوفا أي محبا للحكمة يطلبها ولا يزعم أنه وصل اليها، ثم نجم بعد قرن من عصر فيثاغوراس

ناجم من فتنة الحذلقة باسم الحكمة يقودها بروتاغوراس Protagoras الأبديري فراح يتحدى من ينكر عليه العلم أن يسأله فيما يشاء ، وهو كفيل بالاجابة عليه بلا وقاء ، وعدل عن اسم الفيلسوف الذي يقنع بمحبة الحكمة الى اسم « السوفيست » مرة أخرى لزعمه أنه ملك الحكمة واستوفاها ، وغلبت كلمة « السفسطة » من عنا بالبرهان في المنازعات القضائية والمناقشات السياسية فانفصلت الصناعتان باتفاق المعلمين والمتعلمين ، وصرّح أصحاب كل صناعة بما يريدونه من عملهم وتعليمهم وأصبح من المفهوم المتفاهم عليه ان المنطق بحث عن الحقيقة وان الجدل بحث عن المصلحة أو الرغبة المتنازع عليها . وتصدى لتعليم الجدل أو البراهين الخطابية أناس يقصدهم المتعلمون ليعرفوا كيف ينتصرون على خصومهم في مجال المنازعة والملاحاة[1] ويضع الآباء أبناءهم في كفالتهم ليدربوهم على صناعة التقاضي والتأثير في سبيل الاقناع بالحجة أيا كان حظها من الحقيقة..

وبما يحكى عن أستاذ سفسطائي انه اتفق مع تلميذ له على أن يخرجه للدفاع في القضاء والمنازعات العامة خلال عامين بأجر متفق عليه. فلما انتهى العامان طلب الأستاذ أجره وقال التلميذ: بل أناقشك في هذا الأجر هل تستحقه بعملك، أو تطلبه بغير حق. فان أقنعتك بأنك لا تستحقه فلا حق لك فيه باعترافك وسكوتك حجة على هذا الاعتراف. وان لم أقنعك فلا حق لك فيه لأنك لم تعلمني كيف أقيم البرهان على دعواي..

وكان جواب الأستاذ- كمثال تلميذه- مثلا للبرهان المطلوب في هذه الصناعة. فقال له: انني أقبل أن أناقشك ولكني على غير النتيجة التي خلصت اليها. أناقشك في حقي فتعطيه مرة إذا ثبت عليك وتعطيه مرتين إذا لم أثبته أمامك لأنني علمت تلميذا ما يغلب به أستاذه في صناعة البرهان، مع اتفاقهما أولا على الحق الذي يتنازعانه في النهاية..

وبلغ من التفاهم على الفصل بين البرهان والحقيقة في صناعة الجدل انهم أصبحوا يقولون عن الحجة انها حجة خطابية أي تقنع ولا يشترط فيها أن تدل على الحقيقة، ويقولون عن السؤال انه سؤال خطابي أي لا يراد منه جواب

(١) الملاحة مصدر لاحى يلاحي أي نازع وخاصم.

معلوم عن توجيه السؤال كقول الخطيب للسامعين في معرض الزجر والاستثارة.. هل أنتم وطنيون؟ هل أنتم سامعون؟ الى أمثال هذه الأسئلة التي يسألها المتكلم ليؤثر بها على مستمعيه لا.لأنه ينتظر الجواب عليها..

وصرح أهل هذه الصناعة بأن السؤال الخطابي قد ينقض الحقيقة إذا ورد في صيغة الخطاب دون ان يزيد فيها حرفا أو كلمة. ومن أمثلتهم على ذلك ان مجرما قضى عليه أن يقف في جمع حافل ويشهد على نفسه بالسرقة فينادي فيهم: أنا مجرم.. ويكررها ثلاث مرات..

فلما وقف في الجمع الحافل نادى كما أمروه ولكن بصيغة الخطاب، فطفق يقول كأنه يستفهم ويستنكر: أيها الناس: أنا مجرم؟ أنا مجرم أيها الناس؟.. فكان في صيغة السؤال الخطابية انكار للاعتراف الذي أرادوه عليه، دون أن يزيد حرفا أو كلمة في عبارة الاعتراف..

هذه الصناعة- صناعة الجدل-ليست في شيء من المنطق القويم المطلوب للبحث عن الحقيقة، ولكنها صناعة يتعلمها طالبها وهو عالم انه ينشد-الغلبة على خصومه في المناقشة بالحق أو بالباطل، فان لم يتعلمها عامدا هذا العمد فقد ينساق اليها بطبيعة الجدل وشهوة المغالبة فيؤثر المغالطة على المصارحة ويصر على المكابرة مجهلة بالحقيقة أو مكابرة فيها..

وما من أمة فتح فيها باب الجدل وغلبت فيها شهواته ثم سلمت من جرائرها. سواء كانت هذه الآفة مما ينجم عن تعليم الصناعة أو كانت مما تخلقه اللجاجة والتمادي في الملاحاة والبغضاء..

وقد ضرب المثل بالجدل «البيزنطي» في طول اللجاجة وسوء العاقبة وقلة الجدوى لطلاب الحقيقة والصلاح، ولكن البيزنطيين لم يكونوا بدعا في هذه الآفة ولم ينفردوا بالجدل على غير طائل كلما فتحت أبوابه على مصطلحات المنطق أو على غير مصطلح مفهوم غير اللدد والعناد، فان بني اسرائيل قد سبقوا البيزنطيين الى أمثال هذه المجادلات الخاوية الا من الباطل والشحناء، وجاء السيد المسيح اليهم فوجد فيهم طائفة الكتبة والفريسيين لا عمل لها غير اختلاق الحيل والشراك لاقتناص الناس بمغالطات الألفاظ وألاعيب الحذلقة والتمويه. وكان لتلك الآفة صرعاها بعد البيزنطيين كما كان لها صرعاها قبلهم

بين بني اسرائيل، فكانت آفة الجدل على أبناء القرون الوسطى من المشتغلين بالفلسفة والمنطق أو بالتفسيرات الدينية والمهاترات المذهبية أشد عليهم من آفة الجهل والجمود على التقاليد..

ويؤخذ من أخبار الأمم التي امتحنت بالمنازعات الجدلية ان هذه الآفة مرض اجتماعي تتشابه أعراضه في الأمم ولا تنحصر في اليونان أو بني اسرائيل، فلا يزال الجدل حيث كان مقترنا بأعراضه الوبيلة، وأشهرها وأوبلها ثلاثة.. وهي اغراء الناس بالمماحكة[1] بالقشور دون الجوهر واللباب من حقائق الأمور، واثارة البغضاء والشحناء على غير طائل ولعا بالغلبة والاستعلاء بدعوى العلم والصواب، واشاعة الخلاف بين الآراء جماعة بعد جماعة الى غير نهاية يقف عندها ذلك الخلاف. فتنقسم الأمة الى شيع وتنقسم الشيعة الى فرق، وتنقسم الفرقة الى شعب وفروع حتى لا تبقى فئة واحدة على رأي واحد وان قلت في العدد وصغرت في منزلة التفكير..

ولما انتقلت هذه الآفة الى الأمم الاسلامية فشت فيها هذه الأعراض جميعا ولمس الخاصة والعامة أضرارها في بيئات العلم والدين، وتشاءم بها المسلمون أشد من تشاؤم اليونان بالسفسطائيين والمسيحيين الأولين بالكتبة والفريسيين. لأن مجادلات السفسطة والتأويل نجمت في اليونان وبني اسرائيل من بين أنفسهم ولم تنتقل اليهم من الأجانب الغرباء عنهم. أما فتنة الجدل ومصطلحاته الكلامية فقد انتقلت الى المسلمين من أمم غريبة على أيدي التراجمة الدخلاء فتسربت الى الأذهان شبهات كثيرة من أمرها ووهم بعض الخاصة- فضلا عن العامة- انها مكيدة مبيتة للأمة الاسلامية تواطأ عليها أعداؤها من خارجها وداخلها، وتداولت الألسنة قصصا عن نقل هذه العلوم الدخيلة تشبه الأساطير ونوادر الرواة والمتخيلين، ومن أمثلة هذه الشوائع المترددة ما رواه جلال الدين السيوطي عن الشيخ نصر المقدسي من كتابه «الحجة في تارك المحجة» حيث يقول: «ان بني العباس قامت دولتهم على الفرس. وكانت الرياسة فيهم وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام، فأحدثوا في الاسلام الحوادث التي تؤذن بهلاك الاسلام ولولا أن الله تبارك وتعالى وعد

(١) المماحكة: التمادي في الخصومة.

نبيه صلى الله عليه وسلم ان ملته وأهلها هم الظاهرون ليوم القيامة لأبطلوا الاسلام، ولكنهم قد ثلموه عَوَّروا[1] أركانه والله ينجز وعده ان شاء الله».

ثم يقول: «فأول الحوادث التي أحدثوها اخراج كتب اليونانية الى أرض الاسلام فترجمت بالعربية وشاعت في أيدي المسلمين. وسبب خروجها من أرض الروم الى بلاد الاسلام يحيى بن خالد بن برمك. وذلك ان كتب اليونانية كانت ببلد الروم وكان ملك الروم خاف على الروم ان نظروا في كتب اليونانية أن يتركوا دين النصرانية ويرجعوا الى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم، فجمع الكتب في موضع وبنى عليها بناء مطمئنا بالحجر والجص حتى لا يوصل اليها، فلما أفضت رياسة بني العباس الى يحيى بن خالد، وكان زنديقا، بلغه خبر الكتب التي في البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذي كان في وقته بالهدايا ولا يلتمس منه حاجة، فلما أكثر عليه جمع الملك بطارقته وقال لهم ان هذا الرجل خادم أكثر عليّ من هداياه ولا يطلب مني حاجة وما أراه الا يلتمس حاجة وأخاف ان تكون حاجته تشق عليّ. فلما جاءه رسول يحيى قال له: قل لصاحبك ان كانت له حاجة فليذكرها. فلما أخبر الرسول يحيى رده اليه وقال له: حاجتي الكتب التي تحت البناء يرسلها اليّ أخرج منها بعض ما أحتاج اليه وأردها اليه. فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحا وجمع البطارقة والأساقفة والرهبان وقال لهم: قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربي انه لا يخلو عن حاجة وقد أفصح بحاجته وهي أخف الحوائج عليّ. وقد رأيت رأيا فاسمعوه فان رضيتموه أمضيته، وان رأيتم خلافه تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا. فقالوا وما هو؟.. قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما يحب ويردها. فقالوا: فما رأيك؟.. قال: قد علمت انه ما بنى عليها من كان قبلنا الا انه خاف ان وقعت في أيدي النصارى وقرأوها كانت سببا لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم، وأنا أرى أن أبعث بها اليه وأسأله ألا يردها، ويبتلون بها ونسلم نحن من شرها. فاني لا آمن أن يكون بعدي من يجترىء على اخراجها الى الناس فيقعوا فيما خيف عليهم. فقالوا: نعم الرأى رأيت أيها الملك فأمضه..»

(١) عوروا: عور عليه أمره: قبحه. وعور الراعي الغنم: عرضها للضياع.

وهذه قصة تصح في التاريخ أو لا تصح فلا شبهة على الحالين في سوء الأثر الذي أصيبت به الأمة الاسلامية من آفة الجدل باسم المنطق المزيف. فانها أشبه شيء بالنقمة التي يصبها العدو على عدوه أو بالمكيدة التي يدسها عليه ليشغله بالشقاق والشتات عن مهام دنياه ومطالب دينه، وهذه المحنة هي التي أرادها من أرادها بالحظر والتحريم من علماء المسلمين. فمنعوا الاشتغال بالجدل سدا للذرائع واتقاء للفرقة التي تبلبل الأذهان وتفسد القلوب وتجر الى هذه المشكلات أهل الفضول والبطالة فيوبقون معهم طوائف الأبرياء من أهل الجد والاستقامة الذي لا طاقة لهم بالمنطق ولا بالجدال..

وكان دخول مصطلحات اليونان على أيدي أناس يجهلون العربية ويعجزون عن فهم ألفاظ القرآن ومعانيه بابا آخر من أبواب الخلط والغلط في تطبيق البرهان والقياس..

فمن كان من أصحاب المنطق أهلا لفهمه ومعرفة وجوهه لم يكن أهلا لتطبيقها على معاني القرآن وعباراته لجهله بذوق اللغة وأسرار بلاغتها. ومن كان يعرف اللغة لم يكن من ذوي المعرفة بالبرهان والقياس، وشر من هؤلاء من يجهلون اللغة كما يجهلون المنطق ثم يهرفون[1] بما لا يعرفون في شئون ترتبط بها سلامة المجتمع وطمأنينة الخواطر، وشر من هؤلاء أجمعين من يعرفون اللغة والمنطق ويسيئون النية عمدا لازعاج الخواطر المطمئنة وتقويض المجتمع السليم..

وكل ما ورد عن علماء الاسلام الذين حرموا الجدل فانما ينصرف الى منع هذه اللجاجة التي لمسوا شرورها وتحققوا من جريرتها ولم يلمسوا معها منفعة تتحقق بالجدل ولا تتحقق بغيره. فما يغير قوما من الأقوام خطب أفدح عليهم من اشتغالهم بالجدل وتركهم العمل كما قال الامام الاوزاعي، وأسلم المواقف عند ذوي البصر بالدين اذا احتدم الخصام وشاع المراء والاتهام أن يصاب المرء ولا يصيب وأن يتجنب الخصومة أو يتجنب فيها كل قول مريب. وجماع ذلك شعر حسن يتناقلونه عن مصعب بن عبدالله الزبيري المتوفى قبيل منتصف القرن الثالث يقول فيه:

---

(١) يهرفون: هرف الرجل بصاحبه بالغ في مدحه اعجاباً به، ومنه المثل: لا تهرف بما لا تعرف.

أأقعد بعد ما رجفت عظامي | وكان الموت أقرب ما يليني
أخاصم كل معترض خصيم | وأجعل دينه غرضا لديني
فأترك ما علمت لرأي غيري | وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي لبس | تصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سنت لنا سنن قوام | يلحن بكل فج أو دجين
وكان الحق ليس به خفاء | أغر[1] كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج «جهم» | بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني | وأما ما جهلت فجنبوني
فلست بمكفر أحدا يصلى | ولم أجرمكم أن تكفروني
وكنّا اخوة نرمي جميعا | فنرمي كل مرتاب ظنين
فأوشك أن يخر عماد بيت | وينقطع القرين عن القرين

وعلى كثرة الفقهاء الذين عرضوا لهذا الموضوع لا تجد واحدا منهم قصد بالمنع أو التحريم شيئا غير هذا الجدل العقام الذي يمزق وحدة الجماعة ويصرف العقل عن الفهم ويأتي الى المعنى الواضح فيغمضه ولا يتفق له يوما أن يأتي الى الغامض فيجلوه ويقربه لمن خفي عليه. فهم في الواقع انما ينقذون العقل من ضلالة تغشاه فتحجب عنه الحقيقة، ويعيذونه أن يخبط في النهار المبين خبط عشواء..

وأكبر الفقهاء الذين أفاضوا في بحث هذه المسألة ثلاثة من الأئمة المجتهدين هم: الغزالي، وابن تيمية، وجلال الدين السيوطي، وآخرهم جلال الدين يتابع الامامين السابقين ويقتدي بهما في علوم الرياضة والفلسفة، ويقول عن نفسه انه ليس من أهل هذه العلوم كما قال في كتابه حسن المحاضرة: «... وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليَّ وأبعد عن ذهني، واذا نظرت في مسألة تتعلق به فكأنما جبلا أحمله..

وإذا أحيل البحث الى الامامين الغزالي. وابن تيمية. فنحن بين يدي حجتين من حجج المنطق لا يسبقهما فيه سابق من المتقدمين أو المتأخرين،

(١) أغر: الحسن الأبيض من كل شيء.

ومناقشتها للمنطق مناقشة تصحيح وتنقيح وليست مناقشة هدم للأسس التي يقوم عليها أو تفنيد[1] للأصول التي يرجع اليها. فهما يريدان إثبات الخطأ على من يسيئون تطبيق القياس والبرهان ولا يريدان محو القياس والبرهان في علم من علوم الدين أو الدنيا التي جاءت من اليونان أو نشأت بين المسلمين..

فالغزالي في مفتتح الجزء الأول من كتابه «المستصفى» يذكر من شروط العالم المجتهد غير المقلد أن يحيط بعلم النظر ويحسن ايراد البرهان واجراء القياس. وكان ينعي على العلماء أنهم لا يشتغلون بتحصيل هذا العلم فقال من كلامه على أحاصيل الفلسفة في كتابه المنقذ من الضلال: «اني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلعه على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة[2]، فاذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا. ولم أر أحدا من علماء الاسلام صرف همته وعنايته الى ذلك. ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لا يظن الاغترار بها بغافل عامي فضلا عمن يدعى حقائق العلوم. فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى في عماية. فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ ومعلم وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التدريس»..

وبعد دراسة المنطق رأى الغزالي ان خطأ المناطقة انما يعتريهم من ناحية التطبيق، ولا عيب في أصول النظر على استقامة فهمها وصدق الرغبة في المعرفة الصحيحة ومن ذلك قوله في كتاب مقاصد الفلاسفة: «أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها وانما يخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعاني والمقاصد»..

ومن كلامه في فاتحة كتاب محك النظر: «أنك ان التمست شرط القياس الصحيح والحد الصحيح والتنبيه على منارات الغلط فيها وفقت للجمع بين

(١) تفنيد: فند رأي فلان: خطأه فيه وكذبه.

(٢) غائلة: الداهية والمهلكة.

الأمرين فانها رباط العلوم كلها »..

ويقول في ختام كتابه الميزان: «لو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للقلب وناهيك به نفعا اذ الشكوك هي الموصلة للحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال نعوذ بالله من ذلك »..

وهو في جميع كتبه يحرم التقليد على من يستطيع الدرس والاهتداء بالتفكير السليم الى حقائق الدين، وسيرته كما روى عن نفسه مثل لما ينبغي لطالب المعرفة أن يتحراه من البحث عن الحقيقة أينما وجدها أو قاده السعي اليها. قال في مقدمة المنقذ من الضلال: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت[1] البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن- وقد أناف السن على الخمسين- اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأقتحم كل ورطة وأتفحص عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهرا الا وأريد أن اعلم حاصل ظهارته ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما الا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على سر صفوته ولا متعبدا الا وأرصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ولا زنديقا متعطلا[2] الا واتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الأمور «دأبي وديدني من أول أمرى وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى...».

فالعقل عند الامام الغزالي هو العقل في شرعة الاسلام، كلاهما عقل يبتغي الحقيقة حيث كانت ولا يحجم عن المعرفة حيث أصابها ولا يقيم فوقه أو بين يديه باب مغلقا دون قبس من النور يريه ما لم يكن رآه أو يزيده بصيرة بما رآه. وانما تناول بالتحريم عملا ليس من أعمال العقل ولا هو مما تسيغه العقول

(١) راهقت: راهق الغلام: قارب الحلم.

(٢) متعطلا: المتعطل والمعطل: من يقول بنفي الخالق

الرشيدة، وهو تعريض العامي المعقد للمشكلات التي لا يدركها ولا يتوفر على درسها وادراكها، وكل ما يجنيه من يعرضه لها أن يسلبه طمأنينة التقليد ولا يعوضه منها غير القلق والاضطراب وسوء الطوية. وليس في ابتلاء العامي المقلد بهذه المحنة شيء من العقل ولا في تجنيبه مضرتها ووبال عقباها مخالفة للعقل أو حجر عليه..

ويخشى الغزالي فتنة الجدل على الثراثرة المتحذلقين كما يخشاها على العامة المقلدين. فهم كالعامة المقلدين أو شر منهم في مصابهم بمضار الجدل وعجزهم عن الاستفادة من خوض مزالقه وغواياته. قال في الجزء الأول من الاحياء: «وأما المبتدع بعد أن تعلم من الجدل ولو شيئا يسيرا فقل ما ينفع معه الكلام وقدر عنده جوابا عنه. فانك ان أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقد رأت عند غيره جواب ما هو عاجز عنه، وانما أنت ملبس بقوة المجادلة. وأما العامي اذا صرف عن الحق بنوع جدل فيمكن أن يرد اليه بمثله قبل أن يشتد التعصب للأهواء. فاذا اشتد تعصبهم وقع اليأس منهم...».

وموقف الامام ابن تيمية من المنطق والجدل شبيه بموقف الامام الغزالي، ولكنه يرى ان المنطق سليقة في العقل الانساني يستغنى عنه الذكي ولا ينتفع به البلد إذا جاء على غير سليقة واستعداد. ومن كان هذا رأيه في المنطق فمحال أن يقال عنه انه يلغيه ويحرمه لأنه لا يلغي الفطرة ولا يحرم تركيبا أودعه الله نفوس خلقه، ومن نظر في كتب ابن تيمية التي ناقض بها أدعياء المنطق وعشاق الجدل علم انه كان بصدد انشاء منطق صحيح وهداية الى تطبيق أصول المنطق القويم، ولم يكن متصديا لهدم المنطق من أساسه على جميع وجوهه وفي جميع تطبيقاته. فهو يستخدم قضايا المنطق ليبطل دعوى المناطقة الذين يضعون الحدود في غير مواضعها ويقيسون الأشباه والنقائض بغير قياسها ويهدرون الحقائق في سبيل المصطلحات والألفاظ بغير دراية لمعناها. ومن تخطئته لهم في فهم «الحد» نتبين انه لا يبطل الحد ولكنه يبطل قول القائلين ان التصور موقوف عليه، وكلامه عن الحد مثل لكلامه في القياس القضية وسائر المصطلحات المنطقية، وفيه يقول كما لخصه السيوطي من كتاب «نصيحة أهل الايمان في الرد على منطق اليونان»..

« قولهم ان التصور لا ينال إلا بالحد » الكلام عليه من وجوه..

« لا ريب ان النافي عليه الدليل كالمثبت، والقضية سلبية أو ايجابية اذا لم تكن بديهية لا بد لها من دليل. وأما السلب بلا علم فهو قول بلا علم. فقولهم لا تحصل التصورات إلا بالحد قضية سالبة وليست بديهة فمن أين لهم ذلك؟ واذا كان هذا قولا بلا علم وهو أول ما أسسوه فكيف القول بلا علم أساسا لميزان العلم ولما يزعمون انها آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن أن يزل في فكره..

« الثاني » أن يقال: الحد يراد به نفس المحدود وليس مرادهم هنا، ويراد به القول الدال على ماهية المحدود وهو مرادهم هنا، وهو تفصيل عليه الاسم بالاجمال- فيقال: إذا كان الحد قول الحاد فالحاد اما أن يكون عرف المحدود بحد أو بغير حد. فان كان الأول فالكلام في الحد الثاني كالكلام في الأول وهو مستلزم للدور أو التسلل، وان كان الثاني بطل سلبهم، وهو قولهم انه لا يعرف الا بالحد..

« الثالث » ان الأمم جميعهم من أهل العلوم والمقالات، وأهل الأعمال والصناعات يعرفون الأمور التي يحتاجون الى معرفتها ويحققون ما يعانونه من العلوم والأعمال من غير تكلم بحد ولا نجد أحدا من أئمة العلوم يتكلم بهذه الحدود، لا أئمة الفقه ولا النحو ولا الطب ولا الحساب ولا أهل الصناعات، مع انهم يتصورون مفردات علمهم. فعلم استغناء التصور عن هذه الحدود..

« الرابع » الى الساعة لا يعلم الناس حد مستقيم على أصلهم. بل أظهر الأشياء- وحده بالحيوان الناطق- فيه الاعتراضات المشهورة، وكذا حد الشمس وأمثاله، وحتى ان النحاة لما دخل متأخروهم في الحدود ذكروا للاسم بضعة وعشرين حدا وكلها معترضة على أصلهم. والأصوليون ذكروا للقياس بضعة وعشرين حدا وكلها أيضا معترضة، وعامة الحدود المذكورة في كتب الفلاسفة والأطباء والنحاة وأهل الأصول والكلام معترضة لم يسلم منها إلا القليل. فلو كان تصور الأشياء موقوفا على الحدود ولم يكن الى الساعة قد تصور الناس شيئا من هذه الأمور، والتصديق موقوف على التصور، فاذا لم يحصل تصور لم يحصل تصديق- فلا يكون عند بني آدم علم من عامة علومهم

وهذا من أعظم السفسطة..

« الخامس » ان تصور الحاجة انما يحصل عندهم بالحد الحقيقي المؤلف من الذاتيات المشتركة والمميزة، وهو المركب من الجنس والفصل، وهذا الحد اما متعذر أو متعسر. كما قد أقروا بذلك، وحينئذ فلا يكون قد تصور حقيقة من الحقائق دائما أو غالبا.. وقد تصورت الحقائق فعلم استغناء التصور عن الحد..

« السادس » ان الحدود عندهم انما تكون للحقائق المركبة، وهي الأنواع التي لها جنس وفعل فأما ما لا تركيب فيه وهو ما لا يدخل مع غيره تحت جنس كما مثله بعضهم بالعقل– فليس له حد، وقد عرفوه. وهو من التصورات المطلوبة عندهم. فعلم استغناء التصور عن الحد. بل إذا أمكن معرفة هذا بلا حد فمعرفة تلك الأنواع أولى، لأنها أقرب الى الجنس، وأشخاصها مشهورة. وهم يقولون ان التصديق لا يتوقف على التصور التام الذي يحصل بالحد الحقيقي بل يكفي فيه أدنى تصور ولو بالخاصة، وتصور العقل من هذا الباب، وهذا اعتراف منهم بأن جنس التصور لا يتوقف على الحد الحقيقي...

« السابع » ان سامع الحد، ان لم يكن عارفا قبل ذلك بمفردات ألفاظه ودلالاتها على معانيها المفردة لم يمكنه فهم الكلام، والعلم بأن اللفظ دال على المعنى الموضوع له مسبوق بتصور المعنى، وان كان متصورا لمسمى اللفظ ومعناه قبل سماعه امتنع أن يقال انما تصوره بسماعه..

« الثامن » إذا كان الحد قول الحاد فمعلوم أن تصور المعاني لا يفتقر الى الألفاظ. فان المتكلم قد تصور ما يقوله بدون لفظ، والمستمع يمكنه ذلك من غير مخاطب بالكلية، فكيف يقال: لا تتصور المفردات الا بالحد..

« التاسع » ان الموجودات المتصورة اما أن يتصورها الانسان بحواسه الظاهرة كالطعم واللون والريح والأجسام التي تحمل هذه الصفات، أو الباطنة كالجوع والحب والبغض والفرح والحزن واللذة والألم والارادة والكراهة وأمثال ذلك، وكلها غنية عن الحد..

« العاشر » انهم يقولون: للمعترض أن يطعن على الحد بالنقض في الطرد أو في المنع، وبالمعارضة بحد آخر، فاذا كان المستمع للحد يبطله بالنقض تارة بالمعارضة تارة أخرى– ومعلوم ان كليهما لا يمكن الا بعد تصور المحدود– علم

أنه يمكن تصور المحدود بدون الحد، وهو المطلوب..

«الحادي عشر» انهم معترفون بأن من التصورات ما يكون بديهيا لا يحتاج الى حد، وحينئذ يقال: كون العلم بديهيا أو نظريا من الأمور النسبية الإضافية، فقد يكون النظرى عند رجل بديهيا عند غيره لوصوله اليه. بأسبابه من مشاهدة أو تواتر أو قرائن، والناس يتفاوتون في الادراك تفاوتا لا ينضبط. فقد يصير البديهي عند هذا دون ذاك بديهيا لذاك أيضا بمثل الأسباب التي حصلت لهذا ولا يحتاج الى حد..

ثم ينتقل الامام الى تعريف الحد فيقول: المحققون من النظار على ان الحد فائدته التمييز بين المحدود وغيره، فالاسم ليس فائدته تصوير المحدود وتعريف حقيقته، وانما يدعي هذا أهل المنطق اليونانيون أتباع ارسطو ومن سلك سبيلهم تقليدا لهم من الاسلاميين وغيرهم. فأما جماهير أهل النظر والكلام من المسلمين وغيرهم فعلى خلاف هذا وانما أدخل هذا من تكلم في أصول الدين والفقه بعد أبي حامد في أواخر المائة الخامسة، وهم الذين تكلموا في الحدود بطريقة أهل المنطق اليوناني، وأما سائر النظار- من جميع الطوائف الأشعرية والمعتزلة والكرّامية والشيعة وغيرهم- فعندهم انما يفيد الحد التمييز بين المحدود وغيره. وذلك مشهور في كتب أبي الحسن الأشعري والقاضي أبي بكر وأبي اسحق وابن فورك والقاضي أبي يعلى وابن عقيل وامام الحرمين والنسفي وأبي علي وأبي هاشم وعبدالجبار والطوشي ومحمد بن الهيثم وغيرهم. ثم ان ما ذكر أهل المنطق من صناعة الحد لا ريب انهم وضعوها وضعا، وقد كانت الأمم قبلهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع، وعامة الأمم بعدهم تعرف حقائق الأشياء بدون هذا الوضع، وهم اذا تدبروا وجدوا أنفسهم يعلمون حقائق الأشياء بدون هذه الصناعة الوضعية..

فهذا وما جرى مجراه من كلام الامام ابن تيمية تصحيح للمنطق وتحرير للعقل من قيود المصطلحات التي تعوقه عن النظر السليم ولا تطلقه على سوائه، ووجهته أن المنطق مقيد بالعقل وليس العقل مقيدا بالمنطق كما جعله المقلدون من عبّاد الألفاظ وأصحاب اللجاجة بالمصطلحات الموضوعة.

ومن إحاطة هذا الامام الثبت[١] بفنون البحث أنه يستقصيه اثباتا ونفيا في كل باب من أبوابه وعلى كل منهج من مناهجه سواء منها ما شاع في عصره وما ندر في ذلك العصر وشاع في الزمن الأخير حتى حسبه بعضهم من مخترعات العصر الحديث كالاستقراء الذي يشبه الإحصاء والمقارنة بالأرقام والمقادير.
فمن حججه على أدعياء المنطق وأصحاب الجدل مشاهدات الواقع واحصاءاته المحسوسة التي أثبتت له قلة جدوى المصطلحات المنطقية في الفهم والتفاهم والتوفيق بين الآراء وتقريب العقول من الاقناع والاقتناع. قال في كتابه نقض المنطق: «إنك تجدهم أعظم الناس شكا واضطرابا وأضعف الناس علما ويقينا، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم ويشهده الناس منهم، وشواهد ذلك أعظم من أن تذكر هنا. وانما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض والقدح والجدل. ومن المعلوم ان الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي، وانما العلم في جواب السؤال، ولهذا تجد غالب حججهم تتكفأ[٢] اذ كل منهم يقدح في أدلة الآخر. وقد قيل ان الأشعري- مع انه من أقربهم الى السنة والحديث وأعلمهم بذلك- صنف في آخر عمره كتابا في تكافؤ الأدلة يعني أدلة علم الكلام. فان ذلك هو صناعته التي يحسن الكلام فيها. وما زال أئمتهم يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقهم، كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره، حتى قال أبو حامد الغزالي (أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام). وهذا أبو عبدالله الرازي من أعظم الناس في هذا الباب- باب الحيرة والشك والاضطراب- لكن هو مسرف في هذا الباب بحيث انه يتهم في التشكيك دون التحقيق بخلاف غيره فانه يحقق شيئا ويثبت على نوع من الحق. لكن بعض الناس قد يثبت على باطل محض بل لا بد فيه من نوع من الحق. وكان من فضلاء المتأخرين وأبرعهم في الفلسفة والكلام ابن واصل الحموي كان يقول: أستلقي على قفاي وأضع الملحفة على نصف وجهي ثم أذكر المقالات وحجج هؤلاء وهؤلاء واعتراض هؤلاء وهؤلاء حتى مطلع الفجر، ولم يترجح عندي شيء. ولهذا أنشد الخطابي:

(١) الثبت: بتشديد الثاء وفتح الباء: الرجل إذا كان ثقة في روايته.
(٢) تتكفأ: تكفأ الرجل: تمايل وانقلب إلى الامام كما تتكفأ السفينة في جريها.

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور

فاذا كانت هذه حال حججهم فأي لغو باطل وحشو يكون أعظم من هذا؟..

ثم استطرد من هذا قائلا ما فحواه: ان الخلاف يقل كلما قل المنطق. ويكثر ويشتد كلما كثرت مناقشاته واشتدت منازعاته، وبالجملة فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة، بل المتفلسف أعظم اضطرابا وحيرة في أمره من المتكلم لأن عند المتكلم من الحق الذي تلقاه عن الأنبياء ما ليس عند المتفلسف، ولهذا تجد مثل أبي الحسن البصري وأمثاله أثبت من مثل ابن سينا وأمثاله. وأيضا تجد أهل الفلسفة والكلام أعظم الناس افتراقا واختلافا مع دعوى كل منهم ان الذي يقوله حق مقطوع به قام عليه البرهان. وأهل السنة والحديث أعظم الناس اتفاقا وائتلافا، وكل من كان من الطوائف اليهم أقرب كان الى الاتفاق والائتلاف أقرب. فالمعتزلة أكثر اتفاقا وائتلافا من المتفلسفة، اذ للفلاسفة في الالهيات والمعاد والنبوات، بل وفي الطبيعيات والرياضيات وصفات الأفلاك- من الأقوال ما لا يحصيه الا ذو الجلال. وقد ذكر في جميع مقالات الاوائل مثل أبي الحسن الأشعري في كتاب المقالات، ومثل القاضي أبي بكر في كتاب الدقائق من مقالاتهم ما يذكره الفارابي وابن سينا وأمثالهما أضعافا مضاعفة..

وأهل الاثبات من المتكلمين مثل الكلابية والكرامية والأشعرية أكثر اتفاقا وائتلافا من المعتزلة. فان في المعتزلة من الاختلاف وتكفير بعضهم بعضا حتى ليكفر التلميذ استاذه من جنس ما بين الخوارج. وقد ذكر من صنّف في فضائح المعتزلة من ذلك ما يطول وصفه. فلست تجد اتفاقا وائتلافا الا بسبب اتباع آثار الأنبياء من القرآن والحديث وما يتبع ذلك، ولا تجد افتراقا واختلافا الا عند من ترك ذلك وقدم غيره عليه.. ونواهيه والى الصريح من نصوص التحليل والتحريم فيه. فلا مذاهب هنا ولا شيع ولا تأويلات، ومتى صرح الكتاب المبين بوجوب التعويل على العقل، أو فوض للانسان حق التعويل على عقله، فليس لمسلم أن ينازع في هذا الحق أو في ذلك الواجب، ولكن الاسلام- كما هو معلوم- قد دانت به شعوب متفرقة الأصول والأجناس

واللغات، جاءته بتراث في عاداتها وأفكارها فسرى هذا الاختلاف الى تفسيراتها لبعض الآيات وتأويلاتها لبعض الأقوال والعبارات. ويجوز أن يقع هذا الاختلاف فيما يتعلق بمواضع النظر وأساليب الفهم والتفكير، وهكذا خطر لبعض المستشرقين وكتاب الغرب الذين بحثوا في علاقة اختلاف الشعوب باختلاف مذاهب النظر والاجتهاد، فظن بعضهم ان طوائف الشيعة آمنت بالامام لأنها ورثت تقديس الرؤساء والأحبار وقيدت من حق العقل في البحث والفهم بمقدار ما أطلقت من سلطان الامام ووكلت اليه من حق القيادة والارشاد..

وفي هذا الظن من المستشرقين وهم لا شك فيه، لأن هذه المسألة بذاتها- مسألة الدراسة العقلية- قد كانت في طليعة المسائل التي اشتغل بها الشيعة الاماميون، ومن أفواه الشيعة الاماميين تلقى أساطين الفلسفة الاسلامية كلامهم في العقل والنفس وفي مذهب الأفلاطونية الحديثة ومذهب افلوطين منها على التخصيص. ويقول الشيخ الرئيس ابن سينا فيما رواه عنه تلميذه الجوزجاني: «كان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية وقد سمعت منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم. وكذلك أخي»..

والفارابي أستاذ ابن سينا بالاطلاع والقدوة نشأ فيما وراء النهر ورعى أقوال الشيعة الامامية في شروط الامامة ومزج بينها وبين شروط افلاطون في كتاب الجمهورية، فجعل الامام صفوة الخلق في كمال الصفات واجتماع الفضائل العقلية والنفسية، بل فضائل الجسد التي تنزهت عن شوائب الضعف والمرض. وكان اخوان الصفاء يدينون بمذهب في الامامة كهذا المذهب ويؤلفون الرسائل مع هذا في المنطق وفي علوم الرياضة والفلك وما اليها من علومهم العقلية..

فالدراسات المنطقية- وسائر الدراسات العقلية- كانت من شواغل الشيعة الاماميين ولم يكن ايمانهم بالامامة مما يصرف العقل عن التوسع في علم من العلوم، وربما أخذت عليهم طوائف المسلمين افراطا في هذا الباب ولم تأخذ عليهم تفريطا فيه يتعمدونه أو يساقون اليه على غير عمد. وانما كان الامام عندهم مرجع المختلفين حين ينقطع بهم القياس ويؤول الرأي الى هداية المعلم فيما

جاوز طاقة المتعلمين، وحجتهم في ذلك ان المعرفة لا تتحقق كلها بالقياس وان شيئا وراء القياس ينبغي أن يصار اليه في حال من الأحوال. وهم يلجأون الى القياس حتى في اثبات هذه الحقيقة كما يؤخذ من المناقشة المشهورة بين الامامين جعفر الصادق وأبي حنيفة. قال الامام جعفر: أيهما أكبر يا نعمان.. القتل أو الزنى؟..قال الامام أبو حنيفة: القتل، فقال الامام جعفر: فلم جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنى أربعة؟.. أينقاس لك هذا؟.. ثم قال: فأيّها أكبر البول أو المني؟.. قال: البول. قال: فلم أمر الله في البول بالوضوء وفي المني بالغسل؟.. أينقاس لك هذا[1]؟.. الى آخر الأمثلة التي ساقها الامام جعفر.. وهي في الواقع قياس للدلالة على ان القياس لا يغنى في جميع الأحوال عن الرجوع الى الامام المتبوع فليس هو انكارا للقياس ولكنه انكار لدعوى من يدعي ان القياس يصلح لكل قضية ويفض كل خلاف..

ولسنا نقول ان الأمثلة قاطعة بالحجة، لأن الواقع ان اثبات القتل أيسر من اثبات الزنا وان تأويل الاختلاف بين طهارة الوضوء وطهارة الغسل لا يمتنع بالدليل المعقول، فان المسألة هنا ليست مسألة مادة تخرج من الجسم وكفى، ولكنها مسألة الاختلاف بين حالة يضطرب لها الجسم كله وحالة لا اضطراب فيها كذلك الاضطراب، وهو اختلاف يكفي لتفسير التطهير في احداهما بالوضوء والتطهر في الأخرى بالغسل الذي يعم جميع الأعضاء..

إلا ان المثل الذي ساقه الامام كان في بيان لزوم القياس حتى في مناقشة القياس على اطلاقه، ولم يخطىء التوفيق جماعة المستشرقين في شيء كما أخطأهم في ظنهم ان تحكيم العقل محظور على طائفة المسلمين لأنها ترى في الامامة رأيا يخالف جملة الآراء في هذا الباب. ولعل الروايات التي يتناقلها المستشرقون أنفسهم عن الاسماعيلية والامامية والفرق التي يسمونها بالباطنية خليقة أن تكون شاهدا صالحا عندهم لإفراط هذه الطائفة في الاشتغال بالمنطق لو أرادوا أن يصفوها بالافراط فيه.. أما انها تنكر المنطق، أو تنكر النظر والقياس، فلا شبهة له مما تناقلوه عنهم من تلك الروايات..

---

(١) مسند الامام جعفر الصادق

ولا غرابة- بعد- في قيام فرقة بين المسلمين تخالف سائر الفرق في موضوع العقل والمنطق، فان الديانات لم تخل قط من أمثال هذا الخلاف على وجه من الوجوه، ولكن الواقع المقرر في هذه المسألة بذاتها ان حرية العقل لا يقيدها في الاسلام حكم مأثور على مذهب راجح أو على مذهب مرجوح..

الفَلسَفة

فلسفة التاريخ، وفلسفة اللغة، وفلسفة الأخلاق، وفلسفة الرياضة، وغيرها من أنواع الفلسفة مصطلحات حديثة يراد بها البحث في النظريات والأفكار التي تقوم عليها تلك العلوم، أو البحث في النظريات والأفكار التي تفسر تلك العلوم وتبين وجهتها وغايتها، ويراد بهذه الفلسفات- اجمالا- انها دراسات فكرية فرضية غير الدراسات التي تقررت بالوقائع والتجارب المحسوسة من قبيل علوم الطبيعة وما جرى مجراها..

الا ان الفلسفة التي نعنيها هنا أعم من هذه الفلسفات جميعا لأنها قد تشملها من وجهة النظر في الأصول وتجاوزها الى البحث فيما وراء الحقائق المحسوسة، مما يسمى أحيانا بالبحث فيما وراء الطبيعة أو البحث في كنه الوجود كله على التعميم..

ويلاحظ في التاريخ المتواتر ان هذه الفلسفة العامة- فلسفة ما وراء الطبيعة- شاعت في بعض الأمم القديمة وقل شيوعها في أمم أخرى..

ويلاحظ كذلك ان بلاد الدول الكبار لم تكن بيئات صالحة لنشأة هذه الفلسفة ونبوغ فلاسفتها، وان الأمر لا يرجع الى اختلاف درجات الحضارة بل الى اسباب غير هذا السبب، كما يؤخذ من تواريخ الحضارات الأولى..

فالهند ومصر وبلاد ما بين النهرين وبلاد الدولة الرومانية.كانت على درجة عالية من الحضارة وعلى حظ وافر من العلوم والصناعات، ولكنها لم تتسع لشيوع الفلسفة كما اتسعت لها بلاد اليونان في عصر من عصورها قبيل ميلاد المسيح، وهي مع ذلك لم تبلغ من الحضارة والعلم والصناعة مبلغ البلاد التي قامت فيها الدول الكبرى وقل فيها شيوع الفلسفة ونبوغ الفلاسفة..

والباحثون الأوربيون يحبون أن يعللوا ذلك بعلة ترضيهم وتدل عندهم على امتياز السلالات الأوروبية بين جميع السلالات البشرية..

يقولون ان طلب المعرفة لمحض المعرفة مزية من مزايا العقل الأوروبي. دون غيره بين عقول الأمم من سائر الأجناس، وان الأمم من غير الأجناس الأوروبية تطلب العلم لمنفعة وتهتم بالمعرفة لما تستفيده منها في معاشها، ولا تهتم بها لأنها مطبوعة على التفكير وطلب الحقيقة لذاتها..

ودلائل العصبية العنصرية هنا ظاهرة تكفي لاخراج هذه العلة عن عداد العلل العلمية الخالصة لوجه البحث والمعرفة. وقد حدث للأمم الأوروبية انها حجرت على الفلسفة حين عرضت لها ظروف اجتماعية أو سياسية كالظروف التي سبقتها في الدول الشرقية..

فالسبب العنصري هنا قاصر عن تفسير العلة في اختلاف اقبال الأمم على الفلسفة. وانما ترجع تلك العلة الى أسباب واحدة بين الشرق والغرب. وبين الماضي والحاضر، كلما تشابهت الظروف على تباعد الأزمنة والجهات.

والغالب ان الدول الكبيرة، وهي الدول التي تقوم عادة على الأنهار الكبيرة، تستقر فيها سلطة دينية متوارثة كالسلطة السياسية. وان هذه السلطة الدينية تستأثر بمباحث العقيدة ومباحث ما وراء الطبيعة ولا تسمح لأحد بأن يزاحمها في المعارف التي تتعلق بالأرباب وأسرار الخلق وأصول الحياة أو أصول الوجود كله على التعميم. وقد وجدت هذه السلطة الدينية القوية في أوروبا بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر للميلاد فامتنع ظهور الفلسفة فيها وساء حظ الفلاسفة بين علمائها ومحتكري العلم من أحبارها وكهانها. وحدث قبل ميلاد السيد المسيح ان عبادة الامبراطور تقررت في الدولة الرومانية وان الدولة عرفت سلطان الكهانة بين شعوبها فامتنع فيها ظهور الفلسفة ونبوغ الفلاسفة ولم يكن محصولها منها بأوفر من محصول الفلسفة في دول الحضارات الشرقية، وقامت الدولة الرومانية ثم سقطت وهي عالة على بقايا الفلسفة اليونانية تأخذ منها ما يحسب من فلسفة السلوك والأخلاق وتحجم عما عداه من أبواب الفلسفة المعنية بما وراء الطبيعة وما تخوض فيه من المشكلات والأسرار..

وقد فسر الاسلام هذا الفارق بين الأمم في عنايتها العامة بالفلسفة على طريقته العملية حين قامت فيه الدولة بغير كهانة، فكانت دولة الاسلام أرحب

الدول صدرا وأسمحها فكرا مع الفلسفة على عمومها والفلسفة اليونانية في جملتها، بل كانت الأمة الاسلامية أرحب صدرا وأسمح فكرا مع الفلسفة اليونانية من بلاد العالم اليوناني الذي نشأت فيه، كما يؤخذ من مصائر الفلاسفة بين أبناء العالم اليوناني ومصائر الفلاسفة المسلمين وغير المسلمين في بلاد الاسلام..

كان «ثالوث» الفلسفة الأكبر يجتمع من سقراط وافلاطون تلميذ سقراط وأرسطو تلميذ افلاطون، وكان أشهر الفلاسفة بعد هذين فيثاغوراس امام الحكمة الصوفية وزينون امام الفلسفة الرواقية، وكل من هؤلاء الحكماء- المعبرين عن حكمة عصورهم- قد أصيب في زمنه بمصاب لا يدل على قرار أمين..

فسقراط قضى عليه بالموت. وافلاطون بيع في سوق العبيد، وأرسطو نجا بنفسه من أثينا خوفا من عاقبة كعاقبة سقراط بعد أن رماه كاهن من كهانها بالالحاد، وقيل انه ألقى بنفسه في البحر وزعم بعض مؤرخيه انه لم يبخع[1] نفسه فرارا من الاضطهاد، بل غما من تفسير علة المد والجزر في البحر الذي ألقى بنفسه فيه..

أما فيثاغوراس فقد مات قتيلا بجانب مزرعة فول، وبخع زينون نفسه لأن الآلهة أمرته بذلك كما قال لبعض تلاميذه، ولا نُعلم على التحقيق علاقة مصيره هذا ولا مصير فيثاغوراس بالدعوة الفلسفية ولكنه- على أي وجه من الوجوه- مصير لا يدل كما أسلفنا على قرار أمين..

ونقارن بين هذه الأحوال التي عرضت لأكبر فلاسفة اليونان وبين أحوال الفلاسفة من المسلمين من المشتغلين بالفلسفة اليونانية وهي أجنبية في البلاد الاسلامية فلا نرى أحدا أصيب بمثل هذا المصاب من جراء الفلسفة أو الافكار الفلسفية، ومن أصيب منهم يوما بمكروه فانما كان مصابه من كيد السياسة ولم يكن من حرج بالفلسفة أو حجر على الأفكار.

فأشهر الفلاسفة المسلمين في المشرق ابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس دخل السجن لأنه كان عند أمير همدان فبرم بالمقام عنده وأراد أن يلحق بأمير

---

(١) يبخع: يهلك.

أصفهان علاء الدولة بن كاكويه فسجنه أمير همدان ليبقيه الى جواره ولم يسجنه عقوبة له على رأي من آرائه..

وابن رشد أشهر الفلاسفة المسلمين في المغرب أصابته النكبة لأنه لقب الخليفة المنصور في بعض كتبه بلقب ملك البربر وكان يصادق أخاه «أبا يحيى» ويرفع الكلفة بينه وبين الخليفة فيناديه «يا أخي» وهو في مجلسه الخاص بين وزرائه وكبرائه، ويحتاج المؤرخ في كل مصادرة فركية أو دينية- كما قلنا في تاريخ الفيلسوف- الى البحث عن سببين أحدهما معلن والآخر مضمر، فقليلا ما كان السبب الظاهر هو سبب النكبة الصحيح، وكثيرا ما كان للنكبة غير سببها الظاهر سبب آخر يدور على بواعث شخصية أو سياسية تهم ذوي السلطان ويسري هذا على الشعراء كما يسري على الفلاسفة، ويسري على الجماعات كما يسري على الآحاد. ولقد نكب بشار ولم ينكب مطيع بن اياس وكلاهما كان يتزندق ويهرف في أمور الزندقة بما لا يعرف، ولكن بشارا هجا الخليفة ومطيع لم يقترف هذه الحماقة. فنجا مطيع وهلك بشار، ولم يكن ابن رشد أول شارح لكتب الأقدمين. فقد سبقه ابن باجة الى شرح بعضها وان لم يتوسع في هذا العمل مثل توسعه ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحبة السلطان وابن رشد لم يكن يحسن هذه الصناعة، فنكب ابن رشد ولم ينكب ابن باجة ولم يغن عن الفيلسوف المنكوب انه شرح الكتب كما تقدم بأمر من أبي الخليفة»..

واشتغل بالفلسفة اليونانية غير ابن سينا وابن رشد أعلام من هذه الطبقة من طراز الكندي والفارابي والرازي، كما اشتغل بها أناس دون هذه الطبقة في الشهرة والمكانة فلم يصب أحدهم بسوء من جراء تفكيره ولم يصدهم أحد عن البحث والكتابة الا أن تستدرجهم حبالة من حبائل السياسة فينالهم منها ما ينال سائر ضحاياها ولو لم يكن أسهم في مذاهب الفلسفة أو الدين..

وربما كمنت السياسة وراء دعوات المتفلسفين كما كانت وراء المصادرة من جانب الدولة وحكامها. لأن الزندقة التي كانت تتستر بستار الفلسفة انما كانت في ناحية من نواحيها ثورة مجوسية ترمي الى هدم الدولة الاسلامية من أساسها واقامة الدولة الفارسية في مكانها. وتنسب الزندقة في أرجح الأقوال الى كلمة

« زندا » التي كانت تطلق على شرح كتاب « زرادشت » وتعليقات الديانة المجوسية ، وربما عمد الخلفاء الى أناس من العلويين فاتهموهم بالزندقة على خلاف المعقول أو المنتظر من أسرة تقيم حقوقها في الخلافة على وراثة النبي عليه السلام والمحافظة على رسالته الدينية ، ولكن الشبهة كانت تلحق بهم من الاشتراك في مقاومة الدولة ولو على غير تفاهم بين الفريقين ، وكان أعوان الدولة يحشرونهم جميعا في زمرة واحدة لتشويه الحركة العلوية بالقاء الشبهة عليها من الوجهة الدينية ..

أما فيما عدا السياسة وشبهاتها ومكائدها فلم يصادر أحد من المشتغلين بالفلسفة لأنه يتفلسف أو يخوض في بحث من البحوث الفكرية على تشعبها ، وما لم يكن هذا المتفلسف عدوا مجاهرا بمحاربة الدين والدولة ونشر الفتنة فلا جناح عليه ولا قدرة لخليفة أو أمير على مصادرته باسم الاسلام ..

ويصدق هذا من باب أولى على الفلسفة الاسلامية كما يصدق على الفلسفة الأجنبية ، فلم تنقطع بحوث المعتزلة وعلماء الكلام لغير علة من علل السياسة لا تلبث أن تزول بزوال المعتلين بها ، وقد طرق المعتزلة وعلماء الكلام كل باب مغلق من أبواب الأسرار الدينية التي حجرت عليها الكهانات القوية في الديانات الأولى . فنظروا في العقيدة الالهية وفي أصول الخلق والوجود وأحكام النبوءات وعددوا الأقوال والآراء في كل باب من هذه الأبواب على أوسع مدى وأصرح بيان . ووسعهم الاسلام جميعا وان ضاق بفريق منهم في بعض الأحيان ..

ومن البديهي ان اشياع الفرق يخطئون في مناقشاتهم ، وان الأمراء يخطئون في سياستهم ، وان الدين يتبعه المخطىء والمصيب والخادع والناصح ، فليس حكم الاسلام في مباحث الفلسفة برأي هذه الفرقة في تلك ، ولا هو بحيلة هذا الأمير أو ذاك فيما يقصدان اليه من مآرب السياسة وانما حكم الاسلام هو حكم الكتاب والسنة المتفق عليها ، وليس في الكتاب ولا في السنة كلمة واحدة تحجر على التفكير في شأن من شئون الفلسفة أو مذهب من مذاهبها ما لم تكن في المذهب الفلسفي موبقة غير مأمونة على الشريعة أو على سلامة الجماعة فلا جناح على الفيلسوف أن ينظر فيما شاء وأن يفصح عن وجهة نظره كما شاء ..

واذا بدا لنا أن نلتمس مقياس الحرية الفكرية من الواقع الماثل للعيان أو من الناحية العملية التي تنكشف لنا في حياتنا اليومية، فهنالك الى جانب الكتاب والسنة دليل على حرية الاسلام يتقرر بحكم التاريخ الواقع ولا يلجئنا الى تأويل الآيات والأحاديث، وهذا الواقع يقرر لنا دليله من روح الدين التي يوحى بها الى جملة أتباعه في جملة عصوره. فلم يكن من روح الاسلام التي أوحى بها الى جماعاته أن يثير فيهم البغضاء للفكر والمفكرين وأن يبيح لهم عقوبتهم بالتعذيب والاحراق والحرمان من حقوق الانسان، ولم يكن هذا الدليل الواقعي من روح الاسلام مقصورا على وطن أو سلالة فيقال انه مستمد من تراث ذلك الوطن أو تلك السلالة، ولكنه عمَّ بلاد المسلمين جميعا في عصور كثيرة، فلا يرجع به المؤرخ المنصف الى وحي غير وحي الكتاب الكريم..

وتتجلى سعة الدين الاسلامي في موقف الفلاسفة منه كما تتجلى في موقف الدين من الفلاسفة. فان كبار الفلاسفة المسلمين قد خاضوا غمار الأفكار الأجنبية بين يونانية وهندية وفارسية وعرضوا لكل مشكلة من مشاكل العقل والايمان وتكلموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس، وخرجوا من سبحاتهم الطويلة في هذه المعالم والمجاهل فلاسفة مسلمين دون أن يعتنوا أذهانهم في التخريج والتأويل..

ومنهم من ترجم أرسطو وافلاطون الى الاسلام فكرا وتقديرا فلم يعسر عليه أن يذهب معهما الى أقصى المدى في رأى العقل دون أن يخرج من حظيرة الدين..

ونحن- فيما نعلم من مذاهب هؤلاء الفلاسفة الكبار- لا نرى فيلسوفا قال في الخلق والخالق ما ينكره المسلم المؤمن بالله والوحي أو جنح به التعبير الفلسفي الى قول يأباه السامع الذي تعود التعبير عن مسائل الدين بلغته العربية وأسلوبه المتعارف بين جمهرة المتدينين..

وأكبر الفلاسفة المسلمين الذين استوعبوا مسائل الفلسفة فيما وراء الطبيعة هم في الرأي الغالب بين مؤرخي الثقافة الاسلامية أبو نصر الفارابي وأبو علي ابن سينا في المشرق وأبو الوليد بن رشد في المغرب، وكلهم قد اطلع على قسط وافر من فلسفة الحكيمين افلاطون وأرسطو وطائفة من آراء الحكماء

الآخرين، وليس فيهم من ذهب الى رأى فيما وراء الطبيعة لا يذهب اليه الفيلسوف المسلم اذا تكلم بلغة الفلاسفة..

« والفارابي هو أول الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعا من التلمذة.. فقرأ له وانتفع بما قرأ في فهم مضامين الفلسفة اليونانية، وكان « المعلم الثاني » معلما كاملا له في معضلات الفلسفة الالهية بجملتها، لأنه أضاف مسائل الحكمة الدينية الى مسائل الحكمة المنطقية وأدخل مسألة التوفيق بين العقل والوحي في حسابه، وقد كانت من المسائل الحديثة في الاسلام فلم يبل فيها أحد بلاء الفارابي ولا جاوز أحد فيها مداه الدي انتهى اليه وان تبعه في هذا المجال كثيرون.. ومن توفيقاته انه سمى العقل الفعال بالروح الأمين وسمى العقول بالملائكة وسمى الأفلاك التي فيها العقول بالملأ الأعلى، وقال ان صفات الله الأزلية هي المُثل الأولى..

« والذي اتفق عليه جلة الثقات ان فلسفة الفارابي فلسفة اسلامية لا غبار عليها. فلم ير فيها جمهرة المسلمين المعنيين بالبحث الفكري حرجا ولا موضع ريبة، ولا نخالها تغضب متدينا بالاسلام أو بغيره من الأديان..

فالمعلم الثاني يبريء المعلم الأول - وهو أرسطو - من انكار خلق العالم، ويفسر آراءه على وجه يرضاه المؤمنون بالله والنبوات..

« فالله عنده هو « السبب الأول » والسبب الأول واجب الوجود. لأن العقل يستلزم وجوده ولا يستطيع أن ينفيه بحال. فكل شيء له سبب وكل سبب له سبب متقدم عليه. وهكذا الى السبب الأول الذي لا يتقدمه سبب من الأسباب، والا وقعنا في الدور والتسلسل وهما باطلان..

« وهذا السبب الأول واحد لا يتكرر، بسيط لا يتغير، لأنه لو تكرر أو تغير لاختلف ووجب البحث عن سبب لاختلافه، وقد انتهت اليه جميع الأسباب..

« هذا السبب الأول هو علة وجود كل موجود، ولا يمكن أن يكون العالم هو السبب الأول لأنه متكرر متغير فلا بد له من سبب متقدم عليه. ومن ثم تنقسم الموجودات الى قسمين: قسم « واجب الوجود » يستلزم العقل وجوده لا محالة، وهذا هو السبب الأول، أو هذا هو الله سبحانه وتعالى، ويوصف هذا

هو الله سبحانه وتعالى، ويوصف بكا صفات الكمال دون أن يقتضي ذلك التعدد، لأن نفي النقائض المتعددة لا يقتضي التعدد، بل هو صفة واحدة معناها الكمال..

« وقسم مفتقر الى سبب، ووجوده ممكن، ولكنه ينتقل من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل بسبب واجب، فهو مخلوق على هذا الاعتبار.

« قال الفارابي ينفي الظنة عن أرسطو في انكار القول بخلق العالم:

« ومما دعاهم الى ذلك الظن أيضا ما يذكره في كتاب السماء والعالم أن الكون ليس له بدء زماني، فيظنون عند ذلك انه يقول بقدم العالم وليس الأمر كذلك، اذ قدم تقدم فبين في ذلك الكتاب وغيره من الكتب الطبيعية والالهية ان الزمان انما هو عدد حركة الفلك وعنه يحدث، وما يحدث عن الشيء لا يشتمل ذلك الشيء ومعنى قوله ان العالم ليس له بدء زماني انه لم يتكون أولا فأولا بأجزائه كما يتكون البيت مثلا أو الحيوان الذي يتكون يتكون أولا فأولا بأجزائه. فان أجزاءه يتقدم بعضها بعضا بالزمان، والزمان حادث عن حركة الفلك، فمحال أن يكون لحدوثه بدء زماني ويصح بذلك انه انما يكون عن ابداع الباري جل جلاله اياه دفعة واحدة بلا زمان، وعن حركته حدث الزمان »..

وعلى هذا يكون الخلق في رأي المعلم الثاني هو الاخراج من الامكان الى الفعل، ويكون الوجود بالفعل مصاحبا للزمان. أما الوجود بالقوة فهو في علم الله الذي لا زمان له ولا مكان لأن الله أبدي لا أول له ولا آخر، وانما يقترن الزمان بالموجودات المتحركات. وهذا ولا ريب اجتهاد من المعلم الثاني في تفسير كلام المعلم الأول، ولكنه استحسن هذا الاجتهاد لأنه قرأ كتاب « الثيولوجية » أو الربوبية كما سماه وظنه من تواليف أرسطو، وهو من آراء افلوطين وتفسير ملك الصورى واسكندر الأفروديسي، ولهذا استطرد الفارابي بعد الكلام السابق قائلا: « ومن نظر في أقاويله في الربوبية في الكتاب المعروف بأثولوجية لم يشتبه عليه أمره في اثباته الصانع المبدع لهذا العالم، فان الأمر في تلك الأقاويل أظهر من أن يخفي، وهناك تبين ان الهيولي[1] أبدعها

(١) الهيولي: المادة.

الباري جل ثناؤه لا عن شيء وانها تجسمت عن الباري سبحانه ثم ترتبت.. »

« وهذا في الحقيقة مستمد من كلام افلوطين وتوسع فيه اسكندر الأفروديسي، ثم جاء المعلم الثاني فتوسع في كلام الأفروديسي وزاد عليه ما يوفق بينه وبين الدين، ولا سيا في مسألة العقول والأفلاك التي هي عند الفارابي من ملائكة الله. ويؤخذ من شرح الفارابي لبعض كلام رينون الفيلسوف الرواقي انه اعتمد عليه أكبر اعتماد في مسألة العقول. ولهذا كان مذهب الفارابي جامعا بين مذهب أرسطو عن الحركة ومذهب افلوطين عن الصدور ومذهب افلاطون عن المثل الأبدية ومذهب الرواقيين في النفس الناقلة وانبثاثها في الأجسام.. فمنذ الأزل وجدت الأشياء في علم الله وهذا علة وجودها، والله جل وعلا يعقل فالعقل الأول صادر عنه فائض من وجوده، وهذا العقل العاشر ألذي يعقد الصلة بين الموجودات العلوية والموجودات السفلية..

« فالموجود اذن ثلاث مراتب: أولاها الوجود الالهي، وثانيتها وجود عالم العقول المتدرجة، وثالثتها وجود العقل الفعال. ومن هنا نفهم كيف تعدد الكثرة عن الواحد الذي لا يتعدد، وكيف جاءت الصلة بين المعاني المجردة والمحسوسات »[1]..

« أما ابن سينا فعنده- كما عند أرسطو- ان المادة الأولية والصورة والعدم هي الأصول الثلاثة التي عنها تصدر كل الأجسام الطبيعية، والعالم مخلوق لم يحدث في زمان. يقول ما فحواه: ان هذه الكائنات إما أن تكون ممكنة الوجود جميعا واما أن تكون جميعها واجبة الوجود. ومحال أن تكون ممكنة الوجود جميعا، لأن الممكن يحتاج الى علة تخرجه من حيز الامكان الى حيز الفعل. ومحال أن تكون واجبة الوجود جميعا، لأنها بين متحركة تحتاج الى محرك وبين مركبة تحتاج علة لتركيبها، ولا بد أن نسبقها أجزاؤها. فهي اذن بعض ممكن الوجود وبعض واجب الوجود. وواجب الوجود هو الذي لا نتصور عدمه، لأن عدمه يوقعنا في المحال. ومن المحال أن يكون واجب الوجود مسبوقا، لأن الذي يسبقه يكون إذن أولى بالوجود. ومن المحال أن

---

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس ابن سينا لمؤلف هذا الكتاب.

يكون مركبا لأن أجزاء المركب تسبقه وتحتاج الى فاعل للتركيب والايجاد. فهو أول، وهو جوهر بسيط منزه عن التركيب..

« ولم يكن ابن سينا مبدعا في كلامه عن واجب الوجود، أو ممكن الوجود، لأن الفارابي قد سبقه اليه، كما سبقه المعتزلة وبعض المتكلمين. ولكن ابن سينا قد أبدع تقسيم الوجود الى واجب بذاته وممكن بذاته ولكنه واجب بغيره. وبذلك وفق بين القائلين بقدم العالم وخلقه. فان العالم ممكن بذاته، ولكنه واجب بغيره، لأنه كان في علم الله وما كان في علم الله لا بد أن يكون »..

« وليس العالم حادثا في زمان لأن الزمان وجد مع العالم.. تحرك العالم فوجد الزمان مع هذه الحركة، وانما كان وجوده لأنه وجد في علم الله فأخرجه الله من الوجود بالقوة الى الوجود بالفعل، والله قديم بالذات سرمد لا يحيط به وقت ولا محل. فالعالم كما كان في ارادة الله قديم، وكما كان بالحركة مسبوق بذات الله، وهو سبق سرمدي لا يحده الزمان، وهنا يقول ابن سينا بالحركة الأولى كما قال ارسطو بها أو بالعلة الأولى »[1]...

وقبل الاستطراد الى تلخيص مذهب ابن رشد نلم بالمسائل التي ثار عليها الخلاف بين الفلاسفة والفقهاء بعد عصر الفارابي وابن سينا وكان أكثره خلافا على التعبير دون المعاني الجوهرية. ويدور كله على مسائل أربع هي قدم العالم وعلم الله بالجزئيات وصفات الله وخلود النفس بعد الموت..

« ... وقد كانت لابن رشد آراء في كل مسألة من هذه المسائل، ليست مطابقة لما فهمه الأوروبيون في القرون الوسطى وليست مغايرة لها كل المغايرة، ولكنها آراء كان الفيلسوف حريصا كل الحرص على أن يلتزم بها حدود دينه ولا يخرج بها عما يجوز للمسلم أن يعتقده وأن يعلمه للمسلمين، وسنرى مبلغ ما أصابه من التوفيق:

« يقول ابن رشد عن قدم العالم في كتابه فصل المقال: « وأما مسألة قدمه أو حدوثه فان الاختلاف فيها عندي بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعا للاختلاف في التسمية وبخاصة عند بعض القدماء، وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان

(١) تراجع رسالة الشيخ الرئيس.

وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة. فأما الطرف الواحد فهو موجود وجد من شيء غيره وعن شيء - أعني عن سبب فاعل ومن مادة، والزمان متقدم عليه.. وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس مثل تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات وغير ذلك. فهذا الصنف اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة.. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء ولا تقدمه زمان، وهذا أيضا اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته قديما، وهذا الموجود يدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى، وهو فاعل الكل وموجده والحافظ له سبحانه وتعالى قدره. وأما الصنف من الوجود الذي بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدمه زمان ولكنه موجود عن شيء أي عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم.. فان المتكلمين يسلمون أن الزمان غير متقدم عليه، أو يلزمهم ذلك. اذ الزمان عندهم شيء مقارن للحركات والأجسام»[1]..

وأما علم الله بالجزئيات فابن رشد يقرر فيه ان علم الله يتنزه أن يكون كعلم الانسان الذي يحدث بعد حدوث المعلوم فان الله يعلم كل شيء ولا يتوقف علمه على حدوث جزء من هذه الأشياء..

وأما مسألة الصفات.. فلم تكن موضع بحث عند الفلاسفة الاغريق، ولم يكن لها شأن كبير عند فلاسفة الأوروبيين في القرون الوسطى، ولكنها أثارت الجدل فيها ان بعض الفلاسفة يقولون: ان صفات الله هي غير ذاته، وان الصفات ليست بزائدة على ذات الله، لأن ذاته سبحانه وتعالى كاملة لا تتعدد، وغير هؤلاء الفلاسفة يردون عليهم ليوقفوا بين تعدد الصفات ووحدانية الله.

«ولتمحيص القول بخلود النفس عند ابن رشد ينبغي الرجوع الى مذهب ارسطو في النفس والعقل، لأنه إذا صح ما قيل من أن توما الاكويني نصَّر أرسطو فأصح من ذلك ان ابن رشد حنفه أي جعله مسلما حنيفا واجتهد في تنقيته من كل ما يخالف العقيدة الاسلامية غاية اجتهاده، وقد أعان ابن رشد على ذلك ان كلمة الروح عندنا تشمل معنى النفس والعقل معا في معظم

(١) تراجع رسالة ابن رشد للمؤلف.

معانيها ، فالنفس تقرن بالشر والذم في كلامنا وقلما تقرن الروح بمثل ذلك ، فاذا قيل نفس شريرة على العموم فمن النادر أن يقال ذلك عن الروح وعن الروحاني ، لأن الروحانيات أشرف وأصفى من ذاك. وقد تكلم أرسطو عن النفس والعقل في كتاب الأخلاق وفي كتاب النفس ووضح في كلامه عن العقل انه ينطبق أيضا على الروح كما قال في كتاب الأخلاق عن السعادة العليا للانسان ، وهي سعادة التأمل ثم قال: مثل هذه الحياة ربما كانت أرفع جدا مما يستطيعه الانسان ، لأنه لا يحيا هذه الحياة باعتباره انسانا ، بل يحياها بمقدار ما فيه من النفحة الالهية ، والفرق بين هذه النفحة الالهية وبين تركيبنا الطبيعي كالفرق بين عمل ذلك الجانب الالهي وعمل الفضائل الأخرى ، واذا كان العقل الهيا فالحياة على مثاله الهية بالنسبة الى المعيشة الانسانية ، وعلينا ألا نتبع إولئك الذين ينصحون لنا ما دمنا بشرا أن نشتغل بهموم البشر وما دمنا فانين أن نعمل عمل الفانين ، بل علينا ما استطعنا أن نعمل عمل الخالدين وأن نحفز كل عرق من عروقنا حتى نسمو الى مرتبة أرفع ما فينا - وان قل وصغر - لأقدر وأكمل من كل شيء عداه..

« أما النفس عند أرسطو فتكاد أن تكون في أكثر مصطلحاته مرادفة للوظيفة الحيوية ، ولهذا ينسب الى النبات نفسا نامية ، والى الحيوان نفسا شهوانية ، ويسخر من فيثاغوراس الذي يقول ان نفس الانسان قد تنتقل الى الحيوان ، ويرى أن السؤال عن العلاقة بين النفس والجسد كالسؤال عن العلاقة بين الشمعة وصورتها ، فلولا صورة الشمعة لكانت شحما ودهنا ولم تكن شمعة ، ولولا نفس الانسان لكان الانسان لحما وعظاما وعصبا ولم يكن بالانسان »[1]..

وابن رشد يؤمن ببقاء الروح الانساني حيث يبقى عالم الروح كله ، فليس هو من الفلاسفة الماديين لأن هؤلاء الفلاسفة الماديين لا يؤمنون بروح للانسان في هذا العالم أو في عالم آخر ، وليس بين الفلاسفة الالهيين من ينكر بعث الأجساد انكارا منه لقدرة الله على بعثها ولكنهم يقولون ان الأرواح المفارقة أشبه بالعالم الأعلى . ومن آمن بالله وآمن بقدرة الله وآمن بالبعث والعالم الأعلى فما هو من الملحدين[2]..

---

(١)و(٢) تراجع رسالة ابن رشد للمؤلف.

هذه العجالة السريعة تلخص موقف الفلاسفة من الاسلام وموقف الاسلام من الفلاسفة، ويبدو من كلا الموقفين ان العقيدة الاسلامية لم تنقبض عن لقاء الثقافات الأجنبية عند التقائها بها في المفاجأة الأولى، وأحرى بهذه العقيدة الشاملة ألا تضيق بثقافة من الثقافات بعد اتصال الأمم واستفاضة العلاقة بين معارفها وعقولها فلا يزال موقف الاسلام من حكمة الحكماء في العصور الأخيرة كموقفه منها في صدر الدعوة الاسلامية وبعد أجيال قليلة من شيوع الدعوة بين مختلف الأقوام والشعوب. وموقفه اليوم- كموقفه بالأمس- انه لا يضيق بالفلسفة لأنها تفكير في حقائق الأشياء، لأن التفكير في السماوات والأرض من فرائضه المتواترة، ولكن المذاهب الفلسفية قد يظهر فيها ما يضيق بالاسلام ويخالفه حينا بعد حين، ولا تثريب[1] على عقيدة تخالفها بعض العقول، لأن العقائد لا تطالب بموافقة كل عقل على سواء أو على الخراف. وحسبها من سماحة انها لا تصد عقلا عن سواه..

---

(١) تثريب: لوم.

العِلْم

العلم الذي أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التي يدركها الانسان بالنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق من شيء.. ويشمل الخلق هنا كل موجود في هذا الكون ذي حياة أو غير ذي حياة..

﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(سورة الاعراف)

﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾.

(سورة الغاشية)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

(سورة البقرة)

فالعلم في الاسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، اذ كان خير عبادة لله أن يهتدي الانسان الى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله..

ولهذا قال النبي عليه السلام في فضل هذه العبادة: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد..

وقال: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وان العلماء ورثة الأنبياء»..

وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»..

وذكر له عليه السلام رجلان عابد وعالم فقال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[1]..

وهذا غير الأحاديث النبوية التي وردت في فضل المعرفة والحكمة وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة مما اجتمعت فيه أوامر الله ونبيه على هذا المعنى المتكرر في مواضع شتى من القرآن الكريم ومناسبات شتى من الأحاديث النبوية.

وموقف الاسلام من العلم- أو من العلوم عامة- يتبين من موقف علمائه المجتهدين في كل حقبة من تاريخه الذي تعاقبت به الأجيال بين القوة والضعف والتقدم والتأخر والنشاط والجمود. فقد مرت بالأمم الاسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الاسلام نفسه فجهلت فضل العلم كما جهلت فضل الدين، ولكن الاسلام لم يخل قط تاريخه بين المشرق والمغرب من أئمة مجتهدين استمدوا حرية الفكر من ينبوع تلك القوة الحيوية التي لا تستنزفها المحن والطوارق، فحفظوا رسالة هذا الدين ولا فرق بينها وبين رسالة العلم في مقصد من مقاصده، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم وأن ينظر الى الحكمة كأنها هي ضالته يعنيه أن يبحث عنها ويجدها «وأينما وجدها فهو أحق بها» كما تعلم من رسول الله. واعتقد الأئمة المجتهدون جميعا انهم يؤدون أمانة الكتاب في حثهم جماعة المسلمين على طلب المعرفة حيثما وجدوها. فكل معرفة صحيحة فهي معرفة قرآنية اسلامية على اختلافهم في تفسيرها والنسبة الى الكتاب الكريم بين فئة ترى أن المعرفة محتواة فيه اجمالا وتفصيلا. وفئة ترى ان المعرفة مطلب من مطالب المؤمن بالكتاب لا يعوقه عائق منه أن يتحراها ويحققها

(١) يراجع الجزء الثالث من تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول لعبد الرحمن بن علي.

ويهتدي بها حيثما أصابها..

ان موقف الاسلام من العلم- كتابا وسنّة- لا يحتاج الى بيان بعد ما تقدمت الاشارة اليه من تلك الآيات والأحاديث..

ولكننا نعتقد ان الدين روح ينبث في الأخلاق والتقاليد الى جانب النصوص والأحكام، ومن هذا الروح يظهر عمل الدين في الواقع ولا يحسب لدين من الأديان عمل نافع في حياة البشر ما لم يثبت له هذا العمل بين أتباعه بما يوحيه اليهم من روح يصدرون عنه فيما تعمدوه ولم يتعمدوه من أفعال أو خلائق وآداب. وروح الاسلام الذي بثّه بين أتباعه يتراءى في تاريخه المتشعب الطويل سماحة تعصمهم من تلك النقمة التي انصبت على ألوف من الخلق لاستباحتهم من المعارف والدراسات ما تحرمه عليهم معتقداتهم الدينية أو كهانهم الذين يستأثرون دونهم بتفسير تلك المعتقدات، وربما كانت سماحة الروح الاسلامي في عصور الجمود والجهالة أدل على فضل الاسلام من سماحة أتباعه في عصور القوة والحضارة. لأن الدين الذي يعمل عمله في الأخلاق والآداب وقومه جامدون محجوبون عن العلم أقمن[1] بالهداية من دين يعمل وله سند من القوة والحضارة، ولو كان هذا السند قائما عليه..

وروح الاسلام في العصور الأخيرة ظاهر في موقف المسلمين من العلوم الحديثة كظهوره في موقف الأئمة المجتهدين الذين حفزوا قواهم الى الاقبال على على تلك العلوم والتبسط فيها واعتبار العمل بها أمرا من أوامر القرآن الكريم. فان العلوم العصرية عرفت باسم العلوم الأوروبية يوم كانت أوروبا كلها حربا على العالم الاسلامي تغير على بلاده وتستذل شعوبه وتقوض ما قام فيهم من دولة وسلطان وتعفى[2] على البقية الباقية حيث تخلفت للدولة والسلطان بقية تمانع في التسليم والاستسلام. فكان خليقا بهذا العداء أن يتمثل في نفوس المسلمين عداء لكل وارد من القارة الباغية وكل منسوب الى الأوروبيين المعتدين، ولكن علوم الحضارة الأوروبية لم تجد من المسلمين بعد المقاومة الطبيعية التي تخلقها المفاجأة أو المصادمة الأولى الا كل ترحيب

(١) أقمن: أجدر.

(٢) تعفي: عفت الريح الدار: درست آثارها ومحتها.

وتقدير، ولعلهم- بعد تلك المصادمة- كانوا بحاجة الى التحذير من الافراط ولم يكونوا يوما بحاجة جدية الى التحذير من الاعراض والانقباض والتفريط في تحصيل ما استطاعوه من معارف القوم، كأنها ضالة مرتقبة هم أحق بها ممن يعتدي بها عليهم ويسومهم من أجلها التسليم والاستسلام..

والافراط انما يحذر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين تلك العلوم في كل جليل ودقيق مما يثبت ثبوت اليقين ومما يعرضه أصحابه عرضا يحتمل المراجعة، بل يحتمل النقض والالغاء..

فمن الحق أن نعلم ان كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والاحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن نزعم ان كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج في ألفاظه ومعانيه. فان كثيرا من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام عن التعديل واعادة النظر من حين الى حين..

وقليل من الأمثلة يغني عن الافاضة في شرح المنهج السديد الذي يتوخى في الرجوع بنظريات العلم الحديث الى الآيات القرآنية، وأنفع هذه الأمثلة ما يقتبس من أحدث الآراء في التأويل والتوفيق بين النظريات وآيات الكتاب..

فمن أصحاب التأويل في العصر الحديث من خطر له ان السيارات السبع في المنظومة الشمسية هي المقصودة بالسماوات السبع في القرآن الكريم. وخطأ هذا التأويل ظاهر، لأن الفلكيين الذين ذكروا السيارات السبع أدخلوا الكرة الأرضية بينها ولم يجعلوا الأرض مقابلة للسماء، وهذا على ان الفلكيين المتأخرين قد كشفوا عن سيارات أخرى لم تكن معروفة للأقدمين وهي فلك النجيمات وأرانوس ونبتون وبلوطس، وكان الكشف عن هذا السيار متأخرا فلم يظهر قبل شهر مارس عام ١٩٣٠ ولا تزال في هذا الفلك الشمسي أجرام سماوية- كالمذنبات والشهب- تدخل في عداد السيارات ويدور بعضها حول الشمس في مدة أقصر من مدة الدورات التي حسبت لأرانوس ونبتون وبلوطس..

وقد تنبه لهذا الاعتراض الأستاذ هبة الله الشهرستاني صاحب كتاب الهيئة والاسلام، فبدا له ان السيارات الشمسية مشار اليها في القرآن الكريم بالأحد عشر كوكبا التي ذكرت في سورة يوسف، ولكنه- لمعرفته بعلم الهيئة- يعلم ان السيارات بعد الكشوف الأخيرة عشر وليست بإحدى عشرة، وهي بلوطس ونبتون وأرانوس وزحل والمشترى والنجيمات والمريخ والأرض والزهرة وعطارد، فقال مستدركا بعد الاشارة الى النجيمات: « فان قلت ان سيارات شمسنا ليست أكثر من تسع فلماذا تعد أحدى عشرة.. قلت: لسنا على يقين من هذا التعليق ولكن التسعة بعد زيادة السيارات المنفلقة الى النجميات تكون عشرة لا يضرنا عدم اندراجها الآن في عدد السيارات لأنها كانت في عدادها سابقا وهو كاف في مقام اذا نظر الى ما كان لشمسنا من السيارات بقيت أو عدمت عرفت أو جهلت ».

وكان من المشجعات حقا للفاضل الشهرستاني على اتخاذ هذا الرأي انه ذهب اليه بعد أن قرأ في تفسير النيسابوري والزمخشري: « ان يهوديا سأل النبي الأمي صلى الله عليه وسلم عن النجوم التي شاهدها يوسف في المنام فقال: « ﷺ »: جراين وطارق وذبال وقابس وعمودان وفليق ومصبح وضروح وفرع ووثاب وذو الكتفين فأسلم اليهودي »[1].

« وهذه الرواية رواها ابن بابوية الصدوق في الخصال عن جابر بطريقين بينهما اختلاف يسير، ورواها الحافظ القمي عن جابر في تفسير قوله تعالى: « اني رأيت أحد عشر كوكبا.. » ثم سمى تلك النجوم بتغيير يسير ».

قال الأستاذ الشهرستاني: « ان اختصاص النجوم من بين نجوم السماء لا بد من أن يكون بصفة مختصة بهذا العدد اليسير لا يشترك فيها سائر النجوم.. ويؤيده أيضا انطباق كثير من هذه الأسامي على سيارات شمسنا.. فالجريان أرضنا وقد ورد اطلاق الجارية على أرضنا في غير هذا الخبر كما مر تفصيله في المقالة الثالثة عشرة من مسألة تعدد الأرضين.. والطارق الزهرة فان الطارق كوكب الصبح على ما في القاموس والعرب لا يقصدون في كوكب الصبح غير الزهرة قديما وحديثا. والذبال على وزن قطام يطلق في اللغة على النحيف

(١) ص ٢٣٢ من كتاب الهيئة والإسلام لهبة الله الشهرستاني .

الفاقد للطراوة، وعطارد أيضا كثير الجفاف فاقد الطراوة من شدة قربه من الشمس، والقابس يطلق في اللغة على ما يكتسب الحر الشديد من نار عظيمة ونجمة فلكان أيضا تكتسب الحرارة الشديدة من نار لا نرى أعظم منها لهبا أعني الشمس، فان قربها مفرط من فلكان ولذلك سميت نجمة فلكان بهذا الاسم. فان فلكان كما مر اسم جبل يثير النار ومعربه بركان. والعمودان يحتمل انطباقه على مريخ فانه لا ينفك عن قمرين تقوم أشعتهما عليه كالعمودين. والفيلق بمعنى المنفلق ينطبق على السيارة العظيمة التي حسبوا كونها بعد مريخ وتفسخت الى قطع صغار دوارة أعني بها نجيمات المشترى ويؤخذ شرحها من غرة هذه المسألة. والحاصل انها قابلة للانطباق على سيارات شمسنا على النظام السابق المبدوء من أرضنا. ثم الزهرة ثم عطارد ثم فلكان ثم المريخ .. الخ .. الخ ».

ويمضي صاحب كتاب الهيئة على هذا النحو في تأويله للعدد الذي جاء في الآية القرآنية مما يصح أن يحاط به عند التوسع في التفسير كما ينبغي في تفصيل الشروح الوافية، ولكنه يذكر على سبيل الرواية ولا يذكر على سبيل الجزم بحكم القرآن في مسألة من المسائل، وبخاصة ما كان منها عرضة للمراجعة والمناقشة وتعدد الآراء، ولا نحرص على روايته الا لأن الصواب والخطأ في هذه التأويلات يدلان معا على موقف القرآن الكريم في العلم عند المسلمين فلا حرج عندهم في دراسة النظريات العلمية ولا مانع في دينهم يمنعهم أن يتقبلوها مطابقة لآيات التنزيل.

وشبيه بهذا التأويل رجوع بعض المفسرين بالنظرية السديمية الى آية الدخان في سورة فصلت:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

والنظرية السديمية فكرة قال بها سويدنبرج Swedenborg ثم فصلها لابلاس Laplace خلاصتها ان المنظومة الشمسية نشأت من السديم– أي من مادة غازية

ملتهبة- بردت وتجمدت وأفلتت من جرمها الكبير أجزاء كثيرة تفرقت فدارت حول نفسها وحول الجرم الكبير بفعل الجاذبية والحركة والمركزية، وان نشأة النجوم في السماء مماثلة لهذه النشأة وان لم تكن من قبيل المنظومات التي تشبه منظومتنا الشمسية..

وهذه الفكرة شائعة وليست بقاطعة، لأن الغازات المنطلقة لا تكون أشد حرارة من الأجرام المتجمعة، اذ هي كلما انطلقت تسربت منها الحرارة في فضاء أوسع من حيز الكرة المتجمعة، وليست حركة الغازات بعد تجمعها موافقة للحركة التي تصورها أصحاب هذه النظرية، فضلا عما ظهر عن حقيقة السحب التي كانت تسمى سديما ثم تحقق انها جماعات من النجوم تعدّ بمئات الملايين، ولا يستطاع البت بقول جازم في النظرية السديمية قبل البت بقول جازم في أصل الأشعة الكونية وفي النجوم التي تنفجر لابترادها وتكثفها وتعاظم الضغط على داخلها واندفاع باطنها الى خارجها، فربما كانت السدم من مادة النجوم المتفجرة، أو كانت من تجمع الأشعة الكونية أو كان الفضاء هو مصدر هذه الحركات في أصولها عند الذين يرون ان الفضاء والأثير شيء واحد، وأيا كان مقطع القول في هذه الفروض فلا ينبغي أن نعدو بها فروضا يتعاوزها[1] الثبوت والنقض على حسب الكشوف والمشاهدات التي تتيسر أدواتها مع الزمن ولا تزال اليوم في أوائلها..

ويتساوى الحكم على الماضي وعلى المستقبل في هذه الفروض التي يتباعد بها الزمن كما يتباعد بها المكان فلا يقين فيها على الحالين ولا حسم فيها بين رأيين ما اتسعت للخلاف بين فرضين..

ولا حرج على قائل أن يقول في تقديره كما قال العالم المجتهد الشيخ طنطاوي جوهري وهو يفسر الآية: «وقد شاهدوا من تلف العوالم اليوم ستين ألف عالم تبرز للوجود من جديد ولا تزال على الحالة السديمية كما نقلته لك من الكتب الفرنجية في غير هذا المكان، ورأوا أن من تلك العوالم ما هو في أول تكونه ومنها ما قطع مراحل في تكوينه ومنها ما قارب التمام وهي عوالم كعالمنا الشمسي الذي نحن فيه وسيبرز للوجود كما برزت شمسنا وسياراتها وأرضها

---

(١) يتعاورها: تعاور القوم الشيء: تداولوه وتعاطوه.

وكانت في الأصل دخانا وستستمر في التكوين ومدتها نوبتان، ونحن لا نقدر أن نعرف كيف تكون النوبتان غاية الأمر أن نقول نوبة للبداية ونوبة للنهاية ويكون هذا القول من الجمل العامة وفائدته ان التكوين لم يكن في لحظة واحدة.. »..

نقول لا حرج في هذه الفروض والتقديرات على قائل يقول بها وعليه عهدتها[1] في سبيل البحث عن الحقيقة، ولكن الحرج كل الحرج أن تلزم أحدا بفروض النظرية السديمية كأنها من دعائم الايمان بآيات التنزيل..

ونكتفي من هذه الأمثلة بمثل آخر له صبغة تاريخية جغرافية جرى فيها التأويل نحو هذا الجري وان لم يرتق الأمر فيه الى منزلة النظم الفلكية أو أصول التكوين كتعداد السيارات أو النظرية السديمية .وذلك تأويل فاضل من معلمي الرياضة لقوله تعالى في سورة الكهف من قصة ذي القرنين:

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[2]﴾

فان المعلم الفاضل يذكر التوندرا Toundras ويقول انها مياه موحلة تشغل صيفا الأجزاء السفلى من أحواض الأنهار أوبي Obi واينسى Ienissi ولينا Lena بسيبريا تستحيل شتاء الى سهل واسع المدى من الجليد »..

ثم يقول في تفسير الآية: « أي في عين ماؤها موحل أو به طين أسود أو به طين كريه الرائحة وليس يعرف في الأقاليم ما شأن الماء فيها هكذا الا منطقة التوندرا صيفا ولا ما شأن الاتساع فيها إلى حد انطباق الأفق على نهايتها حتى يلوح للنظر اختفاء الشمس عندها الا هي. اذن ما الذي يمنع عن ارادة القرآن لها؟.. اذا تقرر الأخذ بذلك كان ذو القرنين يرتاد سيبريا وكان في الشرق من مجرى لينا الأسفل وسيتأيد ذلك أيضا مما يأتي في القصص نفسه. اذ تقول الجغرافيا الرياضية بطول نهار الصيف في نصف الكرة الشمالي فيكون زمنه بين ١٢ ساعة و٢٤ ساعة في العروض المختلفة من خط الاستواء الى

---

(١) عهدتها: يقال: هذا الامر عهدته على فلان أي يجب عليه اصلاح ما فيه من عيب.

(٢) حَمِئة: ذات الحمأة أي الطين الاسود المنتن.

الدائرة القطبيه الشمالية وأطول البقاع نهارا أقربها الى القطب. وتقول الجغرافيا الرياضية أيضا ان النهار يزيد على أربع وعشرين ساعة في الأماكن التي عروضها شمالي الدائرة القطبية الشمالية اذ يكون النهار شهرا واحدا في عرض ٢٣ ، ٦٧ وشهرين في عرض ٥١ ، ٦٩ وثلاثة أشهر في عرض ٤٠ ، ٧٣ درجة وستة أشهر في القطب، وتقول الجغرافيا السياسية ان هناك مدنا مأهولة في شمال الدائرة القطبية الشمالية وفي الشرق من منطقة التوندرا في سيبريا مثل فركوبنسك Verko – Yansk عرض ٦٨ درجة شمالا فيكون النهار فيها فوق الشهر ومثل اوستيانسك Ust – Yansk عرض ٥٦ ٧٠ درجة فيكون النهار فيها فوق الشهرين وأقل من الثلاثة. ويقول القرآن الكريم: « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » بمعنى بلغ مكانا تشرق الشمس عليه فوجدها تظهر على قوم ليس لهم من ورائها ليل. والذي يجعلني أفهم احتمال الآية لهذا المعنى ما يأتي من النقط: أولا ، التعبير بكلمة « وجد » الذي يشعر بما يفيد حكاية الحال أو وصف ما شاهده في ذلك المكان. ثانيا : ان من معاني دون: وراء وبعد. ثالثا : ان القرآن عبَّر عن الليل بأنه لباس، في قوله تعالى « وجعلنا الليل لباسا »، وعبَّر عنه بأنه يلتصق بالنهار التصاق الجلد باللحم في قوله تعالى: « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ». وعبَّر عنه بأنه يغطي ويستر ضوء النهار بقوله تعالى: « يغشي الليل النهار ». وبأنه يغطي ويستر ضوء الشمس بقوله تعالى: « والليل إذا يغشاها ». وعبَّر بأنه يتبع النهار بقوله تعالى: « يطلبه حثيثا ». وبأنه يلتف على النهار بقوله تعالى: « يكور الليل على النهار ».. هذه المعاني المجتمعة وجهت نفسي الى الاعتقاد بارادة القرآن الكريم لهذه الحقيقة، ولولا العلم لما تجمعت عناصر هذا المعنى، وبالعلم تحققت آيات القرآن العظيم وبه يتحقق أيضا ما خفي من معانيه »[١]..

ونقول: ان هذا التفسير اجتهاد حسن من المؤلف لا مانع من نظره والوقوف به دون الجزم باليقين. فانما يتقرر هذا التفسير يقينا اذا عرف ذو القرنين وعرفت رحلاته في هذه الوجهة أو في غيرها. والكاتب الباحث يذكر ان ذا القرنين مختلف فيه بين أن يكون الاسكندر المقدوني، أو ملكا من

(١) بحث في اشارة آيتين كريمتين، رسالة لطيفة للاستاذ محمد امين الديك معلم الرياضة.

ملوك حمير. وعندنا انه أقرب الى أن يكون ملكا له سلطان على اليمن وعلى وادي النهرين. فهو من الذوين كملوك اليمن ومن لابسي التاج ذي القرنين أحدهما الى الأمام، والآخر الى الخلف كبعض ملوك العراق الأقدمين. ولكنه فرض قد تنقضه فروض أخر تأتي بها الكشوف الأثرية مع الزمن فلا يجوز القطع به والزام المسلمين أن يتقبلوه كما يتقبلون حقائق التنزيل. وانه لمن أجمل آداب القرآن العلمية أن يذكر المجتهد أمثال هذا التفسير ويتبعه بتفويض العلم الى الله: «والله أعلم، وفوق كل ذي علم عليم».. ان القرآن الكريم يقول: ان الكتاب لم يفرط في شيء كما جاء في سورة الأنعام:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

وأكثر المفسرين على ان الكتاب هنا هو اللوح المحفوظ كما جاء في تفسير ابن كثير: «أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ولكن بعض المفسرين- ومنهم الرازي- يفسر الكتاب هنا بالقرآن الكريم، ولا نزاع بين القولين في تأويل المقصود باشتمال الكتاب على كل شيء، فانهم يعنون انه يهدي الانسان الى كل شيء يحتاج اليه في دينه ودنياه ومنه طلب العلم والقوة والفضيلة، ولا يقول أحد ان الكتاب يشتمل على كل شيء تفصيلا بل اجمالا في علم الله لا يعلمه الناس الا بمقدار. فمن فهم من ذلك الاجمال معنى فهو مسئول عنه لا يسأل عنه أحد غيره الا بحجته وبرهانه، ويتفق الاجماع الذي لا نزاع فيه على الأمر بالعلم والمؤاخذة على التفريط فيه..

وأيا كان الوجه في هذه المسألة، فالقسطاس المستقيم فيها بيّن والاجتهاد فيها ينتهي الى حد قائم لا شبهة عليه. فان الاسلام يأبى كل علم يختلط بأسرار

الكهانة والكهان، فكل علم يؤمر ن المسلم فهو علم صراح بغير حجاب ولا تنجيم، يهتدي اليه كل مأمور بالنظر قادر عليه..

الفَن الجَميل

كثرة الانصاب والتماثيل في المعابد والبيع ليست بالمقياس الصحيح لنصيب الفنون الجميلة من الدين الذي يدان به في المعبد أو البيعة. لأن المعابد الوثنية كانت تتسع للانصاب والتماثيل وليست بالنموذج الصالح للأديان في الهداية الى معاني الجمال والحض على الفنون الجميلة، وهي في جملتها لا تخلو من العبادات البشعة والشعائر القبيحة والعقائد التي لا تجتمع والجمال في شعور واحد..

انما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين الى الحياة.. فلا يقال عن دين انه يحيى الفنون الجميلة أو يتقبل احياءها اذا كانت له نظرة زرية الى الحياة وكان ينظر اليها كأنها وصمة زرية[1]، والى الجسد ومتاعه كأنها رجس مرذول وانحراف بالانسان عن عالم الروح والكمال.

ولا يقال عن دين انه يزدري الفن الجميل اذا كان الجمال من مطالبه وكانت نعمة الحياة مقبولة في شرعة المتدين به بل واجبة عليه..

والاسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها.

وغيره من الأديان بين اثنتين: فاما السكوت عن التحريم والايجاب معا أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم..

أما الاسلام فانه يحل الزينة ويزجر من يحرمها، ويصف الله بالجمال ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده..

ففي خلق الأرض زينة وفي خلق السماء زينة..

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

(سورة الكهف)

---

(١) زرية: حقيرة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾.

(سورة الحجر)

﴿أَفَلَمْ يَنْظُروا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَاهَا﴾.

(سورة ق)

وفي خلائق الله جمال يطلبه الانسان كما يطلب البأس والمنفعة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

(سورة النحل)

وكل من حرَّم هذه الزينة على الناس فهو آثم لا يقضي في تحريمه بأمر الدين..

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

(سورة الأعراف)

والزينة والعبادة تتفقان ولا تفترقان، بل تجب الزينة في محراب العبادة كأنها قربان الى الله حيث لا قربان في الاسلام..

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

(سورة الاعراف)

والسنَّة النبوية فيما روي عنه عليه السلام وفيما أثر عن حياته مرددة كلها لمعاني الآيات القرآنية في تزكية النعمة واباحة الزينة والنهي عن تحريم الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا والتعبد لله بتعظيم محاسن خلقه ومحبة آيات الجمال في أرضه وسمائه..

قال عليه السلام: ان الله جميل يحب الجمال..

وقال فيما ورد من تفسير قوله تعالى:

﴿وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

انه هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن..

وقال: من له شعر فليكرمه..

وقال: ان الله يحب كل جيد الريح كل جيد الثياب..

وأخبره بعض أصحابه انه يقوم الليل ويصوم النهار فقال له: «لا تفعل.. صم وأفطر وقم ونم فان لجسدك عليك حقا..»

وقد تواترت أمثال هذه الأحاديث في الأثر واختلفت فيها الروايات ولكنها لم تختلف قط في معناها ومؤداها، لأن حياة النبي الكريم كلها مصداق للايمان بحق الجسد مع حق الروح..

والدين الذي ينظر الى الحياة والجمال هذه النظرة القويمة السوية لا يسوغ لأحد أن يظن به تحريما لشيء من الفن الجميل أو نهيا عن شيء يجمل الحياة ويحسن وقعا في الأبصار والأسماع. وانما سبقت الظنة الى هذا الخطأ لتشديد الاسلام في منع عبادة الأوثان ومنع ما يصنع لعبادتها من التماثيل والأنصاب، ولم ترد في الكتاب كلمة تنهي عن عمل من أعمال الفن الجميل، ولم يثبت عن النبي عليه السلام قول قاطع في تحريم صنعة غير ما يصنع للعبادة الوثنية أو ما تخشى منه النكسة اليها في نفوس أتباعها ومن يفتنون بجهالتها..

روى الأزرقي في أخبار مكة: «ان النبي عليه السلام لما دخل الكعبة بعد فتح مكة قال لشيبة بن عثمان: يا شيبة.. امح كل صورة فيه الا ما تحت يدي.. قال فرفع يده عن عيسى ابن مريم وأمه..

وهذه الرواية يقابلها ان النبي عليه السلام لم يدخل الكعبة الا بعد أن أزيلت منها الصور القائمة فيها أو المنقوشة عليها، فان حقت الرواية وصح انه عليه السلام قد ترك بعض الصور وأمر بازالة بعضها فليس في ذلك تحريم للصور على اطلاقها، وان حقت الرواية الأخرى وكانت الصور قد أزيلت من الكعبة بأمره عليه السلام قبل دخوله اليها فما فعله صلوات الله عليه فهو الحكمة التي تقضي بها ضرورة الحيطة في أوائل كل دعوة تخشى فيها النكسة الى ما سلفها من دعوات محظورة. وما من دعوة في عصرنا هذا تستغني عن مثل هذه الحيطة الواجبة فيما تحذره من نكسات العهود الغابرة..

على ان الخلاف في صور الكعبة ينقطع بما لا شك فيه من آيات القرآن،

وذلك فيما ورد من بيان.نعمة الله على سليمان عليه السلام ولا انكار عليه بل هو موجب للشكر من القوم جميعا كما جاء في هذه الآيات:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ[1] وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ[2] كَالْجَوَابِ[3]. وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ[4] اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وقليلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

والقاعدة العامة في الاسلام انه لا تحريم حيث لا ضرر ولا خشية من الضرر. فأما مع المنفعة المحققة فلا تحريم ولا جواز للتحريم، لأنه فوات للمصلحة ونهي عن المباح..

ومن تناول البحث في موضوع التصوير من المحدثين صاحب مجلة «الهداية» الأستاذ عبدألعزيز جاويش حيث يقول: «انه ليس المراد تعميم التحريم في كل زمان أو كل أمة. فانه لا معنى لذلك الحجر متى أمن جانب العبادة والتعظيم اللذين اختص الله بهما. وكيف يحرم التصوير مطلقا مع انه قد يكون سببا في حفظ حقوق شرعية كما هو الشأن في صور الغرقى والأموات المجهولين التي تعرضها الحكومة على الملأ حتى يعرفهم ذووهم فتقوم هناك أحكام المواريث وأحكام الزوجية وحلول الديون المعجلة ونحو ذلك وقد يكون التصوير سببا في تحذير الأمة من اللصوص المحتلين والنصابين المستترين عن أعين الحكومة، فتنشر صورهم للملأ حتى يقتفوا أثرهم ويرشدوا الحكومة الى معاهدهم، ومن الصور ما تعرف به أسرار حكم الله تعالى في خليقته كما في صور الحيوانات وأجزائها التي تحتويها كتب التاريخ الطبيعي والتشريح، كما انه من ضروب التصوير ما يساعد على علاج المرضى بعلل باطنة أو المصابين ببنادق الرصاص ونحوها كالتصوير بأشعة رنتجن الشهيرة. ومن القواعد الأصولية الشرعية ان للوسائل أحكام الغايات الشهيرة. ومن القواعد الأصولية

---

(١) محاريب: قصور حصينة.
(٢) جفان: جمع جفنة وهي القصعة.
(٣) كالجواب: جمع جابية وهي الحياض الكبار.
(٤) قدور راسيات: ثابتات.

الشرعية ان للوسائل أحكام الغايات والمقاصد. فاذا كانت الصور تتوقف عليها بعض أحكام شرعية أو معالجات طبية أو كشف مسائل علمية كان اتخاذها ولا شك من المرغوب فيه شرعا وان كانت لمجرد الزينة واللهو المباح كان اتخاذها مباحا. فأما اذا كانت تتخذ للتعظيم والعبادة والتبرك ونحو ذلك فهي حرام قطعا معذب صانعها ومعذب متخذها..»

ولا نعلم أحدا من المسلمين خاصتهم وعامتهم يزوي[1] وجهه أمام تحفة من تحف الفن حيث تؤمن النكسة الى العبادات الوثنية، وقد كان الشيخ محمد عبده- الامام المصلح المجتهد- يزور معاهد الفن ويكتب عنها ويستحسن حفظ آثارها النادرة وتحفها النفيسة لأنها من قبيل حفظ العلم وتصوير خفايا النفس الانسانية، ومما كتبه في ذلك فصل من فصول الرحلات بتوقيعه في تلك الرحلات نشرته مجلة «المنار» عن دور الصور والآثار في جزيرة صقلية يقول فيه:

«ولهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق ويوجد في دار الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلا يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب، حتى ان القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلا ربما تساوي مائتين من الآلاف في بعض المتاحف ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق، وانما المهم هو التنافس في اقتناء الأمم لهذه النقوش وعد ما أتقن من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر. وكذلك الحال في التماثيل، وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة وكان القوم عليه أشد حرصا. هل تدري لماذا؟.. اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره، خصوصا شعر الجاهلية وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه، أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل، فان الرسم ضرب من الشعر الذي يرى ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى. ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة، ما تستحق به أن تسمى ديوان

(١) يزوي وجهه: زوى الشيء: نحّاه، والشيء أيضاً جمعه وقبضه، ومنه زوى ما بين عينيه.

الهيئات والأحوال البشرية، ويصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضى والطمأنينة والتسليم، فهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا، ويصورونه مثلا في حالة الجزع والفزع والخوف والخشية، والجزع والخوف مختلفان في المعنى ولم أجمعها هنا تطمعا في جمع عينين في سطر واحد، بل لأنهما مختلفان حقيقة. ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع، وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك، فأما اذا نظرت الى رسم وهو ذلك الشعر الساكت فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك إذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المسرحة في قولك «رأيت أسدا- تريد رجلا شجاعا» فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسداً، فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها. ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفهيمك بأطول من هذا، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين يوضح لك ما غمض عليك اذا كان من ذرعه»[١]..

ثم يستطرد الأستاذ الامام الى الحكم الشرعي في هذه الصور والتماثيل فيقول: «ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام، وهي: ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية او أوضاعهم الجسمانية.. هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب أو واجب؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان. فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة واما ان ترفع سؤالا الى المفتي وهو يجيبك مشافهة. فاذا أوردت عليه حديث «ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون» أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني انه سيقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك

---

(١) ذرعه: طاقته.

العهد لسببين: الأول اللهو. والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين، والأول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الاسلام لمحوه، والمصور في الحالين شاغلٌ عن الله أو ممثل للاشراك به. فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات، وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع ان الفائدة في نفس المصاحف موضع النزاع. وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر »..

على أن شبهة العبادة الوثنية تزول عند النظر الى فن السماع- أو فن الغناء والموسيقى- لأنه من الفنون التي لا غبار عليها ولا تحريم لشيء منها الا ما كان ممتزجا بالخلاعة أو مثيرا للشهوات فالتحريم هنا لا يخص الفن الجميل بل يعم الخلاعة والشهوة وكل ما يمتزج بالمحظورات على اختلافها، وقد يحرم اللباس الخليع أو الحديث الخليع فلا يقال ان هذا التحريم يمنع الكساء أو يمنع الكلام، ولكنه يمنع ما هو ممنوع ويبيح ما عداه..

والمسلمون مأمورون بترتيل القرآن لا يرون في قداسته ما ينهاهم أن يقرأوه ويسمعوه مرتلا في المساجد والمحاريب، بل يرون في ذلك معوانا على بلاغ أثره وطمأنينة الاصغاء اليه، وأحرى أن يكون ذلك شأن ما يطرق الأسماع منغوما من سائر الكلام..

ولو كان في الغناء ما يكره أو يعاب لكان أولى الناس أن يمنعه رجل كعمر ابن الخطاب في صرامته وشدته على نفسه وعلى غيره في رعاية أحكام دينه، ولكنه رضي الله عنه كان يبيح الغناء ويدعو اليه، ومن أخباره في ذلك ما رواه نائل مولى عثمان بن عفان قال: « خرجت مع مولاي عثمان بن عفان في سفرة سافرناها مع عمر في حج أو عمرة، وكان عمر وعثمان وابن عمر أيضا، وكنت وابن عباس وابن الزبير في شبان معنا، ومعنا رباح النهري فقلنا له ذات ليلة: أُحْدُ[1] لنا. قال: مع عمر؟.. قلنا.. أُحْدُ فان نهاك فانته. فحدا، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف. فان هذه ساعة ذكر. فلما كانت الليلة

(١) أحد: فعل أمر من حدا يحدو، وحدا الابل وبها ساقها وغنى لها.

الثانية قلنا: يا رباح. انصب[1] لنا نصب العرب، قال: مع عمر؟.. فقلنا كما قلنا بالأمس: ان نهاك فانته. فنصب لنا نصب العرب حتى اذا كان السحر قال له عمر ما قاله أمس. فلما كانت الليلة الثالثة قلنا له: يا رباح غننا غناء القيان. فقال مع عمر؟.. قلنا: ان نهاك فانته. فغنى، فوالله ما تركه أن قال له. كف. فان هذا ينفر القلوب»..

وجاءه قوم فقالوا: إن لنا اماما يصلي بنا العصر ثم يغني بأبيات. فقام معهم الى منزله واستنشده تلك الأبيات فأنشده الأبيات التالية:

وفؤادي كلما نبهتـــــــــه	عـاد في اللـذات يبغي تعـبي
لا أراه الدهر إلا لاهيـــا	في تماديـــه فقـــد برّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا؟	فنـى العمر كـذا في اللعـب ٠
وشبـــاب بـــان مـــني ومضى	قبـــل أن أدرك منـــه أربي
نفسي لا كنـت ولا كان الهوى	اتقي المولى وخـــافي وارهـــبي

فجعل عمر يقول: نفسي لا كنت ولا كان الهوى، وصار يبكي. ثم قال: من كان منكم مغنيا فليغن هكذا..

وروي عنه انه خرج للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبدالرحمن بن عوف فسأل القوم خواتا أن يغني من شعر ضرار فقال عمر: دعوا أبا عبدالله فليغن من بنيات فؤاده. قال خوات: فما زلت أغنيهم حتى كان السحر. فقال عمر: ارفع لسانك يا خوات.. فقد أسحرنا..

ومن قال ان ابن الخطاب كان أشد الخلفاء صرامة في النهي عن المحظور لم يبالغ في وصفه ولم يقل عنه ما يأباه له عارفوه ومحبوه، وها هو ذا يستمع الى الغناء بالشعر فيستمع الى فنين من أعم الفنون الجميلة بين الناس، ولا ينكر الغناء لذاته ولا الشعر لذاته، وانما ينكرهما اذا اشتملا على لهو «ينفر القلوب» كما قال..

ولعل خاطرا يخطر على البال في أمر الشعر لما ورد عن الشعراء في القرآن الكريم وانهم يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون..

ولكن هذه الصفة انما قيلت في الرد على المشركين الذين كانوا يقولون عن

(١) أنصب: نصب الحادي: تغنى ورفع صوته.

النبي عليه السلام تارة انه ساحر، وتارة انه شاعر، ففيها بيان للفرق بين النبوة والشعر وبين الكلام الذي يهدي الى الرشد والكلام الذي تتبعه الغواية والرحوع الى الآية يدل على الشعراء المقصودين بتلك الصفة فلا يوصف بها شاعر مؤمن بعمل الصالحات..

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

وقد حدث عند نزول هذه الآية- كما روى أبو الحسن مولى تميم الداري- ان حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك جاءوا الى رسول الله وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية انَّا شعراء.. فتلا النبي صلى الله عليه وسلم: «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»..

فليس الشعر منهيا عنه لأنه شعر ولا لأنه كلام موزون، اذ قد يتفق الوزن لبعض آيات الكتاب كما جاء في تفسير روح المعاني للسيد محمود الألوسي منسوبا الى بعض المتأولين اذ يقول: انهم تأولوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزونا بأدنى تصرف كقوله تعالى:

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

ويكون بهذا الاعتبار شطرا من الطويل، وكقوله سبحانه:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾.

ويكون من المديد، وكقوله عز وجل:

﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.

ويكون من البسيط وقوله تبارك وتعالى:

﴿أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

ويكون من الوافر. وقوله جل وعلا:

﴿صلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسلِيماً﴾.

ويكون من الكامل، الى غير ذلك مما استخرجوه من سائر البحور وقد استخرجوا منه ما يشبه البيت التام كقوله تعالى:

﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

فليس الوزن الذي يتفق أن يكون في الكلام المرسل منهيا عنه وليس الشعر منهيا عنه، لأنه وزن منظوم. وانما المنكر في الشعر ما ينكر في كل كلام يجري بالسوء أو يغري به ويستدرج النفوس اليه. وما عدا ذلك من الشعر فقد كان يسمعه النبي عليه السلام ويجيز عليه، وكان يحفظه الخلفاء الراشدون وأئمة المسلمين، وقد نظمت أحكام الفقه الاسلامي في بحور موزونة كما نظمت متون العلم واللغة في هذه البحور، فلا حرج في هذا الفن الجميل ما لم يكن حرجا يعرض للفنون وغير الفنون..

ويقاس الحديث من الفنون على الفنون التي أبيحت في صدر الاسلام، فما استحدث من قبيلها بعد ذلك فهو مباح مثلها، وما لم يكن معهودا يومئذ فالمعول فيه على حكم الضرورة والمنفعة واجتناب الضرر والفتنة، يباح ما تدعو اليه الضرورة ولا ضرر فيه ويحظر ما يخشى منه الضرر ولا حاجة اليه ولا مسوغ لوجوده، وقد حدث مثلا في عهد النبي عليه السلام انه شهد زفن الحبشة- أي رقصها القومي- وشهدته معه السيدة عائشة رضي الله عنها فما كان من قبيل هذه المناظر العامة فلا جناح عليه..

وموضع المراجعة في فن التمثيل الحديث ما ورد في القرآن الكريم من نهيه المرأة أن تتبرج تبرج الجاهلية وأن تبدي زينتها للغرباء الا ما ظهر منها، وقد أسهبت كتب التفسير في بيان المقصود بما ظهر من الزينة، ولخصها الامام النسفي فقال: «الا ما ظهر منها أي ما جرت الجبلة[1] والعادة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففي سترها حرج بين، فالمرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن»..

---

(١) الجبلة أو الجبلة: الخلقة والطبيعة.

وفي تفسير الحافظ بن كثير حديث مرفوع الى السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: « إن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال: يا أسماء. ان المرأة إذا بلغت المحيض لم يعلم أن يرى منها الا هذا وأشار الى وجهه وكفيه ».

والمتفق عليه ان المرأة لا يباح لها أن تبدي زينتها الا للضرورة مع أمن الضرر والفتنة، فاذا ثبتت ضرورة لظهورها في حالة من الحالات تمتنع فيها الفتنة ويؤمن فيها الضرر فحكم الشرع في هذه الحالة معلوم لا خلاف عليه..

وليس من الحق ان فن التمثيل يضيق بالمباح المقبول من الشريعة الاسلامية، وانه لا يحيا ولا يزدهر بغير ترخص فيها وخروج عنها. فان تاريخ التمثيل الحديث يشهد بمخالفة هذا الزعم للحقيقة الواقعة لأن التمثيل قد عاد الى الحياة ونما وازدهر في القرن السابع عشر يوم كانت أزياء النساء في أوروبا لا تبدي من المرأة غير الوجه والكفين، وقد تحجب الكفين بالقفاز أو الأكمام الطوال، وكانت ملابس المرأة يومئذ كملابس القرون الوسطى تفيض حول وسطها حتى تستر قوامها، وربما تعذر عندهم في ابان يفظة التمثيل أن تظهر المرأة على المسرح لجهلها بالقراءة وعجزها عن الحفظ والفهم عن الملقن على مقربة، وان لها من مباحات الاسلام رخصة أيسر من هذه الرخصة ومجالا أرحب من هذا المجال..

وربما ضاقت بالتمثيل عقيدة تعلم أبناءها نبذ الحياة والحذر من النظر في ـة التحريم والتحليل.. أما الدين الذي يعلم من يدين به أن يحب الحياة وأن يحتكم الى فكره فلا خوف منه على هذا الفن أو على سواه من فنون الحياة والجمال..

المعَجزة

يروي عن « نابليون بونابرت » انه سأل العالم الفلكي المشهور « لابلاس »: أين تجد مكان العناية الالهية في نظام السماوات؟.. فأجابه لابلاس »: لست أدري مكانا لما يسمى العناية الالهية في ذلك النظام يا صاحب الجلالة..

يريد العالم الفلكي انه يستطيع أن يفسر دوران الأفلاك بقوانين الحركة وخصائص المادة الطبيعية ولا حاجة عنده بعد ذلك الى تفسير..

وغير هذا الجواب كان أحرى برجل علم «لابلاس »، لأن العالم أحرى أن يعرف موضع العجب من هذه المشاهدات المألوفة، فليست ألفته لها مما يصح أن يبطل العجب منها ولو تتابعت أمامه ألوفا من المرات بعد ألوف..

ترى لو كان « لابلاس » في كون آخر وتحدث اليه أحد الخارجين من كوننا هذا عن دوران الكواكب على هذا النظام وخصائص المادة على هذه الوتيرة- أتراه كان يتوقع ما يحدثه عنه قبل سماعه ويرى انه شيء من قبيل تحصيل الحاصل وتكرير المعاد مستغنى عن الشرح والسؤال؟..

ترى لو قيل لذلك العالم الفلكي في أوائل الأزل أن يصور على الخريطة حركة قابلة لتنظيم الفلك في دورانه وجواذبه ودوافعه أكان يرتجل هذه الصورة ارتجالا ولا يتردد بينها وبين شتى الفروض والتقديرات..؟

ان نظام الفلك مشاهدات متكررة وليس بالمستلزمات المنطقية لو لم نكن هنالك قدرة تستلزمها وتختارها لتكون على هذا النحو ولا تكون على سواه..

ان عقولنا تستلزم ان الأصغر والأكبر من الأشياء لا يتساويان، ولكنها لا تستلزم أن تأتي الحركة من الحرارة أو تأتي الحرارة من الحركة أو تمضي المتحركات دائرة في بعض الأحوال. وساكنة في غيرها من الأحوال .

هذه مشاهدات وليست بمستلزمات ولا بديهيات، وكل ما يحدث على صورة منها ولا يحدث على صورة أخرى فهو محتاج الى التفسير غير مستغن بنفسه عن الفهم والتعليل..

ونحن نضحك من الطفل الذي تسأله: لماذا انكسر الاناء؟.. فيقول لأنه وقع، وتسأله لما ينكسر إذا وقع؟.. فيقول: هكذا.. ولا يكلف عقله سؤالاً بعد هذا الجواب..

«وهكذا» هو جواب «لابلاس» في محصوله لسؤال نابليون..

هل من الحتم أن ينكسر الاناء اذا وقع؟.. وهل من الحتم أن يدور الكوكب إذا تحرك وانجذب؟.. وهل من الحتم مرة أخرى إذا دار أن يتركب من دوراته نظام وأن تنشأ في هذا النظام حياة؟..

هكذا ولا شيء غير هكذا في رأي علامة الفلك الكبير، وعلامة الفلك الكبير ها هنا طفل صغير يستغني عن تفسير كسر الاناء باعادة كلمة واحدة هي التكسير..

لماذ يدور الفلك هذا الدوران؟..

لأنه يدور هذا الدوران، ولا بد أن يدور هذا الدوران، ولا سبب لذلك الا لأنني رأيته يدور هذا الدوران..

ومن قال هذا فهو هازل يستخف بالأعجوبة التي أمام عينيه لمجرد كونها أمام عينيه، كأنه يريد أن تكون الأعجوبة مما لا يراه ولا يراه انسان..

وان أجهل الجهلاء ليتعلم من القرآن الكريم فهما أعمق من فهم «لابلاس» وموقفا أمام مشاهد الكون أصدق من موقفه المحدود. فانه يتعلم من كتابه ان المعجزة قائمة حواليه حيثما جال بعينيه، ويؤمن .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فكل ما نراه ونكرر رؤيته فهو معجزة تدعو الى العجب..

ولكنها المعجزة التي يعمل العقل لفهمها وليست هي المعجزة التي تبطل عمل العقول..

والاسلام دين المعجزات التي يراها العقل حيثما نظر وليس بدين المعجزات التي تكف العقل عن الرؤية وتضطره بالافحام القاهر الى التسليم..

وعلينا أن ندرك ان المعجزة معجزتان كي نطلب المعجزة التي ينبغي أن تطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحدا من العقلاء..

فالمعجزة التي تتجه الى العقل موجودة يلتقي بها من يريدها حيثما التفت اليها، ولكنها غير المعجزة التي تقنع من لا يقتنع بتفكيره، ومن لم يقتنع بتفكيره فلن تهديه المعجزة من ضلال..

والاسلام دين متناسق مستجيب للفهم والموازنة بين الأمور، فهو دين المعجزات في كل شيء، ولكنه ليس بدين المعجزة التي تفحم العقل ولا تقنعه، لأنه دين العقل.. والتفكير فريضة فيه..

ويؤمن المسلم بالنواميس الكونية أشد من ايمان الدعاة الى تقرير تلك النواميس باسم العلم العصري أو العلوم التجريبية، لأنه يؤمن بأن النواميس سنّة الله في خلقه.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾.

ولكنه يؤمن كذلك بامكان المعجزة لأنها ليست بأعجب مما هو حادث مشاهد أمام الأبصار والبصائر، وليست هي بمحتاجة الى قدرة أعظم من القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة. وقد تسمى المعجزات في عرف المسلم بخوارق العادات فلا يجوز لأحد أن ينكرها لأننا تعودنا فيما علمناه في هذا العصر على الأقل أمورا كثيرة كانت في تقدير الأقدمين من خوارق العادات وهي اليوم من الممكنات المتواترة، وما جاز فيما نعلمه يجوز فيما نجهله وهو أكثر من المعلوم لنا الآن بكثير..

فمما كان من خوارق العادات عند الأقدمين أن تبلغ الحركة ما تبلغه من السرعة في تجاربنا العصرية، وأن يبلغ المكان ما يبلغه من صغر الأمد في كثير من تلك التجارب المحسوسة. فأصبحنا نعد من السرعة المحسوسة ما يزيد على عشرات الملايين من الأميال في الثانية الواحدة، ونحصر من المكان ما يقل عن جزء من مليون من القيراط تعيش فيه الأجسام والخلايا الحية وتنمو منه

جمهرة الخلائق وربوات[1] الأفلاك والأجرام، وأصبح القول بأن هذا الحدث يحدث في جزء من ألف جزء من الثانية وينتشر على آفاق من الفضاء تحسب بألوف الألوف من الأميال في الجهات الأربع، وقد كان هذا مستحيلا في رأى المحدودين من عباد العادات ومنكري الخوارق فيا تعودوه، وبعضهم معدودون من الفلاسفة المفكرين، وأصح منهم بديهة وأسلم منهم تقديرا جاهل يؤمن بالمعجزة ويؤمن معها بخفايا الخلق وأسرار الحياة واتساع التقدير والاحتمال لكثير من الغرائب والطوارق والممتنعات في حكم الواقع والعيان. فان العقل الانساني لا يصاب بآفة أضر له من الجمود على صورة واحدة يمتنع عنده كل ما عداها. فاما أن تكون الأشياء عنده كما تعودها وكرر مشاهدتها واما أن تحسب عنده في عداد المستحيلات، وأدنى من هذا العقل الى صحة النظر عقل يتفتح لاحتمال وجود الأشياء على صور شتى لا يحصرها المحسوس والمألوف..

فليس من المستحيل عقلا أن يتم في ثانية ما تعودنا أن يتم في عام، ولا من المستحيل عقلا أن يحدث في قيد الشعرة ما كنا نظن انه لا يحدث في غير الآفاق الفساح، وكذلك لا يستحيل عقلا أن ينعكس هذا فيتم في الزمن الطويل والامد الفسيح ما تعودنا أن نراه في الزمن القصير والأمد الصغير..

ومن الأمثلة المقربة لهذا الاحتمال أن ننظر الى الصور المتحركة كيف ينمو فيها النبات بطيئا في أيام وهو يرتفع أمامنا سريعا في لمحات، وان ننظر الى قوائم الفرس كيف يرتفع الحافر من الأرض فيستغرق من الوقت على اللوحة البيضاء مثل ما يستغرقه العدو الى نهاية المضمار. وانما نستفيد من هذا النظر أن يأخذ العقل من الحس المشاهد درسا يتعلم منه ان اختلاف وقوع الحادث الواحد في الزمان والمكان شيء والقول باستحالة وقوعه في غير هيئة واحدة شيء آخر..

فلا استحالة في خوارق العادات، ومن قال باستحالتها لزمه الاثبات لأنه يدعى الاستحالة عقلا بغير دليل..

«وما من أحد يجرؤ، مثلا، على أن يقول باسم العلم أن الالهام بالغيب مستحيل. لأنه اذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة

(١) ربوات: جمع ربوة: وهي في الحساب عشر كرات، والكرة مئة ألف.

لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدا على حجة أو سند قويم. ويجب على العالم الذي يجزم باستحالة الالهام بالغيب أن يقرر لنا انه عرف حقيقة الزمن وعرف- من ثم- حقيقة المستقبل، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الانسان والحيوان. فما هي حقيقة الزمن؟.. هل هو موجود في الماضي والحاضر والمستقبل، أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول؟.. وما هي هذه اللحظة الواحدة؟.. وما مدى احاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة في هذه الأكوان؟.. وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة؟.. وكيف يوجد العدم بعد ان لم يكن له وجود؟..

« ان العالم الذي يجزم في قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبا وينم عن عقل ضيق لا يصلح للنظر في هذه الآفاق.. وإذا كنا لا ننفي وجود المستقبل نفيا مقطوعا به مستندا الى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل في باب الممنوعات أو غير المعقولات، واذا كان عنصر العقل في هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الانسان وحده فانتقال المعرفة منه الى عقل الانسان جائز جدا أو جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول »[1]..

واذا كان العقل الانساني لا ينفي بالدليل المقنع وجود العقل الأبدي فليس له أن يجزم باستحالة شيء مما يستطيعه ذلك العقل الأبدي من العلم بالأبد كله أو من القدرة على الايحاء به الى من يشاء أو من القدرة على خوارق العادات، لأن الخوارق بالنسبة اليه كالعادات، ولأن التغيير عنده كالانشاء والابداع، اذ ليست قدرته على تغيير ما حدث دون قدرته على الخلق لأول مرة في زمن بعيد أو زمن قريب..

والاسلام يضع المعجزة في موضعها من التفكير ومن الاعتقاد فهي ممكنة لا استحالة فيها على الخالق المبدع لكل شيء، ولكنها لا تهدي من لم تكن له هداية من بصيرته واستقامة تفكيره..

فمن مرت به آيات الأرض والسماء ولم ينظر اليها ولم يعرف منها دينا خيرا

(١) راجع كتاب « مطلع النور » للمؤلف في نهاية فصل الطوالع والنبوءات.

من دين الوثنية والتعطيل فلن تزيده الآية الخارقة الا ضلالا على ضلال..

وقد كان جواب النبي عليه السلام لمن يطالبونه بالمعجزات كما جاء في القرآن الكريم من سورة الإسراء:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾.

وفي سورة الحجر.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

وفي سورة يونس:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وقديما سخر من الآيات من كان يسخر من الحجة البينة كما جاء في قصة موسى عليه السلام من سورة الزخرف:

---

(١) كسفا: جمع كسفة بكسر الكاف: القطعة من الشيء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ .

بل جاء في الأناجيل من سيرة المسيح عليه السلام ان الكهنة عجلوا بسعيهم لاهلاك السيد المسيح حين علموا بآياته وأشفقوا أن تقود الناس الى الايمان برسالته ، فدعاهم الى الكيد له ما كان أحرى أن يدعوهم الى الاستماع له أو الصبر عليه . . .

وعقيدة المسلم في الغيب وجملة الغيبيات انها شيء يعلمه الله ولا يعلمه الانسان ، ولكنها لا تناقض العقل ولا تلغيه . فليست هي ضد العقل لو عرفها وانكشف له الغطاء عنها . ولكنها فوق عقل الانسان ، لأنه محدود وعالم الغيب مطلق غير محدود . .

ومن قال انه يرفض الايمان بغير المحدود فكأنما يقول انه يرفض الايمان بما يستحق الايمان ، اذ لا ايمان على الهدى بمعبود ناقص دون مرتبة الكمال الذي لا تحصره الحدود . .

الا ان الفارق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوقه وفوق ما يدرك بالعقول المحدودة . فما هو ضد العقل يلغيه ويعطله ويمنعه أن يفكر فيه وفي سواه ، وما هو فوق العقل يطلق له المدى الى غاية ذرعه ثم يقف حيث ينبغي له الوقوف ، وينبغي له الوقوف وهو يفكر ويتدبر . اذ كان من العقل أن يفهم ما يدركه وما ليس يدركه الا بالايمان . .

وحيثما بلغ الانسان هذا المبلغ فقد انتهى اليه بالعقل والايمان على وفاق . .

أمام الاديان

من العسير على الكثيرين من المتدينين المؤمنين بالأنبياء أن يذكروا أسبابا عقلية لتفضيلهم الدين الذي يعتقدونه على سائر الأديان التي لا يعتقدونها. وغاية ما عندهم من التعليل لهذا التفضيل أن يؤمنوا بهذه العقيدة لأنها عقيدة نبيهم ولا يؤمنون بالعقائد الأخرى لأنها عقائد أنبياء آخرين لا يؤمنون بهم ولا يقولون لماذا ينكرونهم بعد إيمانهم بأمثالهم، ولا يستطيعون أن يردوا هذا الانكار الى سبب معقول..

وهذا العجز العقلي عن تعليل اختيارهم لبعض الأنبياء دون بعض يكاد أن يكون ضرورة لا محيص عنها يضطر اليها من يؤمن برسالة دون سائر الرسالات، فان رسالات الأنبياء جميعا لن تخلو من فضائلها ومسوغات الايمان بها، ولن تنحصر الفضائل ومسوغات الايمان في رسالة واحدة، مع تقادم الزمن وتفاوت الأمم والايمان بوجود الله وهدايته للناس منذ تهيأت عقولهم وضمائرهم لقبول الشرائع والمعتقدات..

فالعجزُ العقلي عن تعليل الايمان بالدين ضرورة ملازمة لتفكير المتدين الذي لا يعرف الحق في غير دين واحد. كأنما كان الاله الهادي لعباده في غيبة عنهم قبل أن يتنزل ذلك الدين الوحيد بين ما سلف من الأديان..

والمسلم له عصمة من عقيدته تحميه من ذلك العجز الذي يعيب العقل ويعيب العقيدة معا، فهو دين التفكير أمام الأديان الأخرى حيث يتعسر التفكير في أمثال هذه المواقف بين المتدينين..

لأن المسلم يؤمن بجميع الرسالات التي سلفت قبل محمد عليه السلام، ولا ينكر منها الا ما نسخته الشرائع النبوية نفسها لاختلاف مقتضيات الزمن، وما ينكره العقل لما أضافه المتدينون اليه من خرافاتهم أو من أو شاب[1] العبادات

(١) أوشاب: أخلاط.

التي اختلطت ببقايا الوثنية والعقائد الجاهلية من جيل الى جيل..

يدين المسلم برسالة نوح قبل رسالة ابراهيم وبنيه صلوات الله عليهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

ويدين المسلم برسالات ابراهيم والنبيين من بعده كما جاء في آيات متعددة من سور الكتاب الكريم:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وفي سورة النساء:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا اِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاط وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَا زَبُوراً﴾.

وفي سورة يوسف:

﴿وَاتَّبَعْتُ مَلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

ومع ايمان المسلم برسالات هؤلاء الأنبياء المرسلين يتفتح أمامه باب التفكير والاحتكام الى العقل باعتقاده ان الأنبياء والمرسلين يتفاضلون ويحق له التمييز بين دعواتهم بما لها من حجة وما فيها من عموم الهداية على تعدد الأمم والأزمنة..

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾.

(سورة الاسراء)

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾.

(سورة البقرة)

ويملك المسلم حرية العقل فيما يعلم من الرسالات والدعوات التي لم تذكر بأسمائها في كتابه، لأن رسل الله كثيرون:

﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

فالمسلم لا يسعه أن يهمل عقله أمام الأديان والرسالات كافة حين يوفق بين واجب الايمان بها في أصولها وقواعدها وواجب الاعراض عما اختلط بها من أوشاب الخرافة أو الضلالة. لأن العقل هو مرجعه الأول في التوفيق بين هذين الواجبين، وهو مرجعه الوحيد في تمحيص الرسالات التي لم يقصصها القرآن الكريم عليه، فلا غنى له عن التفكير فيها لفهم الصالح منها وغير الصالح والتمييز بين ما يجوز رفضه وما لا يجوز، عسى أن يكون من رسالات الهداية الالهية فلا يستنكره بغير بينة أو على غير هدى..

وقد صدقت أمم ببعض الأنبياء وكذبت بنبوة محمد عليه السلام ولا حجة لها يجيب بها من يسألها الا أن تقول: اننا صدقنا بهؤلاء الأنبياء لأنهم أنبياؤنا ولم نصدق بمحمد لأنه ليس بنبي عندنا. فهم لا يفرقون بين الأنبياء بقداسة السيرة ولا بعظمة الأثر ولا بشيوع الهداية وكثرة المهتدين بها ولا بفضيلة الهداية في آدابها ومعانيها. اذ ما من فارق من هذه الفوارق يعتمدونه في تقديرهم هو خليق أن يسوغ لهم تكذيب محمد عليه السلام مع من صدقوهم كما وصفوهم وتحدثوا عنهم في الكتب التي يعولون عليها..

فمما جاء عن نوح عليه السلام في الاصحاح التاسع من سفر التكوين انه «ابتدأ يكون فلاحا وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام وكنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على

أكتافهما ومشيا الى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته »..

وجاء في الاصحاح التاسع عشر من سفر التكوين عن لوط وبنتيه:

« فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا. فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع ابيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد ان البكر قالت للصغيرة اني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من ابينا نسلا. فسقتا أباهما في تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبو المؤبيين الى اليوم، والصغير أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بني عمون الى اليوم »..

وفي الاصحاح الخامس والعشرين من ذلك السفر عن يعقوب وأخيه: « فكبر الغلامان وكان عيسو انسانا يعرف الصيد.. انسان البرية، ويعقوب انسانا كاملا يسكن الخيام، فأحب اسحاق عيسو لأن في فمه صيدا، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب. وطبخ يعقوب طبيخا فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا، فقال عيسو ليعقوب: أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت، لذلك دعى اسمه أدوم. فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك. فقال عيسو: أنا ماض الى الموت فلماذا لي بكورية؟ فقال يعقوب: احلف لي اليوم فحلف له. فباع بكوريته ليعقوب. فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس، فأكل وشرب وقام ومضى واحتقر عيسو البكورية »..

ويجيء بعد ذلك في الاصحاح السابع والعشرين ان اسحاق « لما شاخ وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يا ابني.. انني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي. فالآن خذ عدتك- جعبتك وقوسك- واخرج الى البرية وتصيد لي صيدا واصنع لي أطعمة كما أحب وآتني بها لآكل، حتى تباركك نفسي قبل أن أموت. وكانت رفقة سامعة اذ تكلم اسحاق مع عيسو

ابنه، فذهب عيسو الى البرية كي يصطاد صيدا ليأتي به. وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة: اني قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا: ائتني بصيد واصنع لي أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي. فالآن يا ابني اسمع لقولي فيما أنا آمرك به. اذهب الى الغنم وخذ لي من هناك جديين جيدين من المعزى واصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب، فتحضرها الى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه: هو ذا عيسو أخي رجل أشعر، وأنا رجل أملس. ربما يجسني أبي فأكون في عينه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة، فقالت له أمه: لعنتك عليّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خذلي، فذهب وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه أطعمة كما كان أبو يحب، وأخذت رفقة ثياب عيسى ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جدبي المعز، وأعطت الأطعمة والخبز الذي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل الى أبيه وقال: يا أبي.. فقال: ها أنا ذا.. من أنت يا بني؟.. فقال يعقوب لأبيه.. أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتني. قم أجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك، فقال اسحاق لابنه: ما هذا الذي أسرعت لتجد يا بني.. فقال: ان الرب الهك قد يسّر لي.. فقال اسحاق ليعقوب: تقدم لأجسك يا ابني.. أأنت هو ابني عيسو أم لا.. فتقدم يعقوب الى اسحاق أبيه فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب. ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه. فباركه وقال: هل أنت هو ابني عيسو. فقال: أنا هو فقال: قدم لي لآكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي. فقدم له فأكل، وأحضر له خمرا فشرب، فقال له اسحاق أبوه: تقدم وقبلني يا ابني فتقدم وقبّله، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر.. رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر، ليستعبد لك شعوبا وتسجد لك قبائل كن سيدا لاخوتك ويسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين.. حدث عندما فرغ اسحاق من بركة يعقوب ويعقوب قد خرج من لدن اسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها الى أبيه وقال لأبيه: ليقم أبي ويأكل من صيد

ابنه حتى تباركني نفسه. فقال له اسحاق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابنك بكرك عيسو. فارتعد اسحاق ارتعادا عظيما جدا وقال: فمن هو الذي اصطاد صيْداً وأتى به اليَّ فأكلت من الأكل قبل أن تجيء وباركته؟ نعم ويكون مباركاً. فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومرةً جدا وقال لأبيه: باركني أنا أيضا يا أبي. فقال: قد جاء أخوك بمكر واخذ بركتك. فقال: ألا ان اسمه دعي يعقوب. فقد تعقبني الآن مرتين. أخذ بكورتي وهو الآن قد أخذ بركتي. ثم قال: أما أبقيت لي بركة؟ فأجاب اسحاق وقال لعيسو: اني قد جعلته سيدا لك، ودفعت له جميع اخوتك عبيدا وعضدته بحنطة وخمر. فماذا أصنع اليك يا ابني؟ فقال عيسو لأبيه: ألك بركة واحدة فقط يا أبي؟ باركني أنا أيضا يا أبي. ورفع عيسو صوته وبكى. فأجاب إسحاق أبوه وقال له: هُوَذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق، وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد، ولكن يكون حينما تجمع أنك تكسر نيره من عنقك..».

ومما يروي عن داود عليه السلام في العهد القديم قصص كثيرة نذكر منها في هذا الصدد قصته مع قائده أوريا وزوجته أثناء القتال وهي القصة التي جاءت في الاصحاح الحادي عشر من كتاب صمويل الثاني حيث يقول: «وكان عند تمام العام في وقت خروج الملوك ان داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع اسرائيل فأخرجوا بني عمون وحاصروا ربة. وأما داود فأقام في أورشليم وكان في وقت المساء ان داود قام عن سريره ومشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح أمرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة. فقال واحد: أليست هذه بسبع بنت اليام امرأة أوريا الحثي؟ فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت عليه واضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت الي بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود اني حبلى. فأرسل داود الى يوآب يقول: ارسل اليَّ أوريا الحثي. فأرسل يوآب أوريا الى داود، فأتى أوريا اليه. فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب، وقال داود لأوريا: انزل الى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك، ونام أوريا على باب بيت

الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل الى بيته، فأخبروا داود قائلين: لم ينزل أوريا الى بيته. فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل بيتك؟ فقال أوريا لداود: ان التابوت واسرائيل ويهودا ساكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي الى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي. وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. فقال داود لأوريا أقم هنا اليوم أيضا، وغدا أطلقك. فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، والى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: أجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. وكان في محاصرة يوآب المدينة انه جعل أوريا في الموضع الذي علم ان رجال البأس فيه فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات اوريا الحثي فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب.. فلما سمعت امرأة أوريا انه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها، ولما قضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عين الرب ».

ومن أمثال هذه الروايات عن الأنبياء المذكورين في التوراة قصة هوشع الذي قيل في كتابه ان « أول ما كلم الرب هوشع، قال الرب لهوشع: اذهب خذ لنفسك امرأة زنا وأولاد زنا لأن الأرض قد زنت زنى تاركه الرب. فذهب واخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا فقال له الرب: ادع اسمه يزرعيل لأنني بعد قليل أعاقب بيت يهوا على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت اسرائيل ويكون في ذلك اليوم أني أكسر قوس اسرائيل في وادي يزرعيل. ثم حبلت أيضا وولدت بنتا فقال له: ادع اسمها لورحامة لأني لا أعود أرحم بيت اسرائيل أيضا، بل أنزعهم نزعا.. »

ثم يتبع هذا الاصحاح اصحاح تال يقول فيه النبي: « وقال الرب لي اذهب أيضا أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبني اسرائيل وهم ملتفتون الى آلهة أخرى ومحبون لأقراص الزبيب. فاشتريتها لنفسي بخمسة

عشر شاقل فضة وبحمر ولثك شعير، وقلت لها: تقعدين أياما كثيرة ولا تزني ولا تكوني لرجل، وأنا كذلك لك. لأن بني اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة بلا بلد وبلا رئيس وبلا زيجة وبلا تمثال وبلا أفود وترافيم.. »

هذه الأخبار وما اليها نورد منها ما أوردناه ولا نناقشه أو تتعرض لنفيه واثباته لأننا لم نكتب هذه الفصول لنخوض في الجدل الديني الذي لا صلة له بما نبينه من فريضة التفكير في الاسلام، ولكننا نورد تلك الأخبار لنستخلص منها منهج الانسان أمام الأديان كما يتعلمه من الاسلام ومنهجه أمام الاسلام كما يتعلمه من غيره..

فالذين يقبلون هذه النبوات ويكذبون برسالة عيسى ومحمد عليهما السلام، أو الذين يقبلونها جميعا ويكذبون رسالة نبي الإسلام وحدها لا تقام عندهم حجة النبوة بقداسة السير ولا بعظمة الأثر ولا بفضيلة الهداية في آدابها ومعانيها..

أما الاسلام فانه يعلم المسلم أن يقبل جميع الرسالات ولا يرفض منها شيئا لغير سبب يفقهه ويقيم الحجة عليه مما ينبغي لصفة النبوة أو ينبغي لصلاح الرسالة..

واذا فضل الاسلام على سائر الأديان فهو لا يفضله لأنه دينه وكفى، وانما يفضله لأنه يدعوه في كل عقيدة دينية الى ما هو خير عنده مما يدعى اليه في الأديان عامة..

فالاله الذي يدين به المسلم رب واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وهو رب العالمين فتح لهم باب الخلاص بهداية الأنبياء منذ وجدوا، وليس ربا لقبيلة أو عشيرة يكتب لها الخلاص وحدها وتختص بالحظوة دون من عداها من عامة بني الانسان..

والنبوة التي يدين بها المسلم هي نبوة الهداية التي ترشد العقل بالبينة والموعظة الحسنة ولا تفحمه بالمعجزة المسكتة أو بالحماية من المجهول..

والانسان في عقيدة المسلم مخلوق مكلف ينجو بعمله لا بالوساطة التي لا فضل له فيها، ويحمل وزره ولا يحمل الأوزار من ميراث الآباء الأولين، وكل مفاضلة بين عقيدة وعقيدة عند المسلم فمردها الى سبب، وسببها قائم على

فضيلة يفهمها العقل ويطمئن اليها الضمير. وقد يختلف فيها الغيب والشهادة، ولكنه اختلاف لا يصدم العقل فيما تقرر لديه، وانما يفوقه بما يتممه اذا انتهى الى غاية مداه..

الاجتهاد في الدّين

مصادر الشرائع والأحكام في الدين الاسلامي ثلاثة: الكتاب والسنة والاجماع..

ويقوم الاجماع على اجتهاد أولى الأمر وأهل الذكر بما اشتمل عليه من قياس واستحسان أو مصالح مرسلة، أي بمصالح لم تتقيد بحكم خاص ينطبق عليها في جميع الأحوال وجميع الأزمنة، ولكنها من العوارض المتغيرة التي ينظر فيها المسلمون الى مصالحهم بحسب أحوالها وأزمنتها..

والفهم واجب على المسلم في الأخذ من جميع هذه المصادر والعمل بها، فلا تعارض بين النص والاجتهاد في وجوب الفهم في كل منها، لأن المسلم- بعدما تلقاه من الأوامر الالهية التي توجب عليه التفكير والتدبير والاحتكام الى العقل والبصيرة- لا يستطيع أن يعتقد انه مطالب باتباع النص بغير فهم ولا تفرقة بين مواضع الاتباع وأسبابه، ومن قال ان العمل بالنص يعني العمل بغير فهم فليس هو من الاسلام في شيء.

والفرائض كلها في الإسلام تتساوى في شرط واحد: وهو الاستطاعة، ومنه التفكير. فلا فرق بين الصلاة والحج والزكاة والتفكير في شرط الاستطاعة، ولا يكلف الله نفسا ا[illegible]ا:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

والتفكير في أمور الدين أصل من الأصول المقررة. أما التقليد فهو حالة من حالات الضرورة التي تعفى من الاجتهاد بالفهم من يعجز عنه ولا يستطيعه. وقد يكون المستطيعون للاجتهاد أقل عددا من المستطيعين للصلاة، وكذلك المستطيعون للزكاة والحج هم أقل عددا ممن يؤدون صلاتهم أو يقدرون عليها، ولكن الفرق في الاستطاعة لا يجعل العجز عن الفريضة واجبا محتوما يلتزمه العاجز ولا يعمل على الخلاص منه كلما استطاع. اذ الفرق ظاهر بين

الواجب الذي لا يستطاع والحرام المنهي عنه. فلا ايجاب للتقليد ولا تحريم للاجتهاد بالفكر، وشر الناس في الاسلام من يحرم على خلق الله أن يفكروا ويتدبروا بعد أن أمرهم الله بالتفكير والتدبر وأنبأهم بعاقبة الذين لا يفكرون ولا يتدبرون، ومثله شرا من يحرم الاجتهاد على الناس جميعا لأنه قضى على خلق الله الى آخر الزمان بالحرمان من نعمة العقل والعلم والصلاح..

ومن أباح لنفسه أن يحرم على الناس نعمة العقل والعلم الى آخر الزمان فقد اجتهد برأيه اجتهادا أبعد في الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون على حق أو على باطل. فانه يلغي أوامر الله لعباده حيث يتحرى المجتهدون أن يبتغوا الوسيلة اليها. فهو ينهي الناس برأيه عما أمرهم به الله واجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطيعوه..

وليس التفكير في الاسلام عوضا من النص أو ما يشبه النص في الأحكام، بل هو فريضة منصوص عليها مطلوبة لذاتها ولما يتوقف عليها من فهم الفرائض الأخرى، وكلها محظور على المسلم أن يهمله وهو قادر على النهوض بتكاليفه غير مضطر الى تركه، فان تركه لغير ضرورة فهو مقصر محاسب على التقصير..

وقد وقع الاجتهاد في الاسلام نصا وعرفا وتقليدا ان صح هذا التعبير. ونعني بالتقليد هنا حسن القدوة بالاولين والتابعين من السلف الصالح، وأول الأولين نبي الاسلام عليه السلام ثم الخلفاء الراشدون ومن تبعهم في العصور التي اشتدت فيها حاجة المسلمين الى الاجتهاد. فان البعد عن القدوة المشاهدة من الخلف الصالح أحرى أن يلجيء ولاة الأمور وأهل الذكر بين المسلمين الى التفكير فيما يصلح لأزمنتهم ولم يكن معهودا في أزمنة الأولين..

فمن اجتهاد النبي صلوات الله عليه فيما رواه أبو داود عن عبدالله ابن فضالة عن أبيه حيث قال: «علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما علمني: وحافظ على الصلوات الخمس. فقلت: ان هذه ساعات لي فيها أشغال فمرني بأمر جامع اذا أنا فعلته أجزأ[1] عني. فقال: «حافظ على العصرين» وما كانت من لغتنا. فقلت: وما العصران؟.. فقال: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة بعد غروبها..

---

(١) أجزأ: أجزأ الشيء فلاناً: كفاه.

ومن الاجتهاد النبوي فيما رواه الامام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم، فاشترطوا ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يجبوا- أي لا يخرجوا للجهاد ولا تؤخذ منهم الزكاة ولا يجبون للصلاة- ولا يستعمل عليهم غيرهم. فقال صلى الله عليه وسلم: لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم. ولا خير في دين لا ركوع فيه..

ويروي أبو داود عن جابر انه سمع رسول الله يقول بعد ذلك: «سيصدقون ويجاهدون»..

ومما رواه الامام أحمد في مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يصلي الا صلاتين، فقبل ذلك منه..

وجاء في البخاري أن أم عطية قالت: بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا «أن لا يشركن بالله شيئا» ونهانا عن النياحة[1] فقبضت امرأة يدها فقالت: «أسعدتني فلانة فأريد أن أجزيها» وجاء في رواية النسائي أنه عليه السلام قال لها: فاذهبي فأسعديها، ورجعت فبايعها..

وأشباه هذا من وقائع الاجتهاد النبوي غير قليل، وانه لاجتهاد رسول الدعوة الاسلامية: أحق الناس بتيسير هذه الدعوة، وانه كذلك لأحقهم بالتشديد فيها حيث يترخص المترخصون..

أما الخلفاء الراشدون فقد اجتهدوا منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق في المصالح المرسلة التي لم يرد فيها نص ولم تسبق لها سابقة، وأجمل الامام أحمد بن ادريس القرافي ما اجتهدوا فيه من قبيل تلك المصالح فقال في كتابه «شرح تنقيح الفصول»: «ومما يؤكد العمل بالمصالح المرسلة ان الصحابة رضوان الله عليهم عملوا أمورا لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار، نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيه أمر ولا نظير، وولاية العهد من أبي بكر لعمر رضي الله عنهما ولم يتقدم بها أمر ولا نظير، وكذلك ترك الخلافة شورى وتدوين الدواوين وعمل السكة للمسلمين واتخاذ السجن. فعل ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهدَّ الأوقاف التي بازاء مسجد رسول الله صلى الله

(١) النياحة: البكاء بصوت وعويل.

عليه وسلم والتوسعة بها في المسجد عند ضيقه. فعله عثمان رضي الله عنه»، وتجديد الأذان في الجمعة بالسوق. فعله عثمان رضي الله عنه ثم نقله هشام الى المسجد وذلك كثير جدا لمطلق المصلحة »..

واجتهد أبو بكر وعمر معا فيما ورد فيه النص لزوال العلة الموجبة كما فعل في سهم الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وكان لهم سهم يأخذونه من رسول الله صلوات الله عليه تألفا لقلوبهم أيام ضعف الاسلام وضعف عقيدتهم، ومنهم عباس بن مرداس والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وأبو سفيان بن حرب وابنه معاوية فلما ولى الصديق جاءوه يسألونه سهمهم هذا فكتب لهم بذلك الى عمر فمزق الكتاب وقال لهم: لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الاسلام وأغنى عنكم، فان أسلمتم والا فالسيف بيننا وبينكم. فلما رجعوا الى الصديق يستثيرونه ويسألونه: والله لا ندري أنت الخليفة أو عمر؟.. قال: بل هو ان شاء، وأمضى ما فعله عمر كما جاء تفصيله في كتاب الجوهرة على مختصر القدوري..

قلنا في كتاب حقائق الاسلام: «ومن سوء الفهم أن يقال ان الفاروق خالف النص في هذه القضية، وانما يقال انه اجتهد في فهم النص كما ينبغي، وانه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم، لأن تأليف القلوب انما يكون مع مصلحة للاسلام والمسلمين. فان لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء، ولو أن عيينة والأقرع وأصحابهما سئلوا يومئذ: أهم من المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لأنهم ضعاف الايمان لما قبلوا أن يثبتوا في ديوان العطاء»..

وأبين من ذلك في باب الاجتهاد مع وجود النص ما رواه الامام ابن قيم الجوزية مفصلا في كتابه عن أعلام الموقعين حيث قال عن اسقاط حد السرقة في عام المجاعة: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسقط القطع عن السارق في عام المجاعة». وبعد أن ذكر الاسناد المتتابعة قال: حدثه عن عمر قال: لا تقطع اليد في عذق ولا عام سنة. قال السعدي: سألت أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال: العذق النخلة وعام سنة المجاعة، فقلت لأحمد: نقول به؟.. فقال: إي لعمري. قلت: ان سرق في مجاعة لا تقطعه؟.. فقال لا. اذا حملته الحاجة على ذلك والناس في مجاعة وشدة.. قال السعدي: وهذا على نحو قضية عمر في غلمان حاطب.. ان غلمة لحاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من

مزينة فأتى بهم عمر فأقروا فأرسل ا. عبدالرحمن بن حاطب فجاء فقال له: ان غلمان حاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة وأقروا على أنفسهم فقال عمر: يا كثير بن الصلت.. اذهب فاقطع أيديهم. فلما ولى بهم ردهم عمر وقال: أما والله لولا انني أعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى ان أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له لقطعت أيديهم. وأيم الله اذ لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك. ثم قال: يا مزني: بكم أريدت ناقتك؟ قال: بأربعمائة. قال عمر: اذهب فأعطه ثمانمائة. وذهب أحمد الى موافقة عمر في الفصلين جميعا»..

نقول أيضا: انه لمن الخطأ أن يقال ان الفاروق ترك النص أخذا بالرأي. فانه في الواقع عمل بالنص فلم يقم الحد في غير اثم، ولا اثم مع الاضطرار. ولو انه فعل غير ما فعل لكان آثما حاشاه، لأن اقامة الحد في غير موضعه منكر كاسقاطه في موضعه. وربما كان اطلاق الآثم أهون شرا من عقاب البريء. ومن كان اماما فلم يدرأ الحدود بالشبهات ولم يحسب حساب الضرورة التي يبطل معها الاثم فهو المجترىء على حدود الله، وحكمه حكم من ترك الحدود بغير برهان..

ومن الفهم المعكوس أن يقال ان الاجتهاد لازم في عصر الدعوة النبوية والنصوص من الكتاب تتوارد والسنة من أحاديث النبي حاضرة وصاحب الدعوة أمام الناس يسألونه ويجيبهم، ثم ينقضي ذلك العهد فيحرم الاجتهاد وهو الموئل الوحيد بين أيديهم لفهم النصوص وتصحيح العمل بالفرائض والأحكام. فهذا من الفهم المعكوس ولا مراء، لأنه يقضي بالاستغناء عن الاجتهاد عند الحاجة اليه، والفهم الصحيح في هذه المسألة الجليلة ان ما صنعه النبي عليه السلام وتابعه فيه الراشدون من خلفائه وأصحابه وجب على المسلمين أن يصنعوا مثله ولهم قدوة من أولى الناس ان يقتدوا بسيرته وعمله..

وشبيه بهذا في الفهم المعكوس أن يقال ان الاجتهاد يصح حين تصح الذمم وتظهر الضمائر وتسلم العقائد ويكثر الصالحون، ولكنه يبطل ولا يصح اذا عم الفساد وزاغت الضمائر وضعف اليقين بالأعمال والنيات، فالواقع أن عهد الفساد عهد تكثر فيه الشبهات التي ينبغي للحاكم أن يدرأها عند اقامة الحدود وتكثر فيه الضرورات التي يجب عليه أن يقدرها بأقدارها عند توقيع العقاب،

وولي الأمر هو المسئول المحاسب على اقامة الحد في موضعه ودرء الشبهات في مواضعها، وهو المسؤل المحاسب على تقدير الضرورات فيما يجريه من عقاب أو يسقطه من جزاء، وعليه أمانة هذا الواجب الذي يتساوي فيه وضع الجزاء في موضع الاعفاء ووضع العفو في موضع الجزاء، فان لم يكن بالحاكم ثقة ان يجري الأمور في مجراها ولم يكن بالناس ثقة أن تصح فيهم الذمم وتسلم الضمائر فمن لغو القول أن يطول الجدل فيمن يقيم الأحكام وفيما يقام..

ويتبين من تاريخ العالم الاسلامي في جملته انه على ما اعتراه من أدوار التأخير والجمود لم يستمع طويلا لآراء القائلين بمنع الاجتهاد في أية صورة من صوره، فاذا غلب التقليد في بلد من بلاده لم يخل سائر البلدان من أئمة يقولون بالاجتهاد ويعملون به في كل باب من أبوابه، وهي كثيرة تدل كثرتها على كثرة البحث فيها وكثرة العاملين بها..

فمن أبواب الاجتهاد القياس، وهو أن يرى المجتهد رأيا فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والحديث قياسا على ما ورد من النصوص للمشابهة في العلة والمقصد..

ومن أبوابه الاستحسان، وهو المفاضلة بين حكمين مستندين الى النصوص ترجيحا لأحد الحكمين على الآخر لأن الراجح منهما أوفى بالقصد وأقرب الى السبب المشروط في اجرائه..

ومنها المصالح المرسلة، وهي المصالح التي لم تتقيد بنص ولم يسبق لها نظير، ولكنها عمل تتحقق به مصلحة الأمة في حالة من الحالات فيتصرف فيها الامام المسؤل بما يوافق تلك المصلحة ويمنع الضرر من فواتها..

ومهما يكن من قول بمنع الاجتهاد فمن الحق أن نعلم أن عمل السياسة فيه كان أقوى وأفعل من عمل الدين وبواعث العقيدة أو الشريعة، وهذه مسألة لها خطرها في هذا البحث عن فريضة التفكير في الاسلام، فهي حقيقة أن يرجع بها الى أصولها وأن نذهب بها الى غاياتها التي تتكشف من حوادثها وأزمنتها..

فلم يتردد في العالم الاسلامي قول القائلين بمنع الاجتهاد كما تردد في عصر الدعوة الفاطمية التي تعرف أحيانا باسم الدعوة الباطنية أو الدعوة الاسماعيلية، وينسب اليها الايمان بالامام المستور والمبايعة له جهرا وسرا إذا

اقتضت « التقية »[1] اخفاء أمره الى حين..

وخلاصة المذاهب الامامية ان هذا العالم لا يخلو من امام يقوم بالهداية ويعلم من أسرار الدين ما لا يعلمه أحد من خاصة العلماء أو من عامة المقلدين، لأن هؤلاء جميعا انما يعلمون ما ظهر من نصوص الكتاب ولا علم لهم بما بطن منه، وهو عندهم معنى الحديث الذي يقول: « ان القرآن نزل على سبعة أحرف » فلا يهتدي اليها على حقائقها غير الامام الذي اختصه الله بأمانة الالهام..

وقد نشأ مذهب « الظاهرية » ليقاوم هذه الباطنية وينكر الحاجة الى امام مستتر يعلم الناس ما ليس في وسعهم أن يتعلموه من ظاهر الآيات والأحاديث..

ونشأ مذهب الظاهرية في المشرق فقام به في بغداد داود بن سليمان الظاهري (٢٠١ - ٢٧٠ هـ) ولكنه لم يبلغ من القوة والشيوع مبلغه في المغرب على يد الامام علي بن أحمد بن سعيد المشهور باسم ابن حزم الظاهري (٣٨٤- ٤٥٦ هـ) اذ كانت الدعوة الفاطمية- أو الامامية الاسماعيلية- على أقواها وأشيعها في بلاد المغرب من افريقيا الشمالية وكان ابن حزم أمويا شديد التعصب للدولة الأموية شديد الإنكار على من يقاومونها من العلويين أو الفاطميين، حتى قال بعضهم عنه انه « ناصب » أي ممن يعادون شيعة آل البيت ويناصبونهم العداء..

قال ابن حزم في كتاب الفصل: « واعلموا ان دين الله ظاهر لا باطن فيه وجهر لا سر تحته. كله برهان لا مشاحة فيه واتهموا كل من يدعو الى أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا، فهي دعاوي ومخارق[2]. واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر أو الأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن، غير ما دعا الناس كلهم اليه، ولو كتمهم شيئا لما

---

(١) التقية: اظهار الموافقة واضمار المخالفة.

(٢) مخارق: مجاوزة العادة والمألوف.

بلغ كما أمر. ومن قال هذا فهو كافر. فاياكم وكل قول لم يبن سبيله ولا وضح دليله، ولا تعوجوا عما مضى عليه نبيكم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم»..

وكان من المسائل التي لهج ابن حزم بتقريرها مسألة الوراثة في الامامة فقال في كتاب الفصل أيضا: «لا خلاف بين أحد من المسلمين في أنه لا يجوز التوارث فيها ولا في أنها لا تجوز لمن لم يبلغ حاشا الروافض. فانهم أجازوا كلا الأمرين، ولا خلاف بين أحد في أنها لا تجوز لامرأة».

ولكن ابن حزم لا ينكر ولاية العهد ولو كانت في مرض الموت «كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي بكر، وكما فعل أبو بكر بعمر، وكما فعل سليمان بن عبدالملك بعمر بن عبدالعزيز. قال: وهذا الوجه هو الذي نختاره ونكره غيره، لما فيه من اتصال الامام وانتظام أمر الاسلام وأهله، ورفع ما يتخوف من الاختلاف والشغب مما يتوقع في غيره من بقاء الأمة فوضى»..

وقد اختار ابن حزم لتعزيز هذا الرأي- أي جواز المبايعة بولاية العهد حتى في مرض الموت- خليفة أمويا لا يختلف المسلمون من أهل السنة أو من الشيعة في صلاحه وتوقيره، وهو عمر بن عبدالعزيز الذي قال فيه الشريف الرضي:

يا ابن عبدالعزيز لو بكت العـ ـين فتى من أمية لبكيتك
غير اني أقول انك قد طبـ ـت، وان لم يطب ولم يزك[1] بيتك

ومما يدل على أن الظاهرية قامت على أساسها أصلا لإدحاض[2] الدعوة الباطنية أن ابن حزم لا يبطل الاجتهاد بل يوجبه على جميع المسلمين وانما ينكر أن يختص بالاجتهاد امام واحد يفتي بعلم ينفرد به ولا ينكشف للمسلمين عامة من نصوص الآيات والأحاديث، فهو يقول في الجزء الأول من المحلى: «لا يحل لأحد أن يقلد أحدا لا حيا ولا ميتا، وكل أحد له الاجتهاد حسب طاقته، فمن سأل عن دينه فانما يريد معرفة ما ألزمه الله عز وجل في هذا

---

(١) يزك: زكا الرجل يزكو صلح.
(٢) ادحاض: ابطال.

الدين. ففرض عليه ان كان أجهل أهل البرية أن يسأل عن أعلم أهل موضعه » الى أن يقول: ومن ادعى وجوب تقليد العامي للمفتي فقد ادعى الباطل وقال قولا لم يأت به قط قرآن ولا سنة ولا اجماع ولا قياس، وما كان هكذا فهو باطل لأنه قول بلا دليل »..

وعلى هذا يكون ابن حزم متوسعا في تحكيم العقل غير متحرج منه الا أن يختص به أحد دون جمهرة المسلمين، وهو لا يبطل التصرف في فهم ألفاظ النص كل الإبطال، بل يجيز العدول عن ظاهر اللفظ اذا اتضح بالدليل العقلي الذي لا يرد انه مستحيل لا يجوز ان يكون هو المقصود بالأمر الالهي. وفي ذلك يقول من الجزء الثاني من كتاب الفصل: « ان كلام الله تعالى واجب أن يحمل على ظاهره ولا يحال عن ظاهره البتة. الا أن يأتي نص أو اجماع أو ضرورة حس على ان شيئا منه ليس على ظاهره، وأنه قد نقل عن ظاهره الى معنى آخر. فالانقياد واجب علينا لما أوجبه ذلك النص أو الاجماع أو الضرورة لأن كلام الله تعالى وأخباره لا تختلف، والاجماع لا يأتي الا بحق، والله تعالى لا يقول الا الحق وكل ما أبطله برهان ضروري فليس بحق.. »

ورأى ابن حزم هذا فيما يجيز العدول عن ظاهر اللفظ الى معنى غير الظاهر قريب جدا من مذهب القائلين بالرأي، ولكنه يخالفهم في القياس والاستحسان والمصالح المرسلة. وهو- مع هذه المخالفة- لا يحجر على الاجتهاد ولا يمنع المسلمين عامة أن يرجعوا الى عقولهم في أمور الدين، بل يفرض الرجوع الى العقل على العالم والجاهل الذي يستطيع أن يجد من يسأله ويتعلم منه، وغاية ما يخشى من نتائج المذهب الظاهري لو دام وتقرر في بلاد المسلمين انه يصد فريقا من العلماء القادرين على الاجتهاد النافع عن الاضطلاع بأمانة القيادة الفكرية، وان كان لا يصدهم عن تعليم الناس ما علموه والمشورة على ولاة الأمر بما يحسن أو لا يحسن في مواطن التشريع وعليهم بعض العنت في تدبير المصالح المرسلة بما تقتضيه من موافقة للضرورات..

ولعل هذا المذهب الظاهري أهم المذاهب التي ابتعثتها دواعي السياسة في المغرب وقد شاع حينا ثم ضعف وأخذ في الزوال شيئا فشيئا بزوال الحافز الحثيث الى المضي في نشره والتنبيه اليه..

أما في المشرق فقد اغنى عن الدعوة الحثيثة الى نشر المذهب الظاهري أن الخلفاء والأمراء كانوا يبنون المدارس ويجرون فيها الجراية على طائفة من علماء المذاهب الأربعة لا يشترك فيها غيرهم في العلم والصلاح، وكان له أتباع يأتمون به ربما قاربوا في عددهم أتباع الأئمة أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد، ولكن مذاهبهم لا تدرس في المعاهد التي تفرض لها الجراية[١] من خزائن الدولة وهبات الخلفاء والأمراء..

وانتهى الأمر في أوائل القرن السابع بأمر الخليفة المستعصم علماء الفقه في المدرسة المستنصرية أن يقصروا دروسهم على أقوال الأئمة من قبلهم ولا يدرسوا كتابا من كتبهم لتلاميذهم، فدعاهم الوزير وأبلغهم أمر الخليفة فقال جمال الدين الجوزي أستاذ المذهب الحنبلي: انه على هذا الرأي. وقال الشرمساحي أستاذي المذهب المالكي: انه يرتب النقط في مسائل الخلاف وليس لأصحابه تعليقة أي شروح مدونة. وقال شهاب الدين الزنجاني استاذ المذهب الشافعي وعبدالرحمن اللمغاني أستاذ المذهب الحنفي: ان المشايخ كانوا رجالا ونحن رجال. فلما رفع الوزير اجابتهم الى الخليفة دعاهم اليه وأعاد اليهم أمره فأطاعوه، وجرى مثل ذلك في المدارس الكبرى فتضاءل شأن القائلين بآرائهم في مسائل الفقه والأصول. وكثر الاقبال على دروس المذاهب التي يتعلمها الطلاب في معاهد الدولة، ومنهم يختار القضاة والمعلمون وخطباء المساجد وعمال الدواوين..

جاء في شرح جمع الجوامع ان الشيخ أبا زرعة سأل أستاذه البلقيني عن الشيخ تقي الدين السبكي كيف يقلد وقد استكمل آلة الاجتهاد؟

قال الشيخ: فسكت عني. ثم قلت: ما عندي ان الامتناع عن ذلك الا للوظائف التي تجري على فقهاء المذاهب الأربعة، وان من خرج على ذلك واجتهد لم ينله شيء وحرم ولاية القضاء وامتنع الناس عن استفتائه ونسب الى البدعة. فتبسم ووافقني على ذلك..

كان هذا في القرن السابع للهجرة وما بعده بقليل، ثم رانت[٢] على العالم

---

(١) الجراية: بفتح الجيم: ما يناله الجندي وغيره من الاجر أو الطعام كل يوم.

(٢) ران: ران الهوى على قلبه: غلب. ومنه ران النعاس عليه.

الاسلامي غاشية الجمود والضعف فانقطع الناس عن العلم اجتهادا وتقليدا وتواكلوا في كل شيء من جلائل الأمور وصغائرها وقل الاعتماد على النفس وقلّ من يثق بنفسه أو يستحق الثقة من غيره، وندر من يتقدم لادعاء الاجتهاد ومن يصغي اليه لو ادعاه، وجرت أحوال الحياة جميعا على الاتباع والانقياد. ولم يبال الناس ما خالف الولاة وما وافقوا من سنن الدين او سنن العرف المأثور. وطالت هذه الفترة نحو أربعة قرون. تتابعت فيها الضربات والقوارع[1] على الأمم الاسلامية حتى تيقظت فيها بعد السبات الطويل بقايا الحياة التي كمنت في سرائرها من وحي عقيدتها فنبغ في كل أمة منها رهط من القادة الغيورين يجاهدون ويجتهدون ويعودون بها كما بدأ الاسلام الى حظيرة الدين، وتعلم المسلمون من عهود الخمول والنكسة دروسا كالتي تعلموها من عهود العزة والتقدم: فحواها من طرفيها المتناقضين ان العجز عن الاجتهاد والعجز عن الحياة مقترنان. وأن المسلمين يحتفظون بمكانهم بين أمم العالم ما احتفظوا بفريضة التفكير.

---

(١) القوارع: جمع قارعة وهي النازلة الشديدة، ويوم القيامة.

التصَوُّفُ

قبل تمييز الخاصة التي انفرد بها التصوف الاسلامي نسأل عن الخاصة المميزة للتصوف عامة ما هي؟

فالتصوف في أمم الغرب المسيحية يشتق من الخفاء أو السر، ويطلقون عليه اسم « مستسزم » msicitsyM أي « السرية » أو المعاني الخفية. فخاصته المميزة له عندهم هي البحث في البواطن والتعمق في الأسرار المغيبة وراء الظواهر..

واسم التصوف العربي مختلف في اشتقاقه وسبب اطلاقه، فالقول الشائع أنه مأخوذ من الصوف وأن المتصوف هو الذي يتخشن ويتزيى بزي النساك المتعبدين، وخاصته المميزة له على هذا المعنى أنه زهد وتقشف وابتعاد عن الترف والمتعة..

ويقول بعضهم: ان الصوف منسوب الى صوفة، كما جاء في أساس البلاغة للزمخشري وغيره: « وكان آل صوفة يجيزون الحاج من عرفات أي يفيضون[1] بهم، ويقال لهم: آل صوفان وآل صفوان، وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون، ولعل الصوفية نسبوا اليهم تشبيها بهم في النسك والتعبد » ومما رواه ابن الجوزي في كتاب تلبيس ابليس: « انما سمي الغوث بن مرصوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة ولتجعلنه ربيط الكعبة، ففعلت فقيل له صوفة ولولده من بعده »..

واذا صح هذا التخريج فالصوفي اسم منقول على سبيل التشبيه لا يدل على الخاصة المميزة للصوفية بعد الاسلام الا من قبيل المماثلة في الخدمة الدينية العامة..

وآخرون من المحدثين يرجحون ان الكلمة مستعارة من اليونانية بمعنى الحكمة الالهية وهي مركبة في تلك اللغة من كلمتين هما « ثيو » أي الاله

---

(١) يفيضون: أفاض القوم من عرفات: دفعوا بكثرة.

و« سوفى » أي الحكمة. ومعنى التصوف اذن مقابل لمعنى الحكمة العقلية وهي الفلسفة، لأن الصوفي يطلب الحكمة من طريق الدين، وربما كانت المقاربة في اللفظ أقوى سند يعتمد عليه القائلون الى استعارته من اللغة اليونانية..

ويرجح الكثيرون أن التصوف منسوب الى أهل الصفة[1] الذين كانوا على عهد الرسول، ويحب الصوفيون أنفسهم أن يشتقوا الكلمة من الصفاء كما جاء في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف « انما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقال بشر بن الحارث « الصوفي من صفا قلبه لله » ونظم أبو الفتح البستي هذا المعنى شعرا فقال:

ولست أنحل هـذا الاسم غير فتى   صافى فصوفي حتى سمى الصوفي

والذين آثروا هذا التخريج لكلمة الصوفية لا يقصدون تحقيق التاريخ ولا اللغة ولكنهم يستخدمون الجناس لاستخراج المعنى البعيد من اللفظ القريب كعادة الصوفية في تحميل الكلمات ما يريدونه من الاشارات، فهو من ثم أقرب الأسماء الى اختيارهم وايثارهم، ولعله أدلها على الخاصة المميزة لهم بين الخواص المتعددة التي عسى أن تصدق عليهم..

فالتعمق في طلب الأسرار صفة مشتركة بين الصوفية وفلاسفة التفكير الذين يغوصون على الحقائق البعيدة وعلماء النفس الذين ينقبون عن ودائع الوعي الباطن وغرائب السريرة الانسانية..

ولبس الصوف ان دل على التخشن والزهد في الدنيا لم يكن خاصة مميزة للصوفية. لأن أناسا من أقطاب الصوفية أخذوا نصيبهم من الدنيا وافيا وفهموا أن الزاهد من لا تملكه الدنيا وان ملكها، أو كما قال مسروق: « الزاهد من لا يملكه مع الله سبب » ولا ضير عليه أن يملك الأسباب..

والاشتغال بالحكمة الدينية عمل يعمله حكماء الصوفية وهم طائفة من أهل التصوف مع طوائفهم الكثيرة التي تسلك مسلكهم ولا تحسب من حكمائهم، بل ربما وجد من علمائهم من يكتب في المعاملات. وقد ذكرهم الامام أبو بكر

---

(١) أهل الصفة: الصفة: مصطبة ضيقة يستتر بها من الحر والبرد. وأهل الصفة: أضياف الاسلام من فقراء المهاجرين كانوا يأوون الى صفة المسجد.

محمد بن اسحاق الكلاباذي فقال في كتاب التعرف بعد تسمية بعضهم: « وهؤلاء هم الأعلام المذكورون المشهورون المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علوم المواريث الى علوم الاكتساب. سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن، تشهد بذلك كتبهم ومصنفاتهم، ولم نذكر المتأخرين وأهل العصر وان لم يكونوا بدون من ذكرنا علما لأن الشهود يغني عن الخبر عنهم »..

فالصوفية قد يخلعون الصوف وقد يعيشون بين الناس ولا ينقطعون للخدمة الدينية، وقد يكتبون في الحكمة الالهية أو يكتبون في المعاملات والمكاسب أو لا يشتغلون بالكتابة، ولكنهم اذا غربت عنهم صفة واحدة- هي صفاء القلب لله- لم يحسبوا من الصوفية ولم يسلكوا أنفسهم في عداد أهل التصوف بسمة أخرى من سماتهم المشهورة..

ان المزية الصوفية الخاصة هي مزية الايمان بالله على الحب لا على الطمع في الثواب أو على الخوف من الحساب والعقاب، ومثلهم في ذلك مثل الفرد المثالي في بيئته الاجتماعية، فان الناس عامة يقنعون بواجبهم الاجتماعي الذي لا يجاوز الحذر من مخالفة القانون والأمل في خيرات المجتمع، ولكن الفرد المثالي يخدم البيئة الاجتماعية بباعث من الغيرة التي لا تنظر الى الجزاء بل تعمل وتثابر على عملها مع سوء الجزاء أو مع اليقين من العقاب..

وكذلك الصلة بين الصوفي وربه انما هي صلة قائمة على المحبة لا على مجرد الطاعة لأوامره والخوف من نواهيه، فان المحب يعطي من عنده فوق ما يؤمر به ولا ينتظر الطلب ليستجيب اليه، وكلهم يقول مع رابعة العدوية: « اللهم ان كنت تعلم أنني أعبدك رهبة من نارك فعذبني بنارك »..

وكل من نظم منهم شعرا عبر بكلمة الحب عن هذه الصلة الالهية، كما قال ابن عربي:

ادين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وايماني

أو كما قال ذو النون:

وأقضي وما ماتت اليك صبابتي ... ولا قضيت من صدق حبك أوطاري

أو كما قال اليافعي:

فلو شاهدت ذاك الجمال عيوننا   سكرنا وغبنا عن جميع العوالم
وملنا نشاوى من شراب محبة   وباح بمكنون الهوى كل كاتم

وهذا «السكر» هو الذي يسمونه بخمر المحبة التي خلقت قبل أن يخلق الكرم كما قال عمر بن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا   ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويرون أن المحبة لا توليهم حق الجزاء لأنهم لا يلهمون المحبة الا بنعمة من الله وفضل منه يستوجب المزيد من المحبة، وفي ذلك تقول رابعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى   وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى   فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له   فكشفك للحجب حتى أراكا
وما الحمد في ذا وفي ذاك لي   ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولسنا نعرف لغة وسعت من شعر الحب الالهي ما وسعته اللغة العربية كثرة وتعددا في الأساليب، فاذا أضيفت اليها لغات الأمم الاسلامية كالفارسية والتركية والأردية ولغات أهل الملايا رجح ديوان هذا الشعر على المنظوم منه في جميع لغات العالم بلا استثناء الأناشيد الدينية التي ترتل في المعابد. وقد اشتهرت الهند قديما بكثرة قصائدها وأناشيدها ولكنها لم تستغن بعد دخول الاسلام اليها عن توفير ذخيرتها من تلك القصائد والأناشيد بترجمة الشعر الاسلامي واقتباسه في دعواتها وصلواتها. فترجم تاجور قصائد أستاذه «أكبر» وترجم السردار جوكندراسنج Singh دعوات الانصارى عبدالله الى اللغة الانجليزية وقال المهاتما غاندي في مقدمة الترجمة: «ان المترجم جدير بالتهنئة لأنه يسر لنا أن نقرأ أقوال الصوفي عبدالله الانصارى باللغة الانجليزية. ولقد أعطى الاسلام العالم نخبة من الصوفيين لا يقلون عن الهنديين والمسيحيين، وانه ليحسن في هذا الوقت الذي يعرض لنا الجحود في صورة الدين أن نذكر أنفسنا بخير ما أخرجته العقول المتدينة بجميع الأديان وخير ما قالته، والا نظل كتلك الضفدعة التي تظن في بئرها أن الكون كله ينتهي عند جدارنها.

فلا يخطرن لنا أن ديانتنا وحدها هي التي تحتوي الحقيقة كلها وأن ما عداها زيف وباطل.. »

وينبغي أن يكون شيوع التصوف بهذه الكثرة في بلاد الاسلام، فلا يستغرب ذلك كما يستغرب في البلاد التي تدين بأديان تتوسط فيها الكهانة ومراسم المعابد بين المرء ومعبوده. لأن الاسلام هو الدين الوحيد الذي يسمح باستقلال الصلة بين المخلوق والخالق ويستطيع العابد فيه أن يتوجه الى الله بضميره فردا بغير وساطة من سادن ولا شعائر في محراب. ومتى تفتح للمسلم طريق الاتصال بالله على شريعة الحب واستقلال الضمير فليس في دينه ما يحجبه عن طلب الحكمة الالهية من هذا الطريق ولا من التعمق في استطلاع الحقائق وكشف الأسرار في الكون وفيما بين سماء الله وأرضه من العجائب والخفايا كما تعلم من آيات كتابه ومن وصايا نبيه ومن فريضة التفكير على التعميم..

وينبغي لسبب آخر أن يكون الصوفية من المسلمين بهذه الكثرة في بلاد الاسلام كافة، لأن الاسلام يرفض الرهبانية والانقطاع عن الدنيا فلا ملاذ فيه للفرد اذا نبا به مجتمعه وأنكر على قومه ما يخالف طريقته في العقيدة الا أن يلجأ الى ضميره ويتخذ لنفسه مذهبه الذي يحاسب عليه نفسه ولا يحاسب عليه سواه بين يدي الله..

فاذا فرقنا بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا فالديانات الأخرى قد اخرجت من الرهبان والسـ ـن المنقطعين اكثر ممن أخرجهم الا ـ ـم بغير مراء، الا أن الأمر يختلف عند الكلام على الصوفية الاسلامية، فان عدد الصوفيين ذوي الآراء والأقوال بين المسلمين أكثر من أمثالهم في جميع الديانات الأخرى. واذا ـ ـعت أقوال المتصوفية في الاسلام ملأت الأسفار الكبار وطرقت كل باب من أبواب الحكمة الالهية عرفه المتدينون، ويتسع التصوف الاسلامي بأنواع كما يتسع بعدد المتصوفين، فان الصوفية- كما هو واضح- أنواع مذاهب، وكل نوع من أنواعها وكل مذهب من مذاهبها قد كان له أئمة وأشياع بين الأمم الاسلامية، تلك مسألة مفهومة بالبداهة. فقد دان بالإسلام أناس من الهنود والفرس والطورانيين والحاميين. كما دان به العرب واخوانهم

من الساميين، ولكل أمة مزاجها ولكل مزاج أثره في الوجهة الصوفية. فلا عجب أن يتسع الاسلام لكل نوع من أنواع الحكمة الصوفية عرفه المتدينون..

فالصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان: نوع العقل والمعرفة ونوع القلب والرياضة، والصوفية من حيث موقعها من الدنيا كذلك نوعان: نوع نوع يتخطاها وينبذها، ونوع يمشي فيها ويصل منها الى الله، ويتأدى من الخلق الى الخالق جل وعلا. وكل هذه المذاهب عرف في الاسلام على أوفاه. فمن الصوفية العقليين طلاب المعرفة من يحسب في عداد الفلاسفة الأفذاذ، ولا نعرف في عقول الفلاسفة عقلا يفوق عقل الغزالي في قوة التفكير، ولا نعرف موضوعا من موضوعات الحكمة الالهية لم يلتفت اليه محيي الدين بن عربي، وقد قيل ان ذا النون المصري كان في طبقة جابر بن حيان في علوم الكيميا، وأنه كان من الباحثين في طلاسم الآثار الفرعونية..

وهؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل الى غاية حدوده ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات بل يتولون بلسان الغزالي ان الشك أول مراتب اليقين، ولكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله الى الايمان. وليس اشتغالهم بالعقل مانعا لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية وانما يشتهرون بأفكارهم لأنها الصلة بينهم وبين تلاميذهم ومريديهم وقرائهم وتغلب شهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة..

أما الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات، وعندهم أن شهوات الانسان هي الحائل بينه وبين النور. فاذا ملك زمامها وأفلت من قيودها تكشف له النور ووصل الى مرتبة العارفين، وأغناه صفاء النفس عن دراسة الدارسين وبحوث الباحثين..

والصوفية من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كما تقدم: نوع يرفضها لأنها وهم وغشاوة مزيفة كالطلاء الذي يوضع على المعدن الخسيس ليخيل الى الأنظار أنه معدن نفيس، ونوع آخر يخوض غمار الدنيا ليبتليها ويمتحن نفسه بتجاربها وغواياتها، وعنده أنها جميلة لأنها من خلق الله، وكل ما يخلقه الله جميل..

وهذا النوع من الصوفية أقرب أنواعها الى الاسلام، وليس على المسلم حرج أن يرى للدنيا ظاهرا خداعا وباطنا صادقا أجمل من ظاهره. فان قصة

الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن في الأحكام والنيات..

الا أن الصوفي المسلم يقاوم مطامع الدنيا لأنها تحجبه عن حقائقها العليا، ويضربون المثل لذلك بالغزال الظمآن في الصحراء. حرج عليه أن يطلب الرى من الماء. ولكنه اذا غفل عن نفسه لم يسلم من خداع السراب، فانقاد الى الهلاك. فاذا أصابه الظمأ فليعلم موارد الماء وليكن على حذر من موارد السراب، وليفرق كما يقولون بين سراب لا شراب فيه وبين شراب لا سراب حوله، وتلك هي الرياضة التي تستفاد من قمع الشهوات، وكثيرا ما يبحث الأوروبيون في التصوف ويقصدون به الكلام على أشخاص المتصوفين الذين ظهروا في البلاد الاسلامية، وقليلا ما يبحثون في هذا التصوف ويقصدون به مذاهب التصوف التي يسمح بها الاسلام..

فالدين الاسلامي قد انتشر في أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية. وقد تسرب بعضها الى أبناء تلك الأقطار واختلط بعضها بالعقائد الاسلامية من طريق الوراثة والاستمرار، ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط فاقترن في أقوال أناس من المنتسبين الى الاسلام بما يجوز وما لا يجوز. وعلى الجملة يمكن أن يقال ان الاسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين في الصوفية على عمومها.. بنكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود، فلا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله في جسد انسان، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الانسانية في الذات الالهية. واذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول محبة الله محلها من القلوب والأرواح..

ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود، أو يقول بأن الله هو مجموعة هذه الموجودات، وأن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله، واذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معاني الوحدة الوجودية فهي عنده وحدة الفضائل الالهية ووحدة التوحيد. وقد يوفق المسلم الصوفي بين الظاهر والباطن فيقول ان الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب، وأن الحقيقة من غير الشريعة اباحة وفسوق، وقد يوفق بين الأمور الدنيوية والأمور الأخروية

بمذهب جميل معتدل بين الطرفين. فلي ں الزاهد من لا يملك شيئا. بل الزاهد عنده لكي لا يملكه شيء. فهو مالك للدنيا غير مملوك لها بحال..

وظل المتصوفه والمنتسبون الى الطرق الصوفية من المتأخرين يبرأون من القول بالحلول ووحدة الوجود واسقاط التكليف ويستزلون من يقول بها عا وجوهها المنقولة من الديانات الوثنية. ولوحظ ذلك في القانون الذي استنير فيه شيوخهم وصدر في الديار المصريه بلائحة الطرق الصوفية (سنة ١٣٢٠ هجرية و١٩٠٣ ميلادية) وتقرر المادة الثانبة من بابه الخامس: «أن كل من يقول بالحلول أو الاتحاد أو سقوط التكليف يطرد من الطرق الصوفية كافه»..

وهذا الفارق الفاصل بين الصوفية الاسلامية والصوفية الدخيلة هو الذي أوهم فريقا من المستشرقين أن التصوف كله مستعار من الهند وفارس أو من الأفلاطونية الحديثة، وهو قول يصدق على مذهب الحلول ومذهب وحدة الوجود ولكنه لا يصدق على مذاهب الصوفية التي تقوم على الحب الالهي والكشف عن الحقائق من وراء الظواهر. فهذه الصوفية أصيلة في الاسلام يتعلمها المسلم من كتابه ويصل اليها ولو لم يتصل قط بفلسفة البراهمة أو فلسفة أفلوطين. لأن أشواق الروح الانسانية قسط مشترك بين بني آدم لا تنفرد به أمة من الأمم ولم تستوعبها عقيدة واحدة كل الاستيعاب دون سائر العقائد الدينية. والصوفية العربية مازجت صوفية الهند القديمة وصوفية الأفلوطينيين بالاسكندرية، ولكنها أضافت اليها كما اخذت منها، ولا حاجة بنا الى تعقب التواريخ والأسانيد لتقرير هذه الحقيقة البينة، فان عناصر الصوفية الاسلامية مثبوتة في آيات القران الكريم محيطة بالأصول التي تفرعت عليها صوفية البوذية الافلوطينية. والمسلم يقرأ في كتابه أن: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فيقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس اللاهوت في كتب القديس توما حيث يقول: ان الله مباين للحو دث وانه بعلم بالتنزيه والابعاد عن مشابهتها. أو يعلم بما ليس هو ولا يعلم بما هو عليه في ذاته أو صفاته، أيا كان المصدر الأول الذي استقى منه القديس توما أصول هذه العقيدة..

ويقرأ المسلم في كتابه:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفية البوذيين حين يؤمنون أن ملابسة العالم تكدر سعادة الروح وأن الفرار منه أو الفرار الى الله هو باب النجاة..

ويقرأ المسلم في كتابه:

﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾.

﴿ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

فلا يزيد المتصوفة الا التفسير حين يقولون ان الوجود الحقيقي هو وجود الله وأنه أقرب الى الانسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصل له كل كائن:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

والله يخلق ويأمر فهو فعال مريد وليست ارادته مانعة من الخلق كما يرى الفلاسفة اذ يقولون ان الارادة القديمة لا ينشأ منها اختيار حديث أو مخلوق حادث:

﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومما يعلمه المسلم من كتابه أن عقل الانسان لا يدرك من الله الا ما يلهمه اياه لأنه تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾.

ومنه يعلم الخلاف ما بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة لأنه يقرأ مثلا واضحا لهذا الخلاف فيما كان من الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف:

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ

لَدُنَّا عِلْماً. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فَانْطَلَقَا حَتَّى اذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمراً[1]. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. فَانْطَلَقَا حَتَّى اذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. قَالَ انْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً. فَانطَلَقَا حَتَّى اذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً، قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً. وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَاد رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً من رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

وهذه آيات بينات يقرؤها جميع المسلمين في كتابهم الذي لا يختص به فريق

(١) امرا: منكراً عجيباً.

منهم دون فريق وبينهم ولا شك أناس مطبوعون على التصوف واستخراج الأسرار الخفية والمعاني الروحانية من طوايا الكلمات، فاذا عمد هؤلاء الى تفسير تلك الآيات وما في معانيها فليس أيسر عليهم من الوصول الى لباب التصوف الذي شغلت به خواطر الحكماء في جميع الأحوال[1]..

واذا آمن الصوفي المسلم بالكشف عن الحقائق من وراء الظواهر فهو لا ينتهي من التفرقة بينهما الى اسقاط الشريعة أو اسقاط ما تامره به من التكليف أو اباحة ما تحظره من المحرمات، لأن الحقيقة عنده لا تنقض الشريعة بل تتممها وتكشف ما استتر من حكمتها، وتظهر ما خفي من اسباب ظواهرها كما فعل الخضر في كل قضية خفيت على صاحبه فكشف له من حفيتها عن حكم الشريعة فيها. وقد كان أقطاب الصوفية يقيمون الفرائض ويصلون ويصومون ويحجون الى البيت ويعطون الصدقات، وتحدث رجل أمام أبي القاسم الجنيد بحديث المعرفة فقال: ان أهل المعرفة بالله يصلون الى ترك الحركات من باب البر والتقوى الى الله. فقال الجنيد: ان هذا قول قوم تكلموا باسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة والذي يسرق ويزني أحسن حالا ممن يقول هذا. وان العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله واليه رجعوا فيها. ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة الا أن يحال بي دونها، وانه لأوكد في معرفتي وأقوى في حالي[2]..

قال صاحب كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف: «وأجمعوا على تعجيل الصلوات وهو الأفضل عندهم مع التيقن بالوقت ويرون تعجيل أداء جميع المفترضات عند وجوبها لا يرون التقصير والتأخير والتفريط فيها الا لعذر. ويرون تقصير الصلاة في السفر ومن أدمن السفر منهم ولم يكن له مقر أتم الصلاة. ورأوا الفطر في السفر جائزا ويصومون، واستطاعة الحج عندهم الامكان من أي وجه كان، ولا يشترطون الزاد والراحلة فقط. قال ابن عطاء: الاستطاعة اثنان: حال ومال. فمن لم يكن له حال يقله فمال يبلغه.

---

(١) من كتاب أثر العرب في الحضارة الاوروبية للمؤلف.

(٢) طبقات الصوفية للسلمي

وأجمعوا على اباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير دلك مما أباحته الشريعة.. »

وليس من الانصاف أن تحمل على التصوف اوزار الأدعياء واللصقاء الذين يندسون في صفوفه نفاقا واحتيالا أو جهلا وفضولا فانه ما من نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون اليها من غير أهلها، ولكن التصوف على حقيقته الكاملة هو حرية الضمير في الايمان بالله على الحب والمعرفة، وبلوغ هذه المرتبة هو فضيلة الاسلام الذي أطلق ضمير الفرد من عقال السيطرة الروحية ويسر له أن يلوذ بسريرته هذا الملاذ الأمين الذي لا يداخله فيه حسيب أو رقيب عير حسيبه ورقيبه بين يدي الله. ولا غنى عن مثل هذا الملاذ في زمن من الأزمنة ولا في جماعة من الجماعات، ولا سيما الأزمنة التي تبتلى فيها الضمائر الصوفية بالقلق بين الجماعات المضللة عن سوائها، جهلا بحقيقة الدين أو جمودا على المألوف من بقايا الأقدمين. ففي مثل هذه الأزمنة لا يستغني ضمير الانسان عن ملاذ يعتصم به ويأوي اليه بين جماعته بالمسلم في أمثاله هذه الأحوال الى ابتداع شيء في أصول دينه فان أصول دينه الأولى قائمة على حرية الضمير تنهاه أن يستسلم لما يأباه رغبة أو رهبة أو محاربة لعرف الأكثرين، اذا كان الأكثرون لا يعلمون..

وان أناسا من أبناء العصر الحاضر يحسبون أن الصوفية بقضها وقضبضها تراث قديم مهجور ولكنهم يعلمون كل يوم- وسيعلمون غدا- ان الانسان لن يستغني في حياته يوما واحدا عن الصوفية في ناحية من نواحيها. لأن رياصة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد، وأكبر ما يلقاه في العصر الحاضر فانما هو افلات زمام الانسان العصري من يديه، ولا غنى له يوما عن ذلك الزمام، ولا غنى له في سياسة جسده عن بعض الحرمان باختياره وعن بعض الشدة برضاه، وأحرى أن يكون ذلك شأنه في سياسة النفوس..

والمجتمع الاسلامي أحق المجتمعات بالتصوف وأولاه بحرية الضمير التي يسمو اليها الانسان كلما آثر لنفسه الايمان بالله على الحب والمعرفة ولم يقنع بحظ الثواب والعقاب. لأن الاسلام يأبى له الرهبانية التي اعتصم بها أناس في العصر القديم، ولا يرضى لها بعض المذاهب « الوجودية » في عصره الحاضر.

ولطالما تبرم[1] بعض الناس في المغرب بمجتمعاتهم فاعتصموا بها بمذاهب الوجودية التي يلجأ اليها الفرد كلما اشتد عليه طغيان العرف الاجتماعي، منطلقا من وجوده تارة الى الاباحة وتارة الى عزلة الوجدان. ولكن الاسلام يفتح لضمير الفرد مسلكا واسعا غير الرهبانية وغير الوجودية بما فيها من خير وشر، ويقيم له صومعته في أعماق نفسه ولا حدود لها غير حدود الكون بما وسع من سماوات وأرضين..

لا جرم وسعت سماحة الاسلام عقائد المتصوفة وهم في رحابه الفسيحة لا يفارقونها ولا يعتزلون دنياهم حيثما أتوا اليها، ونشأ في عصور الاسلام جمهرة من أقطاب الصوفية المتفكرين والمتريضين لا تضارعها جمهرة من أبناء النحل العالمية في وفرة عددها ولا في ذخائر حكمتها..

وعلى كثرة الضحايا من المتصوفة في العالم العربي لم يذهب أحد منهم ضحية لمذهبه قط بغير استثناء القضيتين المشهورتين اللتين قضى فيهما بالموت على الحلاج والسهروردي ولم يكن لهما ثالث في مئات السنين منذ نشأ التصوف في الاسلام الى هذه الأيام. ولعل هاتين القضيتين ما كانتا لتشتهرا هذه الشهرة لولا الغرابة والندرة فيما هو من قبيلها، ولو صح ان الحلاج والسهروردي من ضحايا الصوفية، وهما في الواقع ضحية الفتنة وضحية السياسة، وعليهما اصر[2] كبير فيما جناه كل منهما على نفسه، بعد اليأس من توبته واللجاجة في دعواه..

وعلى الباحث عن العلة الصحيحة في مصير الرجلين أن يذكر أن احدى القضيتين حدثت في ابان فتنة القرامطة وان الأخرى حدثت في ابان الحروب الصليبية، وأن الحلاج والسهروردي قد اختلطا بمعارك السياسة من قريب واتخذا فيها الأحزاب والأعداء، واقتحما مواقع الشبهة ومواضع الريبة غير متحرجين ولا متراجعين بعد طول الاغضاء عنهما وتمهيد معاذير التوبة لهما، ولم يتهم أحد بمثل ما اتهما به ولقي من قومه مثل هذه المداراة ومثل هذا السماح..

ولا نزيد في قضية الحلاج على رواية أخباره فيما يمس قضيته ورواية كلامه

---

(١) يتبرم: يتضجر.
(٢) اصر: اثم وذنب.

كما جاء في كتبه وقصائده..

قال الحافظ أبو بكر أحمد علي الخطيب في تاريخ بغداد: كان جده مجوسيا اسمه محمى من أهل بيصاء فارس. نشأ الحسين بواسط وقيل بِتُسْتَر وقدم بغداد فخالط الصوفية وصحب من مشيختهم الجنيد بن محمد وأبا الحسين النوري وعمر المكي. والصوفية مختلفون فيه، فأكثرهم نفى الحلاج أن يكون منهم وأبى أن يعد فيهم، وقبله من متقدميهم أبو العباس بن عطاء البغدادي ومحمد بن حفيف الشيرازي وابراهيم بن محمد النصراباذي النيسابوري وصححوا له حاله ودونوا له كلامه حتى قال ابن حفيف: الحسين بن منصور عالم رباني. ومن نفاه عن الصوفية نسبه الى الشعبذة[1] في فعله والى الزندقة في عقله، وله الى الآن أصحاب ينسبون اليه ويغلون فيه، وكان للحلاج حسن عبارة وحلاوة منطق وشعر على التصوف »..

ثم روى الخطيب بعض ما اشتهر عنه من أخبار السحر ومنها انه يخرج للناس فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ويمد يده الى الهواء فيعيدها مملوءة دراهم عليها مكتوب: « قل هو الله أحد » ويسميها دراهم القدرة، ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوا في بيوتهم ويتكلم بما في ضمائرهم وروى في أخبار متكررة من قبيلها أنه بعث رجلا من خاصة أصحابه وأمره أن يذهب الى بلد من البلاد بالجبل، وأن يظهر لهم العبادة والصلاح والزهد، فاذا رآهم قد أقبلوا عليه وأحبوه واعتقدوه أظهر لهم أنه قد عمى ثم يظهر لهم بعد أيام أنه قد تكسح[2]، فاذا سعوا في مداواته قال لهم: يا جماعة الخير.. انه لا ينفعني شيء مما تفعلون، ثم ظهر لهم بعد أيام أنه قد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وهو يقول له ان شفاءك لا يكون الا على يد القطب، وأقبل الحلاج حتى دخل البلد فأظهر الرجل شفاءه على يديه، وخرج منه الحلاج ووراءه أبناء البلد من الكبراء والعامة يتوسلون اليه أن يقيم بينهم وله منهم ما يشاء..

ونقل المؤرخون له ومنهم الخطيب وابن الأثير وابن كثير أن الوزير حامدا

---

(١) الشعبذة: أو الشعوذة: وهي خفة في اليد، وأخذ كالسحر يري الشيء بغير ما عليه أصله.

(٢) تكسح: صار معقداً كسيحاً لا يقدر على المشي.

رأى كتابا يسقط فيه الحج ويبدل بمناسكه مناسك من عنده تتخذ في البيوت، وسأله القاضي أبو عمر: من أين لك هذا؟.. قال من كتاب الاخلاص للحسن البصري، وكان القاضي قد قرأ الكتاب وليس فيه شيء مما قال..

ونسب اليه، وتناقله المؤرخون، أنه كان يسمع القرآن ويقول: يمكنني أن أؤلف مثل هذا؛ وشوهد وهو يخط في صفحات بين يديه سورا يعارض بها القرآن..

ولحقت به شبهات في مسلكه مع أهل بيته حدّثت عنها امرأة ابنه سليمان فقالت: كنت ليلة نائمة في السطح، وابنة الحلاج معي في دار السلطان وهو معنا، فلما كان في الليل وقد غشيني فانتبهت مذعورة منكرة لما كان منه، فقال: انما جئتك لأوقظك للصلاة، ولما أصبحنا نزلت الى الدار ومعي بنته، ونزل هو فلما صار على الدرجة بحيث يرانا ونراه قالت بنته: اسجدي له!.. فقلت لها: أو يسجد أحد لغير الله؟.. وسمع كلامي لها. فقال: نعم.. اله في السماء واله في الأرض. قالت: ودعاني اليه، وأدخل يده في كمه وأخرجها مملوءة مسكا فدفعه اليّ، وفعل هذا مرات، ثم قال: اجعلي هذا في طيبك..

وسبب القبض عليه ان الوزير حامد بن العباس انتهى اليه أن الحلاج قدموه على جماعة من الحشم والحجاب في دار السلطان وعلى غلمان نصر القشوري الحاجب، وانتشر أصحابه وتفرقوا في النواحي، وعرضت علة للمقتدر بالله في جوفه وقف الحاجب نصر على خبرها فوصف له الحلاج واستأذنه في ادخاله اليه فأذن له ووضع يده على الموضع الذي كانت العلة فيه وقرأ عليه فاتفق أن زالت العلة، ولحق والدة المقتدر بالله مثل تلك العلة فشفاها، وشاع عنه أنه أحيا ببغاء لولي العهد بعد موتها، وقام للحلاج بذلك سوق في الدار وعند والدة المقتدر والخدم والحاشية..

أما ما أخذ عليه من كلام فمنه قوله في كتاب طاسين الأزل أنه هو الحق، وقوله في أبيات:

يا سِرَّ سرٍّ يدق حتى ... يخفى على وهم كل حي
وظاهرا باطنا تجلى ... لكل شيء بكل شيّ
ان اعتذ[illegible]ك جهل ... وعظم شك وفرط عيّ

يا جملة الكل لست غيري فما اعتذاري اذن اليّ

وقوله:

سبحان من أظهرنا سوته سر سني لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهرا في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

وكانت حركة الحلاج بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة وهي فترة وافقت أيام فتنة القرامطة ،ثورة الزنج وشغب الحنابلة ، وله بينهم أشياع وأتباع مترقون في الأمصار ، فاتجهت اليه التهم مرة بعد مرة وتحرج القضاء والفقهاء من ادانته حتى تقوم الحجة القاطعة عليه . وحوكم بعد سنوات من الإغصاء والمطاولة فشهد عليه القضاة بما يستوجب عقاب المفسدين في الأرض وكان منهم نحو ثمانين في ساحة القصاص فسئلوا مرة أخرى قبل أجراء القصاص عليه فأعادوا شهادتهم بصوت جهير على مسمع من الناس..

ونحن في هذا الكتاب لا ندرس قضية الحلاج ولا نمحص ما تاله ولا ما قيل عنه . فيجوز أنه مشعوذ طامع في الملك توسل بالاستهواء الى جمع الجموع وتأليب الانصار ثمّ نشرهم في أطراف البلاد وعند مقامات التدبير والتصريف كقصر الخلافة ودواوين الوزارة ، توطئة للوثبة عند سنوح فرصتها..

ويجوز أنه من زمرة « الملامتية » الذين يتعرضون للشبهات ويستدعونها عمدا وقصدا عن خطاياهم وابراء أنفسهم من مظنة النسك طلبا لثناء الناس عليهم..

ويجوز أنه رجل مفترى عليه لعلة حفية أزعجت ولاة الأمر فأثبتوا عليه بالتلفيق والاكراه جريمة لم يقترفها..

فكل وجه من هذه الوجوه ينفي عن الاسلام دعوى المدعين أنه يضيق صدرا بالفكر الصوفي والمعاني الروحية ، فاذا عنّ لأمير أو وزير من ولاة الأمر أن ينكب انسانا من خصومه لاختلاف في الرأى والطريقة لم يكن له مناص من اتهامه بالتهمة التي تستحق العقاب في كل شريعة دينية أو دنيوية ، وأكبرها تهمة الفتنة والافساد في الأرض أو الاخلال بالسلم والخروج على دستور الجماعة..

وقضية شهاب الدين السهروردي نسخة موجزة من قضية حسين بن منصور الحلاج. سواء فيما وقع منه فعلا وفيما كان مظنونا أن يقع منه، أو مظنونا أن يقع من أمثاله في نزعاته وأحواله..

عاش السهروردي في عصر الحروب الصليبية وفي أخطر ميادينها وهو مدينة حلب عاصمة الملك الظاهر بن الملك صلاح الدين. واشتهرالسهروردي كما اشتهر الحلاج بأعمال الخوارق والأعاجيب التي يحسبها بعضهم من السحر ويحسبها الآخرون من الكرمات..

جاء في النجوم الزاهرة أنه «كان يعاني علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرنجيات»..

وجاء في طبقات الأطباء أنه كان مفرط الذكاء فصيح العبارة وكان علمه أكثر من عقله، ثم جاء فيه: «يقال انه يعرف علم السيمياء»..

وروى ابن خلكان في وفيات الأعيان منقولا عن بعض فقهاء العجم: «أنه كان في صحبته وقد خرجوا من دمشق. قال: فلما وصلنا الى القابون- القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه الى حلب- لقينا قطيع غنم مع تركماني فقلنا للشيخ: يا مولانا.. نريد من هذه الغنم رأسا نأكله، فقال: معي عشرة دراهم، خذوها واشتروا بها رأس غنم، وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأسا بها ومشينا قليلا، فلحقنا رفيق لنا وقال: ردوا هذا الرأس خذوا أصغر منها، فإن هذا ما عرف بيعكم، يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك، وتقاولنا نحن واياه، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا: خذوا الرأس وامشوا وأنا اقف معه وأرضيه، فتقدمنا نحن وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه. فلما أبعدنا قليلا تركه وتبعنا وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت اليه، فلما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى، وقال: أين تروح وتخليني. واذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت في يد التركماني ودمها يجري. فبهت التركماني وتحير في أمره، فرمى اليد وخاف، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا، وبقي التركماني راجعا، وهو يلتفت اليه حتى غاب عنه، فلما وصل الشيخ الينا رأينا في يده اليمنى منديلا لا غير»..

وكان للسهروردي طموح الحلاج الى السيادة والعظمة أفصح عنه لبعض

صحبه ومنهم الشيخ سيف الدين الآمدي الذي قال فيما حدث عنه: «اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال لي: لا بد أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟.. قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر. فقلت: لعل هذا يكون اشتهار للعلم وما يناسب هذا، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ورأيته كثير العلم قليل العقل»..

ونسب اليه فيما نسب من التهم التي أدين بها أنه كان يدعي النبوة، ولكنها تهم لم تتحقق أنباؤها لأن الروايات التي وصلت الينا من سيرته في أواخر أيامه ملتبسة متضاربة حتى لقد رويت عن موته ثلاث روايات تقول احداها انه مات صبرا[1] باختياره. وتقول رواية أخرى انه مات خنقا. وتقول غيرها انه مات مقتولا بالسيف بعد صلبه، ولا تتفق الروايات على مشهد قتله، مع ما قيل من التشهير به قبل دفنه..

غير أن القصة المتواترة أن الفقهاء رفعوا أمره الى صلاح الدين وأبلغوه خوفهم منه على عقيدة ابنه الملك الظافر وعلى سياسة ملكه، فانتهى الأمر الى دعوته للمناظرة بحضرة الملك فكان مما قاله في تلك المناظرة أن ارسال نبي بعد محمد عليه السلام غير مستحيل..

واذا تعسر جمع أخبار القصة بما بدا واستتر منها فليس من العسير أن نعلم ما يجنيه على نفسه شاب كثير الفطنة قليل الحكمة ذرب اللسان مصطنع الشعوذة والاستهواء ويخيل اليه أنه موعود بملك الدنيا وأن دعوى النبوة مفتوحة لمن يتهيأ لها بمعرفته وفصاحته وقدرته على الاقناع بالبرهان أو بالكرامة، وليس مما يخطر على البال ولا مما كتبه المؤرخون أو أشاروا اليه بهذا الصدد أن الفكرة الصوفية كانت ذريعة من ذرائع الحاكمة والقصاص، وليس من أدب الصوفية أن يتعرض طالب الحقيقة لشبهة من الشبهات بين العامة يتذرع بها من يشاء الى اتهامه واثبات التهمة عليه..

والقضيتان- بعد- قد اشتهرتا هذه الشهرة بين المعنيين بالاسلاميات لأنها نادرتان في تواريخ أمم الاسلام. فان لم تكن هذه الندرة قاطعة بانفرادها فهي مثال للحوادث التي ينساق فيها بعض الدعاة الى مزالق الخطر، ولا شأن فيها

(١) مات صبراً: حبس حتى الموت.

لحرية التفكير ولكنها مآزق السياسة في أوقات الحرج والريبة يرتطم بها من يتصدى لها ويتورط فيها، وقلما يسلم من بعض وزرها وأن تراءى لقوم أنه ضحية لأوزارها..

ان الاسلام قد وضع التصوف، موضعه الذي يصلح به ويصلح من يريده، فليس هو بواجب وليس هو بممنوع، ولكنه ملكة نفسية موجودة في بعض الطبائع لازمة لمن وجدت في طبائعهم، وألزم ما تكون لهم حين تفترق مقاييس الأخلاق ومعايير القيم الروحية بينهم وبين مجتمعاتهم، فان الفرد إذا افترق ما بينه وبين مجتمعه من هذه القيم تجنبه بالرهبانية ولا رهبانية في الاسلام، أو صاغ فضائله على وفاق ضميره وهو مقيم في مجتمعه لا حسيب عليه بينه وبين ربه، وتلك هي شريعة الاسلام الذي لا سلطان فيه لمخلوق على مخلوق في طاعة الله .

ومهما تكن للنفس الانسانية من ملكة خلقية أو روحية فتلك أمانة لا تفريط فيها ولا خير في المجتمع الذي يفرط فيها ويسلمها للضياع، وقد يجوز احياء الملكة الصوفية على ملكات أخرى كما يجوز التخصص في كل قدرة على غيرها من عوامل القدرة في الطبائع والعقول. ولكنها لازمة التخصص التي لا فكاك منها، فاما التخصص والاحتفاظ واما الاهمال أو الانقطاع..

« وليس في التخصص- كما قلنا في كتاب الفلسفة القرآنيه- ايجاب شيء واستنكار شيء، وانما هو سبيل التعميم والاستفادة من كل ملكة في الذهن والذوق والروح، ولا يوجب الاسلام التنسك على جميع المسلمين لأن أناسا منهم تخصصوا له وفضلوه على مطالب الروح أو مطالب الجسد الأخرى، ولكنه يجيزه بالقدر الذي بينّاه وهو القدر الذي لا غنى عنه في تدبير حياة الانسان..

« فالملكات الانسانية أكثر وأكبر من أن ينالها انسان واحد، ولكنها ينبغي أن تنال. فكيف يمكن أن تنال؟..

« أنها لا تنال الا بالتخصص والتوزيع، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوريع اذا سوينا بينها جميعا في التحصيل وألزمنا كل أحد أن تكون له أقساط منها جميعا على حد سواء..

« ولا نقصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التي لا يسهل

احصاؤها ولا تحصيلها ولكن نعمّ به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد، وهي محدودة متقاربة في جميع الناس..

« فهذه الملكات الجسدية- فضلا عن الملكات العقلية والروحية- قابلة للنمو والمضاعفة الى الحد الذي لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه الا إذا شهدناه..

« وقد رأينا ورأى معنا ألوف من الناس رجلا أكتع[1] يستخدم أصابع قدمه في أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين. يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع بها القهوة ويصبها في الأقداح ويشربها ويديرها على الحاضرين ويسلك الخيط في سم الابرة[2] ويخيط الثوب الممزق، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمنى أو باليسار..

ورأينا ورأى معنا ألوف من الناس لاعبي البليارد في المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لا يتركونها الا بعد مائة وخمسين اصابة أو تزيد، ولعلهم لا يتركونها الا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين. وهم يوجهون بها الأكر الى حيث يريدون ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر في بعضها ولا تحسب اللعبة اذا لم تدخل في بعضها الآخر. بحيث لو قال لك قائل ان هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر[3] بسلك خفي لجاز لك أن تصدق ما يقول..

« ورأينا من يقدف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء، ورأينا من ينظر في آثار الأقدام فيخرج منها أثرا واحدا بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات. ورأينا من يرمي بالأنشوطة في الحبل الطويل فيطرق بها عنق الانسان أو الحيوان على مسافة أمتار..

« هذه هي الملكات الجسدية المحدودة. وهذه هي آماد الكمال الذي تبلغ اليه بالتخصص والمرانة والتوزيع، فما القول اذا حكمنا على الناس جميعا أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات؟ . اننا نخطىء بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد، ولكننا نخطىء كذلك اذا حجرنا على انسان لأنه

---

(١) أكتع: من رجعت أصابعه الى كفه.

(٢) سم الابرة: ثقبها.

(٣) الاكر: جمع كرة.

أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية، ولو جار في نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون..

«فاذا كنا قد جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص، فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهي لا تتقارب في الناس هذا التقارب ولا تقف عند هذه الحدود..

«واذا كان طالب القوة الروحية يؤثرها على جسده فلماذا نلومه وننحى عليه ونحن لا ننحى[1] على اللاعب اذا آثر المهارة في اللعب على المهارة في فنون العقل أو على الكمال في مطالب الروح؟..

«اذا لمنا من يجور على جسده لأنه يضر الناس اذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنا أن نلوم كل ذي ملكة وكل ذي فن وكل ذي رأي من الآراء. فما من واحد بين هؤلاء الا وهو يضر الناس اذا اقتدوا به أجمعين..

«ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية المصفاة، ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح في الحياة اليومية، فضلا عن الحياة الانسانية الباقية على مر الدهور، ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية، له حق كحق المصارع والملاكم وحامل الأثقال في استكمال ما يشاء من ملكات الانسان، ولسنا على حق اذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه، لأننا لا نلوم المصارع اذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملكة العلم أو ملكة الروح، ولو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس ولكن لا بد من المصارعة مع هذا، ولا بد من المتفرغين لها اذا أردنا البقاء.

«لو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد في الحياة. ولكن لا بد من هذه النزعة في بعض النفوس، والا قصرنا عن الشأو الأعلى في مطالب الروح وفقدنا ثمرة التخصص أو ثمرة القصد الحيوي الذي ينظم لنا ثروة الروح وثروة العقول وثروة الأبدان. والقصد الحيوي مكفول بشريعة القرآن في كل مطلب من هذه

---

(١) ننحي عليه: أنحى على فلان بالسيف والسوط: أقبل عليه.

المطالب الروحية، فهي مباحة لمن يطيقها وهي لا تفرض على جميع المسلمين، ولا بد من هذه الاباحة ولا بد من هذا الاعفاء فانها يجريان بالقدر الذي يفيد ويمنع الضرر في كلتا الحالتين..

المذاهبُ الاجتماعيّة وَالفكريّة

إذا إتسعت الديانة لقبول المذاهب الإجتماعية والفكرية فهي إحدى ديانتين تختلفان ويبلغ الإختلاف بينهما حد التناقض في هذه الوجهة..

فهي إما ديانة تنفض يدها من أعمال الدنيا وتتجرد بضمائر أتباعها للمطالب الروحية أو المطالب الأخروية غير الدنيوية..

أو هي ديانة تنظر إلى الدنيا وتقيم قواعد الإصلاح الإجتماعي على أسس واسعة النطاق ثم توجب على الناس أن يتخيروا الأوقات لتطبيقها على حسب دواعيها ومطالب البيئات التي تتجدد فيها..

والمقرر في المقابلة بين الديانات أن المجتمع الإنساني يتطلب نصيبه من الديانة وإن لم تشتمل على نصوص تتعرض للسياسة الإجتماعية. لأن الديانات جماعية وفردية، بل هي ألزم للجماعة وأولى بالقيام بين ظهرانيها. لأن ضمائر الأفراد لا تنعزل بأعمالها عن شركائها في الحياة الإجتماعية، وعلى ما فيها من الصلاح والفساد تنتظم تلك الحياة أو ينتقض فيها النظام..

وقد كانت البرهمية ديانة «غير دنيوية» لأنها تقوم في جوهرها على سوء العقيدة في الدنيا والإيمان ببطلانها، وغلبة الوهم على مظاهرها وخفاياها، ولكنها تعرضت للمجتمع فقسمته إلى طبقات وميزت كل طبقة منها بميزتها في الحكم والمعيشة، وداخلت الناس في المساكن والمطاعم فلا تفارقهم في عمل يعملونه أو حركة يتحركونها..

والمسيحية لم تتعرض للتشريع ولا للسياسة الإجتماعية، لأنها نشأت في بيئة ترجع بشرائعها المدنية إلى الدولة الرومانية التي قيل عنها انها أم الشرائع في الزمن القديم، وترجع بشرائعها الدينية إلى الهيكل اليهودي الذي يطلق إسم الشريعة على الدين كله، لأن الاعتقاد عنده قائم كله على التشريع، ومع هذا

ظهرت في ظلال المسيحية دعوى الملوك الذين أقاموا حكمهم على الحق الالهي، وظهرت فيها مراسم للسلطة الدينية أعم وأقوى من سلطة الدين في غيرها..

فالديانات في الواقع العملي سواء في آثارها الإجتاعية، وإن لم تكن سواء في نصوصها التي تعرض لمسائل الإجتاع، وكثيراً ما إصطدمت الديانات «غ الدنيوية» بالمذاهب الدنيوية على غير تفرقة بينها، لأنها من أساسها تجعل الحياة الروحية مناقضة للحياة الدنيوية كيفما كانت وعلى أية سنّة تسير..

والإسلام لم يتجنب مسائل الإجتاع لأن إجتنابها ليس من طبيعة الدين، ولكنه عنى بهذه المسائل كما ينبغي أن تدركها عقيدة الإنسان في الجماعة البشرية، ووكل إلى عقيدته أن توفق بينها وبين الصلاح الإجتاعي كما يقتضيه زمانه وتستوحيه الجماعة كلها من ضروراتها ومن قواعد دينها، ولا فارق في النهاية بين المصلحة كما تهتدي إليها الجماعة والمصلحة كما يوجبها الدين..

والمذاهب الإجتاعية شيء واقع معروف المبادىء والغايات في العصر الحاضر، فعلاقة الإسلام بها كذلك شيء واقعي لا حاجة به إلى الخوض في النظريات والفروض الذهنية، لأن مواضع الوئام أو النزاع بين جميع هذه المذاهب وبين نصوص الدين الإسلامي مسطورة لمن يريدها وقد كشفت عنها تجارب العمل كما كشفت عنها بحوث الباحثين..

هذه المذاهب الإجتاعية، ومعها المذاهب الفكرية، كثيرة تتفرع على أصولها الكبرى، ولكننا إذا عددنا منها هذه الأصول أغنانا البحث فيها عن البحث في فروعها، وبخاصة حين يدور البحث على القواعد الكبرى في الإسلام والقواعد الكبرى في أمهات مذاهب الإجتاع والفكر في هذه الآونة..

إن أصول المذاهب الإجتاعية قد تتلاقى في هذه الآونة إلى أصول ثلاثة تحيط بها في جملة مناحيها، وهي الديموقراطية، والإشتراكية، والعالمية..

أما مذاهب الفكر فأكثرها ذكراً في العصر الحاضر مذهب التطور ومذهب الوجودية أو مذاهبها المتعددة بمقاصدها وان إتحدت بعنوانها..

فما الذي يمنع المسلم أن يعمل للديموقراطية أو يعمل للاشتراكية أو يعمل للوحدة العالمية؟..

وما الذي يمنع المسلم من أحكام دينه أن يقبل مذهب التطور أو يقبل الوجودية في صورتها المثلى؟..

إن المسلم أحق بالديموقراطية من أتباعها المحدثين والأقدمين، لأنه منذ أربعة عشر قرنا- يدين بمبادىء الديموقراطية الأولى التي لا يصدق إسم الديموقراطية على نظام من النظم بغيرها، وهي التبعة الفردية، والحكم بالشورى، والمساواة بين الحقوق، والمحاسبة بالقانون..

«كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ»[1] (سورة الطور)

«وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» (سورة الشورى)

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (سورة الحجرات)

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا انَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ» (سورة الحجرات)

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (سورة الإسراء)

(وَانْ مِنْ أُمَّةٍ الاَّ خَلاَ فِيهاَ نَذِيرٌ) (سورة فاطر)

ومتى آمن المسلم بهذه المبادىء صاحب الحق في إختيار ما يرتضيه من نظم الديموقراطية، بل فرض عليه واجب الدين- مع واجب المصلحة- أن يطلب الحكم على نظام من النظم التي تتوافر لها هذه المبادىء الأولى..

وليس في عقيدة المسلم ما يصده عن مذهب من مذاهب الاشتراكية الصالحة، لأنه ينكر احتكار الثروة في طبقة واحدة، وينكر احتكار التجارة في الأسواق عامة، ويفرض على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والضعاف والمحرومين، ويجعل حق الفرد رهينا بمصلحة الجماعة، ومن سمحت عقيدته بهذه المبادىء لم تحرم عليه أن يأخذ من الاشتراكية ما أباحته له قبل أن توجد الاشتراكية والاشتراكيون..

ينهي الاسلام عن حصر المال في طبقة دون سائر الطبقات:

---

(١) رهين: أي يحبس بعمله.

﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً[1] بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾.

(سورة الحشر)

ويمنع كنز الذهب والفضة:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

(سورة التوبة)

وفي الحديث الشريف: «من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه»..

ويحرم الاسلام أكل الأموال بالباطل من طريق التجارة بالديون:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

(سورة آل عمران)

وقد ظهر في الاسلام فقهاء اشتراكيون يستندون في آرائهم الى السنن الاسلامية ولا يعرفون سندا غيرها لما يدعون اليه، ومنهم فقهاء المذهب الظاهري الذين يحرمون تأجير الأرض بغير عمل الا أن تكون أرض بناء وأن يكون الأجر لما عليها من بناء، وأشهر هؤلاء الفقهاء الاشتراكيين الفيلسوف ابن حزم الظاهري الذي يقول في كتابه المحلى: ان زرع الأرض لا يحل الا على أحد ثلاثة أوجه: اما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه وبذره وحيوانه، واما أن يبيح لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا. فان اشتركا في الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ منه للأرض كراء فحسن، واما أن يعطي أرضه لمن يزرعها ببذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء ويكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى اما النصف واما الثلث أو الربع أو نحو ذلك أكثر أو أقل ولا يشترط على صاحب الأرض شيء من كل ذلك ويكون الباقي للزارع، قل ما أصاب أو

(١) دولة: متداولا

كثر، فان لم يصب شيئا فلا شيء له ولا شيء عليه. فهذه الوجوه جائزة فمن أبى فليمسك أرضه »..

ورأي ابن حزم هذا مذهب يستند فيه الفقيه الفيلسوف الى حجة من الدين تجوز عنده على ما فصله في كتابه، فان لم تكن قاطعة عند غيره فالدين الذي يستنبط أمثال ابن حزم من أحكامه ذلك الرأي لا يقال عنه انه يصد المؤمنين به عن الاشتراكية على طريقتها الوسطى بين الطرفين، وليس فيها ما هو أوسط وأعدل ممن يمنع احتكار الثروة ويجعل للمحرومين حصة معلومة من الثروة العامة، وهو مذهب الاجماع في شريعة الاسلام، وعليه تقوم احد فرائضه الخمس، وهي الزكاة..

وانه لما يناسب رسالة الدين أن يستوعب مذاهب الاجتماع ولا يستوعبه مذهب منها، لأن هذه المذاهب الاجتماعية تأتي وتذهب ويعتريها التعديل والتبديل جيلا بعد جيل، ولا يعقل أن يتغير يقين الايمان بحقيقة الوجود كلما تغيرت خطة من خطط العمل في المصالح الاجتماعية مهما يبلغ من صوابها عند العمل بها واجرائها في مجراها الموقوت..

ومما يساق من أمثلة هذا أن ناقدي الاسلام من الغربيين أخذوا عليه أنه يعوق أعمال المصارف والشركات ومرافق التثمير بما حرمه من الربا في تثمير القروض، وليس هذا النقد بصحيح لأن الاسلام لم يحرم قط عملا من أعمال التثمير يخلو من الاضرار بمن يحتاجون الى القروض ويبرأ من أكل أموال الناس بالباطل في غير عمل مباح، ولكن هذا النقد على أية حال ينقضي بصوابه وخطئه ولا تنقضي رسالة الدين على اطلاقها، وانما يقيس بمصالح الأديان حقا من يقيسها على اتساع وامتداد وينظر الى الغد كما ينظر الى اليوم فلا يقضي بحكم من الأحكام فيها كأنه ختام العصور والمصالح جمعاء، فهذا عصر الثروات الكبرى في أيدي أصحاب الأموال يوشك أن ينقضي ويلحقه عصر ينادي فيه الاقتصاديون بملك الأمة لموارد الثروات ويقول فيه آخرون بمنع حيازة الأموال العامة فضلا عن فوائدها على قدر من الأقدار كائنا ما كان..

وقد استوعب الاسلام مذاهب الاقتصاد في عصر المصارف والشركات

وقروضها وفوائدها دون أن يعوق مصلحة من مصالحها البريئة في العرف المشروع، وتمضي هذه المذاهب كما مضى غيرها فلا يؤوده[1] بعدها أن يستوعب مذاهب الثروة في أيدي الجميع ولا مذاهب الثروة في أيدي الآحاد لا يمنع منها الا ما يمنعه أولا وآخرا من ضرر أو ضرار..

واذا كان دين المسلم لا يمنعه أن يتخذ من مذاهب الديموقراطية والاشتراكية ما يرى صلاحه، فالوحدة العالمية أمل من آماله وغاية من غايات الخلق في اعتقاده، وليس مبلغ الأمر فيها أنها رأي لا يمنعه مانع من دينه..

فالخالق جل جلاله قد خلق الشعوب والقبائل لتتعارف وتصطلح على العرف الحسن والمعرفة الرشيدة فتجمعها أسرة واحدة لا تفاضل بين أبنائها بغير التقوى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

(سورة الحجرات)

ولا يسهل الايمان بالوحدة العالمية على امرىء يؤمن بأن الله يصطفى سلالة من البشر دون سائر السلالات لغير فضيلة تحسب لها في ميزانها غير انتسابها الى أرومة[2] معلومة..

ولا يسهل الايمان بهذه الوحدة العالمية على امرىء يؤمن بأن النجاة في ماضي العصور ومقبلها قسمة موقوفة على شرط لم يكمل في غير زمن محدود لأناس محدودين..

ولكن المسلم الذي يؤمن برب العالمين ويعلم أن النجاة قسمة لكل من سمع دعوة الهداية فاستجاب لها من الأولين والآخرين يبسط رواق[3] الأخوة الانسانية على الغابرين والحاضرين ولا يطرد من حظيرة[4] الرضوان انسانا

---

(١) يؤوده: آده الحمل: أثقله. وآده الامر: بلغ منه المجهود.

(٢) أرومة: الجذر والاصل.

(١) رواق: بالكسر: مقدم البيت، وسقف في مقدمه.

(٢) حظيرة: موضع يحاط عليه بالخشب أو القصب لتأوي اليه الماشية.

الحياة الانسانية فيما يعرض لها من الغير والأطوار فاذا تمهدت له مسالك التفكير أمام العقل لم يكد يعرض للعقل عائق دون مذهب آخر ينطوي فيه أو ينطبق عليه.

والوجودية مذهب آخر من المذاهب الفكرية يشبه التطور في هذا العموم الشائع بين الآراء والتطبيقات. فان الوجودية في حقيقتها وجوديات كثيرة تتشعب في كل ناحية من نواحي النظر والاعتقاد، ولا تلتقي في غير قاعدة واحدة هي الاعتزاز بحق الفرد في الوجود، لأنه عند الوجوديين هو الكيان الثابت الذي تصدق عليه صفة الوجود الصحيح. اذ لا وجود في غير الذهن للأنواع والأجناس والفصائل والأقسام. ولكنها كلها أفراد متفرقة هي الموجودة بذواتها دون ما يطلق عليها من الأسماء و«الماهيات» في اصطلاح المنطقيين..

وليس على الفكر حرج أن يدحض زعم الزاعمين بوجود الفرد وبطلان وجود النوع في الحس والعيان، فهذا كله لا طائل تحته في النتيجة التي يخرج بها الوجوديون من تلك المقدمة، وانما نتيجتها أن الفرد مسئول وأنه صاحب الحق الواجب على قدر هذه المسئولية، وأنه خليق ألا يدين لسلطان غير سلطان الضمير، لأنه يحاسب على أعماله ونياته ولا يغني عنه أمر الجماعة ولا أمر ذوي السلطان، وذلك هو حق العقل في الاسلام، بل هو فيه واجب العقل لا يغنيه أن يعتذر منه بطاعة السلف أو طاعة الجماعة أو طاعة الرؤساء والأحبار، وقد وصل العقل الانساني الى هذا الحق، وهذا الواجب، بفضل العقيدة الاسلامية قبل أن يصل اليه من طريق الجدل العقام في التفرقة بين وجود الذوات ووجود الماهيات ولا بد- في عصور الثقافة خاصة- من كلمة سواء بين الدين وهذه المذاهب الفكرية. فما هي رسالة الدين وما هي رسالة المذاهب؟ مهما يكن من رأي في هاتين الرسالتين ففي وسعنا أن نقول ان الدين ينبغي أن يطلق للمذاهب الفكرية مجالها في المسائل المتجددة، وأن المذاهب الفكرية ينبغي أن ترعى للدين حرمته في المسائل الباقية. ان المذاهب تذهب والدين باق. وليس بالمتدين ذلك الذي يحمل عقيدته ليطرحها عند أول مذهب يروقه ويوائم خواطره في مشكلات يومه..

وباستقراء الواقع فيما مضى وما حضر نتبين أن الإسلام قد قال هذه الكلمة السواء في عهود كثيرة، وأنه كان في تلك العهود مذهبا فكريا وزيادة. لأنه لم يقرر أصلا من أصوله يحجر على العقل في تفكيره، ولأن الجانب الذي وكله الى الايمان من روح الانسان هو الجانب الذي لا يستطيع الفكر أن يقول كلمة أوْلى بالاتباع من كلمة الدين..

العرفُ وَالعادات

دخلت في الاسلام عند ظهوره أمم شتى من أبناء الحضارة والبداوة تأصلت لهم عادات عريقة وآداب موروثة وتباعدت المسافة بين تلك الأمم في عاداتها وآدابها كما تباعدت في مواقعها وتخومها، ومنها خلفاء الفرس والبابليين والفينيقيين والكنعانيين والفراعنة والبربر وقبائل البادية أو البوادي المتلاحقة بين وادي النهرين ووادي النيل..

عالم شاسع تعددت فيه الأزياء والمراسم والمواسم والأطعمة والأشربة والآداب زالمصطلحات كما تعددت اليوم في القارة الواسعة بين شعوبها التي تنتمي الى مختلف العناصر والأقوام. فتعود المسلمون من اللحظة الأولى أن يوسعوا أكناف[1] الاسلام لكل ما في هذا العالم الشاسع من عرف وعادة ومن شعائر ومراسم، وأصبح العالم الاسلامي مرادفا عندهم للعالم الانساني عند النظر الى اختلاف الظواهر والأشكال، وأعفتهم هذه النظرة السمحة من جمود التقاليد التي تنعزل بأصحابها عن العالم الانساني أحيانا، كلما أقام الدين وأتباعه زمنا طويلا في معزل عن الناس.

فلم يتحرج المسلمون من تلك الظواهر والأشكال في غير شيء واحد وهو المساس بالعقائد والعبادات، وكل ما زاوله الناس بعيدا من الهيكل والمذبح فهو حل مباح لا يسألون عنه ولا يالون أن ينزعوا فيه منزع الأمم التي احتوتها الرقعة الاسلامية من تخوم الصين الى شواطيء المغرب الأقصى..

احتفل المسلمون بالنيروز، ولبسوا الطيلسان[2]، وأكلوا في الأديرة وعلى موائد الدهاقين، وركبوا البراذين والفيلة، وتعاملوا بالدرهم والدنانير، وسكنوا البيوت من بناء القبط والروم، وعاشوا بدين واحد في أزياء لا عداد لها، فحققوا بذلك أن الاسلام دين العالمين..

---

(١) أكناف: جمع كنف بفتحتين وهو الجانب والناحية.

(٢) الطيلسان: كساء من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ.

ولازمتهم هذه السماحة في العرف .سدرا من الدعوة ومن الدولة الاسلامية الاولى، فلم يعرفوا في هذه الفترة مشكلة دينية تحتاج الى حل ديني في شئون المعيشة من مأكل وملبس أو مسلك شائع في معاملات الناس، ولم تظهر هذه المشكلات الا مع ظهور الخوف على كيان الأمة الاسلامية، خوف الفتنة من الداخل وخوف السيطرة من الأعداء..

وتحرج المسلمون حين شعروا بالحرج فيما بينهم وفيما يهددهم من غلبة اعدائهم، وشعروا بهذا الحرج من الدخيل الذي يتوارى بين ظهرانيهم قبل أن يشعروا به من الدخيل الذي يغير عليهم ويخضعهم بالقوة والمكيدة..

أخذوا ينكرون العادات والمراسم التي لا غبار عليها في مظاهرها حين علموا أن الدخيل في ملتهم يتستر من روائها لترويج العقيدة التي تلازمها والتمهيد للدولة التي تقوم عليها، ومن هنا تلفتوا على حذر الى كل ظاهرة مجوسية أو بيزنطية تستأنف ظهورها في البيئة الاسلامية، وكاد السؤال عن الحلال والحرام يسبق كل حركة غريبة- مريبة- ترتبط بمراسم الأمم المغلوبة في الزمن القديم قبل دخولها في الاسلام، والى هذا الحذر يرجع الشك في المراسم الأعجمية حيث كانت بين المسلمين أو غير المسلمين..

ثم اشتد هذا الانكار للغريب من الظواهر والعادات بعد زوال الدولة وخضوع الأمم الاسلامية للدولة المغيرة علقها، وكاد هذا الحذر أن يغلب جهود المصلحين الذين التمسوا القوة من حيث أدركها أعداء الاسلام، فحفزوا أقوامهم الى التشبه بأولئك الأعداء فيما أجادوا من أسلحة العلوم والصناعات..

تحرج المسلمون من الظواهر والأشكال الأجنبية في هذا الدور تحرجا لم يتعودوه فيما سلف من تاريخهم في أيام القوة او في أيام الفتنة والحذر، لأنهم شعروا بهذا الحرج في عصر الهزيمة والخضوع، وهما ادعى الى الشك والنفور من فتنة الدخيل والحذر من صاحب الكيد المغلوب..

ولم يكن ذلك التحرج شرا كله وان كان فيه شر كبير لم ينج المسلمون من عقابيله الا بشق النفس، ولم يكد بعضهم يصدقون بالنجاة حتى الآن..

بعض ذلك التحرج صادر من حصانة الاسلام، وهي سجية يستمدها المسلم

من استقلاله بضميره ومن شمول عقيدته التي لا تفصل الدين من الدنيا ولا تجعله في الدين تبعا فهو احرى ألا يكون تبعا في الدولة ولا في الدنيا..

وربما هان على صاحب الدين الذي يفصل العقيدة عن عمل المعيشة، أن يخضع لمن يخالفونه في الدين والجنس واللغة لأنه يتعزى عن ذلك باحتقار الدنيا والفرار بروحه منها الى الحياة الأخرى. ولكن عقيدة المسلم تأبى له هذا العزاء وتلقي في روعه أن الله محاسبه على تفريطه في مكانته ومناعة حوزته مذكان التمكين في الأرض علامة على صدق الايمان وصدق العمل به في شئون الحياة وشئون المعايش على السواء..

﴿وَلَقَدْ مَكنَّا لَكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾

(سورة الاعراف)

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾.

(سورة النور)

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ[1] عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

(سورة القصص)

فاذا حاقت[2] الهزيمة بالمسلم وضاعت منه الدولة واستبيحت عليه حوزته علم أنه قد خسر دنياه ودينه ولم يبق له من عزاء يطمئن اليه غير الأمل في الخلاص من هذه المهانة والحذر من الاستغراق فيها والسكون اليها وداخله النفور من الغالب وتباعد عنه وعن عادته وأحواله بشعوره وتفكيره، فتحرز

(١) نمن: من عليه: أحسن اليه.

(٢) حاقت: حاق به العذاب: نزل وأحاط.

من محاكاته فيها بدلا من اللهج بها والولع بمشابهتها كما يحدث من الأمم المغلوبة التي استذلتها الهزيمة وطمست معالم استقلالها فراحت تستعير العزة المموهة من محاكاة الظواهر والأشكال، قناعة بها عن العزة الصادقة التي تنال بالمقاومة واحياء المعالم الدارسة..

ولعل فيلسوف التاريخ الاسلامي- ابن خلدون- كان أول من نبّه المسلمين الى هذه الخلة في المغلوبين وعدها من تمام التسليم بالغلبة والهزيمة، فوقر[1] في الأذهان أن محاكاة الغالب في ظواهره وأشكاله أول عوارض الفناء والتسليم على غير أمل في الخلاص..

فمن حصانة العقيدة الاسلامية استمد المسلم شعور التحرج من العادات الأجنبية فكان هذا التحرج خيرا بمقدار ما فيه من القضاء على بواعث المحاكاة التي تؤذن بالفناء والتسليم بالسيادة..

ولكن هذه الحصانة السليمة الكفيلة بالسلامة لمن يعتصمون بها على فهم ودراية لم تلبث أن امتزجت بعوارض الجمود والخمول فأصابها ما يصيب الفضائل جميعا من المسخ والتشويه كلما خارت العزائم وسقطت الهمم ورانت الحيرة على العقول، فتحرج المسلمون الذين أصيبوا بهذه المحنة من محاكاة الغالبين في أسباب القوة واليسر كما تحرجوا من محاكاتهم فيما يهدد كيان الأمة بالزوال ويؤذن بمحو المعالم القومية على تتابع الأيام والأحداث..

واستبد العجز بالنفوس فخيل اليها انها تركت باختيارها ما تركته في الواقع عجزا عن المحاكاة وجهلا بأسبابها، ولا سيما حين تكون هذه الأسباب مما يسوق العجزة المتواكلين قهرا الى السعي والتوافد على تحصيل العلوم والصناعات.

في هذه الفترة كثر التساؤل عن أمور لم تكن موضع سؤال في صدر الاسلام وليست هي موضع سؤال في هذه الأيام، وسمع الاستفتاء بعد الاستفتاء في الكبريت هل يجوز قدحه؟.. وعن غاز الاستصباح هل تجوز الاضاءة به في المساجد؟.. وعن التليفون هل يجوز وضعه في المعاهد الدينية؟.. وعن الجغرافيا وعلوم الطبيعة هل يجوز تعليمها للتلاميذ؟.. ولاح لهؤلاء المتحرجين

(١) وقر: وقرت الكلمة في أذنه: ثبتت.

كأنهم يعيشون في هذا العالم في سجن مغلق يخشون أن يمدوا أصبعا الى شيء فيه فينطلق منه شيطان متربص أو مارد محبوس..

ولم تدم هذه الغاشية الا ريثما تجددت الثقة في النفوس وثبتت الأقدام على منهج الاصلاح فخفت وطأة الحرج الذي استمده المسلمون من حصانة دينهم وأيقنوا أن طرق التقدم وطرق العلم الحديث لا تفترقان وان المسلم أولى من غير المسلم بكل علم من علوم المعرفة لأنه مأمور بالبحث عن أسرار الخلق مطالب بالفهم والتفكير، وتخلفت مع الجهل والخمول رواسب من الجمود تخلق الاحراج في غير حرج وتضر كثيرا حيث تدعو الحاجة الى السير الحثيث في طريق الاصلاح وتفيد أحيانا كلما اضطرب المتعجلين الى بعض الروية والاناة قبل الهجوم على كل شيء جديد، لغير نفع فيه الا أنه يخالف القديم.

وأغلب الظن أن رواسب الجمود كانت تزول أسرع مما زالت لو لم يكن فيها مآرب ولبانات[1] لفئة من الحاكمين ترتهن منافعهم ببقائها وتتعرض مواردهم للنقص والزوال بما يطرأ على الحالة الراهنة من تبديل أو تحويل. وقد كانت الآستانة والقاهرة قبلة طلاب الاصلاح في أرجاء العالم الاسلامي لأن الأولى كانت في مستهل نهضات الاصلاح مقر الخلافة الاسلامية، والثانية عاصمة الثقافة الدينية منذ عدة قرون، ولم تخل حركة من حركات التقدم في كلتيهما من بواطن خفية غير الظواهر التي يثار من حولها الشقاق بين دعاة الاصلاح وجماعة الحكام المشايعين للقديم، ومن هؤلاء أصاب أولئك الدعاة أشد ما أصابهم من العنت والتشهير، وبما كان لهم من الجاه والسطوة اقتدروا على تسخير الأعوان لاستثارة الدهماء على الأئمة والقادة المصلحين وأحاطوهم بالتهم والأباطيل، وأيسرها وأسرعها تفشيا بين الجهلاء تهمة الكفر وتهمة التواطؤ مع الأعداء على افساد الدين..

ففي البلاد العثمانية الخاضعة للآستانة سبق الشعب رؤساءه الى مجاراة الحضارة ومسايرة العرف العصري في شئون المعيشة التي لا مساس لها بالعقيدة، ولكن الدولة العثمانية تعرضت لثورة من أخطر ثوراتها حين أمر السلطان بتغيير ملابس الجنود «الانكشارية» وتنظيم كتائبهم على النسق العصري في

(١) لبانات: جمع لبانة بالضم وهي الحاجة من غير فاقة. تقول: قضيت لبانتي.

الجيوش الحديثة، لأن قادة هذه الفرق- ومن ورائهم بعض اعضاء البيت المالك المنافسين للسلطان- آثروا بقاء القديم على قدمه وأوجسوا من تبديل الملابس والأنظمة في الكتائب الحديثة أن يتبعه فض كتائب الانكشارية وتزويد السلطان بقوة من منشآته تناصره فيا أراد من تعديل نظام الوراثة..

وفي مصر كان الخلاف على أشده بين الخديو وحواشيه وبين أئمة الاصلاح- وعلى رأسهم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية- وكان باطن الخلاف حول الرقابة على أموال الأوقاف ووظائف التدريس بالجامع الأزهر وبرامج التعليم فيه، وظاهره على سفاسف لا تعني الخديو وحواشيه في كثير ولا قليل ولكنها ذريعة يستخدمونها في اثارة الغبار حول موضوع الخلاف الأصيل واتهام المصلحين بسوء النية وفساد الطوية والافتيات على ولي الأمر وأعوانه المخلصين..

وأشهر ما اشتهر من هذه المعارك الصاخبة حول السفاسف معركة الفتوى التي عرفت بفتوى الترنسفال وخلاصتها الوجيزة أن رجلا من الترنسفال سأل مفتي الديار المصرية عن بعض عادات اللباس والطعام في افريقيا الجنوبية، وعن جواز الصلاة خلف الامام مع اختلاف المذاهب فأفتاه الشيخ رحمه الله بجواز لبس القلنسوة وجواز طعام أهل الكتاب لأنه حلال بنص القرآن الكريم..

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾.

وان الامام المسلم تجوز امامته ولا وجه للاعتراض على الصلاة خلفه وان اختلفت المذاهب، لأن تخصيص مسجد باتباع كل مذهب يفرق جماعة المسلمين ولا يستند الى أصل من القرآن والحديث أو سير الأولين..

ويخرج بنا من غرض هذه الرسالة أن نلم ولو مع الايجاز، بنبذة من الآراء الفقهية التي تداولها الكتاب نقدا وردا وتشهيرا وتبريرا بعد صدور الفتوى الترنسفالية، اذ ليس من غرضنا هنا أن نخوض في الجدل الفقهي وما نحا نحوه

(١) الدهماء: جماعة الناس.

(٢) أوجسوا: أوجس من فلان خيفة: أحس.

(٣) سفاسف: جمع سفساف وهو الرديء من كل شيء.

من جدل المذاهب، وما بنا من حاجة الى ذلك لأن القضية لم تكن من قضايا الفقه ولا كان الغلاة في حملتها ممن ينكرون لبس القلنسوة أو الأكل على الموائد الأوروبية أو الصلاة خلف الأئمة الأحناف وفيهم الشافعيون والمالكيون كما يتفق أيام الجمع في الصلوات الجامعة مع حاشية الأمور. وقد بدأ الانذار بالحملة قبل ورود الأسئلة وكتابة الأجوبة في فتوى الترنسفال، وعلى ذلك وصل الخبر الى دار الخلافة يومئذ فيما رفعه اليها صاحب صحيفة الراوي اليومية وهو من أعوانها وعيونها على خديو مصر في ذلك الحين، وقد أشار الى الفتوى وغيرها من معارك السياسة الخفية في ثياب الغيرة الدينية فقال:

«وكان يظن- أي الخديو- أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك.. وأن النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو يريد أن يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الأزهر وماليتها الأوقاف، وقد حدث بهذا كثيرين وقال: ان أوروبا تهاب البابا والسلطان لأجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا، وانه ما دام الشيخ محمد عبده مفتيا للديار المصرية وعضوا في الأزهر وفي مجلس الأوقاف الأعلى وفي شورى القوانين فلن يتم له في ذلك عمل.. فالمفتي هو العقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جدا[1]..

وهذه المعارك المصطنعة هي التي أوقعت في أذهان المعقبين على أحداث العالم الاسلامي أن المسلم يتحرج من غير حرج ويغلو في الجمود على القديم لغير سبب، ويخلط بين موروثات العرف وسنن العقيدة وآدابها المستفادة من أوامرها ووصاياها، وكل هذا وهم ينفيه أن المسلم قد تعلم من كتابه النعي على الجامدين الذين يستعبدون عقولهم لعادات أسلافهم ويقتدون بهم لأنهم وجدوهم عليها، وان كانوا لا يعقلون. ثم جاءت سيرة المسلمين الأولين الذين تفرقوا في أنحاء الأرض على خير ما تكون السماحة، فعاشروا أبناء الأمم من الروم والفرس والترك والديلم والبربر دون أن يتحرجوا بنمط من أنماط المعيشة ولا بأسلوب من أساليب العرف ما لم يكن فيه مساس بالعقيدة والعبادة..

فليس من روح الاسلام أن يجمد المؤمن على عادة موروثة لأنها عادة

(١) تقرير يوسف طلعت باشا- وفي الجزء الأول من تاريخ الاستاذ الامام صورة منه.

موروثة، وليس من روحه أن يرفض عادة جديدة لأنها عادة جديدة، ولكنه يعتصم من روح الاسلام بحصانة تعيذه من سحر الغلبة فلا تهوله بروعتها ولا تجنح به الى الفناء في غمارها والاستسلام لقيادتها. وتلك مفخرة للاسلام تتمناها الأمم ولا تزهد فيها، وما كان لأمة أن تزهد في حصانة تقيم الحواجز بينها وبين عدوها ولا تحجزها عمن يسالمها ولو كان غريبا عنها..

وسبيل المسلم فيما آثره مع الخلق من سلوك وعادة أن يأخذ بالعفو[1]، ويأمر بالمعروف ويعرض عن الجاهلين..

(١) العفو: السهولة والسراح.

خاتمة

كتبنا هذه الفصول عسى أن يكون فيها جواب هاد لأناس من الناشئين يتساءلون: هل يتفق الفكر والدين؟.. وهل يستطيع الانسان العصري أن يقيم عقيدته الاسلامية على أساس من التفكير؟..

ونرجو أن تكون هذه الفصول تعزيزا للجواب بكلمة «نعم» على كل من هذين السؤالين.. نعم يتفق الفكر والدين. ونعم يدين المفكر بالاسلام وله سند من الفكر وسند من الايمان..

ولكننا نكتب هذه الخاتمة ونود أن نضيف بها سؤالا آخر يتمم هذين السؤالين..

نود أن نسأل: هل يؤمن عقل الانسان بالدين في هذا العصر؟.. ويرى فيه دينا أحق بالايمان به من الاسلام؟..

أما أن يؤمن الانسان بالدين في أعماق وجدانه بمعرفة الفكر فذلك بحث طويل لا يستقصى في سطور ولا صفحات، ولكنه- مع خلوص النية- يتضح جليا مبينا من حقيقة واحدة، وهي ان الانسان جزء من هذا الوجود غير المحدود لا بد له من صلة عميقة تربطه به أبعد غورا من هذه الصلاة الحسية التي تحصرها العلوم المتغيرة مع العصور والسنين.

فكيف تكون هذه الصلة؟.. ان فكر الانسان محدود ينقطع دون النهاية من هذا الوجود الذي ليست له حدود، فهل تنقطع صلته بالوجود كله عند انقطاع فكره؟.. أو يعلم حدود نهايته ويعلم علما يقينا أن الصلة وراء ذلك لن تكون الا بالايمان..

لا بد أن يؤمن لأنه ذهب بالفكر الى نهايته ولم يبلغ النهاية، ولا بد- بعد طريق الفكر- من طريق يهتدي اليه الفكر ولكنه لا يستعصيه..

واذا آمن المفكر بهذا فأي دين يختاره للجماعة الانسانية أفضل من دين الاسلام؟..

ان الاسلام دين موجود. فالذي يشير على المسلم بدين غيره يريد منه أن يتركه ليدين بعقيدة أرفع منه في درجات الاعتقاد وأوفى منه بمطالب الجماعة ومطالب الآحاد، وهذا ما يعتقده المسلم، فما الذي يعتقده خيرا منه اذا نظر في الاسلام وفي سائر الأديان؟..

يعتقد المسلم في الإله أنه رب العالمين ليس كمثله شيء وهو بكل شيء محيط. ولا يحابي ذرية دون ذرية، ولا يختص بالنجاة فريقا دون فريق. ولا يميز أحدا على أحد بغير العمل والتقوى..

ويعتقد المسلم في النبي أنه رسول هداية. يعلم ما علمه الله ولا يعلم الغيب الا باذن الله، يخاطب العقول ولا يقسرها على التصديق بالخوارق والأعاجيب، ولا يملك لأحد نفعا ولا ضرا الا ما يكسبه لنفسه من خير وما يجنيه عليها من خسار..

ويعتقد المسلم في الأنبياء كافة أنهم رسل الله بالهداية يصدقهم جميعا حين يصدق برسالة نبيه ويصلي عليهم جميعا حين يصلي عليه، يبشرون وينذرون فلا [illegible] أحد من خلائق الله بغير نذير، ولا تفوته النجاة لأنه سبق في الزمان أو [illegible] بغير حيلة له في السبق أو التأخير..

ويعتقد المسلم في الانسان أنه مخلوق مسئول عن عمله وعن نيته، ان عمل صالحا فلنفسه وان أساء فعليها. يؤاخذه الله بذنبه ولا يؤاخذه بذنب لم يقترفه، وينجيه بتوبته ولا ينجيه بكفارة لم ينهض بثوابها.

ويعتقد المسلم في بني الانسان عامة أنهم أسرة واحدة من ذكر وأنثى، أكرمهم عند الله أتقاهم، وأتقاهم لله أنفعهم لعباده، يتكاثرون بالأنساب ويتعارفون بالأعمال والأسباب، فاذا نصبت لهم موازين الحساب فلا أنساب بينهم يومئذ ولا هم يتساءلون..

ويعتقد المسلم في الدين انه عهد بين المرء وخالقه، أينما كان فثم وجه الله، محرابه حيث أقام الصلاة بين الأرض والسماء، وضميره حرم لا يباح الا بما يشاء..

فاذا آمن المسلم بغير هذه العقيدة فما له من عقيدة خير منها فيما يعتقده انسان في الله أو في أنبياء الله أو في خلق الله أو في مشيئة الله.

واذا قيل له لا تعتقد بالاسلام فقد قيل له: لا تعتقد بشيء ولا تؤمن باله..

ويحق للمسلم على الحالين أن يعلم أن التفكير يوجب الاسلام، وان الاسلام يوجب التفكير..

ذلك منحى من مناحي العقل الواسعة ينحرف عنه ذو العقل الذي انتهى من بحوثه وتقديراته الى نبذ الأديان وانكار المعتقدات. وهي نهاية تعاب بقسطاس[1] الفكر نفسه لأنها سوء تفكير ولا ينحصر عيبها في سوء التقدير للضرورات التي استقام عليها بناء الجماعة الانسانية منذ وجدت في التاريخ وقبل التاريخ..

يعاب على هذا التفكير القاصر أنه انتهى الى غير شيء.. انتهى الى العدم. وليس ما وراء الفكر عدما بل هو وجود مطلق أزلي أبدي محيط بجميع الموجودات ومنها الفكر والمفكرون، لا يدركه الفكر بداهة ولكن ليدركه الايمان لا ليبقى منقطعا عن العقل والوجدان والشعور..

واذا قلنا ان هذا الفكر القاصر يعاب كذلك لأنه سوء تقدير لضرورات الجماعة الانسانية فليس هذا بالعيب الهين عند من يتأمل ويريد أن يتأمل..

ان حاجة النفوس الى العقيدة في الجماعة الانسانية برهان وأي برهان..

برهان من الواقع ليكن كبرهان الحنان الأبوي على مصلحة النوع في البقاء. أيقدح في حنان الآباء انهم ينظرون الى الأبناء بعين النوع كله ولا ينظرون اليه نظرة الغريب المجرد من هذا الحنان؟..

برهان الجماعة حق في العقل وحق في الواقع، وعلى الانسان الأمين لعقله ولنوعه أن يفطن لهذا الحق ويبحث عنه بحث المسئول لا بحث السائل الطارىء على القضية من بعيد..

وعلى الانسان الأمين لعقله ولنوعه أن يرعى حرمة القداسة في جماعته كما يرعاها في ضميره. فمن سلامة الضمير ان تكون سلامة الجماعة مما يتوخاه ومما يصونه ويحميه..

وفي العالم اليوم جماعة انسانية تعد بمئات الملايين..

---

(١) قسطاس: بضم القاف وكسرها: الميزان.

أربعمائة مليون مسلم يعيشون بعقيدة قويمة ويعتصمون منها بحصانة قوية..

هذا هو الاسلام..

بنية حية تذود عن عقيدتها فتذود عن كيانها أو تموت..

صانها الاسلام في وجوه أعدائها فلتصنه في وجوه أعدائه. وأوجب ما يوجب عليها هذه الصيانة انها تطلق للضمير آفاقه وأعماقه وتحمي للجماعة ديارها وقرارها، وانها لب ووجدان وتفكير وايمان. فان يكن للجماعة الاسلامية دين، ولا بد من دين، فلا بديل لها من دين يهديها الى الفكر ويديها الفكر اليه..

(الفهرس)

صفحة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)







الشيوعية والإنسانية
في شريعة الإسلام

التفكير فريضة إسلامية

فريضة التفكير في كتاب الإسلام